الحرب العالمية الأولى



Mngool.com

الحربُ العالميّة الأولى

عرضٌ مصوّر

أعدّه وحقّقه على أوثق المصادر

عمر الدّيراوي

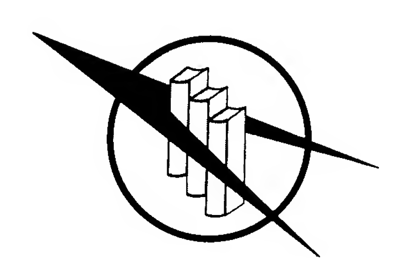
دار العلم للملايين

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



الطبعة الثامنة

كانون الثاني / يناير ١٩٩٠

مقدمة

ما أعمق الغور الذي نفذت اليه الحرب العالميـــة الاولى ولا تزال في ضمير الانسان الحديث. لقد أعادت تشكيل النسق السياسي الذي كانت عليه اوروبا وقسمٌ كبير من آسيا ، هو بلادنا العربية ، من قبل . ولا تزال ذكرياتها الأليمة تنتصب واقفة في كل قرية ومدينة من الدول التي جرى فيها القتال . من ضفاف نهر « المـــارن » الى كوت العمارة ، وسكة حديد « الحجاز » ، حتى بعد ان مضى على انصرامها نصف قرن . ان ابناء الجيل الماضي لا يزالون يتذكرون آلامها القاسية ومرارتها المفجعة، وجوع « سفر برلك» ومآسيه التي لم تتلاش من وعيهم بعد .

وكل حدث تاريخي أو فترة عصيبة يزوّد النـــاس بكتب جديدة ، وهذا ما دفعني لأن ابحث الحرب العالمية الاولى ، حيث وددت ان يقرأها الناس في صورَ ، وباستشراف تاريخي حيّ . لذلك عمدت الى غربلة ما وقع بين يديّ من مصادر وزوّدته بما تسنى لي من صور ، راجياً ان القي ظلاً ولو محدوداً ، على هذه الحرب الفاجعة .

لقد حاولت ان أشرح السبب الذي نشب من جرائه ذلك الصراع المرير ، وقصدت بخاصة ان اثبِّت في اذهان القراء الكرام ذلك التناقض الظاهري .. في أن الرجال الذين انغمسوا في الحرب كانوا مندفعين بحماس

الى اصطلاء نارها بالمشاركة فيها ، مع أنهم يكرهونها من اعماقهم .

كانت كل دولة تحارب في الظاهر للدفاع عن نفسها وحماية استقلالها، لكنها تطمح ايضاً ، وفي نفس الوقت ، الى مغانم يثيبها عليها نشاطها الحربي !

أما ساسة اوروبا و « الباب العالي » فقد طغت عليهم الحوادث واذهلهم عظمها . وحتى القادة العسكريون من « فون مولتكه » مرورا بـ « كتشنر » و « جوفر » حتى «جمال باشا» لم يتماسكوا بدورهم ، إذ أطار واقع الحرب صوابهم ، وأفشل ما كانوا يرسمونه لأنفسهم من مفاهيم ومضامين .. كانوا يعتقدون ان « الكم » من حيث السوق والتعبئة هو السر الذي يكمن في ثناياه النصر . وطبقوا ذلك على اوسع نطاق قدروه . غير انه سرعان ما تبين لهم ان « الهيدرا » * التي استثاروها طفقت تتعدى نطاق قدرتهم في السيطرة عليها وتوجيهها . وحينئذ صدق المثل : « وانقلب السحر على الساحر » .

وقتذاك تعثر الساسة والجنرالات عاجزين قبالة التنين الذي جهزوه . فبدوا اشبه ما يكونون الى بحارة في سفينة دفتها مخلوعة ولا لوحة للقيادة فيها ، وتتقاذفهم امواج عاصفة صاخبة ، فلا يدرون اي سبيل يسلكون . كان الفنار معدوماً والبحر هائجاً ، فمن هو « نوح » الجديد ؟

انه الجندي المجهول ، ذلك المخلوق الذي مزقته انياب الحرب ، فتلاشى في واقع الحياة ولم يخلف الا خطوطاً سوداء في لوائح الضحايا ، وأرقاماً تقل أو تكثر في خسائر الحرب . لكني احاول الآن بعثه من جديد، وعن طريق الصور هذه المرة .

لقد كانت الحرب على الدوام تدفع الى الاختراع . ولست بمعرض الدفاع عن ان عنصر الشر هو الذي يتغلب في المخترعات اثناءها .ولكني أقصر اشارتي فقط على القول : ان فن التصوير الفوتوغرافي جاء احد

* الحية ذات الرؤوس الكثيرة في الميثولوجيا الاغريقية .

المخترعات الخيّرة فيها . فقد تخطى هذا الفن دور الطفولة اثناء «حرب القرم » . ثم عقبت ، « حرب البوير » في جنوب افريقيا ، فتم تأريخها حية بفضل «الكاميرا». وكلتا الحربين طواهما سجل التاريخ منذ زمن ولم تخلّفا اثراً يذكر . اما الحرب العالمية الاولى فما زالت حديثة العهد نوعاً ، كما ان آثارها لا زالت قائمة حتى الآن * . وفي ايامها كانت « الكاميرا » قدَ ترعرعت وصلب عودها ، فغدت قادرة على تصوير دقائق حياة كل رجل تقريباً . انها تعرض صور الساسة والجنرالات في كل مكان ، في العرض العسكري ، وفي الحياة المدنية . كما تبيّن آلات الدمار التي استعملها قادة الجيوش بعد ان زوّدهم بها ساسة بلدانهم . والعدسة تنتقل من موقع الى موقع : من خنادق الجبهة الأمامية حيث المدافع تجرها البغال ، الى ورشات مصانع الذخيرة حيث ينصبّ عرق العمّال المخدوعين في المحافظة على شرف ملك حقير او قيصر طاغية او سلطان مأفون . ومن الأرياف المخرّبة في « الصرب » والضيع المهجورة في «بلجيكا» ، الى صفوف المواطنين أمام مراكز توزيع المؤن بالبطاقة في « باريس » ، وصرعى الجوع في « غزة » والأم التي أكلت لحم بنتها في « جونيه » .

هنا تبدو الطاقات البشرية التي أهدرت ، والرجال الذين قاتلوا ، وقاسوا مصائب الحرب ، وتشظى الرصاص في أجسادهم ، ثم ماتوا وهيل عليهم التراب او غُرزت على بقايا عظامهم النصب ، حين لم يعثر رفاقهم على جثث يدفنونها . ان العدسة رفيقة هؤلاء ، تفضح خفايا أوضاعهم الفظيعة ، وتروي معاني النكبة والأسى في ملامح وجوههم وهم يُحتضرون . انها خرساء ، لكنها تنطق بحشرجات نفوسهم قبل ان يلفظوا

---

* وما انشاء شطرنج من الملكيات والجمهوريات العربية عقب الحرب ، ثم قضية فلسطين وما خلفته من نكبات الا من الآثار غير الحميدة لتلك الحرب .

أنفاسهم الأخيرة وسط الوحل في الخنادق. فشكراً « للكاميرا ومن احسن الافادة منها » .

بفضلها يمكننا ان نعيش الحرب العالمية الأولى من جديد ، لا ان نقرأ عنها فحسب . ذلك ان الصورة تترجم الى كل لغة وتنطق دون حروف .

والواقع انني استعنت أول الأمر بعدد وافر من الصور ، بيد اني رأيت الأفضل ان اقوم بعملية الانتقاء ، وما أعسرها من عملية !

كان هناك بعض الصور التي نشرت من قبل مرات ، ولكنها مع ذلك تفرض نفسها ، فآثرت ضمها الى هذه المجموعة . وكان هناك صور لم تنشر الا مرة واحدة او اثنتين فاضطررت الى ايراد أوفاها معنى وأشملها هدفاً .

ولم أحاول ان اجعل الكتاب « تأريخاً » للحرب ، بقدر ما كان همي ان أعرضها عرضاً . ولهذا ، تجاوزت الخوض في اسباب تلك الحرب ونتائجها . ولم اعمد الى التفصيل في شرح المواقع الحربية بل اقتصرت على ايضاح الخطط العامة التي تبنّاها القادة العسكريون فيها . ذلك أن « نفسية » الحرب ، إذا جاز التعبير ، هي التي أهدف الى تصويرها من هذا العرض . اما « دراسة الحرب » فان لها كليات عسكرية ومؤلفات معينة يستطيع ان يرجع اليها من يهمه الأمر .

ولقد حاولت ان اجد في الحرب عبرة .. آملاً ان يتعظ بها الجيل الجديد بعد ان اكتوى الجيل السابق بنار حربين عالميتين ، ليست «جريمة ناجازاكي » الا شاهداً على « وحشية » الثانية منهما .

ان الحرب لعنة ، وأشد منها نكراً ان ندعو لها .. اما السلام فنعمة وبركة ، فما أنبل الداعين اليه، والسائرين على درب « يسوع » !!

ع . د .

الفَصلُ الأول

١٩١٤



في الثامن والعشرين من حزيران سنة ١٩٠٠ تزوج الارشيدوق فرانز فردينانـــد « Archduke Franz Ferdinand » من الكونتيسة صوفي شوتيك « Countess Sophie Chotek » ، وكانت حفلة الزواج كئيبة يغمرها الغمّ والكدر . كان العريس ولي عهد امبراطورية آل هابسبورغ — يأتي ترتيبه الثاني لارتقاء العرش ، فيكون امبراطور النمسا ، وملك هنغاريا ، وصاحب القاب كثيرة اخرى . اما عروسه صوفي فكانت مجرد كونتيسة ، لا تحوز من مراتب الشرف ما يجعلها أهلاً للاقتران بسليل أسرة هابسبورغ الرفيعة . إلا أن فردينـــاند (الرجل) كان قد وقع في غرام صوفي (المرأة) ، وهو مصمّم على الزواج منها باصقاً على شرف اسرته المزيف . فاضطر في سبيل ذلك الى التخلّي عن كافة الحقوق الامبراطورية التي يتمتع بها ابناؤه فيما لو تزوج زواجاً تسمح به تقاليد الأسرة . كذلك لم تغدُ صوفي ارشيدوقة ذات سمو امبراطوري .. مما جعل الكثير من أفراد الأسر المالكة في أوروبا يتطيّرون من هذا الزواج ، ويرون فيه نذير شؤم على أسرة هابسبورغ نفسها .

ولم يطرق خـَلد أي من هؤلاء المتشائمين ان فرانز فرديناند كان يحدّد يوم وفـــاته حين عيّن تاريخ زواجه ذاته . كان هذا مغيّباً في بطن التاريخ ، وأنى للناس أن يقدّروا ما تنطوي عليه الغيوب ! وأبعدُ من ذلك عن كل تنبؤ وتقدير ان أحداً لم يتكهن بهلاك بضعة ملايين



فرانز فردیناند مع اسرته

من البشر تُزهق أرواحهم من جراء اغتيال ارشيدوق عاثر الحظ .

ان يوم الزواج هذا هو الذي اشعل كبسولة الحرب العالمية الأولى .

كان فرانز فرديناند رجلاً قاسياً عنيداً يتصف بالوحشية شأن الكثير من افراد الاسر المالكة ، فهو لا يطيق أن يعارضه أحد ، وغير مهيأ للحياة في عصر ديمقراطي السمة . كان ملكياً شرقياً يظن ان « حق الملك الالهي » السخيف هو الذي لا يزال بيضة القبان . وكان له حسنة واحدة : لقد أحب زوجه وأخلص لها .

ولشدّ ما كان يضايقه ويسبب له الحنق والانزعاج ان يراها محرومة من مشاركته امتيازات منصبه ، حتى انها لا يحق لها ان تجلس الى جانبه في أية حفلة رسمية أو مناسبة عامة . فماذا يفعل ؟ كان هناك مهرب واحد للزوج المحب من هذه القيود . وهو منفذ يستطيع فيه الارشيدوق ان يتمتع بمجده كما تشاركه صوفي في ذلك المجد . انه اللقب العسكري ، وامتيازات ذلك اللقب . فالارشيدوق يحمل رتبة « فيلد مارشال » ، كما انه « المفتش العام » للجيش النمساوي – الهنغاري المشترك . ولزوجته أن تتمتع بما يمنحها اياه هذا المركز من حقوق ، حين يكون قرينها متقلداً بصفته العسكرية .

على هذا الأساس قرر الارشيدوق ان يقوم بجولة تفتيشية على الجيش في البوسنة Bosnia ، سنة ١٩١٤ . ففي عاصمة تلك المقاطعة ، سراجيفو ، يستطيع « المفتش العام » ان يركب عربة مكشوفة وقرينته الى جانبه – وفي الثامن والعشرين من حزيران . أي عيد زواجها بالتحديد . وهكذا .. بدافع من الحب المغرور ، سار الارشيدوق الى منيته !

كانت مقاطعة البوسنة وشقيقتها مقاطعة هيرسوجوفينا Hercegovina أحدث الممتلكات التي استحوذ عليها آل هابسبورغ ، نتيجة لضعف الاستعمار التركي . اذ ظلتا طوال عهد الاتراك مسرحاً للانتفاضات القومية المتكررة والثورات التي ما تلبث ان تخمد حتى تشب من جديد . اما

في سنة ١٨٧٨ فقد خضعتا لإشراف جيش النمسا – المجر ، ثم تمّ ضمّهما الى آل هابسبورغ سنة ١٩٠٨ . ولما كان سكان هاتين المقاطعتين من السلاف الجنوبيين ، والصرب ، والكرواتيين – لم يرق للكثير منهم ، والشبان على وجه الخصوص ، ان يتم إلحاقهم بحوزة النمسا عوضاً عن السماح لهم بالانضمام الى صربيا ، دولتهم القومية . لقد شعروا ان امبراطور النمسا ملكاً دعيّاً فيهم ، وما أسهل على مثله ان يهمل بلده بل يخون !

وكان الشباب الوطنيون من هؤلاء يأتمرون فيما بينهم ، بل ويقومون بمحاولات (فاشلة) لاغتيال الضباط النمساويين وكبار افراد آل هابسبورغ على وجه الخصوص . وحين أذيع نبأ زيارة الارشيدوق المقبلة للمنطقة ، اجتمع نفر من تلامذة المدارس الثانوية وقرروا ان يطلقوا عليه الرصاص . وقد لقوا تشجيعاً على ذلك من جمعية صربيّة كانت تعمل في الخفاء ، كما زوّدتهم الجمعية ببعض الأسلحة الخفيفة لهذا الغرض .

كان رئيس تلك الجمعية رجلاً غامضاً اسمه آبيس Apis . وكان قد فكر طويلاً في تحرير قوميته ووجد ان العنف هو السبيل الوحيد فتبناه . لذا نراه أعدّ مؤامرات مختلفة من قبل ، لكنها فشلت جميعاً . اما هذه المرة فقد حالفه النجاح ، وتم تنفيذ خطته كما شاء . لقد نجح آخر الأمر !

ففي ٢٨ حزيران سار موكب الارشيدوق وزوجته عبر الشارع الرئيسي في سراجيفو .

ونفذ الطلاب الوطنيون خطتهم . أما واحد منهم فقد خانته الشجاعة فعجز عن ان يسحب مسدسه من جيبه ، وأما الثاني فقد أشفق على زوجة الارشيدوق ووبخه ضميره ، فامتنع عن ان يكون السبب في موتها ، وأما الثالث فقد طوّح برُمانة يدوية على العربة المكشوفة التي تُقلّ الارشيدوق وزوجته – لكن ذراعه لم تتوتر آنذاك ، فقصّرت القنبلة عن اصابة الهدف .

ومع ان المحاولة قد فشلت ، الا انها تعبير عن كراهية الصربيين لرجل من اسرة مالكة تحكم الصرب وما هي منهم. بل انها اسرة مالكة قد وفدت على البلاد ، فصار مشروعاً في اعين الناس ان يتّم التخلّص من كل فرد منها .

ولم يتأثر الارشيدوق بتلك المحاولة الذي اعتبرها صبيانية ، بل تابع طريقه الى قاعة الاستقبال المخصصة له في قلب المدينة . لكن زوجته رُوّعت من ذلك . لقد فسدت زينتها !!

واعتبر الارشيدوق القاء القنبلة إهانة كبيرة لشخصه ، فقرر ان يغادر المدينة . لكنه لم يبلّغ سائق عربته ، فسار هذا في منعطف غير مقصود حيث أوقف العربة ، وعاد بها الى الخلف . وفي ذلك المنعطف أبصر جفريلو برنسيب Gavrilo Princip ، وهو أحد التلامذة ، العربة الرسمية



الشرطة والاهالي يلقون القبض على « جفريلو برنسيب » قاتل الارشيدوق في سراجيفو

أمامه ، فاستثاره ذلك ولم يتمالك قواه العقليـــة ، فقفز اليها ، وصرع الارشيدوق بطلقة واحدة . ثم صوّب رصاصة اخرى مهدّداً المرافق الذي كان يجلس في المقعد الأمامي ، كما جرح زوجة الارشيدوق في المقعد الخلفي من العربة برصاصة اخرى . وقد ماتت الكونتيسة في الحـــال من اثر ذلك .

على هذه الصورة تم الاغتيال في سراجيفو .

كانت تلك الفعلة في نظر امبراطورية النمسا أكثر من جريمة . كانت تحدّياً لمركز الامبراطورية كصاحبة السيادة في مقاطعة بوسنة ، بل تحدياً صارخاً لمركز الامبراطورية كدولة عظمى — ذلك المركز الذي كان قد اخذ يتدهور في بضع السنوات الأخيرة . وكان ساستها ملزمين بأن يطلبوا تفسيراً مقنعاً للحادث . اما في نظر الوطنيين في الصرب ، فهو مفخرة عظيمة : أما تم التخلص من الاسرة المالكة الممقوتة ! او ليس هذا تعبيراً عن قرب التخلص من سيد تلك الاسرة نفسها ، ثم من سيطرتها ايضاً ! !

فلماذا تحول ذلك الى حرب عالمية لاهبة ؟ هل كان هناك دولة تترقب عذراً كي تشعل نيران حرب ما ، وقد واتتها الفرصة في تلك السنة ؟ أم أن تلك الدولة (والمانيا هي المعنية هنا) كانت قد قررت مسبقاً تسعير حرب واسعة في حزيران سنة ١٩١٤ ؟

هناك بعض المؤرخين يجزمون بذلك ، ويرتأون ان قناة كييل Kiel ، الواقعة في شمال ألمانيا ، كان قد تم توسيعها حديثاً . وانه تمّ لهذا الغرض بالذات . كما يؤيدون رأيهم في أن الجيش الألماني في ذلك الحين كان في أوج عظمته ، فهو لا يطيق السماح بأن تلحق به جيوش بقيـــة الدول الأوروبية خلال بضع سنين ، وبخاصة جيشا روسيا وفرنسا . انه يريد أن يضرب ضربته قبل ان يفيق منافسوه من غفلتهم .

هذا من حيث وجهة النظر العسكرية . اما من وجهة نظر الواقع ، فهو ان فرنسا وبريطانيا (وروسيا القيصرية) كانتا قد استحوذتا على

رقاع واسعة من الارض جعلتاها خاضعة لاستعمارهما ، والصناعيون والرأسماليون الالمان يرون ان لهم الحق في نهش بعض الفرائس ايضاً . وساعدتهم دكتاتورية قيصرهم في ذلك .. فهبوا يحاولون تحقيق آمالهم في نهب الشعوب الاخرى ، شأن جيرانهم الى الغرب منهم .

وهناك مؤرخون آخرون يرون ان حد الاحتمال للتناقضات الملازمة بين



غليوم الثاني

الدول الأوروبية كان قد انهار ، اذ ازداد التوتر بين تلك القوى ،فبلغ حداً كان سينفجر في نفس ذلك العام (١٩١٤) بطريقة او اخرى . وهم

يرون ان اندلاع الحرب العالمية الأولى كان نتيجة محتومة ، وان لم تكن متوقعة آنذاك ، لانفجار ذلك التوتر .

ومن الطبيعي ان يكون هنالك توتر حين تواجه خمس دول الواحدة منها الأخرى على الدوام ، والجميع منها يود صيانة سيادته القومية ويرنو الى التوسع على حساب الآخرين ، او ما يعتبرونه حسابهم . لكن الواقع أن هذا التوتر كان في تلك الفترة أخف حدة مما كان عليه قبلها . فبريطانيا والمانيا كانتا في فترة وئام ، اذ تم إخفات حدة المنافسة في قوة الأسطول البحرية بينهما عقب الاتفاق الذي عقدتاه بصدد خط حديد بغداد ، وفيما يتعلق باقتسام المستعمرات البرتغالية في المستقبل .

وحتى فرنسا — المقهورة الذليلة سنة ١٨٧٠ — كانت تسير نحو نسيان الماضي والتصادق مع المانيا . ففي نيسان من عام ١٩١٤ جرت انتخابات عامة في فرنسا ، اعادت اكثرية مسالمة تتألف من الراديكاليين والاشتراكيين الى مقاعد النواب في مجلس الأمة .

ومقابل ذلك كان رجال الصناعة الالمان على اشد الاقتناع ، وبحق ، من ان المانيا ستغدو أقوى دولة في اوروبا عن طريق الازدهار الاقتصادي وحده ، عما قريب . فهي في غير حاجة الى أية حرب لبلوغ ذلك المستوى . وبذلك نسوا او تناسوا في الظاهر ان التناقضات بين مطامح الدول الاستعمارية (ودولتهم منها) لا تتحمل فترة سلام طويلة . وان الحرب هي السبيل الوحيد الذي تؤدي اليه تلك التناقضات عندما تحتدم .

أضف الى ما سبق ان الكثير من المواطنين الانكليز والفرنسيين كانوا لا يزالون ينظرون بالريبة الى روسيا والهلع من قوتها العددية ومطامح قياصرتها ، اكثر مما يخشون المانيا ونياتها التوسعية . وكان الكثير من المفكرين المسموعي الكلمة يتكهنون بقيام اتحاد اوروبي غربي يجمع فرنسا الى المانيا الى بريطانيا للوقوف امام العملاق الروسي المتوثب .

الا ان نظرة عميقة وجدية الى الموضوع كانت كفيلة باثبات خيالية تلك

الآمال . فبريطانيا لن تقبل الانغماس في مجرى تيـار الاحداث السياسية في اوروبا ما لم تكن مصالحها مضمونة في مستعمراتها ضد مطامح القوى الاوروبية ذاتها . والمانيا وفرنسا لن تسمحا لبريطانيا بالاحتفاظ بجميـع تلك المستعمرات الشاسعة ، بينما الاولى منهما تبغي لها حصة في الاستعمار .

وايا كانت الحال فقد كانت الريح تهب لصالح المانيا ، كل شيء يسير في الطريق التي تشتهيها ، فما الداعي لألمانيا هذه ان تفسد ريحها وتمزق القلوع بالحرب ؟

ان الناس لا يستسيغون تقبل بعض الحقائق . هذه طبيعتهـم . ومن هذه الحقائق : ان الأحداث الضخمة تبدأ شرارة صغيرة لا يأبه بهـا أحد . وكذلك تراهم ينفرون من ربط حدث جسيم بسبب تافه، فيأخذون يفتشون عن سبب كبير يليق بمقام جسامة الحدث . وهذا ما وقع في حال الحرب العالمية الاولى . اذ سرعان ما اقنعوا انفسهم بعد نشوبها بأن هنالك، لا ريب ، اسباباً خطيرة أدت الى هذه الفاجعة . ولكنهم حين تفحصوا القضية حقاً لم يعثروا على تلك الأسباب ، فتمحلوا لهـا اسباباً حسب أهوائهم .

اما الواقع التاريخي الذي ظل يجبههم على الدوام ، فهو انه لم يكن هنالك أحد يريد الحرب عن عزم وتصميم . كانت المانيا وفرنسا وروسيا وبريطانيا والنمسا جميعاً عازفة عن استثارة غول ، قد تعجز عن التخلص منه بعد ايقاظه . وكان هذا ما قدّره ساسة تلك الدول . غير ان حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر . لقد اخطأ الساسة الكبار ، وجاء خطأهم كبيراً مثلهم ايضاً .

كانوا قد حذقوا استعمال الخداع والمناورات في فض مشاكلهم ، بل انهم ربما لجأوا الى التهديد بالقوة المسلحة احياناً ، ولكن دون عزم على تنفيذ ذلك التهديد . وكان ذلك كافياً لحل كل مشكلة يقع عليها الخلاف. أما في هذه المرة فقد اخطأوا التقدير حقاً ، وسارت الريح بما لا يشتهي



الامبراطور فرانسوا جوزيف امبراطور النمسا والمجر

القباطنة ، اذ اندلعت الحرب فعلاً . لقد تعطّل الكابح الذي اعتادوا استعماله ، فوقعوا هم أنفسهم سجناء سلاحهم السياسي ذاته .

وكانت حشود الجيوش هي التي قادت الناس الى الاقتتال بحكم عظم تأثيرها على شؤون السياسة في دولها .

* *

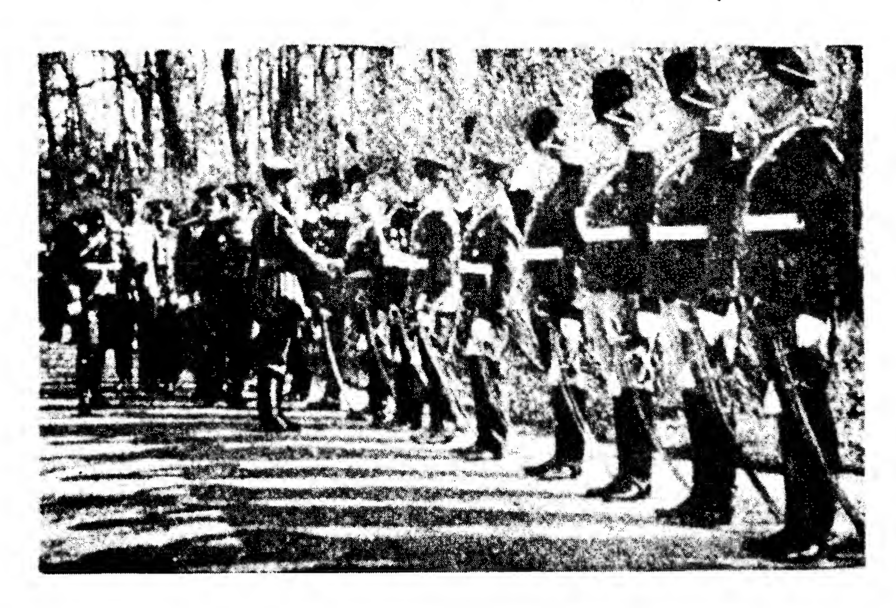
كان حكام امبراطورية النمسا والمجر قد لاقوا متاعب كثيرة في صربيا من قبل . فقرروا هذه المرة ان لا يتقلص نفوذهم عنها او يرهبوها . والتفتوا نحو حليفتهم المانيا ينشدون موافقتها على خطتهم هذه، فوافاهم القبول بها وتحبيذها في الخامس من تموز حين طمأنهم امبراطور المانيا وليم الثاني ، ومستشاره بتمان Bethmann ، الى ان بلاده ستسندهم اذا حاولت روسيا تأييد جانب الصرب. كما نصحهم بأن يتخذوا موقفاً صلباً للغاية تجاه صربيا . لكن هذا ما كان يعني القرار بالحرب . فقد سبق ان كفى مجرد التهديد لاعادة النفوذ والتوصل الى نجاح سلمي في مثل هذه الظروف من قبل ، وكان الالمان يعتقدون انه سيكفي هذه المرة ايضاً . انهم لم يأخذوا المسألة بعين الجد ابداً . فها هو القيصر الالماني يذهب في رحلة بحرية للنزهة في مياه النرويج . وحتى مولتكه Moltke ، رئيس هيئة اركان الحرب الالمانية ، لم يشعره احد بضرورة قطع إجازته التي صادفت آنذاك!ان أحداً لم يخطر بباله ان تكون الحرب في المنعطف التالي من الطريق.. ومع هذا فقد قرعت البابَ ،بل دكته دكاً

اذلال صربيا

وقد تراخى النمساويون اول امرهم ، شأنهم في ذلك شأن كل عمل يأتونه ثم يفطنون الى خطأهم بعد فوات الأوان . وتمهلوا ريثما يتأكدون من وجود علاقة وثيقة بين اغتيال الارشيدوق وبين تشجيع حكومة صربيا على ذلك ، او مساندته ، او تدبير مؤامرة الاغتيال ذاتها . لكنهم لم يجدوا ما يشير الى ذلك . ولم يجد غيرهم شيئاً من هذا القبيل فيما بعد.



٢٩ تموز (يوليو) ١٩١٤ في فيينا
الامبراطور في طريقه الى ضاحية فيينا للاجتماع بأركان القيادة هناك



٣٠ تموز (يوليو) ١٩١٤ في بطرسبرج
القيصر يستعرض ضباط حامية المدينة قبل اجتماعه بأركان القيادة

الا أنهم ، مهما كان الحال ، وجهوا في ٢٣ تموز انذاراً الى صربيا بنيّة إذلالها .

قبول الانذار

وبعد يومين من تلقيه (٢٥ تموز) قبلت الحكومة الصربية ذلك الانذار بعد تحفظات كافية من طرفها . وهكذا حفظت لامبراطورية النمسا والمجر شيئاً من الكرامة واعترفت بنفوذ آل هابسبورغ في بلادها . الا ان هذا لم يرض حكام الامبراطورية . فانقطعت العلاقات الدبلوماسية بين الحكومتين في الحال .. ثم عقبها اعلان الحرب في اليوم التالي .

ولم تكن هذه حرباً فعلية في الواقع ، بل كانت اقرب ما تكون الى مناورة دبلوماسية على درجة بالغة من الصرامة . ولم يكن النمساويون قادرين على مباشرة الحرب الفعلية الا بعد اسابيع طويلة من التأهب والاستعداد .

موقف روسيا

وأزف دور روسيا الآن .

كانت هذه راعية الدول السلافية في البلقان وحاميتها ، كما تزعم . وهي لا تسمح بإذلال صربيا بحال من الأحوال . هذا علاوة على اعتبار آخر ذي قدر اعظم من الناحية العملية ، وهو تهديد منافذ روسيا نفسها الى البحر المتوسط فيما اذا سيطرت المانيا والنمسا على البلقان . حيث تصبح مضايق البحر الاسود في تلك الحال خاضعة لتحكمهما .. وهذا اشد ما تخشاه روسيا ، لأن معظم تجارتها مع العالم الخارجي يسلك تلك الطريق . إذن فحتّى في حال روسيا ، كان دخولها الحرب ينطلق من دافع ضمان سلامتها وبقائها ، لا بفعل شهوة الاستحواذ وانسياقاً وراء المطامع المأمولة

المقابلة بالمثل لا الحرب

كان الروس يودون الإجابة على اجراء النمساء باجراء مقابل ، ومن

قبيل رد التحدي لا اكثر . لم يكونوا يتوقعون ان يفلت السهم من قوسه، فينقلب ما قصدوه مظاهرة عسكرية الى منطلق حرب تلفح الملايين .

السكك الحديدية

وفي هذا الحين تدخّل في الأمر عامل على قدر كبير من الأهمية من الناحية الاستراتيجية . إذ كانت جميع الدول الاوروبية قد انشأت جيوشاً ضخمة من المجندين الاجباريين فيها . وكانت الخطط المرسومة لسوق هؤلاء المجندين وتعبئة الملايين منهم تستند الى الخطوط الحديدية * في بلدانهم . لكن لوائح السكك الحديدية ومواقيت قطرها لا يمكن ان ترتجل او تعدل حسب الطلب . فحين يتم تحميل الشاحنة الحديدية لا بد من



رجال القبضة الحديدية ، قيصر المانيا وليم الثاني (غليوم) مع جنرالات حربه

* ينطبق ذلك على نشاط الدول الغربية في بناء الطرق المعبدة والسكك احياناً والمطارات في منطقة الشرق الادنى والاوسط في الوقت الحاضر .

ان تظل عجلاتها تدور حتى تنتهي الى هدفها المحدد . واذا كان يمكن ان تحث الخيل وهي تخوض نهراً يعترضها في الطريق ، فان ذلك متعذر في حال العربات الحديدية . وانطلاقاً من هذه الحقيقة كان النمساويون قد اكتشفوا انه اذا كان بمقدورهم التعبئة ضد صربيا فإنه يتعذر عليهم آنذاك ان يقوموا بالتعبئة ضد روسيا . ولهذا حددوا لعمليتهم وقتاً معيناً .

ضرورات الاستراتيجية في روسيا

ومثل هذا واجهت روسيا . فقد اكتشف قادتها ان بلادهم عاجزة عن التعبئة ضد الامبراطورية النمساوية والمانيا معاً . وتحققوا من ان التعبئة ضد النمسا معناها إبقاء حدود بلادهم الغربية – غير محمية في في وجه الجيوش الالمانية الجرارة . اذن ، كانت التعبئة العامة لا بقصد الحرب – وانما بقصد المحافظة على مركزهم في الصراع السياسي – هي السبيل الوحيد امامهم . وفي يوم ٣٠ تموز قرروا سلوك هذا السبيل . انهم لم يكونوا يريدون الحرب ، وحتى ، لم يخططوا على اساسها . وكل ما كانوا يهدفون اليه من اعلان التعبئة هو إظهار انهم قادرون على التهديد بالحرب ما دام النمساويون قد فعلوا ذلك . وهكذا كانت الخدعة من طرف واحد تتكوم فوق الخدعة من الطرف الآخر .

خطة الهجوم هي الرابحة

وهنا ايضاً تدخل العامل الاستراتيجي المهم ، وأدى الى نتيجة فاجعة وحاسمة . فقد كانت جميع القيادات العسكرية في اوروبا تعتقد ان اتخاذ خطة الهجوم هو الوسيلة الفعالة الوحيدة في الحرب الحديثة ، ولذا فان الهجوم اساسي حتى في خطة الدفاع نفسها . وكانت جميعها مخطئة في ذلك تماماً . فقد كان عليها ان تعي الدرس الذي بينته حركات الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤–١٩٠٥ ، وحرب البلقان سنة ١٩١٢–١٩١٣ ،

وحتّى الحرب الاهلية الأمريكية قبل ذلك التاريخ بنصف قرن ، والذي كان مجمله أن جانب الدفاع هو الذي اخذ يتقــوى على حساب نظرية الهجوم في الحروب الثلاث . الا ان أياً من المسؤولين في تلك القيادات لم يفطن الى ذلك .

المانيا ضد جبهتين منذ سنة١٨٩٢

كان كل رئيس هيئة اركان حرب منهم يمتلك جيشاً بنـــاه على اساس الهجوم . الا واحداً من هؤلاء . لم تصدق القيادة العامة الألمانية ان بمقدورها الحصول على نصر حاسم فيما لو حاربت بكل قواهـــا على جبهتين : ضد فرنسا وروسيا في الوقت ذاته . ولهذا نرى تلك القيادة قد رسمت خططها منذ سنة ١٨٩٢ ، على اساس ان تركّز ثقلهـــا ضد فرنسا فتصرعها اولاً ثم تنقلب الى روسيا بعد ذلك ، وبخاصة ان روسيا تحتاج وقتاً اطول قبل ان تدور العجلة البطيئة للتعبئة فيها .

هل التعبئة تعني الحرب ؟

وكثيراً ما قيل في سنة ١٩١٤ ان « التعبئة تعني الحرب » كما انه كثيراً ما كرر رجال الحرب هذا القول فيما بعد . لكنه كان غير صحيح البتة فيما يتعلق بالحرب العالمية الاولى . فقد كان بوسع جميـــع الدول الاوروبية ، الا واحدة منها : ان تعبىء جيوشها بينا يظل الساسة فيها قادرين على حل مشاكلهـــم عن طريق التفاوض والدبلوماسية ، مبقين جيوش دولهم المعبأة داخل الحدود القومية لبلادهم . اما المانيا فقد أدغمت التعبئة بالحرب ، فكان الأمر بالتعبئة العامة عند قادتها انما يعني تحرك الجيوش الى ساحة القتال .

ميت يفرض القتال !

وبهذا المعنى يكون شليفن Schlieffen الذي احتل المنصب الاعلى في



القيصر نيقولا الثاني

القيادة الالمانية ما بين ١٨٩٢ و١٩٠٦ هو صانع حرب ١٩١٤ ، على الرغم من تسوّس عظامه في لحده قبل ذلك بزمن طويل . ان « التعبئة تعني الحرب » هي فكرته هو . وان يـــده هي التي امتدت من لحده فضغطت الزناد سنة ١٩١٤ .

الوطن في خطر !

على هذا الأساس كان اعلان روسيا التعبئة العـــامة في اراضيها هو الذي قلب برنامج المانيا : فإن لم يفعل الالمان شيئاً ، فقدوا ميزة التفوق المتوفرة في جيشهم على خصومه ، وكان عليهم حينذاك ان يضطروا الى القتال على جبهتين لا واحدة . وهذا ما كانوا يخشونه ولا يؤمّنون ضمان انتصارهم إن وقع . لقد كان لهم إذنْ ، ان يختاروا بين أمرين : إما ايقاف التعبئة في روسيا على الفور ، او مباشرة الحرب على الفور ايضاً . وقد وجه المستشار الالماني بتمان الى الجنرال مولتكه في الحادي والثلاثين من تموز سؤالاً خطيراً .. لقد قال : « هل الوطن في خطر ؟ » فأجابه مولتكه : « نعم » . وكانت تلك اللحظة هي الحاسمة في اتخاذ القرار !! فأرسلت المانيا الى روسيا انذاراً نهائياً بوجوب الاقلاع عن تعبئة جيوشها خلال ١٢ ساعة . ورفض الروس الانذار . فأعلنت المانيا الحرب عليهم . وبعد ذلك بيومين اثنين ، وانطلاقاً من خطط مسبقة ، اعلنت المانيا الحرب على فرنسا .

ووقعت الحرب !

هكذا نشبت الحرب العالمية الاولى ، فرضتها على ساسة أوروبا لوائح سكة الحديد ! وكان ذلك ذروة يبلغها عصر السكك الحديدية ، ودون ان ينتظر بلوغها أحد .



استعراض بعض الفرق الروسية في بتروغراد صبيحة رفض الانذار الالماني

ولم يكن شليفن من قبره قد قرر ان الحرب يجب ان تكسَب في الغرب ، فحسب ، بل انه رسم الكيفية التي يتم بها ذلك الكسب ايضاً . وكان جماع خطته يقوم على انه : ما دام الحد الفاصل بين المانيا وفرنسا قصير المدى ، وقد أحكم تحصينه في كلٍ من الطرفين ، فان النصر في محاولة اقتحام ذلك الخط ، غير مضمون . وحتى لو أمكن ضمانه ، فإنه لن يتأتى في وقت قصير . اذن فمن الأصوب عدم توجيه القوة الألمانية الضاربة الى هذه المنطقة . أما الى الشمال من ذلك الحد ، فتقوم مملكة بلجيكا ، وتشكل اراضيها قمعاً يمكن ان تنصبّ عبره الجيوش الألمانية ، ثم تلتف من وراء الجيوش الفرنسية ، فتحيط بها وتغرقها بالنار ، اذ يكون الفرنسيون آنذاك بين طرفي كماشة قاسية .

عبرة التاريخ

ولقد أطلق شليفن على هذه الخطة اسم « كنّي » ، وحفظتها ارشيفات غرفة القيادة الألمانية ، السرية ، بهذا الاسم .

ويبدو ان شليفن الداهية لم يذكر من التاريخ القديم ان « هنيبعل »

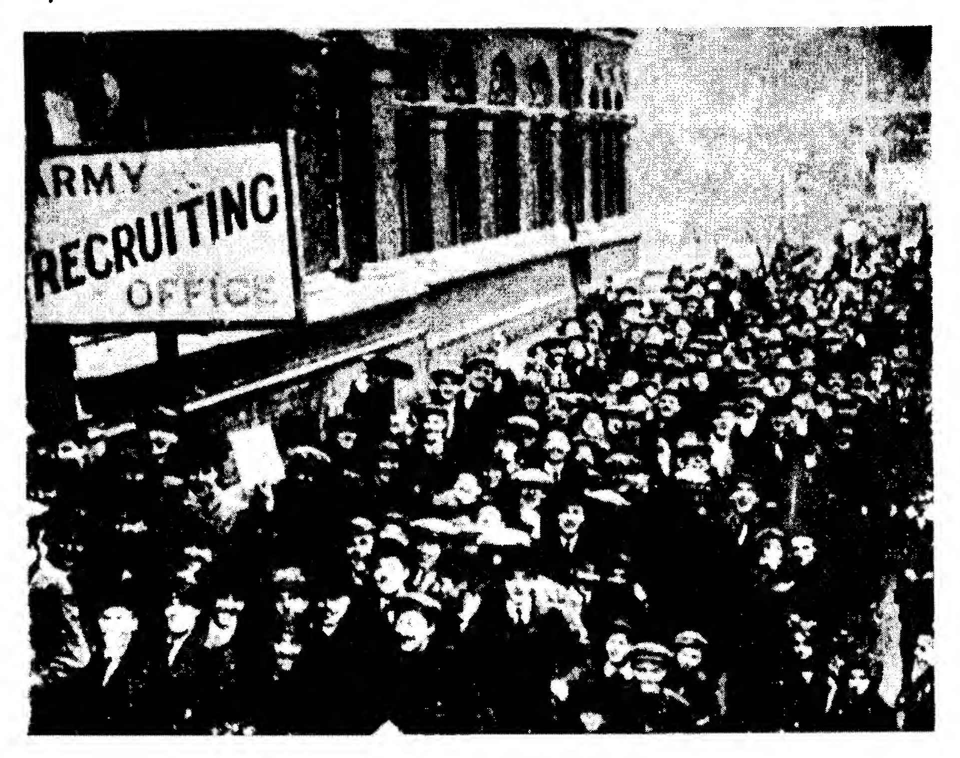


ملصق بريطاني يدعو الشعب الى الانضمام الى الجيش ،
ويسأل الله ان ينقذ الملك !

بطل « كني » ضد الرومان ، كان هو الخاسر آخر الأمر . نعم ، ان عملاق قرطاجة قد سحق الكتائب الرومانية في تلك المعركة .. ولكن روما قهرته فيما بعد . وهذا ما تم في حال خطة شليفن .

دعونا نحتل بلادكم !

لم يكن لدى القيادة الألمانية غير ما رسم شليفن . ولهذا سارعت ألمانيا الى تنفيذه . فطلبت الحكومة الألمانية من الحكومة البلجيكية ان تسمح لجيوشها بعبور البلاد . وكان طبيعياً ان ترفض بلجيكا هذا الطلب . فاكتسحها الالمان .. وهنا تحركت بريطانيا خشية ازدياد نفوذ المانيا في اوروبا ، ومن ثم منافستها على استعمار آسيا وافريقيا بحجة اعادة تقسيم



إنهم فرحون امام مكاتب التجنيد.. لقد ظنوا الحرب نزهة. فهل صدق ظن هؤلاء البريطانيين ! !

المستعمرات .. لكن الحكومة البريطانية قامت بدعاية محلية واسعة زاعمة ان حرصها على حياد بلجيكا هو ما يدفعها الى الدخول في الحرب .

والحق ان البريطانيين كانوا لا يودون التورط في ما سموه « بلقان جديدة » ، بل انهم كانوا كارهين حتى لفكرة مساعدة فرنسا ضد عدوها العنيف ، لكنهم (واعني الشعب) حين اعتدى الالمان على بلجيكا ، وجدوا ان من الخير ابعاد الشر عن جزيرتهم ذاتها ، فاجتمعت كلمة النواب في البرلمان على ضرورة اعلان الحرب مباشرة على المانيا . وهكذا دخلت بريطانيا الحرب بوحدة وطنية قلّ ان توفر لها مثلها من قبل .

امبراطورية نخرة

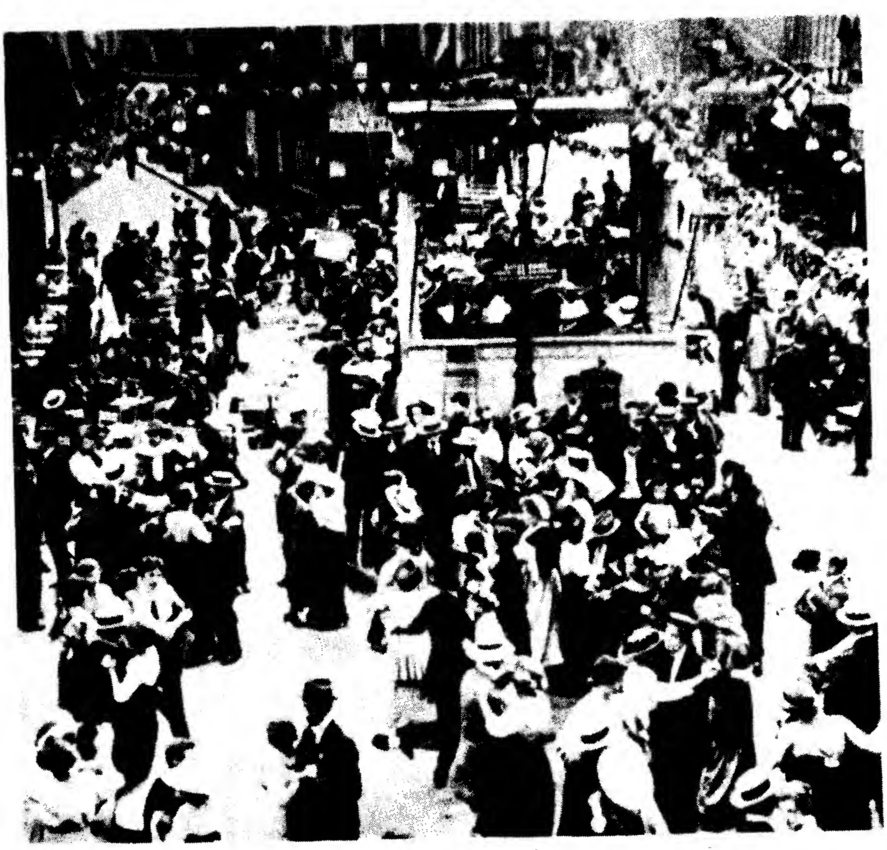
كانت امبراطورية النمسا والمجر أبطأ من غيرها كثيراً في السير نحو الحرب . فمع انهـا هي التي أثارت الزوبعة ، الا انها كانت آخر من ينغمس فيها . فبعد ضغط وإلحاح من المانيا فقط اعلنت الحرب على روسيا في ٦ آب . واجتاحت جيوشها الدانوب لغزو صربيا في ١١ منه ، حيث رافقها الحظ التاعس ؛ اذ لم يمضِ اكثر من شهرين على ذلك الغزو حتى طرد الصربيون جيوش الامبراطورية خارج بلادهم . بل انهم غزوا جنوب المجر ايضاً . وحتى بريطانيا وفرنسا ، تلكأتا في اعلان الحرب على الامبراطورية ، فلم تفعلا ذلك قبل ١٠ آب .

قرار تركيا

وكان هناك قرار سري قد اتخذ آنذاك . ففي ٣ آب كانت الدولة العثمانية قد عقدت حلفاً مع المانيا ، مع ان الاتراك كانوا يترددون في تنفيذ ذلك الارتباط .

هستيريا الحرب

كان المجندون يسارعون الى وحداتهم ، في عرض اوروبا وطولها .



فرح الباريسيون ورقصوا في الشوارع ابتهاجاً باعلان الحرب

وكانت القطارات حاملات الجنود تقرقع على قضبانها الى حيث تقتضي الخطط المرسومة . ان الجماهير تتظاهر بحماس في كل عاصمة وتنفجر صائحة « الى باريس » او « الى برلين » . والبرلمانات تصوّت بالاجماع تقريباً على هذا القرار وذاك . يا لها من هستيريا تدفع الى الموت !

ففي بريطانيا مثلاً ، كان عدد ضئيل من النواب هم الذين استنكفوا عن التصويت لصالح الحكومة يوم ٦ آب .

وفي فرنسا أدخل الاشتراكيون الوزارة لأول مرة باسم « المحافظة

على الوحدة المقدسة » .

ومثل ذلك تم في المانيا . فبعد ان عارضت اقلية من الاشتراكيين الديمقراطيين الالمان ، الحربَ في اجتماع الحزب المخصص لمناقشة القضية ، خضعت تلك الاقليـــة لمبدأ حتمية النظام في الحزب ، وصوتت لصالح الحرب ، في الريخستاغ . وقد سُر القيصر وليم الثـــاني من تصرف الاشتراكيين المومى إليه ، وقال :

« لست أرى الآن احزاباً في المانيا ، فالجميع ألمان ، وابناء المانيا فقط » .

وفي النمسا لم يكلف الامبراطور نفسه عناء استشارة البرلمان أصلاً . أليس هو ملكاً مطلقاً ، اذن فلا رأي للشعب !

وفي المجر نالت الحرب من الحكومة اجماعاً مطلقاً .

اما في صربيا ، فان الاشتراكيين فيها صوتوا ضد الحرب ، لكن بلادهم كانت مدافِعة لا مهاجمة ، فلا خيار لها ابداً .

التزييف باسم الكيان

ودون النظـــر الى الاجتماع الذي نالته فكرة الحرب في كل مكان تقريباً ، فان اياً من اعضاء البرلمانات ورؤساء الدول ما كان يفكر في الحرب حباً في العدوان . كانت كل دولة جازمة الاعتقاد (امام شعبها) في انها تدافع عن كيانها نفسه ، حتى مع ان المحافظة على ذلك الكيان تم عن طريق هدم كيان دولة اخرى بعد غزوها !

جيل غر

لم تكن قد نشبت حرب بين القوى الاوروبيـــة الكبرى منذ حرب السبعين ١٨٧٠ (بين المانيا وفرنسا) ، وكان الجيل السائد في سنة **١٩١٤** جيلاً لم يكتو بنار الحرب ، ولم يعرف ويلاتها . فكان الجميع يتصورونها عرضاً عسكَرياً منسقاً ، وطويلاً طويلاً ، وكله بهجه واعتزاز . اما

معاركها فقد رسموها في أذهانهم معارك عظيمة قرأوا اوصافاً لها في التاريخ ، وتصوروا انها لن تلبث ان تبدأ حتّى تنتهي ، ويتم النصر فيعود الجنود يحملون أكاليل الظفر والفخار . كانوا كلهم شبه مؤكدين للنصر ، فمن ينهزم اذن ! !

على هذه الصورة الساذجة كانت حشود لندن وباريس وبرلين تتخيل الحرب . وكان الكثير من الأفراد يتوقعون ان يعودوا الى اهلهم مع عيد الميلاد من العام نفسه .. انها شهور قليلة ، يطلقون فيها الرصاص ثم تنتهي الرحلة ! !

لمَ احارب ؟

ولم يحاول اي من هؤلاء ان يتساءل : « لمَ أحارب ؟ » ، كانوا جميعاً يعرفون ذلك . أليس « الوطن » ؛ أو « فرنسا » او « الأم روسيا » ! لكن هذا لا ينطبق على البريطانيين . اذ انهم وهم يشعرون بالحماية في جزيرتهم خلف مدافع الأسطول الحارسة ، ذهبوا الى الحرب لسبب واضح لديهم هو ما زعمته حكومتهم : حياد بلجيكا واستقلالها المغصوب . وهكذا ، كان الساسة البريطانيون يغلفون نواياهم أول الأمر بنزعة مثالية . فقالوا : « من حربنا هذه نسعى الى انهاء الحروب » كي « يكون العالم بسلام فتزدهر فيه الديمقراطية » . لم يكونوا اذن ، يقنعون بالنصر ، وانما زعموا انهم ينشدون عالماً افضل !

وسرعان ما انتقلت هذه اللمسات المثالية الى بلدان اخرى فرددتها . وهكذا اخترعها البريطانيون ، ثم خدعوا انفسهم بها ، وأوقعتهم في حيرة مربكة .

نوعية القادة

كانت جميع دول القارة قد عبأت ملايين الرجال . وقد بلغ الذين اشتركوا في القتال ٦ ملايين ، كانوا اما مجندين جدداً ، او مواطنين

قد سرحوا من خدمتهم الاجبارية منذ عهد قريب ، فأحيلوا الى الاحتياط وكان قادة هذه الجيوش كباراً في السن يعرفون الحرب في دراساتهم على الخرائط ، او تقارير المناورات القليلة التي أجروها . وكان القواد العامون : جوفر في فرنسا ، ومولتكه في المانيا ، وكونراد في النمسا والمجر ، والغراندوق نيقولا في روسيا — رجالاً يدينون بمناصبهم الى ضربة حظ سياسية مساعفـة او المحسوبية ، اكثر من جدارتهم بتلك المناصب . اما جِماع فلسفتهم العسكرية فهو ان : القائد الأدهى هو الأصعب إثارة ، اي ذلك الذي يحتفظ بأعصابه هادئة فلا يهتز مهما ارتفع رقم القتلى والجرحى والمشوهين من جنوده وهم ينفذون اوامره .

ان القليل من هؤلاء قد سبق لهم ان سمعوا طلقة واحدة من حرب، وظلوا الآن على معلوماتهم نفسها ، فكان الواحد منهم يقبع في مقر الرئاسة قصياً وراء خطوط القتال ، ويظل يزوق خرائطه بخط مستقيم من هنا وآخر اعوج من هناك . كانوا يصرخون اوامرهم في سماعة التليفون ، بينما يحيط بالواحد منهم مجموعة من الضباط الطواويس .

التناقض في الحركة

كان الجنرالات البريطانيون قد شهدوا حرباً حقيقية في « حرب البوير » ، ولكن ما شهدوه كان حربَ مسافات شاسعة ، وضد عدوٍ لا يُرى . ولهذا كانوا في حقيقتهم ضباط جنودٍ خيالة . وكانت الخيول في الحرب العالميـة الاولى في كل مكان : لم يكن جيش واحد يتمتع بمواصلات ميكانيكية . كان هناك بضع سيارات يستعملها الجنرالات وضباط القيادة اذا ما تنازلوا عن مقاعد سروجهم . اما الجنود المشاة ، فكانوا يخبطون الارض فتهترىء اخامصهم ، بعد ان يحطهم القطار عند آخر الخط . ومن هنا نشأ أوج التناقض في الحرب ، فالرجال سريعاً ما يُقذَفون الى المعركة ، لكنهم ما ابطأهم حين يصلون ! لم تكن الجيوش

تستطيع الحركة بأسرع مما كان يفعل جنود نابليون او حتّى فيالق الرومان الغابرة ، حين ينشب القتال . بل انهم لم يكونوا يتحركون بسرعة مثلها. اذ ان الامدادات كانت تصل الى النقطة المهددة من خط المعركة حتّى قبل ان يستطيع المشاة اختراق ذلك الخط . فالقطارات الحديدية اسرع من القدمين ، والى هذا يرجع ان الدفاع كان اقوى من الهجوم ، طوال الحرب العالمية الاولى . فالدفاع ممكن ، بخلاف الهجوم .

علف البغال اولا

كانت المؤن والمدافع تجرها الخيول . فكان كل جيش يضطر الى حمل كمية من العلف لبغاله اكبر من كمية الذخيرة له او الجراية لافراده. وكان توفير المؤن من البلاد الأم امراً ضرورياً لجيشها ، فهذه القطعان الهائلة من الجنود لا يمكن تموينها من البلاد التي يقاتلون على ارضها . ومن هذا كان الحجم البالغ الذي قدره الجنرالات ضرورياً لكسب الحرب



البغال تجر المدافع .. وهي طبعاً في حاجة الى علف .. وهذه مشكلة

هو الذي جعل من المستحيل على الجيوش ان تكسب ، بـل بالأحرى ان تتحرك .

شهر واحد فيه حرب

لقد كان هناك حرب حركة حقيقية لشهر واحد فقط ، هو الشهر الأول ، قبل ان يخفت الاندفاع في قلوب الجنود ، ثم تلت ذلك اربع سنوات من الجمود الاجباري . وكان الجميع يتوقع ان تكون الحملة الحاسمة في الميدان الغربـي ، لكن اياً منهم لم يأخذ قراراً بذلك . اما القرارات التي اتخذوها فكانت ضد الحصول على نصر سريع .. . كانوا يتوقعون استمرار الحرب الى ما لا نهاية .

اما مفتاح هذه الحملة الغربية فهو تقدم الالمان عبر بلجيكا . والغريب ان الفرنسيين يعلمون بهذه الخطة منذ زمن طويل . لكنهم لم يحتـــاطوا لوقوعها حقيقة . . ويعود ذلك الى انهم ما كانوا يصدقون ان في مقدور الالمان تشكيل فرق حربية من جنود الاحتياط وحدهم ، ولهـــذا بخسوا القوة الحربية الالمانية في تقديرهم بنسبة الثلث . وكان الفرنسيون يقدّرون ان بوسعهم مواجهة الالمان بشكل او آخر ، حتى لو شكلوا هذه الفرق. اذ انهم سيضربون الجناح الالماني من جبال « آردن » اثناء عبور الالمان لبلجيكا ، كما أنهم سيقومون بهجوم مركز عليهم في « اللوريـــن » . والهجوم هو الكاسب على الدوام ، حسب المفهوم العسكري السائد آنذاك. هذا هو الجواب الذي كان الفرنسيون يقدمونه ويعللون انفسهم بنجاحه

الهجوم والنكبة

وقد حدث هذا الهجوم فعلا في ١٤ آب . وكان فاجعة . اذ عانت الجيوش الفرنسية من الخسائر في الأرواح ، ودفعت ثمناً باهظاً ، لم تدفع أسوأ منه حتى في الهجوم التعس المشهور في « فردون » . لقد نكبوا

بزهرة جيشهم ، خيرة ضباطهم ، واكثر فرقهم حماسة للقتال . وكان ذلك خسارة لم يعوضوها فيما بعد ابداً .

لقد انشطرت القوات الفرنسية المهاجمة واعتراها الذهول من شدة صمود التحصينات الالمانية العتيدة ، فارتد الجنود الى الوراء في غير نظام، لأنهم لم يتلقوا أي تدريب على الحرب الدفاعية اثناء التقهقر . إلا ان هذا الانهزام كان خيراً وبركة عند جنرالهم جوفر . إذ انه الآن ، وقد أخفقت خططه الهجومية ، وجد من بقايا جيوشه ما يوجهه الى الجناح الأيسر فيكسب به معركة المارن ، على غير امل في ذلك من جانبه ،



الالمان في احد المقاصف البلجيكية بعد احتلال البلاد

وربما دون كفاءة حربية جديرة بالتنويه .

باز وقطاة

لم يلق الالمان ما يعوقهم او يعكر خواطرهم اثناء زحفهم عبر الأراضي البلجيكية ، فقد كان جلياً ان البلجيكيين ليسوا نداً للرهوط الألمانية المنقضة على بلادهم بعنجهية الآري القديم وشراسته . . والواقع ان الالمان لم يجدوا هناك أية مقاومة ، فزاد ذلك من سرعتهم في الحركة ، وجعل الحرب ، حتى في هذه المرحلة المبكرة منها ، تعتمد عامل الحركة على انه عامل فعال في تكتيكها .

والحقيقة ان شليفن ، حين رسم خطته هذه ، كان يفترض عدم وجود مقاومة او عدو في بلجيكا . ومع انه ليس من حسنات القائد ان ينطلق من هذا الافتراض حين يباشر رسم خطة كاملة لجيش ما ، فان خطة شليفن وجدت لها تبريراً كافياً الآن .

التسليم والموت

كان الفرنسيون بعيدين في جبهة اخرى ، يسرعون الى مسلخ نصبه لهم الألمان على شكل تحصينات صامدة وقوية اقاموها في جبهة اللورين . وكان الجيش البلجيكي الضئيل قد آثر السلامة فانسحب من طريق زحف الالمان ، وعزل نفسه في قلعة انتورب . وكان المأمول ان تصمد لييج بضعة اسابيع . إلا ان لندندورف ، الذي لم يكن جنرالاً عاملاً بعد ، قد بخر ذلك الأمل ، اذ كفى الألمان مؤونة احتلال المدينة بأن رافق بنفسه شرذمة من الجند ، وقاد سيارته الى بوابتها الرئيسية مطالباً أهلها وحاميتها بالتسليم . وحين رفض البلجيكيون ذلك دكت مدافع الهاوتزر النمساوية قلعة المدينة وتناثر حطامها في الهواء .

الدفاع اليائس

ولم يستطع البلجيكيون ان يفعلوا اكثر من نسف الخطوط الحديدية . وكـــان لهذا العمل الدفاعي الوحيد اثر كبير على الالمان . فقد انقطع تدفق التموينات الالمانية الى جنودهم من جراء ذلك ، كما اضطر وصول الامدادات العسكرية الى الابطاء .

الجندي المرهق

كان المشاة الالمان يتقدمون راجلين ، وكان تقدمهم يتم بمعدل سرعة



سيدا المانيا هندنبرغ ولندندورف

بالغة . فالجيش الاول بقيادة كاوك Kluck ، والذي كـــان على محيط دائرة خط الهجوم الالماني من جهة العدو ، كان يقطع ثلاثين ميلاً في اليوم الواحد . ولهذه السرعة ثمن . وكان على الألمان ان يدفعوه . فقد كان الجندي الألماني ينهكه التعب ويكاد يشله الارهاق قبـــل ان يرى جندياً معادياً يقاتله . وهذا ما زين للفرنسيين محاولة اختراق الجبهـــة الألمانية والنفوذ الى داخلها . فتقدموا عبر الآردن . لكن الألمان كانوا قد حسبوا حساب هذه الحركة ، فجعلوا يكثفون جناحيهم اثناء زحفهم قدماً .

الفرنسيون في الشرك

حتى اذا ما اصطدم بهم الفرنسيون ، صعقهم الألمان وحطموا أقوى جيوشهم بعد ان شطروها . وحين اخفق الهجـــوم الفرنسي – ولم يكن هؤلاء يتقنون الدفاع – لم يجدوا مناصاً من التقهقر . ذلك هو النقيض الطبيعي الذي يفرض نفسه في الحال . وهكذا دحرهم تكتيكهم نفسه ، وخلق في جيوشهم الفوضى والاضطراب اكثر مما فعل ذلك الالمان .

التراجع

في هذه الفترة كانت جيوش الجناح الأيسر الفرنسية معلقة في الهواء، فقد تراجعت على قوس عميق الى موقع غرب نهـــر « موز » . والى الشمال من ذلك الموقع ، في بلجيكا ، كان الألمان قد تخطوه ، وخلفوه وراءهم . وهكذا صار على الجبهة الفرنسية ان تتمدد وتطول على صورة لم تكن تتوقعها . وحين دخل البريطانيون الحرب ، كان هؤلاء يتصورون انهم سيكونون احراراً في تقرير الاستراتيجية التي سيسيرون على اساسها . وكانت حملتهم الصغيرة ، مع انها لا تتجاوز المئة الف رجل ، قادرة على ان تنتقل حيث يشاء لها واضعو الخطط في لندن ، والفضل في ذلك للبحرية الملكية .

وفي ٥ آب انعقد مجلس الحرب البريطاني برئاسة أسكويث ، رئيس الوزراء ، وكان جميع الجنرالات القادة حاضرين . وناقش الجميع كيف يساعدون بلجيكا :

هل يقتضي ذلك ان يذهب الاسطول البريطاني الى انتورب ؟

او يوجه ضربته الى المانيا في عقر دارها بأن ينزل الجنود في شلزويج ؟

وفي ذلك الاجتماع اطلع السير هنري ولسون من مكتب الحرب ، الرجال العظام على خطة جعلتهم يبدون جهلة صغاراً . لقد ابلغهم أن الحملة البريطانية مهما كانت صغيرة ، لا تستطيع ان تتحرك الا حسب خطة مرسومة ومواقيت معينة . ولم تكن هنالك خطة من هذا النوع الا واحدة كانت قد أعدت منذ سنة ١٩١١ ، وجوهرها انه ينبغي وضع الأسطول البريطاني على ميسرة الفرنسيين .

وكان لا مناص من ان يعترض البعض ان هذه الخطة لن تساعد بلجيكا البتة — « وهي البلد الذي دخلنا الحرب لانجاده » — لكنه كان: « اما ان نتبع هذه الخطة او لا نفعل شيئاً » . وهكذا وافق مجلس الحرب، ثم من بعده الوزارة ، على ذلك غير راضين . وهكذا ايضاً ، فقدت السياسة البريطانية حريتها في الحركة منذ البداية ، وأُنزل الاسطول البريطاني حيث ظهر في الجبهة الغربية .

شكراً للخطط السرية التي وضعها رجال التكتيك العسكريون قبل وقوع الحرب بثلاث سنوات .

الاصطدام مع البريطانيين

كانت القوات البريطانية في مراكزها المقررة في ٢٠ من آب، وهي تجهل ان الالمان على مقربة منها . فتقدمت بخطى متعثرة الى الامام حتى وصلت « منز » الشهيرة بالمناجم في ٢٢ آب . وهناك دهشت أعين

الى اعلى : خريطة معركة المارن وتطوراتها .



الجنرال غاليياني حاكم باريس الذي كان جوفر يعتبره فاشلا .

الالمان حين وقعت عليها . وفي ٢٣ آب هاجم طابوران من الألمان سريتين من الجنود البريطانيين ، فصمد هؤلاء ومنعوهم من احتلال مواقعهم . وكانت نار البنادق البريطانية محكمة التنظيم والتسديد (١٥ طلقة ، سريعاً ، دائرياً ، في الدقيقة) حتى ان الالمان ظنوها صادرة عن مدافع « ماشين غين » . والحق ان مدفعين سريعي الطلقات فقط كانا مع كل سرية بريطانية . وكانت موقعة منز لا تزيد عن كونها مناوشة صغيرة لا تربو عن بعض الاصطدامات في حرب البوير ، هذا اذا قسناها بميزان المعارك الحقيقية الهائلة التي تلت فيما بعد . إلا انها كانت المعركة الاولى التي يخوضها جند انجليز ، والتي ظهرت فيها عوامل حسن الحظ غير المتوقع فعملت لصالحهم .

زهو فارغ

والحقيقة ان هذه المناوشة ، والتي اوجد لها العسكريون اسم «ملائكة منز » هي ما يتكرم رجال القيادة الكبار في بريطانيا من عسكريين وسياسيين ، فيباركونها ويعتزون بها . فالسير « جون فرنش » القائد الأعلى البريطاني قد سر غاية السرور بالنتيجة . ولذلك قرر الصمود والاشتباك مع العدو المهاجم في اليوم التالي . لكنه اكتشف موقفه الشديد الحرج اثناء تلك الليلة ، اذ تحقق لديه ان الجيش الفرنسي كان متقهقراً بسرعة من على يمينه ، بينما لم تكن هنالك اية قوات حليفة على يساره. وهذا يضطر الجيش الانجليزي على ان يتقهقر بطبيعة الحال ، والا كان من السهل على القوات الالمانية الزاحفة ان تسحقه سحقاً .

التقهقر

وكان التقهقر هو ما فعله البريطانيون . لقد اخذوا يرتدون من خط القتال يوماً بعد يوم . وكان الجهد والعناء الذي قاسوه ، بحكم الاضطرار

الى السرعة ، شاقاً عسيراً على الجنود المشاة . وبخاصة ان هؤلاء كانوا يتراجعون بسرعة تضاهي سرعة الألمان في زحفهم قدماً ، (٣٠ ميلاً في اليوم الواحد) . لكنهم اثناء هذا التراجع اضطروا الى مواجهة الألمان في ٢٦ آب في موقع لي كاتو Le Cateau. وهنا ايضاً صمد الجنود المنهكون ، وأعاقوا تقدم عدوهم ، حتى استطاعوا الزوغان منهم .

هدنة وتحفز

وبعد ذلك حدثت مفاجأة في تاريخ الحروب . فقد لبث الجيشان في مواقعها طوال عشرة ايام . كان القادة لا شك يتأهبون ويريحون جنودهم وينظمون تموينهم واتصالاتهم بشأن الامدادات ، لكن الجنود كانوا يدعون ربهم ان تطول مدة الهدنة الغير المنتظرة هذه ، علهم يستطيعون خلع أحذيتهم دون ان تنسلخ جلود اخامصهم .

في هذا الوقت كانت فرق الـ ب . ا . ف البريطانية تلازم الجيش الفرنسي كميمنة له ، وكان الفرنسيون يتراجعون على خط مستقيم الى الجنوب ، فسحبوا معهم البريطانيين الى الجنوب ايضاً . وغدا هؤلاء بعيدين عن خطوط تموينهم الواقعة في الغرب . وكان هذا الانجرار قوياً الى درجة ان البريطانيين اوغلوا في الجنوب في انسحابهم بما جاوز سرعة تراجع الفرنسيين . لقد كانوا يهربون من الجحيم !

اما الألمان في هذه الأثناء فكانوا قد ناوشوا البريطانيين قليلاً من باب الممازحة ذات الدهاء ، وسمحوا لهم بالتراجع جنوباً ، في الوقت الذي كانوا هم يتجهون مباشرة الى الغرب ، ثم ينعطفون الى الجنوب الغربي . وهكذا كانت القوات المتحاربة تتحرك وكأنها تبتعد كل منها عن الأخرى بسرعة جنونية . وهذا ما جعل السير جون فرنش يقترح على القيادة في لندن ان يسحب جنوده أصلاً من الميدان بكامله . وبخاصة انه لاحظ نسبة الاصابات الهائلة بين جنوده — مع انها كانت ضئيلة



السير « جون فرنش » قائد الفيالق البريطانية في فرنسا يتمرن على « الى الوراء ـ در » مضطراً الى الانسحاب بعد اصطدامه بجحافل الالمان في « منز » .

تافهة اذا قورنت بالمجازر التي حدثت في السنـوات التالية ـ فآثر ان يتقهقر منسحباً الى ميناء « سان ترير » الفرنسي على المحيط الأطلسي ، لينظم صفوفه ويملأ شواغر مرتباته هناك .

وكان عنيداً في رأيه ، فلم يهجر فكرته الا حين طـار كتشنر ، وزير الدولة لشؤون الحرب آنذاك ، الى باريس في حلة الماريشال العسكري وأمره مواجهةً بالبقاء حيث هو .

هرب !

وقد هرب اعضاء الحكومة الفرنسية واعضاء البرلمان من باريس الى

بوردو ، اذ ان باريس عند ذاك كانت في «منطقة العمليات الحربية» للقوى الوشكة الاصطدام .

باريس هي العقبة

وفي الحين الذي كان فيه الالمان يجتاحون فرنسا متنقلين بقواتهم من اتجاه الى آخر في شمالها وشرقها ، بان لعيون الخبراء العسكريين ذلك الخطأ الفاضح في الخطة التي كان شليفن قد رسمها من قبل . انه العقبة.. باريس نفسها . فاذا اجتاز جيش كلوك ، وهو أقصى ميمنة الجيش الألماني ، باريس واتجه الى الغرب - برزت فجوة واسعة بينه وبين جيش رفيقه « بولو » الألماني ، الذي كانت قواته تشكل جيش اسناد لكلوك ، وتليه في القرب من خط الميدان . اما اذا اتجه الى الشرق من باريس ، فان جناحه يغدو عرضة لهجوم مركز وسهل على خطوطه. والحق ان شليفن كان قد قدّر الخطأ في هذا الموقف لكنه أخفق في ان يضع له علاجاً ناجعاً اذا وقع .

الآن كان الألمان عاجزين عن المجيء بقوات إضافية تسمح لخطوطهم أن تضم مدينة باريس ، اذ ان امتداد تلك الخطوط كان قد بلغ أقصى مداه . ولهذا كان تقدم كلوك متناوباً ، فهو يتقدم تجاه باريس مرة ، ويتأخر عنها اخرى . لكنه اخيراً قرر الاتجاه الى الشرق من باريس على أمل ان يطوق الجيوش الفرنسية قبل ان تستطيع حامية باريس المحصورة ان تفك الكماشة . ووافق مولتكه على هذه الخطة من مركز قيادته القصية خلف خط الميدان ، فغدت في مجال التطبيق .

جوفر وغالياني

في هذه الفترة كان الفرنسيون يحاولون استعادة مركزهم المشطور وقد أبدى جوفر قدرة عجيبة على تحمل النكبة والاحتفاظ بالهدوء ،



الجنرال فولكنهاين ـ المانيا



الجنرال جوفر والجنرال فوش ـ فرنسا



الجنرال كتشنر ـ بريطانيا



الجنرال ليمان ـ بلجيكا

معاً . فلم تفته اي من وجبتيه الرسميتين كل يوم . وكان يسخو في ذلك ويدقق في طريقة طهو الطعام فيها ! وقد عزل من مرؤوسيه من الجنرالات يميناً وشمالاً ، ودون اي اهتمام بهم . وكانت فكرته الاستراتيجية الوحيدة هي : نظل نتراجع على عرض الجبهة بكاملها ، ونكدس القوات في ميسرتنا حتى نصل نقطة يواتينا فيها الظرف للهجوم المركز الصاعق على قلب الجيش الألماني . لكن هذا الرأي لم يكن مما يوافق عليه غالياني ، حاكم باريس العسكري .. لقد كان لديه فكرة اخرى : فهو ينظر الى الأمور من زاوية باريس . ولهذا لاحظ الجناح الألماني المكشوف وغير المعزز .

وعلى النقيض من رغبة جوفر في مجابهة الألمان والتصدي لتقدمهم ، كان حاكم باريس يرى من الافضل ان يتم جرهم الى التوغل في فرنسا: ومن ثم الانقضاض على مؤخرتهم من باريس . وحين بعث جوفر بعض القوات الى باريس لتطويل خطوطه ، أرسلهم غالياني الى الشمال ليكونوا خلف خطوط الألمان .

التناقض ثم الاخفاق

وفي ٥ ايلول قطع الألمان نهر المارن . وعندئذ انفجرت خطتا جوفر وغالياني . لقد ظهر التناقض بينهما . فكان غالياني يأمل في «اغلاق عنق الكيس » خلف الالمان ، بينما كان جوفر « يضرب في قاع ذلك الكيس » ، اي انه في الواقع يسعى لابعاد الألمان من الوقوع في «فخ» غالياني المنصوب . وقد اخفقت خطتا جوفر وغالياني ، معاً اذ ان كلوك ، اثناء زحفه شرقاً ، علم بأنباء الاستعدادات التي كان يجمعها غالياني لضرب جناحه الأيمن ، فغير وجهة سيره واتجه من جديد الى الغرب . وكان المنتظر ان يتعقبه غالياني من باريس فيسير الى الشمال

الشرقي ، لكن جوفر كان قد أبقى قوات غالياني دائماً في حاجة الى الرجال .

والى الشرق الأبعد كان جيش بولو الألماني قد صمد لهجوم جوفر المباشر ، الا ان فجوة واسعة أصبحت الآن بين جيش بولو وجيش كلوك .

لا عدو ؟

واخيراً تم اقناع السير جون فرنش ان يتوقف عن التراجع ، اذ نجح في ذلك جوفر نفسه . وحين تقدم البريطانيون لم يجدوا عدواً قبالتهم . كان هناك ثقب .. فراغ . اما على ميمنتهم وميسرتهم فكانت الجيوش الفرنسية تقاتل بضراوة واستبسال .

والواقع انه لم تحدث اصابات في الجيش البريطاني في موقعة المارن . فقد كانوا يسيرون في خط قتال فارغ ، وان كانوا لا يعُون هذه الحقيقة والحسنة ايضاً . ولهذا كان تقدمهم أقرب الى التسلل الذي يقومون به ببطء وحذر . كانوا يقطعون ثمانية اميال لا غير في اليوم الواحد . وأين هذا من الـ (٣٠) ميلاً التي اعتادوا هرولتها اثناء تقهقرهم !

وليس من الصواب ان يعزى ذلك البطء الى الجنود . نعم انهم كانوا مرهقين بالفعل ، لكن غلاظة حسّ القيادة وعجزها عن تفهم الموقف الجديد هو السبب المباشر . فقد كان المسؤولون فيها عمياً ، تُرهبهم المغامرة ويتهربون منها . وأكثر من ذلك ان الخيالة البريطانيين كانوا متخلّفين زهاء ٤٠ ميلاً عن الجنود المشاة !

اين اسرى الحرب ؟

وفي القيادة الألمانية القصية خلف خطوط القتال ، كان مولتكه قلقاً من جراء الموقف الجديد . انه لم يسبق له ان اطمأن الى حملة جيوشه

هذه وظل يسأل : – اين هم أسرى الحرب ؟ أين هي المدافع التي وقعت في ايدينا ؟ وكان هناك القليل من ذلك .

موقف جيش كلوك

كانت أجهزة اللاسلكي لا تزال في اول تطويرها آنذاك . وكان تليفون الميدان يعمل بصورة غير حسنة حين تكون المسافة اكثر من مائتي ميل . وفي ٨ أيلول بعث مولتكه احد ضباط اركان القيادة ، واسمه الميجر هنتش ، ليطلع بنفسه على الحال الراهنة . فوجد هذا المندوبُ جيش « بولو » في غاية القلق على ما يحتمل ان يحدث لجناحه الأيمن المكشوف ، وافهمه القائد انه على وشك ان يبدأ في التراجع من جراء ذلك . وفي اليوم التالي وجد ان كلوك يستطيع الصمود امام الجيوش الفرنسية المتقدمة من باريس ، لكنه عاجز عن حماية مقدمته . وفي كل مكان شرع الألمان ينكفئون . وطفق الضباط الكبار في جيوش الحلفاء يتحدثون عن زحفهم الى المانيا واجتياح حدودها خلال شهر واحد ، بل بعد ثلاثة أسابيع !

تقدم قصير

استمر تقدم الحلفاء ٥ ايام . وفي ١٤ ايلول وصل الألمان الى أين Aisne . وهناك هدهم التعب فلم يبرحوا ذلك المكان . وكانت بعض القوات الفارة بعد سقوط موبيج Maubeuge في يد الفرنسيين قد وصلت « أين » ايضاً آنذاك . فشكل هؤلاء لرفاقهم المتقهقرين نوعاً من المدد الذي لم تُستنزف عروقه بعد .

بدعة الخنادق

وفي Aisne هذه ، حط المشاة الالمان اثقالهم ، واحتفروا شبه أقنية في الأرض ونصبوا رشاشاتهم فيها . وكان ذلك مما اذهل الحلفاء ! فقد كان المعروف في الحرب الكلاسيكية ان يولي المهزوم الأدبار فلا يلوي

على شيء. اما الآن فها هم الالمان المتراجعون يقفون في حرب دفاعية .. انهم لا يهاجمون ولا يتراجعون ! وقد تردد قواد جيوش الحلفاء أول الأمر .. هل يستمرون في هجومهم ، أم كيف يتصرفون ! لكنهم أخيراً اضطروا الى التوقف مرغمين. اذ كان يكفي جندي واحد يستحكم خلف رشاشه ، وتحميه بضع لبنات أو كدرات من التراب لأن يعيق جمهوراً بأكمله زاحفاً عليه .

الحرب الطويلة الأمد

والآن بدأت حرب الخنادق. فقد حسّن الألمان ، ثم الحلفاء من بعدُ ، تلك القنوات التافهة التي احتفروها أول الأمر حتى غـدا الخندق ركناً من اركان الحرب البرية منذ أين Aisne هذه . وإذا ذاك انتهت سرعة الحركة ومفاجأة الانتقال ، بمجرد ان نقر الجنـود لأنفسهم حفرات في الرمل او التراب .

سرعة الرشاش جمدت الحرب !

الآن غدا من العسير زحزحة صاحب الخندق من موقعه الا بهجوم صاعق مزوّد بامدادات غزيرة تتوفر في وقت قصير . وكلا العـاملين غير متوفر في سنوات الحرب العالمية الأولى . كما ان اياً من الجيشين المتحاربين لن يغفل فيسمح لعدوه بأن يتقوىّ بينا يظل هو دون ذلك . والآن ابرز ظهور المدفع الرشاش شدة التناقض بين حركة القطارات السريعة في ايصال الجنود الى مكان الجبهـة ، وبين حركة الجنود البطيئة حين يبلغون الميدان . والحق انه لم تكن هناك حركة البتة . فقد ظل الجنود ثابتين في خنادقهم . وغدت الخطوط المتقابلة كثيفـة العدد ، وشديدة التماسك . وكان جنرالات الفريقين ينظرون الى خنادق بعضهم بعين ملؤها العجز عن اقتحامها ، وعدم القدرة على وعي واقعها .

هكذا ظلوا يحدّقون في الخنادق طيلة ٤ سنوات تقريباً .

والحقّ ان لمعركة المارن مغزى خاصاً ، فقد كانت خاتمة حرب الحركة .. كان خطّا القتال معلّقين في الهواء يتأرجحان بعيداً الى الشمال من « أين » . وكان كلا الجانبين المتحاربين يحاول عطف جناحه ليسبق الآخر . وهذا ما أطلق عليه في الاصطلاح العسكري آنذاك : « سباق الى البحر » . وفي هذا الاصطلاح نوع من المغالطة . ذلك ان السباق لم يكن يستهدف الوصول الى البحر ،بل الالتقاء مع الجناح الأبعد من الجيش نفسه . اما حين يصل الألمان او الحلفاء البحر ، فإن معنى ذلك فشل من يفعل . وقد ادرك الجنرالات الألمان حقيقة هذا الموقف قبل ان يعيها جوفر ، حيث ظل يحلم بهجوم جباهي مركز .

فولكنهاين

وفي ١٤ أيلول ، وهو نفس اليوم الذي ترسّخت فيه خطوط الجبهة لكلا الطرفـــين ، نحّى وليم الثاني جنراله مولتكه من منصبه ، وعيّن فولكنهاين ، وزير الحرب والجنرال الأقدر ، بدلاً منه . وعلى الفور شرع فولكنهاين في تطبيق خطة مثل خطة شليفن ، وضعها هو . ولكن على نطاق ضيق . كان الألمان آنذاك يعانون نقصاً في قوات الميدان . وكانت القوات الممكن استدعاؤها هي تلك المشتغلة بحصار انتورب في بلجيكا . لكن جوفر كما هي عادته ، لم ينتهز فرصة ذلك النقص لدى عدوه .. انه اخفق في تقدير الموقف بصورة واعية . ولهذا رفض ان يبعث بأية مساعدة للجيش البلجيكي المحاصَر .. فقد كان يحتقر البلجيكيين .

ومثلُ مسلك جوفر الفرنسي كان مسلك كتشنر البريطاني ايضاً .. لقد نظر الى الوضع من نفس الزاوية ، فتكونت لديه نفس الفكرة .

تشرشل والاسطول والفشل

لكن هذا لم يُقنع ونستون تشرشل ، الذي لم يكتفِ بالاشراف على

الامبرالية ، فسارع لسدّ الفراغ الموجود . لقد ارسل (٣٠٠٠) بحار الى انتورب ، وجعلهم تحت قيادته الشخصية . ولما لم تكن هذه المساعدة كافية فقد سقطت انتورب في ١٠ تشرين الاول ، وأُدخل الناجون من البحارة الانجليز الى هولندا .

مصارف المياه

ومع ان الحملة قد فشلت الا ان الدفاع عن انتورب انجز خدمات كبيرة : لقد أعاق « سباق الألمان الى البحر » حينما كانت الطريق لا تزال مفتوحة امامهم . اما الآن ، فحتّى جوفر كان قد اخذ يسوق جيوشه نحو الشمال . وأما الجيش البلجيكي الذي اخلى انتورب ، فقد أبقى الالمان محصورين في شريط ساحلي ضيق . وذلك بأن فتح مصارف المياه وقنوات التصريف في المنطقة ، فغمرت المياه الأرض ، وجعلت من المتعذر على الالمان ان ينفذوا الى داخل البلاد . ولهذا دفعوا ثمناً باهظاً حين اضطروا الى التقدم فيما بعد .

قائد متقلب

وفي ١٥ تشرين الأول تحرك الالمان باتجاه ايبر Ypres هادفين الى تطويق جناح العدو . وفي تلك اللحظة بالذات كانت القوة البريطانية تصل ايبر هذه ، هادفة الى تطويق العدو أيضاً . لقد اصطدمت خطتا الهجوم المتعاديتان ، بعامل الصدفة لا التقدير . كان الالمان هم الجانب الاقوى ، بينا كان البريطانيون ليسوا الجانب الأضعف من حيث عدد الجنود فحسب ، وانما الأضعف من حيث القيادة ايضاً . لقد كان على رأسهم السير جون فرنش . وكان هذا القائد كثير التقلّب غير مستقر الرأي ، فهو مستبشر متفائل حيناً ، ثم متشائم يتخذ قرارات الحركة في ميدانه على اساس ذلك ، حيناً آخر . ولقد تمكن الألمان من اختراق

الخط البريطاني في موقع واحد . وكما كان يحدث عادة في تلك الايام .. توافدت الامدادات ، بفضل سكة الحديد بأسرع مما كان في مقدور جنرالات المهاجمين ان يتقدم مشاتهم . وللمرة الثانية تراصّ خط الجبهة واستقر حيث هو .

نكبة ايبر

ان هذا الطَرْقَ المتبادل بين القوتين ، مع انه أطلق عليـــه اسم « معركة ايبر الاولى » ، قد ابتعد كثيراً عن اسلوب الحرب التقليدية من قبل . كانت الجبهة الضيقة المحصّنة تُغذّى بمزيد من الرجال الجدد كل يوم ، وكان هناك تقتيل كثير فيهم .. ولكن دون فائدة ولا نتيجة . وكانت خسائر فرق الـ ب. ا. ف. البريطانية في معركة « ايبر » افدح من خسائرهم في الحملة السابقـــة ، اذ تمزّق الجيش البريطاني ، ولم يتخلّف منه الا كوادر صغيرة قد تقوم بمهمة تدريب حشود الجيوش الضخمة التي اشتركت في الحرب من بعد .

ترسخ خط القتال

الآن كانت الجبهة الغربية قد ارتسمت من سويسرا الى البحر . وكان توقّع الحصول على حرب حاسمـــة وسريعة قد خاب الأمل فيه وثبت خطأه. لكن هذه الحملة المندفعة تركت اثراً . وهو انه : مع ان الألمان قد فشلوا في تطويق الجيش الفرنسي ومن ثم محقـــه ، الا انهم فازوا ببلجيكا كلها علاوة على المنطقة الصناعية والغنية من فرنسا ذاتها . لقد خسر الفرنسيون معظم موارد الفحم عندهم وجميع حقول مناجم الحديد ، وقدراً كبيراً من صناعتهم الثقيلة . كل ذلك حازه الألمان . وأغربُ من ذلك نجاحُ الألمان ذاته ! فقد كانوا ينتقلون سيراً على الأقدام في زحفهم الدائري الطويل ، بينا ظل في مُكنة الفرنسيين ان ينقلوا امدادات

جيوشهم عن طريق القطار . وكانوا يبعثون تلك الامدادات بغباوة ، وبعد فوات الاوان ، لأن جوفر لم يكن يعي الفرصة الاستراتيجية المواتية له اذ ذاك . وهكذا غدا جوفر ، القائدُ الذي ضيّع شمال فرنسا من يده بحكم عناده فيما بعدُ ، وفي سنة ١٩١٦ على الخصوص ، المارشالَ الفرنسي الأول الذي انبتته ارض فرنسا منذ سقوط نابليون الثالث .

هذه هي أحاجي الحرب !!

الجبهة الشرقية

كان قد سبق ان حدثت بعض الاشتباكات ، وخيبات الأمل ، في الجبهة الشرقية ايضاً . وهنا كان يؤمل ان تكتسح المدحلة الروسية كل شيء قدّامها . اما بالفعل فإن الروس لم يكونوا قد قاموا الا بالقليل جداً من الاستعدادات لغزو المانيا . لقد جهّزوا بعض الشيء لمجرد معاونة حلفائهم في الغرب ، لا اكثر . فكان هناك جيشان روسيان يتقدمان داخل حدود بروسيا الشرقية ، حيث لم يكن الا القليل من جنود الألمان . لكن هذا التقدم كان خبطاً عشوائياً ، ودون خطة مرسومة او هدف معين منشود .

قائد وظله

وقد اقترح القائد الألماني برتوتز Prittwitz ، الذي استشعر الخوف ، على حكومته ان يتراجع الى وراء نهر الفستولا . وجاء جواب مولتكه سريعاً على هذا الاقتراح . لقد عزله على التوّ ، واستبدل به لدندورف ، الرجل الذي سيتسلم قيادة الأركان الألمانية بعد قليل . الا ان عقبة روتينية برزت في الطريق ، وهي ان رتبة لدندورف العسكرية لم تكن تسمح له بتولي القيادة العليا . فماذا يفعل مولتكه ؟ لقد فتش اضابير الجنرالات الألمان المتقاعدين ، ومن هذه الجداول وقع اختياره على هندنبرغ ليكون

قائداً أعلى يحتمي لدندورف بظل رتبته الرفيعة .

وقد التقى الرجلان ، القائد الأعلى الإسمي ، وظلُّه ، لأول مرة في حياتهما في محطة سكة الحديد في هانوفر . وكان هندنبرغ في ذلك اللقاء قد حشر نفسه في حلّة جنرال عتيقة . لم تعد ازرارها كفوءاً لحبس كرشه المندلقة .

هوفمان وتاننبرج

وحين وصلا بروسيا الشرقية ، وجدا ان أحد ضباط أركان برتوتز المعزول ، واسمه هوفمان ، قد أعاد الأمور الى نصابهـــا . فهو قد ملأ



سوق تأثرت بالحرب . انها في مدينة « اورتلسبرغ »
بعد مجزرة تاننبرج ، واندحار الروس

الفجوة الكبيرة ما بين الجيشين الروسيين اللذين تفصلهما بحيرات مازوريان، الواحد منهما عن الآخر ، كما توصل الى التقاط شيفرة الاتصال الروسية. لأن هؤلاء كانوا يستعملون الالقاء الجهوري بدلا من اشارات اللاسلكي المتعبة ، حين يصدرون اوامرهم او يتسلمون تقاريرهم .

وقد سحب هوفمان الجيش الألماني من قبالة الجيش الروسي الاول في الشمال .. وتراجع من حيث ساق جيشه الى الجنوب . وهناك طوّق هوفمان الجيش الروسي الثاني ومزقه شر تمزيق، حتى بلغ الأسرى الذين وقعوا في قبضته تسعين الفاً. ومن جراء تحطيم هذا الجيش ، عمت الفوضى في الجيش الآخر وولى متراجعاً

هذه هي معركة تاننبرج Tannenberg في ٢٩ آب . وهي ذات نتيجة بالغة الأهمية ، فبفضلها تم طرد القوات الأجنبية من ارض المانيا، حيث بقي ذلك الحال طوال سنوات الحرب .

الروس لا النمسا

والى الجنوب ، في غاليسيا ، كانت هناك جموع هائلة من القوات النمساوية والاخرى الروسية تتصارع بشكل فوضوي . هنا كانت سكة حديد غرب اوروبا تبلغ نهاية امتدادها . فبدلاً من الاستفادة من السكك كانت الجيوش تزحف ماشية عبر هذه الأراضي الشاسعة ، وكل منهما يفتش عن العدو الذي جاء ليقاتله . كانت جيوش الطرفين فقيرة من حيث تسليحها – هذا اذا حسبنا المعايير الاوروبية الحديثة في التسليح – وكانت تتخبط في سيرها فيجتاز الواحد منها خطوط خصمه ، وقد يطوقه ، ليطوّقه الآخر بدوره ، ويغدو كلاهما بعيدين عن مقريهما الرئيسيين . وقد عانى الجيشان اصابات باهظة ، بل هُدّدا اكثر من مرة بالفناء التام . وفي نهاية الحرب الفوضى هذه خرج الروس منتصرين بعامل التفوق في العدد ، لا اي عامل آخر غيره . فلم تحن نهاية شهر

تشرين الاول حتّى كان النمساويون قد خسروا غاليسيا ، وكانت الفرق الروسية قد وصلت الى جبال الكربات . وهناك توقف الروس . اذ صدّهم عن التقدم وصول جنرال الماني وكتائب المانية .

ترسخ خط القتال في الشرق

وفي الشرق ايضاً تم رسم جبهة ثانية حينذاك . لكن خط الجبهة هذه لم يكن راسخاً متماسكاً كزميله في الغرب . فقد كانت خنادق هذا الخط غير غزيرة الرجال . وكانت الأبقار ترعى والفلاحون يحرثون اراضيهم بين الخنادق في خطي القتال . وكان بوسع اي من الطرفين اذا أعد هجوماً وفّر له مدداً كافياً من الجنود ان يزحزح خصمه من مواقعه ويتقدم مسافة ٥٠ ميلاً الى ما وراء تلك المواقع . لكنه ، وحتى لو فعل ذلك ، فانه لن يستمر في تعقب الجيش المنهزم ، اذ ان الحماس للقتال سيتلاشى بفعل ارهاق المشاة المتقدمين ، نتيجة لانعدام السكك الحديدية هناك .

اما المدافعون في تلك الحال فانهم سرعان ما يركّزون اقدامهم حين تصلهم مؤنهم ، فيترسخ خطهم ويغدو حصيناً صامداً من جديد .

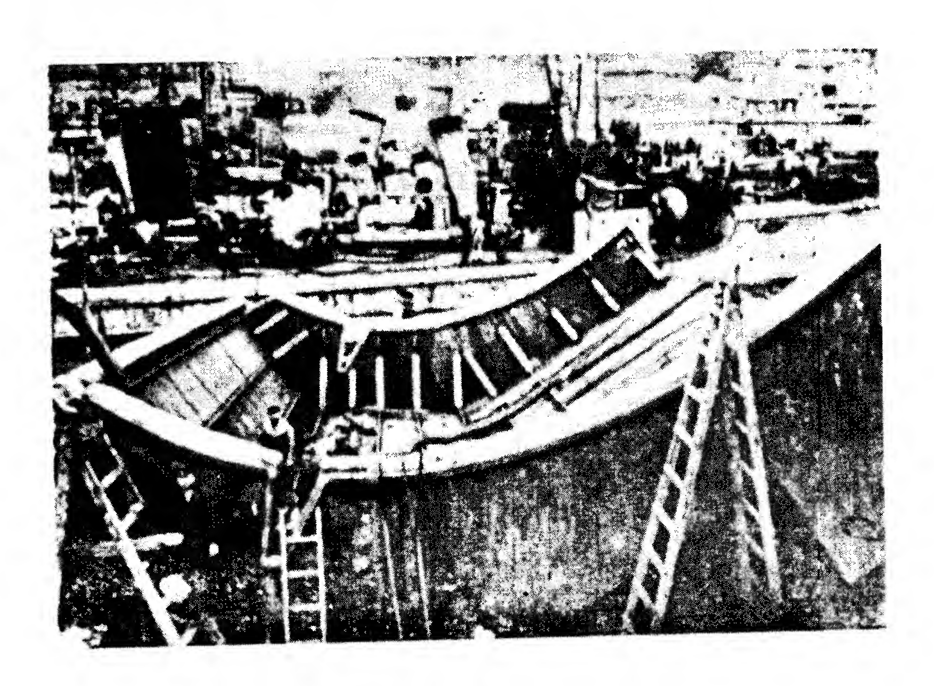
الجيش الاعرج

والواقع ان دوام الخط الشرقي على هذه الصورة كان اداة ارباك شديد للالمان . نعم ، ان ارض بلادهم نفسها لم تكن مهددة بالغزو ، ولكنه كان عليهم تجميد قدر كبير من قواتهم لتقوية جيش الامبراطورية النمساوية الاعرج . اذن ها قد تحققت اسوأ مخاوفهم : اذ اصبح عليهم ان يحاربوا على جبهتين . لكنهم تحملوا القيام بعبء ما كان غيرهم يعتبره مستحيلاً ، فقد صمدوا في كلتا الجبهتين بنجاح كبير طوال ما ظلوا يتخذون جانب الدفاع . بل لقد توفر لديهم قوات احتياطية

صلحت لخوض معارك في ميادين القتال الأخرى .
وهكذا تحققوا من ان خطة شليفن لم تعد ضرورية الآن .

معارك غير حاسمة

في هذه الفترة من الحرب كانت المعارك تنشب في الميدان الغربي والشرقي . ولكنها كانت معارك غير حاسمة ، مجرد صمود . وكذلك في البحر ، ظل الموقف غير محسوم ، مع انه لم تقم هنالك معارك بحرية. وهذا الركود في حد ذاته كان حسماً . لقد قضى الألمان سنوات وهم



المدمرة غوبين في الحوض الجاف لترميمها
لقد اجبرت « غوبين » الدولة العثمانية ان تعلن الحرب على الحلفاء ، لكن
لغماً اصابها ، اضطرها الى الكف عن الترميم حتى سهل على
« سيدني » ان تغرقها

يُعدون لاشتباك بحري يتحدّون فيه السيادة البريطانية على البحار . لكنهم حين وقعت الحرب اخفقوا في ذلك . فقد ظل اسطول البحار العالية قابعاً في مرافئه بكل عناد . ولم تقع لذلك « ارمجدو » او المعركة الكلية ، التي تنبأ عن حدوثها الأميرال جاكي ، وحدد لها شهر ايلول من سنة ١٩١٤ .

غوبين وبرزلاو

هذا علاوة عن ان الألمان الذين عجزوا عن الاستفادة من سفن القتال ، قد غفلوا عن بناء سفن إغارة على الاسطول التجاري لخصومهم. وقد صدف ان كانت لهم مدمرتان في عرض البحر المتوسط حين نشبت الحرب ، فاستطاعت هاتان المدمرتان ان تتملصا حتى بلغتا القسطنطينية . وهناك اجبرت مدافعها تركيا على الانحياز الى جانب المحور ودخول الحرب . وهاتان المدمرتان هما « غوبين » و « برزلاو » . وكان هنالك مدمرة ثالثة اسمها « إمدين » في المحيط الهندي ، استطاعت ازعاج السفن التجارية البريطانية ، حتى انها شغلت ٧٨ سفينة بمراقبتها ومحاولة العثور عليها قبل ان تغرقها المدمرة الاسترالية « سيدني » .

فون سبي

اما القوة البحرية الألمانية الفعالة فكانت قطعة بحرية غادرت المياه الصينية تحت امرة « فون سبي » وعبرت المحيط الهادي . وفي اول تشرين الثاني اصطدمت بتشكيلة بحرية بريطانية أخف منها وزناً فأغرقت مدمرتين ، دون ان يخسر الألمان شيئاً على الاطلاق .

وفي هذه الاثناء كان تشرشل وفيشر – الذي اعيد الى عمله كمسؤول عن البحرية العسكرية – قد ارسلا مدمرتين الى جنوب المحيط الأطلسي. واندفع فون سبي في استخفافه بالبحرية الملكية ، فأغري بتدمير المحطة

اللاسلكية القائمة في جزائر فولكلاند ، ولم يكـن يدري ان المدمرات البريطانية كانت تتزود بالفحم آنئذ من هناك .

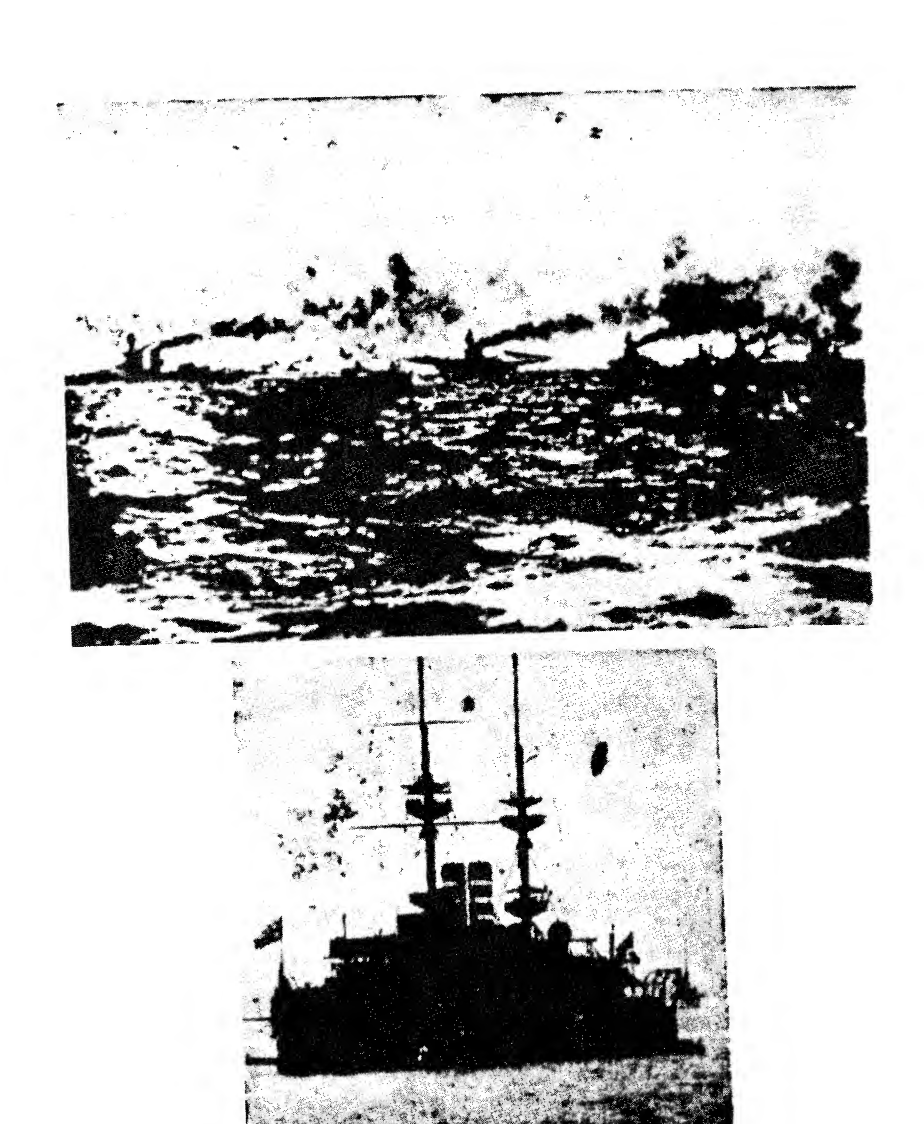
نكبة بحرية لالمانيا

وفي ٨ كانون الاول كان دوره لتلقي الهزيمة ، فقد غرقت ٤ سفن من تشكيلته المؤلفة من خمس . اما اليتيمة الناجية فقد طال عمرها حتى شهر آذار فقط ثم لقيت مصيرها مثل اخواتها . ومن بعد هذه الموقعة تربعت بريطانيا على عرش امواج المحيط ، بالنسبة الى السفن الظاهرة على السطح .

كان واضعو الخطط من اميرالات البحر البريطانيين قبل الحرب العالمية الأولى قد خططوا لمعاركهم على اساس الاعتماد على السفن الضخمة ذات المدافع الكبيرة الجبارة ، ولم يأخذوا في اعتبارهم الأسلحة البحريـة الصغيرة ، او الموضعية المفعول ، كالالغام ، والغواصات ، والتوربيد. وكان الالمان على تسليح أفضل من بريطانيا في هذا المجال . والى الاسلحة الصغيرة هذه ، لا السفن الكبيرة ، يعزى وقوع الخسائر الفـادحة التي عاناها الاسطول البريطاني . فـ « ابو قير » و « هوغ » و « كريسي » ، قد أغرقتها غواصة بمفردها في ٢٢ ايلول . وفي ٢٧ تشرين الاول اغرق لغم الماني السفينة « اوديشص » ، التي بلغ من حنق الاميرالية البريطانية لفقدانها ان كتمت الخبر حتى نهاية الحرب .

انذار مزيف وهلع كبير

وأدهى من عدم الاهتمام بالاسلحة البحرية الصغيرة في نظر البريطانيين ، استخفافهم بقدرتها على التخريب حين يستعملها العدو . وانطلاقاً من هذا الاستخفاف أبقت الاميرالية البريطانية قواعد الاسطول غير محمية ، بل مكشوفة لهجوم غواصات العدو . وقد وقع ما يدعو الى الضحك من



بعد انتصار بريطانيا في المعارك البحرية ، واغراق المدمرات الالمانية القادمة من الشرق الاقصى ، اصبح الاسطول البريطاني حاكم البحار

جراء ذلك . ففي تشرين الثاني ، ونتيجة لانذار (ثبت زيفه) تبعثر الاسطول البريطاني خارجاً من قواعده ، فاتجه الى اسكتلندا اول الامر ثم التجأ الى غربي ايرلندا . وقد بلغ من هلعه ان قطعه لم تعد الى بحر الشمال الا في اواسط سنة ١٩١٥ !

وكان في هذا التغيب ما اطمع الألمان ، وجرّأهم ، فقصفوا الساحل البريطاني بمدافعهم مرتين ، وقتلوا بعض المدنيين ، وحطموا زجاج النوافذ في سكاربرو ، كما هددوا « وتبي أبي » وهو دير معروف . وحين أعادوا الكرة مرة ثالثة داهمتهم المدمرات البريطانية فدفعوا ثمن جرأتهم . ولم يعد الالمان الى عمليتهم هذه لمدة طويلة . فظلت الجزر البريطانية أمينة من الغزو .

لكن كل هذا كان طفيفاً . نعم ، ان الاسطول الالماني قد تم تدميره في البحر ، دون معركة كبيرة ، غير ان حرب الاسلحة البحرية كانت لما تتكشف خطورتها بعد . وكان هنالك القليل جداً من الاميرالات البريطانيين الذين يفطنون الى ذلك .

الغواصات

لقد ظلت البحار مفتوحة امام الاسطول البريطاني ، والمؤن والمواد الخام تتدفق على موانئه الى ان ابتدأت حرب الغواصات . وعندئذ هدد الخطر كل شيء . فهل يقف الاسطول البريطاني وامراء البحر البريطانيون مكتوفي الأيدي ! طبعاً ، كلا . لكن ، ما الحيلة ؟

الحصار

لقد وقع البريطانيون على سلاح جديد . نعم ، انه كان أقل خطراً من الغواصات الالمانية ، ولكن فعاليته حين يدهم هدفه كانت اشد فتكاً . واستعملته البحرية البريطانية . غير ان هذا لم يكف بدوره .

ولهذا لجأت بريطانيا الى سلاحها البحري التقليدي ، سلاح الحصار. ونحن نذكر توجع نابوليون من الحصار القاري الذي فرض عليه فأنهكه حتى وهو في أوج مجده وقوته العسكرية. فلماذا لا يتذوق طعمه غليوم وجنرالاته! ؟

كيف يتم الحصار !؟

كان هنالك فرق الآن في تطبيق هذا السلاح . فبينما كان في مقدور بريطانيا ان ترسل قطع اسطولها حتى الى مياه الموانىء الفرنسية قبل قرن من هذه الحرب ، غدا ذلك مستحيلاً الآن . لقد كان هنالك ألغام ، وهنالك طوربيدات .. واكثر من هذا وذاك خطراً ، هنالك غواصات، وقنابل تنطلق من الأعماق . فماذا تفعل اميرالية البحر البريطـانية ؟ ان الحصار يجب ان يتم ، لكن طريقه لا مناص من ان تكون مغايرة لمـا كانت عليه في عهد نابليون .

وهكذا وجدت بريطانيا نفسها تخترع حصاراً بحرياً ، يتم من بعد . وذلك بسحب السفن التي ترفع اعلاماً حيادية الى مرافىء خاضعة لبريطانيا، حيث يقام بتفتيشها . اما السفن الألمانية نفسها فجزاؤهـا المصادرة ان استسلمت والاغراق ان ركبت رأسها وآثرت المقاومة .

هذه قرصنة دولية

الا ان تفتيش السفن الحيادية بعد قطرهـا من عرض البحر ، او المياه الدولية ، ليس اجراء تستسيغه دولها ، كما انه مخالف للقانون البحري الدولي ، فكيف تتخلص بريطانيا من الوقوع في المآزق ؟ لقد فوضت قناصلها وسفراءها في الاقطار الاخرى ان يمنحوا السفن التي تشحن من اقطار يمثلون بريطانيا فيها ، وثائق ، تشهد بعدم حمل تلك السفن مواد قد ينتفع بها العدو في مجهوده الحربي. وفي هذا افتئات على حقوق الدول الأخرى ، لأنه اقرب ما يكون الى نوع جديد من القرصنة الدولية . لذلك جأرت الدول المحايدة بالاحتجاج ، فكان جواب بريطانيا : ان الحرب تقتضي ذلك .

وقد ضايق ذلك الحصار المانيا مضايقة شديدة . وكان مما ساعد في تضييق الخناق على اقتصادها ان الألمان قد ظلوا غافلين في خططهم التي رسموها قبل الحرب عن امكانية انقطاع المواد الخام التي يحتاجها المجهود العسكري عندهم . لقد قدروا انه سيظل بمقدورهم شراء السلع من الأسواق الخارجية الحرة . واعتماداً على هذا التقدير الخاطىء رفض الجنرال مولتكه غزو هولندا ، على اعتبار ان منفذاً حراً سيتوفر للتجارة البحرية الألمانية في تلك الحال .

وكان من جراء هذه الغلطة ان وقع مولتكه ومجهوده الحربي ، والاقتصاد الألماني العام ، الآن ، في ورطة يعسر انتشاله منها . فالواقع ان تلك الورطة شكلت سبباً مباشراً وقوياً في انهزام غليوم وجنرالاته في حرب « عالمية » .

لماذا هي «عالمية !»

قد يتساءل البعض عما دفع المؤرخين الى اطلاق اسم «الحرب العالمية الأولى » على هذه الحرب ، مبرراً تساؤله بأن معظم الوقائع الحربية الفعلية ، والحاسمة على الخصوص ، انما روت ارض اوروبا بدماء المشتركين فيها . هذا دون اغفال شريط ضيق حول قناة السويس بين افريقيا وآسيا ، ومع ذكر الجبهة العربية في جزيرة العرب والهلال الخصيب. نعم ، قد يثار هذا التساؤل ، لكنا لو أمعنا النظر في هذه الحرب ، لوجدنا ان الأشخاص المشتركين فيها لم يكونوا مقصورين على اوروبا او اي قارة واحدة اخرى . والمهم في تسمية الحروب هم « المشتركون في نشاطاتها » .

كانت الامبراطورية البريطانية تعلم حق العلم ان الجنود البريطانيين



جرحى الهنود في المستشفى
جلبتهم وامثالهم بريطانيا من مستعمراتها
ليدافعوا عن استعمارها لبلادهم !

من سكان الجزر وحدها ليسوا نداً من حيث العدد في البداية ، ولا في ضمان الامداد فيما بعد ، لمقابلة الجحافل الألمانية . ولذلك عمـــلت على إشراك متطوعين وجنود من مختلف مستعمراتها — توفيراً للمواطنين الانكليز وبحكم ان « اثمان » ابناء المستعمرات أدنى سعراً .. كانت هنالك فرق من الهند ، واخرى من استراليا ، وثالثة من كندا ونيوزيلندا .. وغيرهم من افريقيا ..

ومثل هذا الخليط ضمت الجيوش الفرنسية .. وان كان معظمها من السنغال وعرب شمال افريقيا .

ومع ان الكثير من فرق المستعمرات ، والتي تم تشكيلهـــا لغرض الحرب ، لم يشترك في القتال ، الا انه قام بمهمات عسكرية جليلة على كل حال . فالهنود مثلاً هم الذين حفظوا منابع الزيت في الخليـــج الفارسي ، وطردوا الاتراك من العراق . والاستراليون هم الذين حفظوا النفوذ البريطاني في مصر .. وكان اهلها يميلون الى مساعدة الاتراك بحكم انهم مسلمون ، وبحكم كراهيتهم للسيطرة البريطانية والاستئثـــار بادارة السودان .



انها قرية افريقية تحترق !

لقد اشعلت « حضارة اوروبا » البيضاء النار في مساكن الافريقيين « الملونين » !
فقد كانت القرية من مستعمرة « الكاميرون » التي استولى عليها الانكليز .

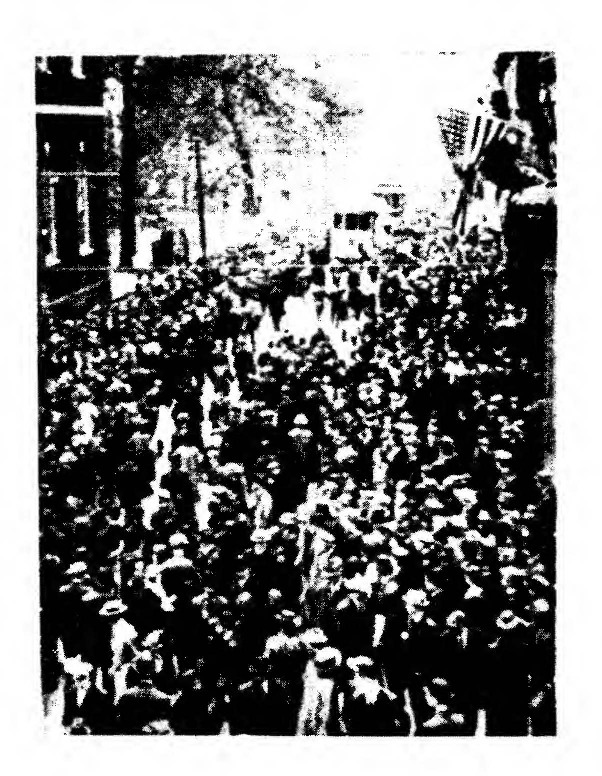
وكان المستوطنون في جنوب افريقيا شركاء في الحرب ايضاً ، ولكن على طريقتهم الخاصة . فقد انتهز هؤلاء الفرصة فاستولوا على المستعمرة الالمانية المجاورة لهم . وذلك بعد إخضاع ثورة قام بها البوير ، الذين كانوا حاقدين من ايام حرب البوير الرئيسية من قبل . وبعد سقــوط جنوب غرب افريقيا (المستعمرة الالمانية) تم الاستيلاء بصورة او اخرى على بقية المستعمرات الالمانية في القارة . ولم يكن ذلك طمعاً في مركز استراتيجي لتلك المستعمرات بقدر ما كان ، بيدقاً للمساومة مع المانيا فيما اذا اجريت المفاوضات بعد نهاية الحرب. كما انه قد تم سيراً على نهج تقليدي سبق ان اتبعته بريطانيا في حروبها السابقة ، ومفاده ان بريطانيا العظمى يجب ان تنال مغنماً وتوسعاً في رقعة مستعمراتها فيما وراء البحار في كل حرب تنتصر فيها .

افليست الحرب هي « عالمية و « اولى » بحق ، بعد كل هذا !!

حرب في اقصى آسيا

ولم يكف كل ما سبق ، فحتى اليابان انتهزت الفرصة ، وساهمت بطريقة ملتوية في الحرب ايضاً . لقد دخلت اليابان الحرب كحليفــة لبريطانيا لكن ، ماذا فعلت ؟ طردت النفوذ الالمــاني من شانتونج في الصين ، وفرضت نفوذها مكانه . غير ان هذا مطمح ضئيل القدر . فهل ترضى بلاد « الاله الشمس » بأن لا تتعداه ؟ كلا . لقد باشرت منذ ذلك الحين ، وبصورة او اخرى ، عملية جبارة ما كان أوخــم عاقبتها على « الميكادو » . باشرت الاستحواذ على شبه القارة الصينية لصالحها هي . ومن جراء ذلك تحولت الجزر اليابانية الى امبراطوريــة عملاقة ، داعبها الغرور فخاضت الحرب العالمية الثانية فيما بعد ، والى ان جثت على ركبتيها .

وهنالك قوة كبرى ظلت اغلب الوقت منعزلة تفضل الانطواء على نفسها. وإنما نعني بهذه القوة الكبرى الولايات المتحدة الأميركية. والواقع ان سكان هذه البلاد، وهم خليط عجيب من شتّى امم الارض، وان كانت ثقافة اوروبا هي السائده بينهم، قد آثروا عدم التدخل في الشؤون الأوروبية. ربما انهم تذكروا اجدادهم الهاربين بحريتهم الدينية، وربما انهم وجدوا انفسهم في بحبوحة من الارض البكر والخير الذي لم



بعض افراد المهاجرين الالمان الى امريكا يتظـاهرون في نيويورك للضغـط على «وودرو ولسون» كي يظل على الحياد.

يستثمرّ بعد . وربما انهم خشوا ان تدخّلهم في شؤون اوروبـــا سيجر اوروبا بعد الحرب الى التدخـــل في شؤونهم . كـــان مونرو ، رئيس جمهوريتهم منذ قرن تقريباً قد وضع اسس سياسة الانطواء هذه ، فلم يود خلفاؤه ان يقوّضوها . (لكنهم شوّهوها حين تعرت الولايات المتحدة وغدت دولة تنشد التوسع فيما بعد) .

وكان هناك الجالية الارلندية .. وهذه لا تود مساعدة بريطانيا في صراعها بأية صورة من الصور . كانت هذه الجالية تحقد على بريطانيا لأنها ترفض منح الاستقلال لجزيرتهم وكانت ترغب ، اذا استطاعت ، في ان تكبّد بريطانيا كل خسارة ، جزاءً لها على استعمار ايرلندا .

ومثل هذه الجالية كان المهاجرون الألمان ..

طبيعة عناصر السكان في الولايات المتحدة

اما طبقة اصحاب المصانع والأثرياء من مختلف الجاليات ، فكـــان همها ان تبيع المتقاتلين اسلحة وذخيرة . انها كانت تحصر اهتمامهـــا في جني الأرباح ، دون اي اعتبار للجرائم المرتكبة ، او الدم المسفوح .

اما العمال ، فلم تكن الحرب من مصلحتهم في ايما يوم من الأيام. فعليهم يقع العبء الأكبر من وقود المدافع . ومنهم تشبع اسماك المحيط عند الغرق .

كل هذه العوامل ، فرضت نفسها على وودرو ولسون ، رئيس الجمهورية آنذاك ، فقدّر لنفسه مركز وسيط مصلح ، اكثر من «خصم مساهم » في النصر او الهزيمة .

وساطة ولسون

ولكن هل يتوسط ولسون ، والحرب لا زالت في بواكيرهـــا ، والخصوم لا زالوا اقوياء ؟ كلا ، فلا نفع للولايات المتحدة في تلك

الى اعلى : خريطة معركة المارن وتطوراتها .

راجع صفحة ٥٠ – ٥٣



الجنرال غالياني

الحال . كما ان القوي يكون في العادة صلب الرأس لا يقبل الوساطة . اذن ، فإن من خير امريكا ان تُنهَك قوى اوروبا قاطبة ، ومن ثم تعمد الولايات المتحدة الى فرض شروط كريمة للصلح . فان تمّ ذلك فإن الولايات المتحدة تضمن دوام سلم عام شامل على الأرض . وهذه نزعة مثالية راودت ولسون ، وان كان قد جهل استحالة تنفيذها .

وبعد كل هذه النشاطات ، في مختلف القارات ، هل يمكن ان لا تكون حرب الـ ١٩١٤ « عالمية » حقاً !

* * *

ولنعد الآن الى مساق الحرب نفسها .

في اواخر سنة ١٩١٤ كانت نوعية الحرب الدائرة قد تقررت .لقد اتخذت لها إطاراً متميزاً عن كل حرب سابقة . اذ اتضح انها لم تعد حرب نصر حاسم سريع ، ولا قتال بضعة اسابيع او شهور . كلا . لقد ظهر لكل قائد عسكري في اي هيئة اركان مشتركة في الحرب انه يواجه حرباً طويلة الأمد ، لا نصر فيها : فالخنادق لا تتزحزح ، وكل هجوم مباشر عليها مكتوب له الفشل .

بعض مشاكل الحرب الاجتماعية

وهنا كانت الطامة . فالحقيقة الأخيرة لم تكن قد أُخذت في الحسبان، حيث لم يكن راسمو الخطط السابقون تكهنوا بهذا التحوّل . فما العمل!

ان ملايين من الرجال قد جرى تجنيدهم في مختلف القارات ، ثم دُعوا الى مباشرة التدريب ، وأجبروا على التخلّي عن اعمالهم المدنية . وهكذا ، وبشكل قسري اضطر الاقتصاد في الدول المتحاربة ان يغدو اقتصاداً عسكرياً .

وحين تم حل هذه المشكلة بصورة اعتباطية ، برزت مشكلة اخرى. فقد كانت هذه الحرب ، ككل حرب على نطاق واسع ، تقذف الى

الخطوط الخلفية شيئين اثنين من صنف البشر : اولهما حطام من يتحملون مشاق الطريق قبل ان يموتوا ، وثانيهما فئات من المشوّهين وذوي العاهات التي تقعدهم عن العمل .

وهؤلاء جميعاً يحتاجون الى من يسدّ مسدّهم في الجبهة . وفي الانتاج .

واذا اضفنا الى هؤلاء ، اولئك الذين دفنهم ميدان المعركة او أكلتهم الوحوش ، وجدنا ان النقص في خطوط القتال والمجهود المدني كان دائماً يحتاج الى تعويض . فمن أين يتم ذلك !

لقد ظل البالغون يُستدعون إلى الالتحاق بالجيش طالما توفر منهم ،



الصبيان يدعون الى الحرب بدلا من ذهابهم الى المدارس .. جريمة من ؟

بيد ان هؤلاء سرعان ما نزح مددهم ، فماكينة الحرب تلوك القتلى .

الصبيان

حينئذ تحول النظر الى الصبيان ، وطُلب اليهم الانخراط في الجيوش، مرة باسم « الدفاع عن شرف الوطن ! » وثانية بدعوى « ضرورة الاخلاص » للملك والتاج .

وبمثل هؤلاء ظلت الجيوش المتحاربة يتضخم عددها بأمداد جديدة حتى عام ١٩١٦ ، ثم اخذت جميعاً اما في الثبوت مع تدني مستوى العمر ، او الانكماش التدريجي المحتوم .

التفوق العددي في المانيا

وكان جانب المانيا امنع من جانب فرنسا فيما يتعلق بهذا الخصوص . ذلك ان عدد سكان فرنسا اقل من المانيا ، ونسبة مواليد فرنسا شبه ثابتة ان لم تكن أميل الى النقصان . بخلاف الحال في المانيا . وهذا ما جعل الامداد تتوفر لدى المانيا حتى سنة ١٩١٨ تقريباً .

قطعان روسيا واحوالهم

فاذا انتقلنا الى روسيا ، وجدنا بحراً خضماً من البشر ، موجاً متلاطماً من الفلاحين والقوزاق وشعوب عدة . وقد يعترض معترض فيقول : ولمَ كان هؤلاء يقبلون ان تسوقهم عصا القيصر السحرية الى المسالخ ؟ والجواب .. ان القوة اولاً والجهل ثانياً هو ما كان يسوقهم.

وهذان هما عصا القيصر (وكل قيصر او ملك متحكّم) ذاتها .

لقد كانت حالتهم الاجتماعية اقرب الى اقنان الاقطاع في القرون الوسطى ، وكانت بلادهم نهباً موزعاً بين استثمارات اوروبا الغربية بدولها الكبيرة الثلاث . اما الكنيسة فهي ، شيمتها على الدوام ، حليفة

طبيعية مع القيصر في ارهاق الشعب وابقائه ذليلاً مستسلماً لما يحفّظه اياه البطاركة والمطارنة والقساوسة من قدر مسطور في سجلات غير منظورة !!

نعم ، كانت هنالك طبقة مثقفة ضئيلة في روسيا آنذاك ، وكان هنالك شبه منظمة (الحزب الديمقراطي الاشتراكي الروسي) تحاول توعية الروس على واقعهم ، ولكن .. انى لهذه القوى الضئيلة ان تزيل طبقات من الجهل المطبق والخضوع المتوارث منذ عصور وعصور !!

اذن كان لروسيا قطعان من المجندين ، ولكن ، اين لهم بالسلاح؟

قوة الصناعة هي عماد الجيش

ان الجندي لا يقاتل بيديه ، والسلاح لا يتوفر الا عن طريقين : شراؤه او صناعته . وليس في روسيا نهضة صناعية تكفي لتزويد جحافلها بما تحتاجه من سلاح ، كما ان اقتصادها الأقرب الى الانهيار لا يتحمل دفع نفقات الشراء . فماذا ينتظر ؟ الوقوع فريسة سهلة بين يدي الجزارين من جنرالات الالمان :

وكان هذا بعينه ما اوضحه الغراندوق نيقولا ، القائد الأعلى للجيوش الروسية ، في اتصالاته مع رؤساء هيئات اركان الحرب لحلفائه . لقد ابلغهم منذ ١٩١٤ ان جيوشه عاجزة تمام العجز عن القيام بتنفيذ أية خطة هجومية واسعة . بيد انهم .. ماذا كان بوسعهم ان يفعلوا له ؟

وعلى هذا الاساس تكون روسيا قد عانت من النقص ايضاً ، ليس في موارد رجالها وانما في تسليحهم . أضف الى هذا نقصاً آخر فظيعاً . فكما ذكرنا سابقاً ، كان واضعو الخطط الروسية ، شأن غيرهم ، لم يخططوا لحرب طويلة الأمد . لقد وضعوا خططهم على اساس الحصول على نصر حاسم او هزيمة ماحقة ، وسريعاً في كلتا الحالتين ،وبأسلحتهم المتوفرة آنذاك .

الا انه بدا واضحاً الآن ان تلك الجيوش تفرض تسليحها من جديد وبشره عظيم .

تسليح جديد

وكان هذا عاماً في الجيوش المتحاربة ، وبخاصة انهـــا تضخمت الى احجام لم تكن مقدّرة لها من قبل، كما ان الحرب اصبحت حرباً طويلة . هذا علاوة على ان شراهة وحش الحرب لالتهام الذخيرة كانت فظيعة جـــداً .

استهلاك العتاد

والحق ان الحرب العالمية الاولى استنفذت من الذخيرة اكثر مما فعلت الحرب العالمية الثانية ، على الرغم من تطور الرشاشات والأسلحة الخفيفة السريعة الطلقات ، وعلى الرغم من استعمال السلاح الجوي على نطـــاق واسع جداً .

فالحرب الثانية اعتمدت على الماكينات ، سواء في الدبابـــات او الدروع او الطائرات ، اما الحرب الأولى ، فكان جلّ اعتمادها على البندقية التي يحملها جندي المشاة . وما اكثر ما كان هذا يتسلّى باطلاق خراطيشه في وجه الرياح !

ليموتوا فتزداد ثروتنا ...

وقد نتج عن حاجة الجبهات الى العتاد ان اقيمت مصانع الذخيرة في مختلف انحاء اوروبا . وطبيعي ان اصحاب الرأسمال هم الذين أقاموهـــا طمعاً في ازدياد ثروتهم ، فكان من مصلحتهم ، بالتالي ، ان تطول الحرب ويستهلك الجنود ما تشتريه حكوماتهم .. وبكلمة اخرى : لقد صار من سياسة هؤلاء ترويج صناعة الموت والمتاجرة بالأرواح .

اقتصاد عسكري وويلاته !

على الصورة الآنفة الذكر جرى تحويل اقتصاد اوروبا الى اقتصـــاد

عسكري . لقد شبّت صناعات جديدة ، وظهر الى الوجود نظام يوائم ذلك . فالعمال أقنعوا بالمعروف ، او أجبروا — بالتهديـد بالحبس او الوصم بالخيانة العظمى — بأن يتحولوا الى آلات في المجهود الحربي . لقد طُلب اليهم ان يتناسوا مستوى حياتهم العادية في ايام السلم ، وان يغفلوا تماماً عن طموحهم الى رفع ذلك المستوى ، الى حين . والموظفون الحكوميون شُغّلوا خضوعاً لتعليمات الانضباط الرسمي ومجالس التأديب التي يعقبها قطع أرزاقهم اذا عاندوا . والفلاحون ، في البلدان التي يؤخذ رأيهم فيها ، اصبحوا مضطرين للعمل والقبول بتسعيرة الدولة . كـل هذا لتزيد ارباح الرأسماليين وتتضخم !

لكن في هذا الميدان بعض التمييز . فقد كان لفرنسا نوع من التقليد الموروث من ايام نابليون .. ولهذا سرعان ما سارت عجلة الاقتصـاد العسكري في البلاد . اما في المانيا ، فلم يكن الأمر على مثل هذا القدر من السهولة . وأية ويـلات قاساها الشعب الألماني في اثناء ذلك !!

رذينو

واخيراً ، تم الفرج على يد والتر رذينو W. Rathenau ، فهو الذي اوصى بالنظام الجديد . اما من هو رذينو هذا ، فهو رأسمالي كبير من اصل يهودي ، كان وزيراً للمالية في المانيا ايام الحرب . ويرى بعض المعلّقين على شؤون الاقتصاد في الحرب العالمية الأولى انه يعود الى رذينو الفضل في تيسير امكانية القيام بحرب ، على المانيا منذ البداية . ويزعمون انه لولاه لما كان في مقدور غليوم ان يحارب .

الاحوال الاجتماعية تتأثر

لم تكتف الحرب بإبراز قضايا عسكرية واستراتيجية ، واقتصادية ، بالغة الأهمية ، وانما انتقلت الى الميدان الاجتماعي ايضاً . فمنها خُلقت



والتر رذينو
وزير مالية المانيا ابان الحرب . رأسمالي من اصل يهودي ..
وتاجر حرب أصيل .

مسألة رفه الجنود وعمال المجهود الحربي ، والمشتغلين في معامل الذخيرة وفي أثنائها واجهت الحكومات مشاكل تموين عائلات الغائبين في الميدان ، والتعويض عن المشوّهين العائدين ، ودهاليز الانحرافات الخلقية الشنيعة . وأهم من ذلك كله ، واجهت الحكومات مشاكل « الاثراء » و « جني لأرباح الفاحشة » .

وأية مبالــغ ضخمة كدّسها الاحتكاريون وكبار التجار !! كانت الأسعار دائماً على كفّ عفريت . وكانت الأيدي التي تتحكم فيها سريعة التقلّب واسعة الفُرجات ما بين أصابعها .. اما الناس العاديون ، الشعب ، فلم يكن لهم الا عدم الرضا ، ثم التذمر الصريح .. وأخيراً ، الثورة نفسَها فيما بعد . كما حدث في بعض دول أوروبا



رمز « المنتفعين بالحرب » في الصحف آنذاك
انه قبعة عالية وسيجار وراية « دولار » سوداء وعلم امريكي

كان ناهب الأرباح بقبعته العالية ، وسيجاره في فمه ، وبيده قدح من الشمبانيا هو الشعار الذي اتخذته دعاية المتذمرين رمزاً لها وحجة في يدها .

والواقع انه لم تعمِد أي من الدول المتحاربة الى الانفاق على حربها من اموال الضرائب التي يدفعها الشعب . على العكس من ذلك ، فإن بعض هذه الدول ، بما في ذلك ألمانيا نفسها ، عمدت الى تخفيض الضرائب العامة ظانّةً هذا الاجراء كفيلاً بامتصاص النقمة الشعبية وتخفيف حدة التذمر في بلادها .

اذن من أين سيأتي دفع نفقات الحرب ؟

كل دولة كانت ترى ان التعويضات التي ستتقاضاها من غريمتها المهزومة كفيلة بسدّ ذلك العجز . أما أثناء الحرب ، فإن اللجوء الى القروض الوطنية كفيل بذلك . ومن هذا القبيل انه كان في برلين تمثال خشبي ضخم لهندنبرغ ، ومثلُه في مختلف قصبات البـلاد ، يحق لمن يساهم بإقراض الحكومة الألمانية قدراً من المال أن يدق فيه مسماراً . وما اكثر ما دُقت في رأس هندنبرغ المسامير !



هندنبرغ ، وأحد المتبرعين
انه يدق مسماراً في التمثال الخشبي

واذا كانت فرنسا قد حوّلت اقتصادهـــا المدني الى آخر عسكري بسهولة ، والمانيا قد واجهت بعض الصعوبات اثناء تلك العملية ، فإن الحال يختلف عنه في بريطانيا . ذلك ان ما كان على الشعب البريطاني ان يواجهه آنئذٍ كان عسيراً . فالبريطانيون قد ألِفوا العيش في جو من نظام المغامرة الحر . وليست « الدولة » موجودة أو لا تكاد توجد ، إلا للمحافظة على الأمن والنظام . ما كان هناك تجنيد إجباري او خدمة علَم ، ولم يتوفر للشعب خبرة بالحروب في بلاد أجنبية ، فالجيش النظامي هو الموكّل بهذه المهمة : الاسطول يحرس البحار ، والقوات المحاربة تجتاز الى البر الفرنسي فتقوم بالقتال ، ثم تعود الى وطنها . ان ونستون تشرشل هو الذي رفع شعار « العمل .. كالعادة » . وهذا الشعار نفسه ، ما سخِر منه صاحب حانوت حين احترق مخزونه من البضاعة فعلّق على باب دكانه يافطةً عليها : « العمل ... كالعادة » .

كتشنر

هكذا كان جو الحياة في بريطانيا قبل الحرب وحتى في بواكيرها : لكنه قد تغيّر الآن .. وبكلمة من رجل واحد . فمن هو هذا الرجل ؟ انه كتشنر ، الذي كان يعتبر أقدر جنرال عسكري تتحرك قدماه على أرض بريطانيا . لقد سبق له ان أخضع السودان ، وكسب النصر في جنوب افريقيا . فلماذا لا يكسب النصر في فرنسا الآن !

لقد قضى كتشنر أربعين عاماً فيما وراء البحار خارج بريطانيا . وكان آخر منصب عهـــد اليه ان يكون حاكماً على مصر ، يسيّر خديويّها « أراجوزاً » فيها .

واذن ، فما هو وجه نفوذه الهائل على الشؤون في بريطانيا في تلك الحال ؟

كلمة حاسمة

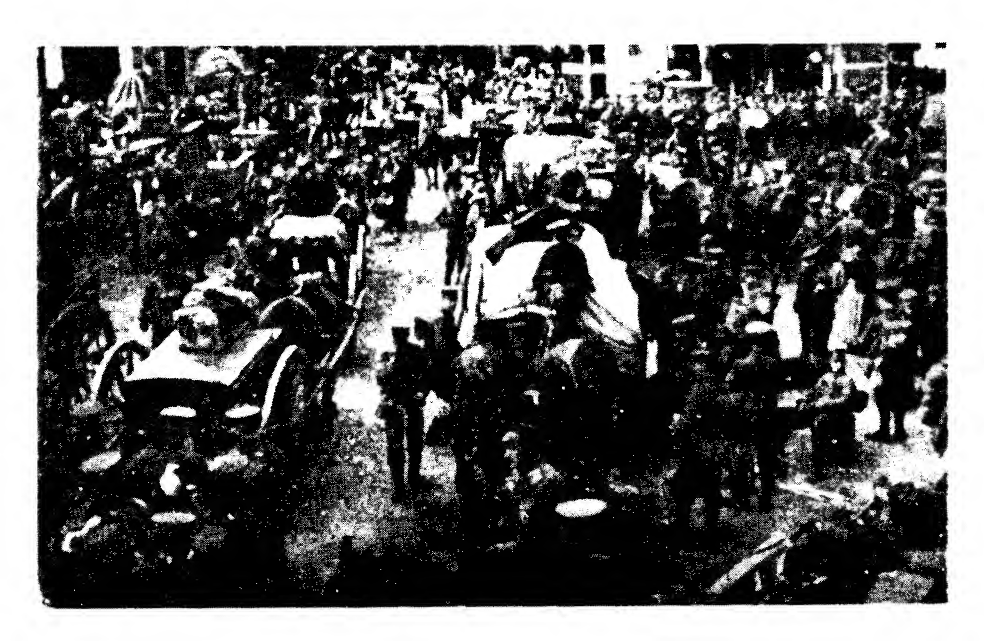
كان ذلك المغترب لأربعة عقود قد جاء بريطانيا زائراً يوم اعلان الحرب . انها مجرد مصادفة ، لكن المصادفة كانت عجيبة للغاية . فقد وجد كتشنر حكومة حزب الأحرار تتأرجح ، وأراد رئيس ذلك الحزب ان يدعم مركز حكومته ، فتعلّق بكتشنر وعيّنه وزيراً لشؤون الحرب ، متخيّلاً ان الرجل سيكون سهل القياد ، يسيّره حسب مشيئته . لكن كتشنر لم ير هذا الرأي في صاحبه . ففي الاجتماع الأول لمجلس الوزراء ، والذي حضره كتشنر ، صُعِق الجميع حين ألقى وزير الحرب كلمته الحاسمة . لقد قال : « ان هذه الحرب ستطول .. والى ثلاث سنوات او أربع على أقل تقدير » . ولم يسأله أي من الوزراء حجّته ، بل اكتفوا بأنه رجل حرب خبير ، وذو مجد عسكري ضخم . ولربما أنهم لم يقدّروا الآفاق التي تذهب اليها عبارته ، لأول وهلة . لكنهم سريعاً ما خبروها .

وقد يتساءل المرء عن تلك العبقرية الفذّة التي تمتع بها كتشنر ، وما دام انه استطاع تحديد دوام الحرب ، حتى منذ بدايتها . الواقع ان كتشنر لم يعطِ رأيه عن دراسة شاملة مستقصية ، ولا بعد اطلاع دقيق على تقارير الاستخبارات العسكرية – هذا مع ان تلك الاستخبارات كانت مخالفة له في الرأي – كما انه لم يكن قد فطن الى تغيّر نوعية الحرب بعد ، وانما قدّم ذلك الرأي اعتباطاً .

وفي تفسير صوابية هذا الاعتباط يقول لويد جورج عن كتشنر :

الومض الخاطف

« ان هذا الرجل له ومضة من وحي أو إلهام . فقد تتّقد في رأسه



كانت الحرب العالمية الاولى حرب خيول ، وهذه مشاكل
النقل التي واجهتها القوات الانكليزية في فرنسا تبعاً لذلك

فكرة ثم تومض على شكل عبارة ، لا يدري من أين أتته الفكرة ، ولا يدرك خطورة العبارة . ومع هذا يتصرف بموجبها .

إنه كالفنار للسفن ، فقد يلمع في أعلاه نور كلّه نجاة وبركة ، حين يكون الظلام حالكاً وأفق البحر أسود ، ثم سرعان ما يخبو النور فيطبق الظلام من جديد .

لكن السفينة التي لمحت النور لن تغفل ان تتجه صوبه فتأمن الغرق » .

* * *

كتشنر والتجنيد

في تلك الأيام كانت الوزارة البريطانية غير متحمسة لمبدأ التجنيد ، فما هي الحيلة التي سيلجأ اليها كتشنر ؟

لقد لجأ أول الأمر الى قبول المتطوعين . ومن هؤلاء كان في بريطانيا (١١) فرقة نصفهم من الخيّالة ، ومعظمهم من ابناء المستعمرات . لكن ، أترى الجنود الصالحين للخدمة في الهند ، وجلّ همهم هناك أن يستضعفوا المسالمين ، سيكونون أكفاء للصمود في وجه الفيالق الألمانية !! عن هؤلاء كان كتشنر يصرّح بأنهم « جنود نهاية الأسبوع » ، مشيراً الى أنهم يهتمون بالمتعة في أيام الآحاد أكثر من اهتمامهم بالتدريب أو القيام بمناورات فعلية .

اذن ، لم يبق لدى كتشنر إلا أن يؤسس جيشاً جديداً . وهـذا ما فعله حقاً ، فقد بدأ في انشاء « جيش كتشنر » .

دعاية رخيصة لكن ناجحة

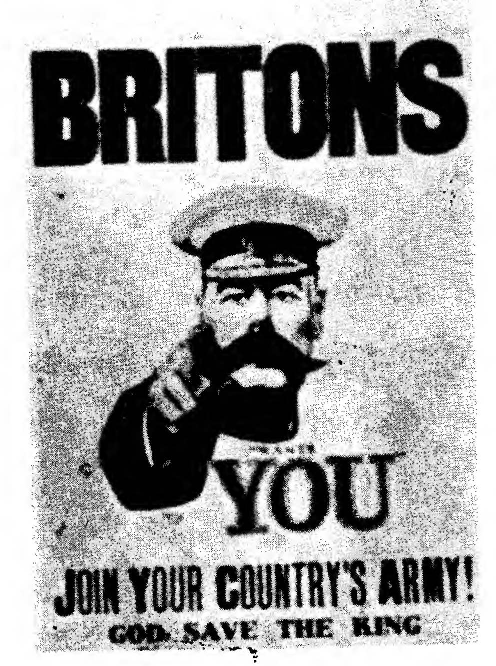
ومن الطريف أن نشير الى الطريقة التي سلكها هذا الجنرال في الدعاية لجيشه الجديد . لقد كلّف المطبعة الرسمية ان تطبع ملايين النسخ من صورة كبيرة حتى العنق ، تمدّ اصبعها مشيرةً الى كل بريطاني ، قائلةً له :

« ايها البريطانيون .. انه يطلبكم . انخرطوا في جيش الوطن ، وليحفظ الله الملكَ . »

هـذه الصورة ذات الشاربين المرعبين كانت تُطل من الشرفات ، والنوافذ ، وعلى الجدران في كل مكان يجتمع الناس فيه .

وكان كتشنر يتوقع الحصول على مئة ألف متطوع خلال الستة الشهور الأولى من تنفيذ برنامجه . لكنه بهذا الاعتبار كان مخطئاً . وبخاصة اذا علمنا ان أعلى رقم كان الجنرال ينشده هو نصف مليون . وهو الرقم الذي قدّر كتشنر ان المصانع المتوفرة لديه قد تستطيع تجهيزه وتسليحه .

لكن الحماسة اجتاحت بريطانيا آنذاك ، فلم يكد ينقضي الشهر الأول حتى ارتفع رقم المسجّلين في مراكز التطوع الى نصف مليون . وبدا ان السعيد السعيد من المتقدمين للتطوع هو الذي نال طلبه الموافقة . فما السر في ذلك ؟



« ايها البريطانيون : انخرطوا في جيش الوطن ، هكذا يطلب الملك »

كان المنخرطون الجدد في سلك الجندية قد رسموا للحرب صورة مرحة أقرب الى نزهة او « مشوار » . وحتى حينما عادت الجثث والمشوّهون من الجبهة ظل الاقبال على التطوع عظيماً . فطوال ثمانية عشر شهراً عقب

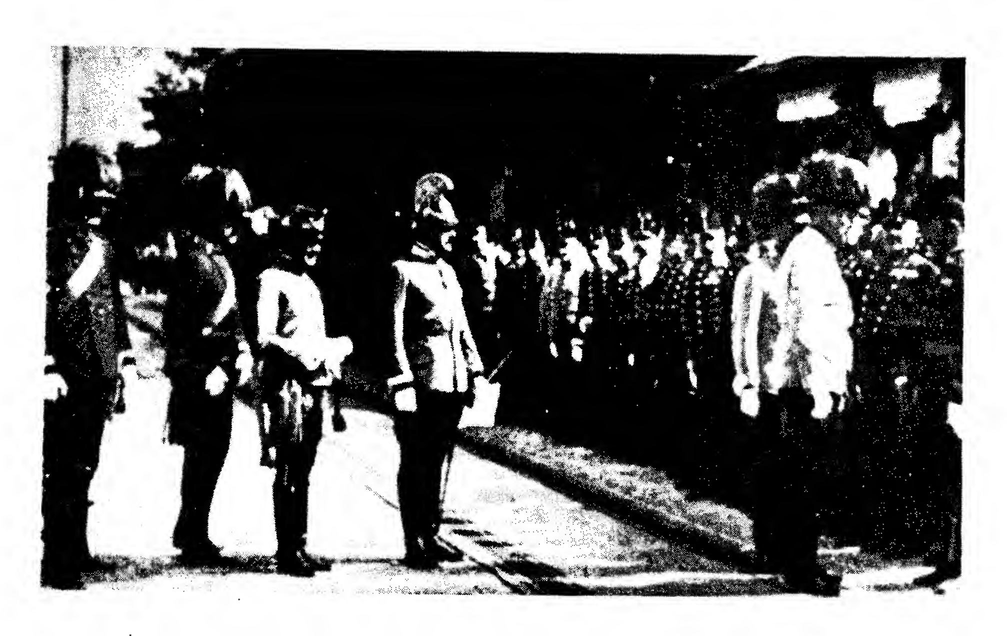
ذلك ، ظلت قوائم التطوع تطفح بمئة ألف رجل كل شهر ! ولو حسبنا المجموع على اساس هذه الوتيرة لحصلنا على رقم ثلاثة ملايين . والحق ، ان هذا العدد الهائل من الناس البريطانيين هم الذين مارسوا الحرب بصورة او اخرى .

وفي اول الأمر اغرق سيل التطوع كلاً من الحكومة البريطانية ومكتب الحرب في وزارة الدفاع . ماذا يستطيعون ان يفعلوا بهذا العدد! بيد انه .. لقد وُجدت المشكلة ، فصار لزاماً عليهم ان يواجهوها . ومن الطبيعي ان الرجال الأقوياء هم الذين يتقدمون اولاً ، اي انهم اول من يتلقون التدريب العسكري ويغادرون الوطن . فمن هم هؤلاء ؟!

وقود الحروب

انهم عمال المناجم والفلاحون . هؤلاء هم ذوو العضلات الصلبة والقدرة على احتمال المشقّات . هذا من ناحية . اما من ناحية اخرى، فهم الذين يودون تغيير واقعهم الذي كثيراً ما يكون تعساً ؛ وبهذه الرغبة يغدون اكثر اقداماً على المغامرة . أضف الى ما سبق ان الروح الوطنية متوفرة لديهم ، على الدوام ، وفي مساق التاريخ ، اكثر من غيرهم . لقد ظل ابناء عامة الشعب على الدوام وقوداً يحرقه القادة والحاكمون .. منذ ايام « الخالدين » في « فارس » ، الى الحرس « الامبراطوري» ايام « يوليوس قيصر » وحتى عهد « نابليون » و«قياصرة روسيا» وفرانز فرديناند في النمسا . وها هم الآن يقومون بدورهم نفسه في الحرب العالمية الأولى .

ولما كان هؤلاء هم الأكثرية الساحقة من كل شعب ، فإن اي



فرانز فرديناند يفتش الجنود في موستار قبل اغتياله .
وبعد اغتياله نشبت الحرب !

حرب تقوم ، تكون على حسابهم هم . ولكن .. من أين تأتي الحكومة لأعدادهم الهائلة بالتجهيزات الضرورية والسلاح !!

كان هنالك عدد صغير من معسكرات التدريب مبعثرة في البلاد . فاكتظت بالخلق منذ الاسابيع الأولى لافتتاحها . فأين يعسكر طوفـــان المتطوعين الآخرين ؟ طوال سنة ١٩١٤ و ١٩١٥ ظل المتطوعون يعيشون في خيام من الجيش . وما احلى الحياة في هذه الخيام في شتاء بريطانيا: بل في امطارها طول العام !

تجهيزات مضحكة

اما من حيث تجهيزهم ، فقد ظلوا يتدربون في ملابسهم المدنية لعدم تيسّر التجهيزات العسكرية لهم طوال عامين . كانت بنادقهم عصيّـــاً

غليظة ذات مسامير مدقوقة في رؤوسها ، وكانت احذيتهم مهترئة ، اذا لم نقل : ان الحفاء كان غير قليل الانتشار فيما بينهم .. وانها لمهزلة ما بعدها مهزلة ، أن اولئك المسلحين بالعصي والمزوقين بسراويل مختلفة الألوان — كانوا في تأهب دائم ، خشية ان يصدر الأمر فجأة لالحاقهم بالجبهة !

واذا كانت استثارة الروح الوطنية قد عبأت لكتشنر لوائحه في شهر واحد عوضاً عن ستة ، فإنها لم تنس ان تخلق له ولجنرالاته مشاكل كثيرة . فمن طبيعة هذه الروح انها سريعة الاشتعال قصيرة العمر ما لم يغذها الوقود . فما هو هذا الوقود في حال الحرب ؟ هو الانتصارات الصغيرة المتلاحقة ، او النصر السريع الكبير .

لكن أياً من هذه لم يتحقق . لذا كان على الساسة البريطانيين ان يجوبوا البلاد ، متخذين من مقدرتهم في الخطابة واستثارة المشاعر وسيلة يثبتون بها جو الحرب وافكارها في نفسيات المواطنين .

الثعلب !!

وفي هذا الميدان كان لويد جورج صاحب القدح المعلى . فقد ظل يعارض في اعلان الحرب ويسوق حججاً وجيهة تؤيده في نظرته ، حتى اللحظة الأخيرة . اما وقد تم اعلان الحرب فقد انقلب حماسه ضد الحرب الى حماسة في سبيل كسبها .

قبل لويد جورج الاشراف على الشؤون المالية في الحكومة ، اول الأمر . ثم ما عتم ان ظهر على المنصة العامة بين الشعب في ١٩ تشرين الثاني كمؤيد مندفع للحكومة . وكان هذا الرجل دماغوغياً . فبينما ظل الساسة الآخرون يخطبون الناس في لغة رصينة ترصعها عبارات دبلوماسية

متحفظة ، كان لويد جورج يسفّ في عباراته الى درجة السّباب .



«هراشيلو بتوملي يخطب الناس داعياًالى التبرع للجيش والاسراع في التجنيد .. ومن هذا سرق «الوطني الغيور» ٧٨ ألف جنيه !

مفلس يتاجر بالوطنية بالتقسيط

وما دمنا قد تحدثنا عن الخطابة وحملاتها في تلك الأيام ، فليس من اللائق ان نغفل رجلاً طريفاً حقاً في هذا المضمار . انه هُراشيو بتوملي . وهو رجل سبق ان اعلن افلاسه وخسر اعتبـــاره المدني قبل الحـرب . الا انه الآن أعيد ممثلاً للشعب ! (تربيـــون) . وكـان ذرب اللسان ، مـاهراً في الضرب على اوتار التأثر العاطفي ، يستغل الدين حيناً ، والوطنية حيناً آخر . وقد صنّف خُطبه حسب ما يأمل في الحصول عليه من اموال المتبرعين .

فهو يخطب عن ضرورة الاخلاص للوطن ، اذا كـــان المبلغ الذي يأمله اقل من (١٠٠) جنيه ، ويكون خطابه فاتراً قليلاً . اما اذا ارتفع المبلغ فان حرارة الخطاب ترتفع ايضاً . حينذاك يدخل « المسيح » ، « اميرُ السلام » حلبة المعركة : فيرضى « الأب » عمن يدفع لفرض « السلام الدائم المقبل » ، ويباركه « الابن» لأنه يساعد « حامي المسيحية» ، ملكَ بريطانيا .

اما اذا زاد المبلغ عن (٢٠٠) جنيه ، فعندئذ يغدو المستمعون ، ما اقربهم من قدم المسيح وقاعدة صليبه !

والواقع ان هراشيو جمع تبرعات ضخمة للحكومة ، كما جلب متطوعين عديدين . ومن الطبيعي انه لم ينسَ ان يهتم بشؤون نفسه ايضاً.



يجمعون « شلن » الملك ، من كل رجل ، اعانة للجيوش الانكليزية المحاربة

كان يزعم ان الناس يتبرعون حباً في المسيح ، فما يمنع هراشيو ان يتبرع بأخذ بعض تبرعاتهم لجيبه الخاص ! لقد جمع (٧٨) الف جنيه ، انفقها على الشمبانيا وخيول السباق ، والنساء ..

سلخانة وبعوضة ومجد !

بمثل هذه الوسائل وغيرها تم ابقاء الحماسة في نفوس الناس في بريطانيا على أشد درجة من الاستثارة . ومثل ذلك كان الحال في فرنسا والمانيا

ايضاً . وفي كل مكان كان الرجال يُخدعون عن طريق العواطف النبيلة المغلّفة ، حتى اذا ما تخدّروا ولانت قناتُهم ، دفع بهم القادة والسياسيون الى سلخانات كتبوا على نواصيها لفظة « التضحية » . هذه السلخانات هي التي يطلق عليها المؤرخون اسم « معارك الحرب العالمية الأولى » . والحق ان روبرت بروك كان يتكلم بلسان جيل بريطـاني كامل حين قال : « حمداً لله ، لقد آثرنا بساعته » . الا انه مات بعد ذلك ببضعة ايام .. لقد لدغته بعوضة فقضت على مجده كله .

وكان الجهل عاملاً مساعداً في ابقاء جذوة الحماس هذه . هكذا شاء جنرالات الحرب : فكانت الجرائد تخرج خالية من اخبار الجبهة ، واذا ما سُمح لها بالاشارة الى ذلك تم بعد غربلته في منخل الرقيب وثقوبه الدقيقة . اما المراسلون الحربيون فقد ظل الاقتراب من منطقة العمليات العسكرية محرماً عليهم .

التعمية عن الواقع

وهكذا ، لم يدر البريطانيون ان جيشهم يتقهقر من امام العدو خشية ان يفترسه التطويق . ولم يدر الفرنسيون ان جيوشهم قد انشطرت ، بل سُحقت عندما اصطدمت بالقوة الغازية ، وان بلادهم قد خسرت معركة الحدود ، فأراضيهم تئن تحت احذية مهاجميها . ومثل هؤلاء كان الألمان ، فقد أخفي عنهم ان خطة شليفن قد اخفقت ولم تأت بالنصر السريع المرتقَب . اما من حيث قطعان الروس فان القيصر وقيادته ما كانوا يعتقدون ان من حقهم ان يعرفوا شيئاً عن ابنائهم في الجبهة .

لكن الأخبار لا بد ان تفتضح آخر الأمر . وقد تسربت كل هذه الشذرات بالتدريج ، فلم تفعل اكثر من زيادة الجنون والحماقة في المواطنين : صار البريطانيون يتحرقون لمحو وصمة التراجع الاضطراري على جيشهم ، والفرنسيون يلتهبون للأخذ بالثأر ، والروس تسوقهم

الكنيسة والجوع وفرسان القوزاق الموتورون .

صحافة الخيال

ولما كانت الصحف مصدراً غير كافٍ لأخبار الحرب ، فقد خلق ذوو الخيال الخصب مصدراً آخر . لقد راجت الشائعات . ومن ذلك ان اشاعة ظهرت في بريطانيا تقول : ان مليوناً من الجنود الروس قد نزلوا الى البر في « أبردين » ، وهم في طريقهم الى الجبهة الغربية في فرنسا لسحق الألمان هناك . اما لماذا كان هؤلاء الجنـــود روساً ، فلأنهم حلفاء اولاً ، ولأن عدد رعايا القيصر يسمح برفع الرقم الى مليون . واما لماذا نزلوا في أبردين ، وليس في لندن ، او اي مرفأ آخر قريب على فرنسا ، فلكي تبعد الشقة فيصعب التكذيب .

وكان المرء يجد فرداً او آخر ممن شاهدوا هذا المليون الوهمي ، اذا سار في الشارع . فهذا يصف معاطفهم الطويلة ، وآخر يرسم بأصابعه



جواسيس ينقلون في عربة برسيم

« قلابقَهم » ، وثالث يحلف بأن قريبة له جاءت من ابردين قد خطبها احد ضباطهم !

ومن هذا القبيل ذلك الجبل الأسطوري الذي أشيع عن وحشية الألمان في اراضي البلجيك وفرنسا المحتلة. فقد زُعم ان ايدي الأطفال الصغار كانت تقطع، ونهود الراهبات تُبتّر من اصولها. اما هتك الاعراض والتفظيع مع النساء فقصص مختلَقة، حدّث عنها ولا حرج.

واليك مثلاً عن قصة حقيقية كيف حُوّرت آخر الأمر.

الجرسية المباركة والخوري الاصلع

من الطبيعي ان يكون في القرية كنيسة، وان يكون للكنيسة جرسيّة، وفي الجرسيّة جرس. وهو في العادة وسيلة من وسائل الإعلام في القرى، اذ يُدَقّ كلما حدث ما يوجب ذلك، سواء كان وفاةً او اكليلاً.

وغزو الألمان لقرية بلجيكية اهم عند اهل تلك القرية من أيـة جنازة او عقد إكليل. وهكذا دق احد القرويين جرس الكنيسة في قريته حين شاهد الألمان يتقدمون صوبها.

ان هذا خبر عادي، ظل يحدث منذ القرون الوسطى حتى يوم الناس هذا. لكنه في حال قدوم الألمان، وخضوعاً لموجة الشائعات في الحرب الكبرى تغيّر الى ما يلي:

في أول الأمر صار ينطوي تحته ان الالمان قيّدوا الخوري وكمّموا فمه، واستعملوا رأسه الصلعاء بدلاً من «طـابوش الجرس». ثم اصبحت «العناية الالهية» هي التي دقّت الجرس للتحذير من «الوحوش» الزاحفين.

وهكذا صارت «دقة الجرس» معجزةً من معجزات الرب!!

فمن كان يُبدع هذه الشائعات؟

انه خيال الصحفيين اولاً، ثم تحبيذ مكاتب الاستخبارات المحلية ثانياً. فالصحفيون لا يجدون مادة لحقول صحفهم. لذا يملأونها بهذا



الجنود الالمان يولدون الكهرباء بواسطة دراجة

الهراء . ومكاتب الاستخبارات لا تمانع في نعت جيش العدو بكل مقبحة ونقيصة .

وزاد في نجاح هذه الشائعات وتصديق الناس لها ان العوامل النفسية كانت مساعدة جداً . فالبريطانيون والفرنسيون والالمان ورعايا الامبراطورية النمسوية والروس .. كل هؤلاء قد فشلوا في تحقيق ما قدّره لهم ساستهم وجنرالاتهم . وهم جميعاً لا يقبلون فشلهم كحقيقة واقعة ، فهم لم يكونوا يتصورونه البتّة . اذن ، فلا بد من اختراع معاذير وتبريرات.

سيقان الراهبات المشعرة

ووقع الاختيار على قضية التجسس .. صار الناس يشكّون ان كل غريب هو جاسوس للأعداء . لم يعودوا يثقون بأنفسهم . لكنهم كثيراً ما تساءلوا : ما هي البؤرات التي يمكن للخيانة ان تعشّش فيها ؟ انها المناصب الكبيرة طبعاً ، ثم المجتمعات المغلقة . وخير المجتمعات المغلقة

هي الأديرة للرهبان والراهبات ، ومناصب العسكريين . أما المجال العسكري ، فالمدنيون لا يجرؤون على اتهامه ، والا نالوا جزاء «المحكمة العسكرية» . وأما الأديرة فقد وقعت ضحية لم تجد من يدافع عن سمعتها .

ففي بريطانيا مثلاً ، صار الناس يقولون : ان جواسيس الألمان منبثون بين الراهبات ، وعليهم ملابسهن ، وما عليك حين تشك في راهبة الا ان تكشف عن ساقيها حتى الفخذين . فإذا وجدت الشعر الأشقر يغطيها ، فألق عليها القبض .. انها جاسوس .

وفي فرنسا كانت كل عربة من عربات سكة الحديد تزينها يافطة كبيرة مكتوب عليها « أذن العدو تسمع » ، فأدى ذلك الى موجة عارمة من الارتياب في كل غريب . بل في كثير من المواطنين أنفسهم . فها هم الاثرياء البريطانيون الذين اتخذوا لهم ملاعب ممهدة للتنس تدور حولهم الشائعات . فالريفيون يعتبرون ان تلك المساحات قد أقيمت تحضيراً لمدافع الالمان كي تتركز فيها لتقصف لندن . ولهذا فهم يرون ان على الحكومة ان لا تسهل هذه العملية ، بأن تخرب أرضية تلك الساحات . هذا ، كما ان عليها إن تبعد الألمان المقيمين في بريطانيا ، لأن هؤلاء حتماً أعوان لبني وطنهم المهاجمين .

وخضوعاً لذلك نقلت الحكومة بالفعل ارهاطاً من خدم المطاعم وعمال المرابع الالمان الى جزيرة مان .

رعاع لندن

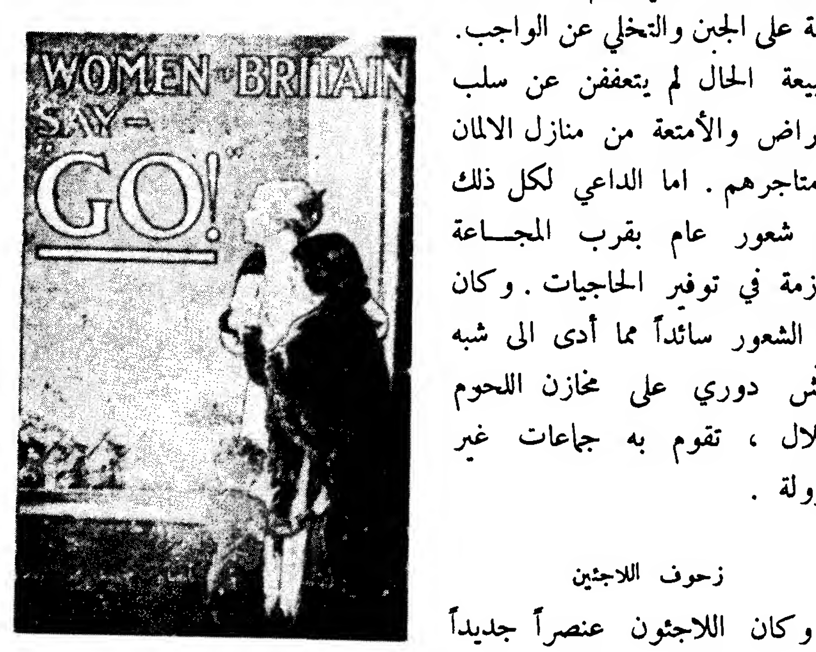
لكن الأمر لم يقتصر على التسفير والحجز ، فقد سارع رعاع لندن والعواصم الأخرى في البلاد ، الى نهب المتاجر والحوانيت التي يمتلكها الألمان . ولما فرغوا من هذه « المأثرة الجليلة ! » التفتوا الى المتاجر الأخرى ، فطفقوا ينهبون كل مخزن يبدو اسم صاحبه غريباً على أسماعهم . وما أكثر متاجر الفرنسيين والاسكندنافيين التي تحولت الى انقاض !!

مثل هذا تم في فرنسا بالنسبة للغرباء المقيمين فيها . وكذلك في المانيا ،

وفي روسيا . وذلك بخلاف الامبراطورية النمساوية حيث حوفظ هناك على قدر اكبر من عوائد المدنية المهذبة .

شارات الجبن

وفي لندن كانت النساء يتظاهرن في الشوارع وهن يحملن شارات بيضاء يوزعنها على من يجدنهم لا يزالون في الملابس المدنية . وهذه الشارات هي علامة على الجبن والتخلي عن الواجب. وبطبيعة الحال لم يتعففن عن سلب الأغراض والأمتعة من منازل الالمان أو متاجرهم . اما الداعي لكل ذلك فهو شعور عام بقرب المجاعة والازمة في توفير الحاجيات . وكان هذا الشعور سائداً مما أدى الى شبه تفتيش دوري على مخازن اللحوم والغلال ، تقوم به جماعات غير مسؤولة .



« يا نساء بريطانيا ، قلن للشباب : اذهبوا الى الحرب » ، ومعنى ذلك : اذهبوا الى الموت ..

زحوف اللاجئين

وكان اللاجئون عنصراً جديداً يزيد في الفوضى والاضطراب . ففي عرض أوروبا كانت الجموع البشرية تزحف من امام الجيوش المتقدّمة . وكنتَ ترى مدداً من الناس لا ينقطع ، على جوانب الطرق ، وأمام العائلة عربة يجرّها بغل أو حصان ، وفي بطن الكارّة ألحفة وبطانيات وطناجر وحطام من أثاث .

وكانت هذه الأسر النازحة قلّما تتخطى حدود بلدها ذاته .. وإنما تستقر في موضع آخر غير موطنها الأصلي ، فيه ، فيكون افرادها والحال

هذه غرباء ، لا أجانب .

لاجئو بلجيكا

بيد أن هذا لا ينطبق على البلجيكيين ، اذ لم يبق لهم وطن بعد ان احتله الألمـــان بكامله . فصار النازحون منهم يقفون على شاطىء البحر طالبين الفرج ، شاخصين الى سفينة تنقلهم الى بريطانيا .

ان مئة ألف بلجيكي قدموا الى بريطانيــا في تلك الفترة ، حظي معظمهم باستقبال مشبع بروح الود والعطف أول الأمر . غير ان الحال تغير سريعاً ، فالبلجيكيون يُلقون تبعة تعاستهم على عاتق بريطانيا التي لم تحمِ بلادهم بصورة أكثر فعّالية ، والبريطانيون يعتبرونهم سبباً قد جرّهم الى ورطة كبيرة .

وكان البريطانيون يظنون ان كل بلجيكي هو بطل .. ألم يقاتل الألمان ؟ فلما اختلطوا بهؤلاء النازحين ، وجدوهم اناساً عاديين ، فيهم الوطني المتحمس ورجل اللامبالاة العربيد . فشعروا بالخيبة ، وبهتت ألوان الصورة التي سبق ان رسموها في مخيّلاتهم ، مما ادى الى مناكفات كثيرة بين الفريقين .

ولم يستطع النازحون ان يكيّفوا انفسهم حسب ما تقتضيه وضعيتهم الجديدة .. فالمصانع البريطانية من طراز يختلف عن مصانعهم ، وعمالهم يتقزّزون من مرؤوسية المشرفــين الانكليز . وأخيراً .. تم نقلهم الى نورتمبرلند ، حيث أعطيت لهم مدينة خاصة بهم . وهناك شكّلوا شبه حكومة مدينية بلجيكية : نظموا بوليسهم الخاص وأقاموا البنايات على نسقهم المتميز بهم ، وحتى البيرة جعلوها بلجيكية صِرفاً .

* * *

في الحرب نزعة الى التوحيد المحلي

على الرغم من الصورة القاتمة التي كانت عليها أوروبا (كما رسمنا)

في هذه الأثناء ، ظل هنالك حماسة للحرب . فالعداءات خفت صوتها ، سواء في البلد الواحد بين فئات شعبه وأحزابه السياسية ، أو بين بلدين مختلفين يقفان الآن تجاه عدو مشترك . لم يعد هناك اضرابات مدمرة تنهك الاقتصاد في أوروبا . في بريطانيا أوقف « المسحوقون » حملتهم في سبيل إنصافهم عن طريق العنف . وفي فرنسا ، كان « المستقبليون » الذين طالما أقلقوا راحة البلاد بمطاليبهم ، مبتهجين يصفقون لهدير المدافع . وحتى القوميات التي طال عهد تذمرها من مضطهديها كفت عن التذمر وأجلته . فالايرلنديون أقبلوا على التطوع بحماس ، والكرواتيون قاتلوا اخوانهم الصربيين بضراوة ، وفي خدمة الامبراطورية النمساوية — مع ان الكرواتيين والصربيين جميعاً من السلاف الجنوبيين . والتشيك الذين استسلموا للجيش الروسي ، فعلوا ذلك كرهاً منهم في الحرب ، لا بفعل المشاعر القومية كـ « سلافيين » . والثوريون الاشتراكيون في روسيا ، وهم من كانوا قد نذروا انفسهم لمعارضة الحرب ، غدوا الآن من دعاتها ومن أشد المتحمسين للفوز فيها .

وحتى النواب البولشفيك في مجلس الدوما القيصري في بطرسبرج ، أعلنوا أنهم سيؤازرون الحرب ما ظلت حرباً شريفة غايتها الدفاع عن أرض الأجداد . لكن هذا لم يجنبهم النفي والتشريد في قفار سيبريا بعد اعلانهم السابق بفترة قصيرة .

لينين يعارض الحرب

وفي هذه الأثناء كان هنالك شخص ظل ضد الحرب منذ بدايتها حتى النهاية . انه لينين . فقد ظل هذا المشرد الروسي في منفاه بسويسرا يعلن معارضته للحرب . لكن المعارضة اللفظية لم تكن ذات جدوى ، ولينين لا يستطيع غير ذلك . ولهذا انصرف الرجل الى الاشتغال بتأليف كتابه « الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية » ، معظم الوقت .

وإذا كان لينين قد ظل خفيض الصوت ، فإن « برنارد شو » لم يقنع بذلك . إذ هزّت روايته « الحقيقة حول الحرب » الجزر البريطانية هزاً عنيفاً . ففي هذا الكتيّب خرج برنارد شو صارخاً « بأن حياد بلجيكا وعدم احترامه ليس الا مبرراً مختلقاً لاعلان الحرب . اما السبب الكامن فعلاً ، فهو الصراع مع منافس خطير للأسد البريطاني العجوز » . كما اشار الى « ان هذه الفرصة هي ربيع بريطانيا الأخير » .



رئيس وزراء المجر يفكر في مصير بلاده
انه هو الذي « طرد » برشولد وزير خارجية النمسا من منصبه .

الساسة وثقة شعوبهم

والغريب بالفعل ان أياً من الساسة الذين انغمسوا في الحرب وأساؤوا

التصرف إبّانها لم يفقد ثقة شعبه نتيجة لتلك المساوىء . إن « أسكويث » و « فيفياني » و « بتمان » ظلوا ابطالاً وطنيين . وحتى « برشولد » الغبي لم يجرِ التخلص منه كوزير خارجية للامبراطورية النمساوية – المجريّة الا في اوائل سنة ١٩١٥ ، حين تقـدم رئيس وزارة المجرَ المسيو « تسيزا » شخصياً ليضغط في سبيل طرده على الامبراطور .

انك غبي يا سيدي !

ومن الطريف ما حدث بين رئيس الوزارة ووزير الخارجية ، فقد قال رئيسُ الوزارة : « انك غبي وسأعمل على طردك . سأحدّث الامبراطور بصدد ذلك » . فكان جواب برشولد : « أبلغْه ذلك ، فقد سبق ان قلت له بنفسي مثلما تقول ، ولكنه لم يفعل . لقد حدثته عن غبائي كل يوم » . ونجح الضغط ، فأُبعد ذلك الوزير الغبي .



النمساوي الغبي والالماني الطيب القلب ! !
برشولد العجوز ، ومستشار المانيا بتمان ، الشاب

ومثل هــؤلاء الساسة كان الجنرالات : لم يفقد اي منهم منصبه وشعبيته لاخفاقه في الحصول على نصر كان يمنّي مواطنيه بنيله . نعم إن غليوم قد صرف « مولتكه » من الخدمة واستعاض عنه بـ « فولكنهاين » ، ولكن هذا لم يكن رجل مجتمع .. فلم يؤثر وجوده على شعبية مولتكه السابقة . فسنّى ذلك لهندنبرغ أن يرث تلك الشعبية .

كذلك جوفر ، ظل هو الحاكم المطلق على خط الجبهة للحلفاء : ظل يحتل مركزاً سامقاً ، وكأن غباءه في عدم انتهاز الفرصة حين تراجع الألمان ، وسامٌ رفيع يتقلده . كان الفرنسيون والحلفاء على السواء ينظرون اليه كعبقرية فذّة نادراً ما يجود بمثلها التاريخ . هذا مع ان غالياني كان أبعد نظراً فيما يتعلق بالدفاع عن باريس والانقضاض على مؤخرة الالمان منها .

وكتشنر بدوره ، كان يتمتع بثقة البريطانيين العظيمة .. حتى زملاؤه في الوزارة أذهلتهم شخصيته أول الأمر فلم يناقشوا آراءه . لكنه سرعان ما تبيّن لهم ان تاريخــه الطويل في مصر والهند هو الذي كان يستغلّه الرجل ، لا القدرة العسكرية .

وأدهى من ذلك وأمرّ ، ان السير جون فرنش ايضاً ظلت مقدرته على « التراجع » من امام الالمان تلقى تبريراً كافياً .

ومجمل القول .. كان الناس في أوروبا يعتقدون ان كسب الحرب لا زال ممكناً . وكانوا يناقشون القضية على الوجه التالي : « نعم ، ان نصراً سريعاً لم يتحقق في سنة ١٩١٤ ، وذلك لضخامة القوى الالمانية المعادية ، لكن هذا سيتم في سنة ١٩١٥ . ان حملةً ضخمة حسنة التجهيز لا بد ان تتفوق على الالمان فتنتصر الجيوش الحليفة » . وعكس ذلك يفترض الالمان .

«مبدأ التفوق في الكم»

وهكذا .. كان « الكم » هو العامل الحاسم في المعركة ، في نظرهم . وما دام الحال كذلك ، فلمَ لا يزيدون رهوط جيوشهم ! ؟ اذن ، عليهم بالتطوّع .

لكن الانطلاق من فكرة « الكم » هذه ، أثّر على نوع التدريب العسكري الذي يجب القيام به . فالتدريب في هذه الحال يجب ان يعتمد على اتقان استعمال السلاح الابيض . لهذا نجد شعار «حراب — ركّب» هو الايعاز الغالب على تدريب متطوعي الحلفاء في هذه الفترة .

حراب .. ركب

و « حراب — ركّب » هذه : تعني « العودة الى مبدأ الهجوم » لا « الدفاع » . ومن ذلك نخرج بأن الجنرالات كانوا منطقيين تماماً ومنسجمين مع مبادئهم حين اهملوا العناية بالأسلحة الدفاعية كـ «الماشين— غن » واعتبروها سلاحاً غير مرغوب فيه . ولو سلكوا خلاف هذه الطريق لكان معنى ذلك انهم يقولون :

« لقد حاولنا النصر عن طريق الهجوم ففشلنا ، فنحن نحاوله الآن عن طريق الدفاع . » وهل هذا ممكن او مقبول في نظر «آلهة الحرب» ! !

* * *

علام نتقاتل !

يقولون : « بعد السكرة تأتي الفكرة » . لكن هذا لم ينطبق على الحرب العالمية ، بل على جنرالاتها بشكل خاص .

فقد انتهت شهور عام ١٩١٤ ، وخلّفت قتلى وجرحى ومشوّهين، ولاجئين وقرى ومدناً مدمّرة.. وها هو عام ١٩١٥ .. فهل تساءل اي



الجنود الكنديون في وضع « جنود ! حراب – ركب »
وذلك قبل تسلقهم القمة لتطهيرها من العدو .

من الجنرالات قائلاً : « علامَ نتقاتل ؟ » . كلا . لقد بدأ الجميع الحرب ، وهم في سكرتهم ، وانقضى العام الأول وأطل الثاني ، وهم لا يزالون فيها . ان احداً منهم لم يُفِق .

كان الألمان قد بدأوا الحرب ليكسبوا ، والحلفاء يحاربون دفعاً للهزيمة. بيد أنه لم تكن هناك أهداف محددة ، فالألمان يكسبون « ماذا » ؟ والحلفاء « اي هزيمة يدفعون » ؟ . نعم ، كان الفرنسيون يأملون استعادة الالزاس واللورين ، ولكن : هل تسوى الالزاس واللورين تلك القرابين التي دفعتها فرنسا في الحرب ؟

الانتصار هدف لذاته

والبريطانيون .. كانوا يختبئون وراء دعواهم في تحرير بلجيكا . لكن هذا قد يبدو سبباً للحرب ، لا مبرراً كافياً لاستمرارها . اذن ، لماذا استمرت الحرب ؟؟ ذلك ان « الانتصار » نفسه اصبح « هدفاً » اي ان الحرب قد استعبدت مشيئة القائمين بها . انه جنون « الكبرياء القومية » .

واذا كانت الحرب قد خلقت هذا الجنون ، فانها خلقت اشياء اخرى من شاكلته . واول هذه المواليد تغيّر العلاقات الدولية .

فألمانيا مثلاً ، ظلت تعتبر روسيا عدوها الاول منذ القديم ، كما تعتبر بريطانيا وفرنسا لا اكثر من منافستين اقتصاديتين ، ترضى منهما ببضع مستعمرات في افريقيا او غيرها . ان المانيا واحداً ما كان يفكر في الاستحواذ على بلجيكا او سلخ شمال وشرقي فرنسا من حكومة باريس ، من قبل .

الالمان واستعمار الشعوب الاخرى

اما الآن فقد تغير ذلك . لقد اصبح الالمان يطمعون فعلاً في مد نفوذهم الى الشرق . وتراءت لهم صور خط حديد برلين — بغداد

ذهبية مشرقة . وصاروا يخططون حدوداً جديدة لنفوذ المانيا .. ويوسعون تلك الحدود حتى خليج العجم ، بل ربما قفز بعضهم الى الهند .

وكذلك الحال تجاه فرنسا ، فان لها مستعمرات غنية في شمال افريقيا .. فما المانع ان يدرس ابناء مراكش الألمانية بدلاً من الفرنسية ، ومثلهم الجزائريون ، واهل تونس ؟

كان هذا هو رأي ملقّني السياسة للصحف والشباب.. وهو ينطبق مع نظرات كبار رجال الصناعة ايضاً . ولهذا نجد هؤلاء يشجّعونه ويحاولون تطبيقه .

تصنيف العدو من جديد

وهنا تبرز حقيقة جديدة هي المولود الذي تكلمنا عنه . فقد اصبحت فرنسا وبريطانيا هما العدو الاول لالمانيا . اما روسيا فقد غدت المانيا تقنع منها ان تدعها وشأنها . لكن روسيا لن ترضى بذلك ، فهي تريد التعويض لا شك . اذن ، لماذا لا يتم الصلح معها على اساس اعطائها مغنماً على حساب النمسا او تركيا ..

وهذا ما فكر فيه اولو الشأن في المانيا .

ثم ان التحليل الالماني تعدى هذا الحد . فحتى فرنسا — مع ان جيشها البري هو العقبة الكبرى في الجبهة الغربية — يمكن اجبارها على حل أساسه المصالحة . ان قهرها ليس مستحيلاً على كل حال . بل انه غير عسير ابداً لولا بريطانيا واموالها ، واسطولها وجيشها البري ايضاً .

اذن ، فالعدو الاول لالمانيا انما هو بريطانيا بالذات ، فها هي لندن قد اخذت تتدخل في شؤون اوروبا ، تحاول منع اتحادها بزعامة المانيا في دولة ضخمة قوية .

بريطانيا العدو الاول

وهنا تدخل عامل « الحقد » والكراهية . لقد تغذّى الالمان بكره

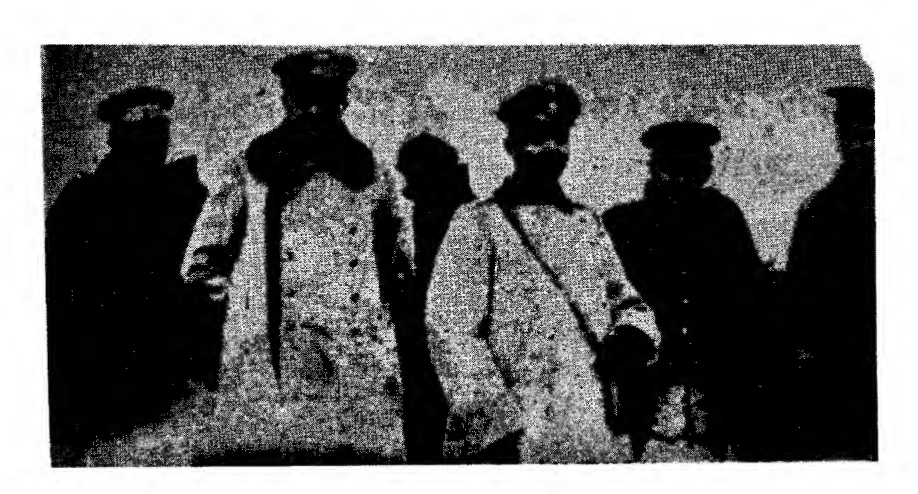
بريطانيا ؛ وصار قادتهم ينتظرون اليوم الذي تحل فيه اللعنة على هذا العدو اللدود .. صاروا يتمنون للجزر البريطانية ان تدمرها الامواج او يبتلعها المحيط. . وما دام المحيط لن يفعل ذلك كما يبدو ، فعلى المانيا ان تقوم بالمهمة .. عليها ان تكون سبباً في انهيار الامبراطورية البريطانية مهما كان الثمن .

هذا هو الشعور الذي ساد اوساط الحرب الالمانية آنذاك .

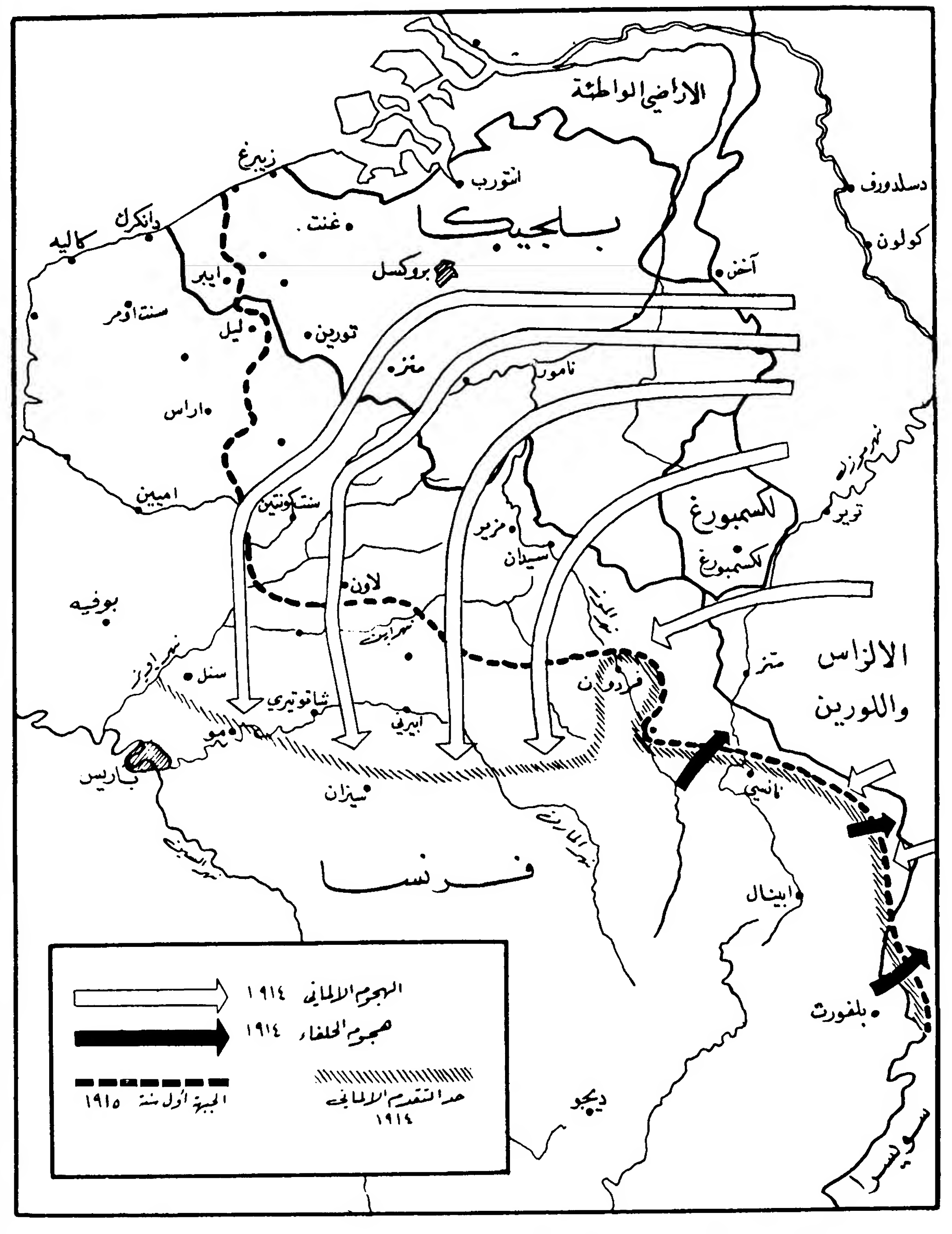
ومن الطبيعي ان يكون هناك شعور مناظر له على الجانب الآخر من بحر الشمال . فالبريطانيون الذين يعيشون في بحبوحة من خيرات مستعمراتهم لن يسرّهم فقدان امبراطوريتهم وأسواقها . وملك بريطانيا و «امبراطور الهند » لن يظل هانىء البال اذا كان قريبه غليوم يطمع في طريق الهند . وهكذا تحوّلت الحرب الى نوع من المباراة الثنائية بين المانيا وبريطانيا .

اخوّة البشر رغم الحروب

واذا كانت المشاعر العدائية المتبادلة قد احتدّت الى هذا القدر في



الاخوة، في عيد الميلاد سنة ١٩١٥
هؤلاء ضباط من الجيوش المتحاربة



خريطة الهجوم الالماني وهجوم الحلفاء المعاكس سنة ١٩١٤ ، والموقف الحربي حتى اول سنة ١٩١٥

رؤوس الساسة والجنرالات البريطانيين والالمان ، فانها كانت خلاف ذلك بين الضباط والجنود في الجبهة ، وبخاصة الفرنسيين المواجهين لاستحكامات الالمان . ففي يوم عيد الميلاد ، تقدم كثيرون من جنود وضباط الطرفين الى « الارض الحرام » بين المواقع ، وتبادلوا السجاير ، وصافحوا بعضهم بعضاً، وتبادلوا الطُرَف والنكات على رؤسائهم. وفي مواقع اخرى تباروا في كرة القدم . ومثل هذا فعل البريطانيون .

لكن الأوامر التي تلقّاها هؤلاء من قياداتهم كانت تتضمن التوبيخ الشديد .. ولذلك استؤنف اطلاق الرصاص ، تدريجياً ، بعد بضعة ايام.

وقد صاغ هذه النادرة شاعر انكليزي .. فقال :

« لقد سمع الله الامم المتحاربة ترنّم قائلة :

« يا رب دمّر بريطانيا »

و« اللهم احفظ الملك »

و« الله .. افعلْ هذا »

و« الله .. لا تفعل هذا »

فقال الله :

« يا إلهي .. انا لا ادري ما افعل »

لقد افسدوا عليّ عملي . »

الفصل الثاني

١٩١٥

لقد صدق لويد جورج حين قال عن كتشنر « ان لهذا الرجل ومضة من عبقرية » ، ففي الثاني من كانون الثاني سنة ١٩١٥ يبدو ان تلك العبقرية هبطت عليه . اذ كتب الى السير جون فرنش ، قائد الحملة البريطانية في فرنسا ما يلي :

نحن عاجزون

«أرى انه يتوجب علينا الآن أن نعترف بأن الجيش الفرنسي عاجز عن اختراق خطوط الجبهة الألمانية المقابلة ، كما أنه حتى لو اخترقها ، عاجز عن ان يفتح فيها صدعاً كافياً لاتخاذه نقطة ارتكاز فعّالة في إجبار الالمان على التراجع . ومعنى هذا ، انه من الواجب الاعتراف بأن الجبهة الالمانية في شمال شرق فرنسا قلعة لا يمكن أخذها بالقوة ، كما لا يمكن زحزحتها . اذن ، فان اي هجوم نقوم به لن يكون الحاسم في الحرب » .

وهذا بالفعل ما كان يقتضيه الموقف .

كانت النظرية السائدة في الحرب آنذاك تقول بأن العدو يجب ان يهاجم في اقوى نقطة لديه . فاذا ما سقطت هذه ، تم النصر النهائي فيما بعد . وكانت اقوى النقاط ، لدى الحلفاء والالمان على السواء ، هي قوات الطرفين المتقابلة في شمال شرق فرنسا . اضف الى ذلك ، ان القيادة الفرنسية كانت ترى الارض الفرنسية محتلة فيصاب جنرالاتها

بالدّوار . انهم يودون صيانة شرفهم العسكري بحفظ شرف مواطنيهم القومي . ولربما كان بعضهم يفطن الى ضرورة تغيير استراتيجية الحرب نفسها ، بعد ان ثبت فشل نظرية « الهجوم » ، ولكن .. هل ستبقى الحكومة الفرنسية نفسها اذا قررت ، بتحبيذ من الجنرالات ، الأخذ بنظرية « الدفاع » ؟

هذا ما كان الجنرالات العقلاء لا يجرؤون على الاجابة عليه .

ان خللاً قد طرأ على « نظرية الهجوم » في سنة ١٩١٤ ، لكن ، اين من يعي هذه النقطة حقاً ! ان قوة الاستمرار قوة عنيفة .. وبحكمها ظل الفرنسيون يُنزلون « نظرية الهجوم » منزلة الحقيقة المسلّم بها .

كتشنر وطموحه الى القيادة

ومهما كان الحال ، فقد جر الفرنسيون حلفاءهم البريطانيين معهم . كانت القوات البريطانية المحاربة جيشاً مستقلاً ، من حيث الاعتبار الرسمي . اما في الواقع التطبيقي فهي ضمن نفوذ جوفر ، وتسير حسب توجيهاته . لقد راع كتشنر صغرُ المساهمة البريطانية بالرجال في الميدان فعوّض عن ذلك التقصير بأن ظل مخلصاً اميناً ، اقرب الى الخضوع الكليّ لآراء جوفر ومصلحة فرنسا . هذا علاوة عن انه كان ينتظر ذلك اليوم الذي يغدو فيه الجيش البريطاني المحارب اقوى الجيوش الحليفة ، ويطمح الى ان يكون هو شخصياً ، القائدَ الاعلى لقوات الحلفاء حينذاك .

لا قيادة موحدة

ولم يكن هنالك مشاورات رسمية بين حكومات الحلفاء . فكان على السير جون فرنش ان يعرف خطط جوفر عن طريق ضابط الارتباط البريطاني الموجود في مركز القيادة . وكان جوفر يخفي خططه عن



اللورد كتشنر مع مرافقه السير وليم روبرتسون
الذي قيد سلطات كتشنر فيما بعد .

الروس ، والغراندوق يخفي خططه عن جوفر ، اذا كانت لديه خطط ما . ولم يكن الوزراء المدنيون يجرؤون على تحدي الجنرالات ، ولا انتقادهم . وسبب ذلك ، ان الوزراء لن يجدوا من يلجأون اليه طلباً للنصيحة العسكرية فيما لو انتقدوا . اما الجنرالات ، وبالرغم من احتقار الواحد منهم لزملائه ، وعدم ثقته بحلفائه في المعركة ، فقد كانوا يسيرون على خطة واحدة تجاه المدنيين . انهم يُبقون وزاراتهم جاهلة تماماً بالموقف ، بفعل صمتهم المطبق .

هذا علاوة ، على ان توجيه النقد للقادة العسكريين في امة تباشر الحرب ، ربما كان خطيراً للغاية .. اذ انه قد يؤدي الى زعزعة الوحدة الوطنية في البلاد . وخوفاً من هذا ، وبحكم صمت الجنرالات ، وقف الساسة المدنيون تجاه الشعب وهم لا يجدون الا « امتداح القادة » ، والتعبير عن « الثقة بقدراتهم » ، حلاً للموقف الذي وجدوا انفسهم فيـه .

لكن هذا الموقف لم يدم .. ان للفرنسيين تقليداً عريقاً في انتقاد جنرالاتهم . ولهذا قام بعض اعضاء الوزارة التي تشكلت بعد ايام قليلة من اعلان الحرب ، بانتقاد الجنرالات بصوت مسموع . إلا ان الشعور



الموت يصالح بين المتحاربين ..
الجنود الفرنسيون والالمان هنا لا يتقاتلون ! !

الشعبي اخفت هذا الصوت .. فأرضُ فرنسا تئن من الاحتلال .

نقد الجنرالات

وبخلاف ذلك كان الحال في بريطانيا . فالجزيرة امينة بحراسة الاسطول ، والشعب قد دفع ثمناً باهظاً من دمائه في عام ١٩١٤ . ولهذا ارتفع صوت الوزراء . وكان مما ساعد المنتقدين ، ذلك الوضعُ الذي لا يبشر بقرب الفوز او الخسارة في الحرب . ومن هنا قويت حجة لويد جورج ونستون تشرشل حين لم يحتجا على الطريقة التي تتم بها الحرب في فرنسا ، فحسب ، بل تساءلا : هل الحرب في فرنسا ضرورية من اساسها ؟ وكان تساؤلها خطيراً للغاية .

كانا يريدان ان يقاتلا جناح المانيا ، وهمّهما ان يجدا منفذاً خلفياً يضربان منه .. فأين هو هذا المنفذ ؟

منفذ خلفي ومعضلة

كانت المانيا تقاتل في جبهتين : شرقية ضد روسيا ، وغربيـة في فرنسا . اما الغربية فلا امل في النصر السريع فيها . اذن ، تبقى الجبهة الشرقية ، فعلى بريطانيا ان تساعد روسيا . بيد انه : كيف يمكـن الاتصال بالجبهة الروسية ؟ لا طريق لذلك في الوقت الحاضر . نعم ، هناك سلانيك ، والدردنيل ، وشمال شرق ايطاليا ، ولكن هذه جميعاً موصدة في وجه بريطانيا . بل ان المانيا اعظم نفوذاً لدى اهل هذه المواقع . اذن ، اين يقع حل المعضلة ؟

هذا ما جعل الساسة البريطانيين يصرخون في وجه القادة العسكريين قائلين : « انكم لن تكسبوا الحرب بأساليبكم هذه » ، فيجيبهم القادة

صارخين ايضاً : « ولن تكسبوها انتم في اي مكان آخر » . وكلاهما صادق .

قوة برية او بحرية

وعلاوة على هذا الاختلاف الكبير بين الطائفتين ، كان هنالك تعارض جذري في وجهة النظر الى الحرب ذاتها . فالقادة يقولون : « اذا اردنا قهر المانيا ذات ملايين الجنود ، علينا ان نقابل ملايينها بمثلهم لتغدو بريطانيا قوة برية ضخمة . »

اما الساسة فيقولون : « كانت بريطانيا على الدوام ، دولة ذات جيش بري محدود العدد ، وقوة بحرية نشيطة فعالة . وعليها الآن ان لا تخرج عن تقليدها الحربي القديم الذي ثبت نجاحه في تاريخها الطويل» . اذن ، كان الساسة يريدون ان ينتصروا عن طريق البحر ، وباستعمال الاسطول . الا انه : اين يمكن استخدام الاسطول ؟ هذا ما كان الساسة يفتشون عنه كي يحصلوا على « ربحٍ عن طريق المناورة ، وبأقل عدد ممكن من الرجال ، وارخص كلفة من الخسارة » .

الخطط الجانبية

من هذه النظرة نبعت جميع « الخطط الجانبية » التي تم تجريبها في الحرب العالمية الأولى . وكانت جميعها تحاول تجنبّ مواجهة: « الملايين تقهرها الملايين » . ولما كانت من وضع ساسةٍ لا خبرة لهم بالشؤون العسكرية ، فقد جاءت اقرب الى محاولات « الهواة » منها الى الخطط الجدية . اضف الى ذلك انها نُفذّت في ظروف غير مواتية ، وبموافقة غير مشجعة من العسكريين ، مما جعلهم ينظرون اليها نظرة هامشية ، ولا يُقدمون عليها الا حين لا يجدون نشاطاً لهم في خطة الهجوم الرئيسي. ولهذا نجد تصريف الأمر في هذه الخطط فوضى .

خذ مثلاً حملة سلانيك . لم تجرَ حسابات بالسفن الضرورية لحمل الجنود الى البحر المتوسط ، ولم يدرِ السياسيون الذين نصحوا بها ان سلسلة جبلية تقع خلف سلانيك حتى يكاد يستحيل الانزال البحري في تلك المنطقة . ومثل هذا ، قل عن حملة الدردنيل ، وغاليبولي ذات الصخور الشديدة الانحدار .

دافع باطني .. تقابله شكوك

وهناك دافع باطني تشترك فيه جميع « الخطط الجانبية » التي قامت بها بريطانيا ، ولا يمكن فضحه حتى لحلفائها . فقد تمت حملات هذه الخطط كلها خارج حدود اوروبا ، وبريطانيا اولاً واخيراً دولة تنشد التوسع خارج القارة ، فيهمها ان توطد مركزها هناك . اذ انه حتى لو تم النصر على المانيا ، فان روسيا وفرنسا هما اللتان ستجنيان الفائدة ، فعليها اذن ان تدفعا ثمن ما ترجوان !

لكن هذه الافكار هي عينها ما ساورت فرنسا الشكوكُ بصدده . وكان لسان حال الفرنسيين يقول : « ها هم البريطانيون يجمعون الاسلاب في آسيا بثمن رخيص ، بينما تنزف دماؤنا غزيرة في الجبهة الغربية . » والردّ الوحيد من جانب بريطانيا لازالة هذه الشكوك هو ان ترسل اكثر فأكثر من قواتها البرية ، وان تجعل هذه القوات عنيدة جداً في القتال . ولكن ما معنى ذلك ؟

معناه ان الخطط الجانبية التي كان يُقصد منها ان تخفّف خسائر بريطانيا في فرنسا ، اصبحت الآن تدفع بالجيوش البريطانية في فم الغول الالماني هناك ، وان العناد في القتال اصبح شبه انتحار متعمّد . كل

ذلك لإرضاء فرنسا الحليفة وستراً لسوء النية بين حليفين ..

* * *

حصافة الالمان عسكرياً

إذا أدرنا النظر نحو الموقف الالماني سنة ١٩١٥ وجدناه أكثر معقولية من نظيره لدن خصومه الحلفاء . فقد تصرفت القيادة الالمانية في هـذا العام بتعقل وفطنة . وإذا كانت خطة شليفن قد أوقعتها في ورطة كبيرة من قبل ، وإذا كان قـد ثبت فشلها في بواكير ١٩١٥ ، فإن ما تضمنته من آراء عن ضرورة التخلي عن نظرية الهجوم ، احياناً ، قد جنّبت الالمان حماقات كثيرة . لقد أقرّ فولكنهاين ان جبهة الحلفاء في الغرب لا يمكن قهرها ، ولذلك اعتمد الحربَ الدفاعية في تلك الجبهة واستدار نحو روسيا ليصفيَ حسابه مع الغراندوق هناك . والواقع انه لم يكن له خيار في ذلك . إذ كان النمساويون قد عجزوا عن الصمود في وجه جيش روسي — حتى مع انه انقطع عنه الإمداد — فكان الألمان مضطرين الى استلام تلك الجبهة لانقاذهم .

ايهما يتم سحقه اولاً ؟

أما ما كان يهدفه الألمان من قتال روسيا ، فيكاد يكون غير واضح . من المعلقين العسكريين من يقول : كان فولكنهاين لا يطمح الى قهر روسيا واذلالها بقدر طموحه الى ابعادها عن الباحة ، علّ الحلفاء الغربيين يقتنعون بضرورة المساومة على انهاء الحرب بشروط عادلة لمصلحة المانيا . ومنهم من يقول : « ان فولكنهاين كان يهدف الى سحق روسيا سحقاً تاماً كي يتفرغ للجبهة الغربية فيوفر لها كل قواه .. ثم يضحي بكل ثمن يستطيعه الى ان يسحق فرنسا ايضاً ، وأخيراً يصفي حسابه مع بريطانيا » .

ولكن الرأي الأول هو الأصوب ، كما يبدو . إذ أن ما يُجمِع عليه

من كتبوا عن فولكنهاين هو اعتباره القائد العسكري الوحيد الذي أدرك ان الحصول على نصر حاسم في الحرب ، أمر غير ممكن .

ومثله ايضاً كان المستشار بتمان . الا ان المستشار لم يجـرؤ ان يعلن رأيه خشية ان يثبُط عزيمة الجيوش المشتبكة في الميدان . وانما كان ينتظر مرتقباً الظرفَ المواتيَ الذي يقنع الناسَ في بلاده وبلاد خصومها برأيه هو .

وبسبب من هذا ، ألحت الحكومة الألمانية الى قيصر روسيا نيقولا الثاني انها تود عقد الصلح معه على أساس « الموقف الراهن » آنذاك . لكن القيصر لم يستجب لذلك . لقد ظل مخلصاً لحلفائه الفرنسيين بكل العناد الذي يبديه رجل ضعيف .

هذا ، علاوة عن انه كان يخشى ان يتزعزع مركزه في بلده إذا ما قبل بما هو أقل من النصر الحاسم . اذ ربما ادى عدم حصوله على ذلك الى كونه مضطراً لمنح شعبه دستوراً ، او قيام ذلك الشعب بثورة تطيح بالعرش من أساسه .

وهكذا اصبح موقف روسيا عجيباً : فهي لا تستطيع حتماً ان تكسب الحرب ، كما انها لا تستطيع ان تتخلى عنها . كل هذا اكراماً لرأس القيصر !!

* * *

كان هناك وسيلة اخرى لتحريك الموقف الراكد في الحرب . وهي اما اختراع اساليب حربية جديدة ، او اسلحة جديدة . وفي كلتا الناحيتين ساهم الجنرالات مساهمة ضئيلة جداً . لقـد ظل تفكيرهم محصوراً في « يجب ان تُفتح فرجةٌ في صفوف العدو بفضل القصف المركّز ، بالمدفعية والبنادق » . ومعنى ذلك : « قدّموا لنا اكواماً اكبر واكبر من الذخيرة الحية » .. وهـذا ما كانت تحمله تقاريرهم الحربية على الدوام . كان يغيب عنهم ان شدة القصف بالمدفعية الثقيلة تجعل الأرض على هيئة تزيد



أسلحة جديدة . انها اقنعة الغاز ، يستعملها البريطانيون في الميدان

عسر التقدم فيها . وذلك بخلاف المدنيين وصغار الضباط ، فقد ادركوا هذه الحقيقة بسهولة ووضوح .

اسلحة جديدة

أما بشأن « أسلحة جديدة » ، فقد نجح بعض ذوي المواهب العملية في بريطانيا في اختراع « تراكتور مصفح » ، أطلق عليه اسم « الدبابة Tank» بعامل الحرص على اخفاء الأسرار العسكرية . ومع انه لم تتم تجربة هذه الدبابة بنجاح الا في سنة ١٩١٧ ، فقد ظهر بعضها في « السُوم » سنة ١٩١٦ . لكن الجنرالات استعملوها بشكل خاطىء .

وكان العلماء قد سبق لهم ان استحضروا الغازات السامة في مختبراتهم الكيميائية . فاستعملها الالمان في ٢٢ نيسان سنة ١٩١٥ في « ايبر » .

وكان نجاحها غير كبير . اذ سرعان ما اختُرعت الاقنعة الواقية ، فاستعملها الطرفان ، وصار على المهاجِم ان يلبس أقنعته خشية ان يدافع خصمه بالغاز ايضاً . ومن شأن هذا ان يبطىء الحركة ، وان يكثر اصابات المشاة وخسائرهم . ولنأت الآن للطيران ..

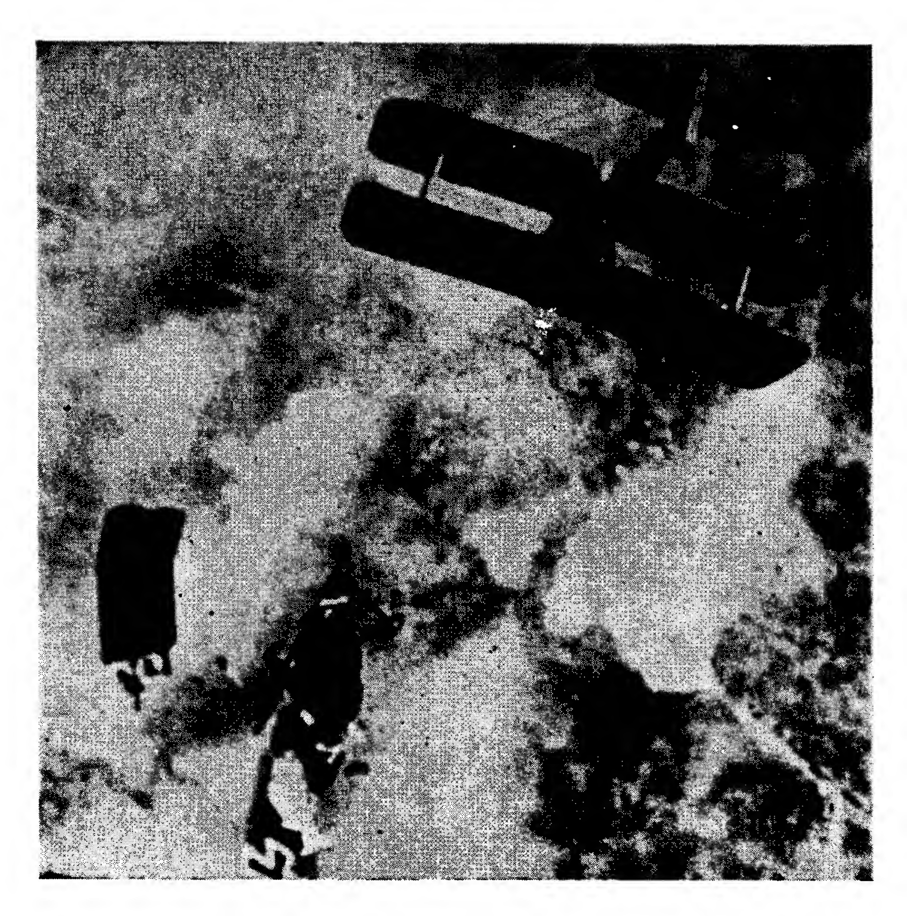
قتال الجو والزبلين

في أول الحرب كان لدى كل جيش عدد قليل من الطائرات تستعملها قيادته لاغراض الاستكشاف . لكنها تزايدت فيما بعد ، ثم صمّمت طائرات مقاتلة ، همّها ان تُسقط طائرات الاستكشاف السابقة .

وحينئذ دعت الحاجة الى انتاج مقاتلات تقاوم تلك المقاتلات . وهكذا . لم تكن الطائرات آنذاك صالحة للقيام بمهمة القصف الجوي ، فقد كانت الواحدة منها خفيفة ذات جناحين من الخشب . وظل ذلك حتى سنة ١٩١٨ ، وقبل ان يعدّ البريطانيون عدداً من الطائرات كافياً للقيام بغارة جوية .

واذ كانت الطائرة غير صالحة للغارة فان الالمان استعاضوا عنها بالزبلين وقصفوا بقنابلهم بريطانيا سنة ١٩١٥ .

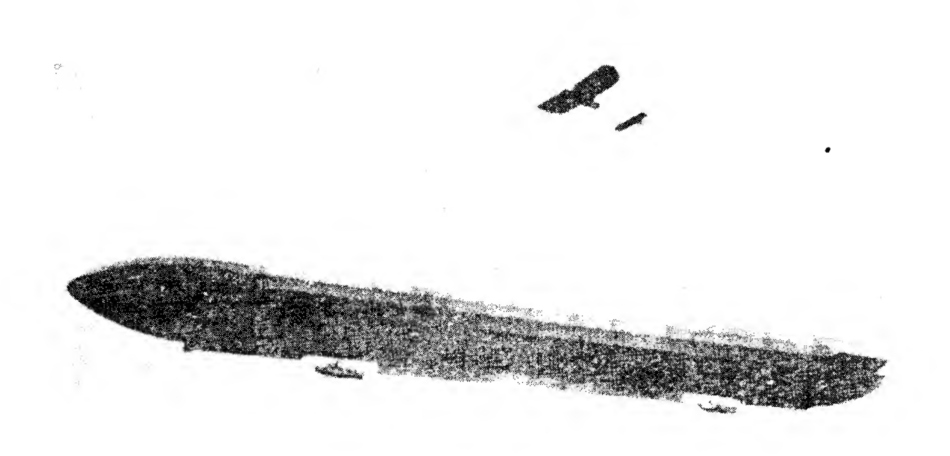
والزبلين او « سفينة الجو » مركبة قبيحة المنظر عاجزة عن الدفاع



الطائرة ، سلاح حربي جديد أيضاً

عن نفسها . كما ان حجمها الكبير يجعلها هدفاً سهل الاصابة على الطائرات المقاتلة ، بل والرماة العاديين . ولذلك ، ما ان صارت المقاتلات البريطانية ترتفع في السماء لمطاردة الزبلين حتّى تسقطه او يهرب . وحين لم ينجح الزبلين في القصف لهذا السبب ، استخدم الالمان الطائرات سنة ١٩١٧ .

وقد أحدث القصف الجوي فوضى وهلعاً عظيماً في بريطانيا ، وذلك لأن البريطانيين لم يعتادوا ظروف الحرب في بلادهم نفسها .



سلاح جديد ايضاً .. الزبلين ..

كانوا يسمعون بالحروب ، ويتأثرون من ذلك ، ولكن الحرب نفسها تتم على غير أرضهم . أما الآن ، فها هو العدو يقصف بيوتهم ، ومن سمائهم ايضاً .

لهذا تولدت في النفوس نقمة عارمة على ملاحي الطائرات المعادية . لقد صار الشعب يطالب بالتنكيل باولئك الملاحين حين تُسقَط طائراتهم ، بل حتى باعدامهم شنقاً .

ومما زاد في تلك النقمة ، نظام « اطفاء النور » . فقد كانت البلاد تغدو في ظلام دامس حين يسمع صوت طائرة واحدة في الجو ، وما أشد الضيق الذي شعر به الناس في تلك الأيام !

ان عدم الاعتياد اكثر من احتمال الاصابة بالرصاص هو الذي ازعج المواطنين . فالواقع ان القتلى من جراء القصف الجوي لم يتعد (١١٠٠) شخص في بريطانيا طيلة الحرب . وهذا عدد ضئيل جداً بالنسبة للخسائر الأخرى .

وكان عند الألمان سلاح جديد آخر ، كشف عن خطورة رهيبة . انه الغواصة او « زورق U » . وحتّى هذا السلاح لم يقدّره الأميرالات البحريون ، البريطانيون والألمان على السواء ، حق قدره . كانوا ينظرون اليه كسلاح مساعد ، يُستخدَم في اعمال الاستكشاف أو مضايقة السفن التجارية مثلاً . ولم يطرق خلَدهم انه سيكون بالمرصاد لسفن الركاب ، يتعقبها حتّى يغرقها .



سلاح جديد آخر .. غواصة

لوزيتانيا !!

وهذا ما فعلته الغواصات الألمانية فيما بعد . وكان لذلك نتائج نفسية وسياسية بالغة الأهمية . فقد أغرقت غواصة ألمانية عابرةَ المحيط البريطانية « لوزيتانيا » ، وكان في هذه الباخرة ، وهي باخرة ركاب ، مئة امريكي ، وبعض الذخيرة . وفرح الالمان بذلك ، حتّى انهم سكّوا

مداليات خاصة بتخليد هذا العمل « الرائع » .

أما في امريكا ، فقد شعر الامريكيون بالمقت لهذا العمل الفظيع ، حتى ان الرئيس ولسون احتج عليه بلهجة صارمة . والواقع ان الغواصات هذه كانت خير دعاية دفعت اميركا الى الدخول في الحرب لجانب الحلفاء.

وقد أدرك ذلك بعض الساسة العسكريين الألمان . وكان من بينهم بتمان الذي ود الاستفادة من واقع ان بلاده لا تملك الا عدداً ضئيلاً من الغواصات سنة ١٩١٥ ، فعرض التخلي عن استعمال ذلك السلاح اذا ما فكّت بريطانيا حصارها البحري المضروب . لكن البريطانيين رفضوا هذا العرض . وفيما بعد ضيّق الالمان من نشاط غواصاتهم بعد ان اغرقت سفناً حيادية امريكية اخرى .

وحينذاك عاد بتمان الى الاعتذار عن غزو بلجيكا بقوله : « ان الضرورات لا تعترف بقانون . » وقال : « ان الدول الكبرى جميعاً تسلك مثل هذا السلوك . » وكان الفارق الوحيد بين مسلك الحلفاء ومسلك المانيا .. ان الحلفاء كانوا يتصرفون بوحشية ، لكنهم يصبغونها بشيء من الشعور بالندامة والأسف . بخلاف الالمان ، الذين كانوا يتصرفون بوحشية ايضاً ، لكنهم يُبدون بهجتهم في ذلك .

ملامح جديدة غير مفهومة

كانت هذه الملامح طفيفة الاتضاح في سنة ١٩١٥ ، شأنها شأن خنادق الجبهة القليلة العمق والكثافة في ميدان شمال شرق فرنسا . فقد رفض الناس ان يصدقوا ان الحرب الدائرة قد سلكت منعطفاً جديداً لم يسبق لأي حرب ان اتخذته من قبل ، كما عجزوا عن رؤية الطبيعة المميزة الجديدة لتلك الحرب .

ها هو جوفر يجزم باصرار ان الحرب لا زال بالإمكان كسبها ، عن طريق نصر حاسم قريب . وها هو سير جون فرنش يردد « صوت سيده » ، ويرصع تقاريره الحربية بعبارات « التفاؤل » و « المجد المنتظر » .

لقد دخلت تركيا او ، لنخلع عليها اسماً فضفاضاً يملأ الفم هو « الامبراطورية العثمانية » ــ الحرب في تشرين الأول سنة ١٩١٤ ، الى جانب دول الوسط . ومن الصعب ان يجد المرء سبباً مقنعاً لهذه الخطوة من طرف حكومة « الباب العالي » ، الا اذا اعتبرنا انتصار روسيا المحتمل من شأنه ان يهدد العثمانيين .

كانت تلك الامبراطورية المهلهلة هي « الرجل المريض » حقاً . وكانت فرصة بقائه « معتلاً » ، ولكن على قيد الحياة » تكاد تنحصر في ابتعاده عن توتر الاعصاب . واي توتر للأعصاب اقوى من الدخول في حرب !!

كلا النصر والهزيمة شر

فحتى لو انتصرت المانيا ، أتراها تسمح للأتراك بمشاركتها الغنيمة! ان اول ما تفعله حينذاك ان تقضي على شريك ضعيف كدولة العثمانيين. اما اذا انتصر الحلفاء .. فلا ريب انهم سيعاملون السلطان ودولته كخصم منهزم . انهم قد يحترمون المانيا وسيادتها القومية ، لأسباب شتى ، اما تركيا العجوز فسيمزقون امبراطوريتها كل ممزق ، ولو بعامل التعصب الديني او حقد الغرب على الشرق . هذا اذا لم تقع ارضها نفسها غنيمة في ايديهم .

كان الاتراك ينقمون على روسيا مساعدتها للسلاف ضدهم ، ولا ينسون اذلالها لهم مرات ومرات . وكانوا يشعرون مثل هذا الشعور تجاه بريطانيا التي طمعت في مصر فطردتهم منها ، كما جردتهم من سواحل الخليج الفارسي .. فكان الاغراء في قتال هاتين الدولتين معاً ، قوياً لا يقاوم . لكن روسيا ظلت هي الهدف الاول للعداوة . ولهذا نجد الاتراك يجمعون فلول جيوشهم بعد حرب البلقان (١٩١٢ ــ ١٩١٣)،

ويقذفونها قبالة روسيا في منطقة القوقاز . ولم ينسوا بالطبع ان يسيّروا شرذمة من جنودٍ حفاة جائعين الى منطقة السويس * .

الحملة العجيبة !!

وقد كانت حملة القوقاز اعجوبة في تاريخ الحرب ؟ كانت تجهيزات الجنود فقيرة جداً ، وكان الفصل موسم تساقط الثلوج ، وكان القادة العسكريون الاتراك اغبياء اغراراً .

وبهذا بدا ان النتيجة محسوبة شر حساب . لقد تجمد الجنود، وسقطوا في هوّات الاودية ، وماتوا جوعاً .. و .. و.. حتى رجع منهم في كانون الثاني سنة ١٩١٥ ثلاثون الفاً من اصل مائة الف . وهذه ضربة قصمت ظهر « السلطان » وانهدّ « بابه العالي » ، فصار «واطئاً » .

الغراندوق الروسي يستنجد

في هذا الوقت كان الروس يواجهون ضغطاً عنيفاً . ففي ٣١ كانون الأول سنة ١٩١٤ بعث الغراندوق مستصرخاً كتشنر ان ينجده . لقد طلب اليه القيام بأية مظاهرة حربية في النصف الشرقي من البحر المتوسط مهما كان الثمن . وكان همّ الغراندوق ان يصمد امام الألمان اذا ما كفاه كتشنر شر الاتراك بإشغالهم . وفكر كتشنر جدياً في الأمر ، لكن « ومضة » لويد جورج لم تأته هذه المرة .

وحين وصلت رسالة الغراندوق الى لندن ، كان الموقف قد انقلب. فها هم الاتراك المخذولون يجرجرون خطاهم متقهقرين من حملة جبال القوقاز . غير ان هذا لم ينفِ الفكرة من رأس كتشنر . فهو رجل عسكري كان معظم خدمته في الشرق اولاً ، اذن فهو يتوق الى ميدان

---

* تجد ذلك في « حملة السويس » في هذا الكتاب .

الشرق ذاته . وثانياً : انه كان يرى مساعدة روسيا افضل بكثيـر من عملية « الطَرْق » المملة في الميدان الغربي ، آنذاك .

احتياطات كتشنر

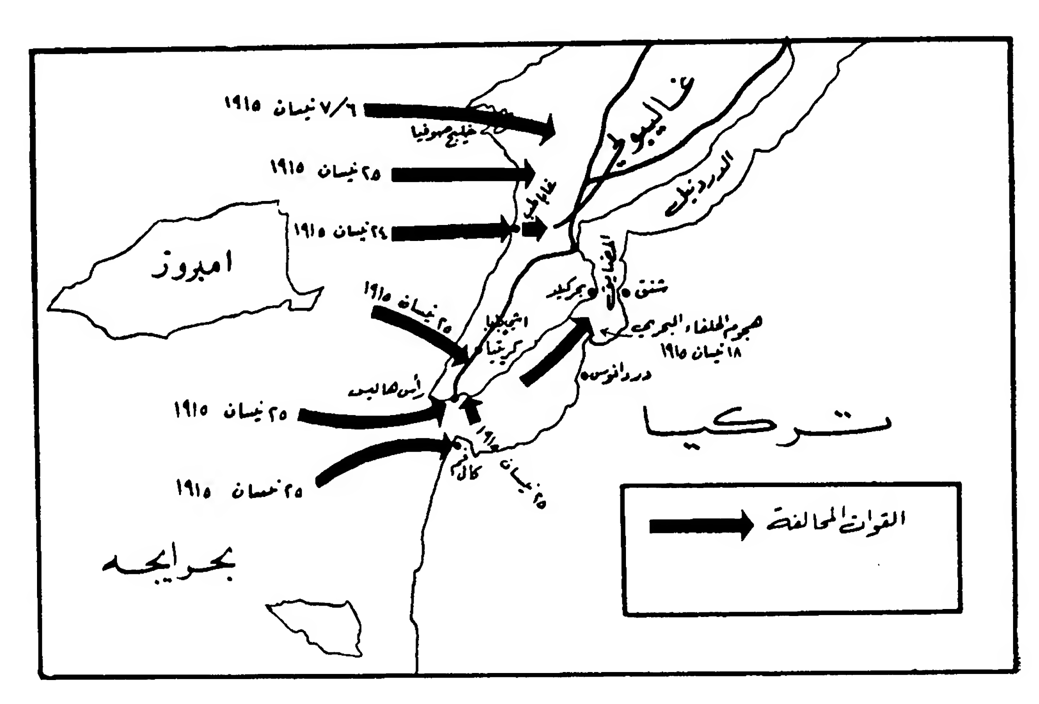
ولما كان كتشنر هو صاحب حملة السودان في السابق، فقد قدّر تماماً امكانية قيام الاتراك بحملة على قناة السويس فيما لو هاجم الانكليز بلادهم . لذا نراه يحتاط بالفعل لهذا الامر . الا ان الوقائع اثبتت فيما بعد ان هذا التقدير كان مبالغاً فيه . فالدولة العليّة ، لم تكن كفؤاً للدفاع ، لا عن مصر ، ولا حتى عن القسطنطينية .

تشرشل يجد خطة جانبية !

وطبيعي ان رسالة الغراندوق بُلّغت الى ونستون تشرشل . وكان يتحرق الى تنفيذ « خطة جانبية » كما أسلفنا . فزاد من حماسته الآن، انه رأى في مساعدة روسيا مجالاً للقيام بعملية تثبت وجهة نظره في ان بريطانيا سيدة البحار ، وعليها ان تنتفع بقوتها البحرية .
وهكذا اتفق رأي تشرشل وكتشنر على ضرورة القيام بحملة ما في حوض المتوسط الشرقي . لكن ، اين هو الموقع الذي يُختار لهذا النشاط ؟

اين يتم التنفيذ !

على هذا السؤال اجاب تشرشل على الفور : « انه الدردنيل » . وعاضده في رأيه كتشنر . اما « فيشر » كبير الاميرالات فقد ارتأى ان يكون الهجوم على سلزويج Selswig . ولكنه لم يرد ان يعارض رئيسه المدني ، تشرشل ، فلم يقاوم رأي الاخير حين عُرض عليه .
لم يكن فيشر يثق بصواب الهجوم على الدردنيل ، كما كان ضباطه



خريطة الهجوم على الدردنيل

لقد فشلت الحملة ، وبرز مصطفى كمال .. وجمد من الحلفاء نصف مليون رجل

يوقنون انها حملة فاشلة .. والعجيب حقاً انه لم يرفض الاقدام على عملية لا يثق في نجاحها !

حماسة تشرشل تبلغ حد الكذب

اما كتشنر . فقد أكد له تشرشل ان بمقدور القوات البحريـة ان تحتل الدردنيل دون اي انتقاص من قوات المشاة في الجبهة الغربية . وكان في هذا حل ناجع للمعضلة التي كان يواجهها كتشنر مع فرنسا . فها هي بريطانيا الآن تقوم بعمليتين في آن واحد : تساعد روسيـا ، بمهاجمتها لتركيا . وتعطف الجناح الالماني نحو الشرق . وبذلك يخف الضغط في الجبهة الغربية . كما انها تقوم بإرضاء جوفر بإرسال الجنود

البريطانيين الى جبهته لمساعدته في نفس الوقت .

الدردنيل

وفي ١٩ شباط بدأ الاسطول البريطاني يقصف بمدافعه الثقيلة القلاع الخارجية المقامة على ضفة الدردنيل . ولم يلق هناك أية مقاومة ، فنزل البحارة البريطانيون الى الارض . وكان بوسع فرقة واحــدة منهم ان تحتل الدردنيل الآن ، مع ان جيشاً كاملاً قد عجز عن ذلك بعد بضعة شهور .

عدم كسب الوقت

وظن البريطانيون ان لديهم متسعاً من الوقت ، فتريثوا ، وظلت سفن اسطولهم تناور في بحر ايجه طيلـة شهر كامـل . ثم انها في ١٨ آذار دخلت المضايق . وكان القواد البحريون يفترضون ان الالغام قد أزيلت على يدي كاسحات الالغام التي أرسلت من قبل الى هناك . واثناء دخول المضايق عاودت السفن الغازية القصف المركّز من جديد . ولم تلق هذه المرة مقاومة ايضاً .. فما هو السر يا ترى ؟

دولة محاربة ولا ذخائر !

اننا الآن نعرفه .. لقد كان الاتراك مفتقرين للذخيرة * .

كان بإمكان السفن البريطانية ان تخرج آمنة من مياه المضايق في اليوم التالي .. لكنها لم تفعل .. لقد استمرت في القصف . وحين حاولت الخروج فيما بعد .. وجدت نفسها في ورطـة كبيرة . ذلك ان الغاماً بحرية قد نُثرت هناك .

---

* ان هذا يذكر المرء بالجيوش العربية التي كانت تعتمد على السلاح البريطاني اثناء معركة فلسطين . وبالاسلحة الفاسدة في مصر .. وفاروق .

وكان المعروف ان الاتراك يضعون الغاماً في الاعماق ، يكون اتجاهها من ضفة البوغاز الى الضفة الاخرى .. اما الألغام التي زرعت الآن ، فقد جُعلت بصورة موازية للشاطئين ..

وحينذاك كان على السفن الحربية المهاجمة ان تدفع الثمن . لقد غرقت سفينتان بريطانيتان وثالثة فرنسية . وعندئذ ادرك الاميرال دي روبك ، ان المغامرة محفوفة بالخطر . فاحتج الى لندن انه غير مستعد لفقدان سفن حربية اخرى ..

حملة برية

وفي هذه اللحظة ظهر لكتشنر ان الحملة البحرية لم تكن ضرورية من اساسها . لقد قرر الآن ان يجهز جيشاً برياً يقوم بالمهمة الخطيرة . ولم يكن حين اتخذ قراره هذا ، يفكر في ان الجيش الانكليزي في الجبهة



الجنرالات الذين اخفقوا في معركة غاليبولي
الثاني من اليسار : الجنرال سير « يان هاملتون » ، وبجانبه الاميرال دي روبك

الغربية يجب ان يظل آخذاً موقف الدفاع . وبذلك اتضح انه لم يقدّر الموقف في الحرب تقديراً واقعياً .

ها هو يستدعي السير يان هاملتون ، وهو رفيق له عزيز في حرب البوير ، فيضع تحت تصرفه كل شيء ، ثم يشيّعه الى الباب قائلاً : « اذهب ، فاحتل الدردنيل مهما كان الثمن ، واذ ذاك تكون قد فزتَ بالحرب » .

كان الحفاظ على « مكانة شرف بريطانيا » هو الدافع الذي أغرى كتشنر بارتجال هذه الحملة . وكل شيء مرتجل قليل النجاح . فقد سارع السير هاملتون الى مركز عمله الجديد ، وليس معه الا فرقة واحدة ، هي جميع ما تبقى لدى كتشنر كي يقدمه له . اما بقية « العساكر » فكانوا عبارة عن فيالق من متطوعي المستعمرات الذين لم تسبق لهم خبرة عسكرية ما .



الخراب في « غاليبولي »
وعليك انت ان تتصور آلام المدنيين

ومن الغناء الداعي الى الضحك ان السير هاملتون كان مقدماً على هجوم لا يعلم عن خصمه فيه شيئاً. فكل ما عرفه عن مواقع الاتراك الدفاعية ، وقوة نارها ، ومداخل تحصيناتها ، كان قد استقاه من خرائط حربية ترجع الى سنة ١٩٠٦ . اي ان ما طرأ على تلك المواقع طوال ١٠ سنوات كان مجهولاً تماماً لديه .

هذا علاوة على ان خبرة الجيش البريطاني في الانزال على ارض عدوة كانت ضئيلة جداً ، ان لم نقل معدومة . ولذلك لم يكن لديه التجهيزات والمعدات الخاصة بمثل هذا الظرف ، مما دعا الى تحضير الضرورات كل يوم فيوم .

هاملتون في قيادته الجديدة

وصل السير هاملتون مقر قيادته الجديدة في فترة كان فيها الاميرال دي روبك لا يزال مكتئباً من خسارة الحملة السابقة . فعرض عليه ان يتسلم منه القيادة . وتسلمها . وبعد ذلك استدعيت القوة البحرية ولم يُعد استخدامها فيما بعد .

وحين فحص هاملتون شحنة سفن الاسطول ، وجدها قد عُبئت بصورة خاطئة ، فالمواد الضرورية في القاع ، بينا الأخرى القليلة النفع من أعلى . فأمر بأن يعود الاسطول بكامله الى الاسكندرية حيث أعيدت التعبئة بشكل مضبوط .

وقد استغرقت هذه العملية شهراً ، ظل فيه الاسطول البريطاني غائباً عن المياه التركية . فاستغل الاتراك هذه الفرصة خير استغلال ، حيث جلبوا حاجتهم من الذخيرة ، واستنفروا كل قوة قدروا تجهيزها ، وبات « دردنيلهم » امنع من فتح « صحراء العرب » .

* * *

كان هنالك احداث تتطور في الجبهة الغربية إبان هذا الوقت . فقد شكا جوفر من ان البريطانيين « رفاق غير مخلصين » . وقال : «ها هم يحاولون فتح جبهة شرقية ، بينا لا يقومون بواجبهم في جبهة مفتوحة من قبل ! » . ولما كان كتشنر ، كما اسلفنا ، يود ازالة الشكوك من نفس حلفائه الفرنسيين ، فقد طُلب الى السير جون فرنش ان يقوم بعمل ما .

معركة نيوشابل !

وسارع هذا الى مهاجمة الخطوط الالمانية في « نيوشابل » في ١٠ نيسان ، وبأسلوب حربي جديد . فقد كان المتعارف عليه حتى ذلك الحين ان يتم هجوم المشاة بعد التمهيد له بقصف المدفعية .. لكن ، لما كانت ذخيرة السير جون فرنش من القنابل ضئيلة للغاية ، فقد هاجم دون تمهيد . انه اعتمد على عنصر المفاجأة .

وبالفعل ، ذهل الألمان حين داهمهم المشاة البريطانيون على حين غرة. ولهذا السبب تمكن المهاجمون من فتح ثغرة في خطوط اعدائهم . لكن المعركة لم تدم اكثر من ثلاثة ايام . وهذا وقت لا يكفي للمضي قُدماً في ارض العدو ، كما انه يخلُق احتمال تطويق الجيش المتقدم ، ثم افنائه من بعد .

والواقع ان هذا الاصطدام القصير الأجل معلَم بارز في حركات الحرب العالمية الأولى . فقد بيّن ان بوسع كل من الجيشين المتقاتلين ان يخترق احدهما خطوط القتال عند الآخر ، غير انه يظل عاجزاً عن كسب الانتصار من هذا الطريق .

الثغرة ممكنة والتقدم مستحيل !

وكان « فتح ثغرة مع عدم التقدم » هو التكتيك الحربي الذي فرض

نفسه على الجبهة الغربية لمدة طويلة بعد موقعة نيوشابل . فقد استعمله الألمان بدورهم ايضاً . وكانوا يهاجمون .. فيخترقون خطوط اعدائهم .. لكنهم لا يدرون ماذا يفعلون بعد ذلك .

شطرنج خطر !

على هذه الصورة كانت الجبهة الغربية أشبه بلعبة للشطرنج ، لاعباها من « وزن واحد » ، فكل منها يظل يقول « كِش شاه » ، حتى اذا ما هرب رفيقه كفّ هو عن التهديد . غير ان هذا التشبيه فيه تمييع للحقيقة . فإذا كان خسران البيادق مؤثراً في نفس اللاعب ، فإنه لا يتعدى في تأثيره الى غيره . أما خسارة أرواح الجنود فشيء بخلاف ذلك . فـ « كش شاه » في الجبهة تعني بضعة الوف من القتلى والجرحى والمشوّهين ! هذا كما ان رقعة الشطرنج في غير حاجة الى المجهود الذي تتطلبه مثيلتها على الأرض الموحلة ذات الخنادق .

نريد عتاداً .!

ومهما كان الحال ، فقد رفعت معركة نيوشابل من معنويات الشعب البريطاني ، وعلّت اصوات افراده في لوم السير جون فرنش على عدم اهتباله الفرصة . وحينئذ احتج القائد من ان جنوده يقاتلون دون ذخيرة كافية . فقام الشعب يطالب الحكومة ان تردّ على هذه الصرخة ، وسارعت هذه الى القاء اللوم على عمال مصانع الذخيرة الذين كانت تعتقد انهم يتقاضون اجوراً عالية .

وقد لجأت الحكومة ، أملاً منها في زيادة انتاج المجهود الحربي ، الى اصدار بعض التشريعات المقيِّدة للحرية الشخصية . ومن هذه ، انها فرضت ساعات معينة تغلّق فيها المحلات العامة ، وبخاصة الخمّارات حيث يجري صرف الموجودين فيها لفترة محددة بعد الظهر .



لويد جورج يزور « عاملات » احد مصانع الذخيرة .
انهن يحضرن الموت بدل ان يلدن الحياة ! !

ولا زالت هـــذه الاجراءات سارية المفعول حتى يومنا الحاضر في بريطانيا . فكل من أحس بالحاجة الى شراب بعد الظهر ولم يجد حانةً يرتادها . عليه ان يتذكر موقعة نيوشابل .

* * *

ما دام الجيش البريطاني لم يكسب ارضاً جديدة من جراء حركتـــه المفاجئة في نيوشابل ، فالعسكريون يعتبرون تلك الحركة عملاً فاشلاً . وما دام الأمر كذلك ، فقد كان على جوفر ان تتشبّط عزيمتُه ، وهو القائد الأعلى للجبهة بكاملها . هذا هو المنطق العام . لكن جوفر كان عنيداً .. فهو لم يتأثر بفشل البريطانيين هذه المرة ، كما لم يتأثر بفشله

هو في مرات عديدة سابقة . لقد ظل مقتنعاً ان الهجوم وحده سيكون العاملَ الحاسم في كسب الحرب لصالحه . فكان كل مرة يقول « هجوم واحد ، وكفى » . وتمت « هجومات كثيرة » ، ولكن أياً منها لم يكن « هجوم جوفر الواحد » المنشود .

عناد جوفر المضحك والاحصائيات المبكية!

ويشير المعلقون العسكريون ، ودارسو تاريخ الحرب العالمية الأولى الى هذه « الهجومات » بصورة مؤسية ومضحكة معاً . انهم يقولون :

لقد قُتل (٥٠,٠٠٠) فرنسي ثمناً لـ ٥٠٠ ياردة من الأرض الى الامام ، من شامبين Champagne .

وهلك (٦٠,٠٠٠) آخرون في سنت مهييل . St. Mihiel .

ومثلهم (١٢٠,٠٠٠) آخرون في أيار قرب مدينة أراس Arras .

ثم يلتفت اولئك المعلقون الى الجيش البريطاني فيقولون :

« لقد جرّب الانجليز القيام بهجوم في فستوبرت Festubert ، وفي اوبر ريدج Aubers Ridge فلاقوا بدورهم نتيجـــة مماثلة . نعم ، ان عدد خسائرهم قد أُخفيت . لكن نسبتها الى عدد جيشهم كانت أعلى مما هي عليه الحال عند الفرنسيين . لقد دفع قائدهم السير جون فرنش ثمناً باهظاً . »

معنويات الجيوش المتحاربة

الآن ظهر للعيان ان معنويات الجيوش الفرنسية قد انهارت تقريباً ، بعد ان مهدت لذلك نكبات ١٩١٤ .

كما بدا ايضاً ان حماسة الجيش البريطاني الملتهبة في أول ١٩١٤ قد فُلَّ حدُّها .

وذلك بخلاف الألمان ، الذين فطن جنرالاتهم الى ما غاب عن ذهن جوفر وفرنش . فلم يحاولوا الهجوم الا مرة واحدة في ٢٢ نيسان ، في ايبر



الحياة أقوى من الموت
لقد عاش هؤلاء بعد استعمال « الغازات السامة »

Ypres ، حيث استعملوا الغازات السامة هناك . ولم يكن استعمالها لؤماً ووحشية فحسب ، بل كان نوعاً من الحماقة ايضاً . اذ لم يكن لدى الالمان في الجبهة الغربية ، قوات كافية للاستمرار في التقدم حتى النصر الحاسم . نعم ، لقد كشفوا الارض من تحت اقــدام البريطانيين ، ولكنهم لم يتقدموا لجني الثمرة التي نشدوها من زحزحة عدوهم من مواقعه . فسرعان ما وفدت الامدادات البريطانية .. وترسّخ خط القتال صامداً كما كان .

انت جبان .. الى البيت سر !

وقد رفع عناد السير جون فرنش عدد الخسائر باصراره على القيام بهجومات معاكسة . ولما اعترض آمر الحركة « سمث دورين » على هذه الهجومات كان جزاؤه الطرد . حتى ان السير وليم روبرتسون ، الذي كان آنذاك رئيساً لهيئة اركان حرب البريطانيين في فرنسا أبلغه خبر طرده بهذه الكلمات : « يا هوراس — الى البيت ، سِرْ » .

وبعد ايام معدودات من هــذا ، اضطر الفرنسيون الى التسليم بخطة الانسحاب . فقد كانت الحادثة (موقعة نيوشابل) عبرةً لهم .

كافئوا القتلة والجزارين !

على هذه الصورة .. كان الضباط البريطانيون الذين يحبذون اطالة أمد المجزرة يحظون بتقدير الفرنسيين ، وتمنحهم حكومة بريطانيا الأوسمة والنياشين . اما اولئك الذين يحسنون تقدير الموقف ، ويقترحون الخلاص من سوق الجنود الى الموت قدّام خنادقهم ، فجزاؤهم الطرد بمذلة .

ومهما كان الحال ، فلم يحن منتصف شهر أيار حتى كانت الجيوش المتحاربة جميعاً منهكة من الناحيتين : نقص الرجال ، واتلاف الذخيرة . وحتى بدا النصر النهائي لا يزال بعيداً كما لاح من قبل . الا في نظر جوفر .

• • •

اذا كان قد تقطع اطلاق الرصاص وقتياً في الجبهة الغربية فإنه لم يفعل ذلك في منطقة الدردنيل . في هذه الأثناء كان السير هاملتون يستعد للهجوم ، وكان الأتراك يتأهبون للدفاع . وأخيراً بلغ جيش هاملتون ٥ فرق ، مقابل ٦ فرق من الأتراك . ومع هذا فقد أخذ انزاله في ٢٥ نيسان الأتراكَ بعامل المفاجأة .. لقد نزل البريطانيون في كل مكان على الشاطىء .. أحياناً بخسائر فادحة .. وأحياناً بدونها .

رقيق اكثر مما ينبغي !

والحق ان هاملتون قد اجاد وضع استراتيجية حركته ، ولكنه كان مهذباً وانسانياً اكثر مما ينبغي لجنرالٍ صناعتُه الموت . وقد اضعف من مركزه الحربي انه كان شاعراً فدفعه ذلك ، ترفّعاً ، الى عدم الانقضاض

والفتك بخصومه غير الأنداد له . حتى انه اثناء عملية الانزال ظل يناور في سفينة حربية قريبة من الشاطىء دون ان ينزل بنفسه .

اربع وعشرون ساعة

وكان بوسعه ان يسيطر على كامل الأحداث في الأربع والعشرين ساعة الأولى . اما لما انقضت تلك الساعات ، فقد تغيّر الموقف . فالجنود الذين نزلوا وجدوا انفسهم قبالة منطقة صخرية يسيطر عليها العدو . وبلغة الحرب كان الجنود النازلون في « ارض مكشوفة » و « في مدى نار العدو .. الكثيفة والمتفرقة » .

وتم الآن رسم خطوط للخنادق في ظروف أعسر بكثير من الظروف



في ساحة « الطرف الاغر » وسط لندن ،
تستجدي السيدة دماء الناس ليريقوها في الميدان ! !

في فرنسا . لكن خسران كل شيء في هذه الحملة أصبح معروفاً في التقارير الحربية . وبذلك ثبت للندن ، ان فكرة « خطة جانبية » هي غزو الدردنيل . فكرة ما انجحها على الورق . وما أسهل تقسيم المكاسب المنتظرة منها ، نظرياً . اما حين التطبيق ، فما على تشرشل وكتشنر الا ان يسألا السير هاملتون عن نسبة الاصابات في جنوده !

ازمة في بريطانيا

والآن قامت أزمة في بريطانيا .. فقد تبخر الرجال في كلتا الجبهتين : في فرنسا ، وفي غاليبولي . وبدا البريطانيون حانقين على السير جون فرنش اشد الحنق . لكن هذا ظل يعتذر بفضيحة نقص الذخيرة ويصرخ بذلك لكل زائر من كبار زوار مقرّه الرئيسي في الجبهة . وكان هذا ينطوي على استعداء الرأي العام البريطاني على كتشنر . فكتشنر هو المسؤول عن توفير لوازم الجيش . فلماذا « تبعث ابناءنا دون خراطيش ؟ » . وقد ساعدت الصحافة في نشر هذا التساؤل ، اذ قرر لورد نورثكليف ، صاحب الصحف الكبرى يومذاك ، ان « يشرشح » كتشنر حتى ينهار . بيد انه لم يفلح فيما رمى اليه . حتى ان نسخة من جريدته « الديلي ميل » أحرقت على ارض بورصة لندن للأسهم . وكان هذا جزاءً لصاحبها على « قوله الحق » فيما يتعلق بالحرب .

طبيعي ان كتشنر استعد ، بوسائله الخاصة ، للدفاع عن نفسه . ولكن ، أهم من هذا : ان البريطانيين لم يكونوا يجدون من يحل محل كتشنر . فهم يُقنعون انفسهم بابقائه ، خشية ان يأتي من هو أسوأ منه .

ازمة وفضيحة و « تطبيق » !!

وفي منتصف شهر أيار انفجرت في بريطانيا ازمة ثانية اساسها الفشل في الدردنيل . فها هو الاميرال الأول « فيشر » يشعر بالقلق لأن سفناً كثيرة قد احتُجزت الآن لعمليات البحر المتوسط . ولذلك نراه يستقيل

فجأة دون اي تحذير من الخطر المقبل ، او احتجاج عليه.

وخشي اسكويث ، رئيس الوزراء ، من مغبة ذلك ، فتصالح مع المحافظين على أساس اخفاء حقيقة الفضيحتين : فضيحة نقصان الذخيرة ، وفضيحة حملة الدردنيل .

وهكذا لفّت حكومة الأحرار ، بريطانيا في غيمة من السرية والكتمان .

وحل لويد جورج محل كتشنر كوزير للعتاد الحربي . وكان هذا التغيير حدثاً أهم في سير الحرب العالمية الأولى من المعارك نفسها . ذلك انه غدا ، بعد قليل ، دليلاً على ان فترة جديدة في الحرب قد بدأت . ولا أقصد بذلك الفترة الزمنية ، كلا ، وانما « طريقة معالجة الحرب » نفسها .

في حرب .. ونظام مدني معاً !!

حتى هذا الحين ظل البريطانيون يعتبرون الحرب شيئاً خارجياً .. ظلوا يأخذونها بمأخذ الشيء الثانوي ، الذي يمكن الحصول عليه ، مع المحافظة على طريقتهم في الحياة ، ومستوى معاشهم الاقتصادي السابق له . وحتى مكتب الحرب ، ظل يوصي في طلبياته على أساس الأحوال المدنيـــة . فكانت أسعار لوازم الجيش خاضعة للعرض والطلب . فالحكومة تعلن عن حاجتها من تلك اللوازم ، ثم يجري تلزيمها لأرباب المصانع والشركات عن طريق المناقصة .

ومن شأن هذا الروتين أن يولّد مظهرين :

الأول : افتضاح نوع اللوازم .

والثاني : الابطاء في التسليم ، والخضوع لأهواء نقـــابات العمال التي تظل تطالب برفع اجور المنتسبين اليها على الدوام .

اما الافتضاح فهو امر لم تكن الحكومة ترهبه ، اذ ان استخبارات العدو كانت تعرف عن معدات أخصامها كل شيء تقريباً . واما البطء فهو اخشى ما يخشاه لويد جورج . وانطلاقاً من فكرة « تسريع انتاج المجهود الحربي » عمد لويد جورج الى اجراءات كثيرة .

اجراءات لويد جورج

كانت النساء والقاصرون يُبعدون عن الاشتغال في المصانع ، فحضّ هو على ذلك . وكانت الكميات التي يطالبها مكتب الحرب من الاسلحة قليلة ، فضاعفها مرات ومرات . وحين تذمر العمال المهرة من انخفاض اجورهم بالنسبة لمضاعفة انتاجهم ، وعدهم بالعمل على انصافهم كاملاً بعد الحرب . وعندما نقصت موارد الحكومة عن تسديد الاموال المطلوبة لشراء التجهيزات ، لجأ لويد جورج الى « مهراجا » هندي استطاع تمويل المشروع من جيبه الخاص ، مع ان سكان مقاطعته في الهند كانوا يموتون جوعاً لرداءة الموسم في ذلك العام !

كم « ماشين غن » !

كان لويد جورج قد سأل كتشنر عن عدد مدافع الـ «ماشين غن» الضرورية لأن تتوفر في الكتيبة الواحدة . فأجابه كتشنر « يكفي اربعة» . وكان مكتب الحرب قد قدر ان مدفعي « ماشين — غن » يفيان بالغرض . اما لويد جورج فقد قال في تعليماته لمعاونيه : « خذوا اعلى رقم يطلبه كتشنر ، فربّعوه ، ثم ضاعفوا مربعه مرتين » . وبهذا كان وزير الاعتدة والذخيرة يطلب ٦٤ مدفع « ماشين — غن » للكتيبة الواحدة .

والواقع ان هذا المستوى من التسليح لم يُتوصل اليه ، ففي نهاية الحرب كان مع كل كتيبة بريطانية ٤٣ مدفعاً من هذا النوع ، لكن

طريقة لويد جورج في التفكير فيما يتعلق بتوفير الاسلحة وكثافة النـــار هي التي تهم . وبخاصة اذا عرفنا ان اجراءاته الاخرى انسجمت مع هذه الطريقـــة .

وما حدث في قضية الـ « ماشين – غن » حـــدث مثله في تجهيز مدافع الهاون لحظائر الميدان . فمع ان لويد جورج كان سياسياً مدنياً ، الا انه كانت له نظرة عسكرية . اذ ان مدفع الهاون أثبت حقاً ، انه خير سلاح لاسناد المشاة في الحرب ، آنذاك .

ليمت الآخرون ولنربح نحن !

لم يكتفِ اصحاب مصانع الذخيرة بالأرباح العظيمة التي كـــانوا يجنونها ، فطالبوا رفع اسعار ما يقدّمون . لكن لويد جورج هددهم بأن يشغّل ورشات الحكومة في هذا الميدان . وبيّن لهم ان الاربـــاح التي ينالونها ما كان يُسمح بها لولا ظروف الحرب . والواقع انه كان صادقاً في تهديده . هكذا شعر رجال الصناعة الحربية .. ولذلك رضخوا فلـــم يخلقوا لهذا الوزير العنيد أية مشاكل بهذا الخصوص .

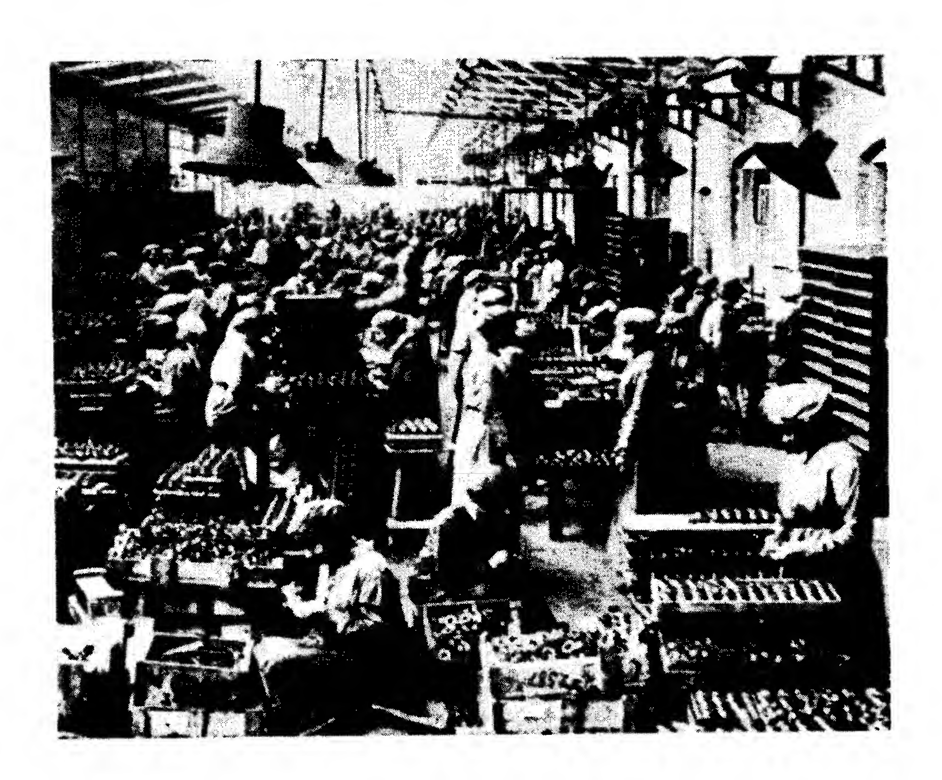
باعوا نقاباتهم !

وبعد ذاك جاء دور النقابات . فقد كانت هذه بؤرة للحرب الطبقية ، وتناقضات مصالح « من يملك » مع « من لا يملك » . لكـــن لويد جورج استطاع بدهائه جلب رؤسائها وترضيتهم . فانضموا للحكومة ، وغدوا شركاء معها في الضغط على العمال وعلى اصحاب المصانع . الا أن الاتفـــاق بين هؤلاء الرؤساء والحكومة لم يكن مجـــرد طيبة من الطرفين . ذلك ان لويد جورج كان يهدد النقابـــات بتشغيل النساء والاولاد ، وبذلك تنخفض اجور العمال المهرة ، كما كانت النقابات تهدد لويد جورج بالانحياز الى جانب اصحاب المصانع .

وعلى كل حال ، فقد تمكنت بريطانيا من الجمع بين هذه المتناقضات .

هاتوا جنوداً وخراطيش !

قلنا في السابق ان ميدان الحرب يقذف امواتاً ومشوّهين .. وان هذا يستوجب التعويض عن المفقود ، ونحن نضيف الآن : انه كان يقذف خراطيش فارغة ايضاً . وهذه في حاجة الى التعويض عنها كذلك . فهل هناك من يعوض ؟ ان الرجال يستطيعون القتال ، اذن فعليهم بالجبهة



في مصنع الموت والخراطيش
هكذا شاء الطمع في مناطق النفوذ

وتعويض الخسائر . اما النساء ، فينبغي ان يكون بمقدورهن التعويض عن الخراطيش .

وهكذا تم . لقد أدخلت المرأة العاملة الى مصانع الذخيرة . وبهذا انقلبت من مخلوق ناعم ، كله رقة الى عامل خشن الراحتين يشتغل بصناعة القتل .

خاكي، خاكي !!

لقد قصصن شعورهن ، وقصّرن « التنانير » اكثر فأكثر ، وطرحن « الكورسيهات » جانباً . وحين لم يكفِ ذلك ، ارتدين البنطلون وعملن في « نوبات » الليل . هكذا صار « الخاكي » هو الزي الرسمي لعاملات الحكومة . وهكذا بدأ « استرجال » المرأة الانكليزية ايام لويد جورج .

وقد استعاض لويد جورج في اعمال المكاتب الحكومية عن الرجل بالمرأة ، فوظفت الحكومة ألوف الضاربات على الآلة الكاتبة والسكرتيرات وعاملات التلفون ، وامثال ذلك .

وحين رأت الدول المتحاربة ، الاخرى ، نجاح بريطانيــا في هذا الانقلاب في الانتاج ، حذت حذوها بعد وقت قصير .

* * *

كان الهدف من جميع اجراءات لويد جورج دفعَ طاقة الانتاج في المجهود الحربي الى اقصى مداها .. ثم ازدياد نشاط الحكومة وحزمها في اتخاذ القرارات التي تقرب الفوز في الحرب . لكن هذا ما لم يحصل. اذ شعر الوزراء ان كآبة الفشل في حملة الدردنيل لا زالت تشل قدرتهم على التفكير . ولذلك عادوا الى تجريب « الخطط الجانبية » من جديد.

وكان اول اقتراح طُرح على بساط البحث هو « علينا ان نستفيد من الباب الخلفي لألمانيا ، فليكن ذلك في اليونان » . واختيرت مدينة « سلانيك » موقعاً للهجوم منه . اما السبب في هذا الاختيار ، فهو الأمل في اختراق اليونان ، بغية مساعدة « الصرب » في داخل البلقان .

الرفض ! ولماذا !

هذا ما عرضته بريطانيا على كل من حليفتيها : روسيا ، وفرنسا . وهذا ما لم توافق عليه ، اول الأمر اي منهما . فقد رفض الروس اشراك اليونان بحجة : ان اليونان قد يصلون الى القسطنطينية وتسقط في ايديهم ، وحينذاك يحتفظون بها ويضمّونها لدولتهم . وليس هذا في مصلحة روسيا . هكذا كانت استراتيجية روسيا المتعلقة بالمضايق تتحكم في خطط حلفائها .

امـا الفرنسيون فقد رأوا ان الافضل من حملة سلانيك ، ان تدخل ايطاليا الحرب لصالح الحلفاء . اذ يمكن عند ذاك الضغط على الامبراطورية النمساوية من نقطة الضعف فيها . وبما ان المانيا ستسرع الى مساعدة حليفتها النمسا ، فان القدرة الألمانية في الجبهة الفرنسيـة ستخفّ . ومن شأن هذا ان يسهّل على جيوش الحلفاء في فرنسا القيام بهجوم عام يكون حاسماً ، او شبه حاسم على الأقل .

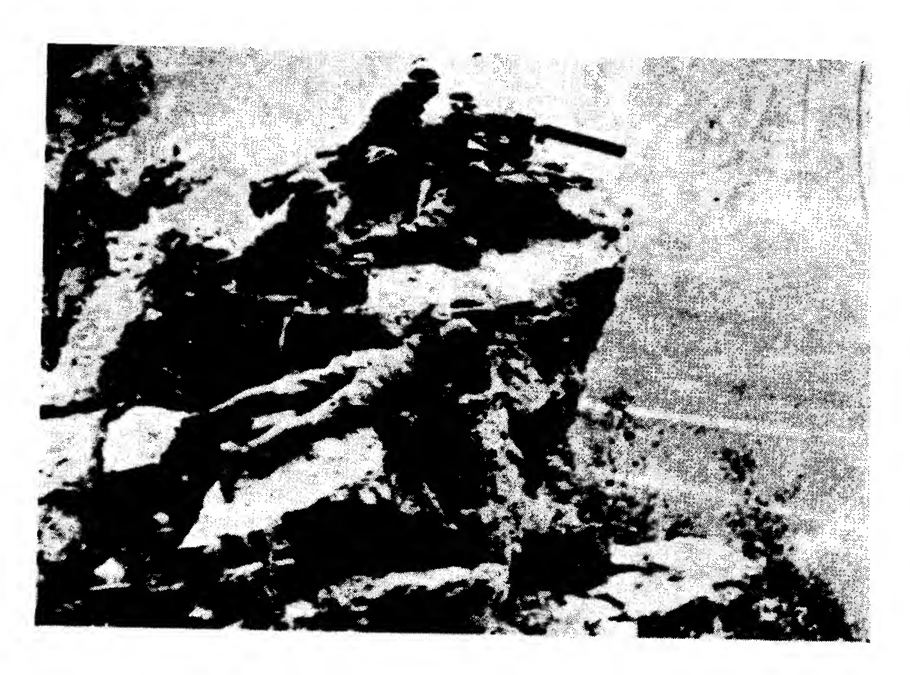
اما الدافع المنطوي تحت هذه الخطة فهو ظاهر للعيان :

أولاً : انه محاولة جعل فرنسا شريكاً اول بعد الحرب ، اذا ما تم النصر ، بحكم ان جيوشها هي التي قامت بالهجوم الحاسم .

ثانيـاً : الخشية من ان تظل ايطاليا قوية اذا لم تدخل الحرب ، بينا

تخرج فرنسا من حربها منهكة . وعندئذ تجد فرنسا في ايطاليا جارة قوية تخشاها .

وثالثاً : عدم الاخلاص لروسيا ، والخشية من توسعها المحتمل في الشرق .



الجنود الايطاليون يقرعون باب النمسا من الخلف
اي استحكام رائع !

ثلاث وجهات نظر

الآن لدينا وجهات نظر ثلاث .. فأي وجهة نظرٍ يقدّر لها ان ترى النور ؟

ان رأي فرنسا هو الأقرب الى الصواب . ولذلك عمل الحلفاء على

تبنّيه . وكانت ايطاليا ، اسمياً ، دولة حليفة لالمانيا والنمسا . اما الآن ، فقد اعلنت ان « الحلف » لا يشمل في بنوده اعلان الحرب على بلد آخر . وبهذا تنصلت ايطاليا ، ادبياً ، من التزاماتها .

وزادت على ذلك ان اعلنت حيادها التام بعد ذلك بقليل . وعندذاك صارت كالعروس التي تخطب دولُ الوسط ، والحلفاء ، ودها . لقد عرضت عليها المانيا ان تظل على الحياد لقاء ان يُضم اليها اقليما «التيرول» و « تريستا » بعد الحرب . فطار صواب النمسا من ذلك : اذ ان هذين الاقليمين كان يجب ان يُقتطعا من ممتلكاتها . ومع هذا العرض السخي، لم تستجب ايطاليا لأصحابه .

عرض اسخى

وكان دور الحلفاء في العرض . فتقدموا بأسخى مما فعل خصومهم. لقد عرضوا التيرول وتريستا ، و « دلماشيا الشمالية » واجزاء واسعة من آسيا الصغرى . ولكن هذا العرض لم يلقَ قبولاً ايضاً . وحينذاك نشطت الاستخبارات ودوائر التجسس الفرنسية . فقد استأجرت فرنسا زعيماً اسمه موسوليني ليكون وكيلاً عنها في اقناع حكومته بضرورة مهاجمة النمسا . وكان هذا رجلاً ديماغوغياً يهمه الكسب الرخيص .

موسوليني عميل للفرنسيين !

كان قد سبق لموسوليني ان كان رئيس حزب «الثوريين الاشتراكيين» في بلاده . ومن مبادىء هذا الحزب ، الهجومُ على كل حرب يعلنها الرأسماليون ومعارضتها . اما الآن ، فقد غدا موسوليني محبذاً للحرب وداعية مخلصاً لمن دفعوا له الأجر . انه اصبح يردد شعارات «الديمقراطية في خطر » ، فمن الضروري دفن « امبراطورية آل هابسبورغ » ، لأنها هي التي تهدد الديمقراطية .

ايها اقوى فعلا ، الادب ام الذهب !

وحتى الكاتب الايطالي الرومنسي د . انونزيو ، والآخر الاستقبالي مارينيتي ، صارا يدعوان الى الحرب في اعمالها الأدبية . واذا كان هذا تناقضاً مع مبادئها الأدبية ، فان الذهب الفرنسي كان كافياً لاخفات صوت الضمير في هذا الحال .

الشعب لا يريد الحرب !

كانت الاغلبية الساحقة من الايطاليين لا تريد الحرب ، ولكن ، هل هناك من اهتم برغبات الشعب !؟ ان الصحفيين والجنرالات والساسة المحترفين يريدون الحرب ، ودون هدف محدد الا الحرب نفسها . كان هؤلاء قد خرجوا متعبين من الحرب الليبية ١٩١٢ — ١٩١٣ ، ورأوا معنويات مواطنيهم في حاجة الى الاستثارة ، فقدّروا ان الحرب في اوروبا قد تبلّغهم ما ينشدون . لقد ناقشوا القضية على الصورة التالية :

« ان ايطاليا يجب ان تغدو دولة كبرى . وها هي الدول الكبرى تتطاحن في الحرب ، فلماذا لا تشاركها بلدنا فتغدو مثلها ؟ وحتى لو اننا لم نقف في السابق على مستوى انكلترا وفرنسا ، فهل يجب ان نبقى كذلك الآن ؟ كلا ، ان بمقدورنا ان نرتفع عن منزلة السويد وسويسرا. اذن ، يجب ان نفعل » .

اتفاقية لندن واعلان ايطاليا الحرب !

وفي ٢٦ نيسان (ابريل) وقّعت ايطاليا « اتفاقية لندن » وفيها تلتزم اعلان الحرب على النمسا بعد شهر من تاريخ التوقيع . لكن التمهيد لذلك كان يحتاج الى نوع من الهستيريا الحربية في اوساط الشعب . وبخاصة ان «اعضاء البرلمان الايطالي» كانت اغلبيتهم الى جانب الحياد .

فاقتضى ذلك ان يقوم موسوليني وأنصاره بتظاهرات صاخبة في شوارع روما، اشترك فيها الصحفيون الذين قبضوا ثمن ذلك ، كما اشترك خفافيش الأدب . فعمّ الشغب ، وهاجمت الجموع مبنى البرلمان اثناء انعقـاد احدى جلساته .. وهددت النواب بسوء المنقلب اذا خالفوا أوامر الشارع . ورضخ النواب.. فصوتوا الى جانب اعلان الحرب في ٢٣ أيار (مايو) سنة ١٩١٥ . لكنهم لم يجرؤوا ان يوجهوا اعلانهم الى المانيا ، فاكتفوا بتوجيهه الى عدوتهم التقليدية ، النمسا . وبعد عامٍ كامل واتت الشجاعة حكومة ايطاليا ، فأعلنت الحرب على برلين .

مشاكل انضمام ايطاليا الى الحلفاء

كان المأمول من « طبخة ايطاليا » أن يخفّ الضغط من جراء ذلك على الجبهة الفرنسية . لكن هذا لم يحصل . نعم ، ان الأسطول الايطالي شرع يتعاون مع القوات البحرية الحليفة في مياه البحر المتوسط ، ولكنه كان هزيلاً ، فلم يستطع منع الغواصات النمساوية من التسلل الى خارج بحر الأدرياتيك !

ومن الناحية الاقتصادية ، جاءت ايطاليا عبئاً جديداً على بريطانيـا. فقد كانت بريطانيا تقوم بتزويد فرنسا بحاجتها من الفحم منذ اول الحرب ، لأن المناجم الفرنسية وقعت في يد الالمان منذ البداية . وكانت بريطانيا تشعر بالضيق من اضطرارها الى ذلك . اما الآن ، فهـا هي ايطاليا ايضاً تطلب تزويدها بالفحم !

ومثلُ ذلك ان الجيش الايطالي كان قد خرج من الحرب الليبيـة مضعضعاً . ومع انه لا ينقصه الرجال ، غير انهم لا سلاح بأيديهم . وبخاصة المدافع الثقيلة التي كانت مفقودة تماماً لدى طوابيرهم !

كل هذه الظروف بخرت امكانية الاستفادة من الجيش الايطالي ضد النمسا .

قلاع محصنة على الحدود !

واذا اضفنا الى ما سبق عاملاً جغرافياً آخر ، تبدى لنا عدم جدوى دخول ايطاليا الحرب . ذلك ان الحد الفاصل بين ايطاليا والنمسا سلسلة جبلية وعرة ، تسيطر النمسا على قممها وسفوحها الجنوبية ، بينا ينتشر الايطاليون في حضيض تلك الجبال وحوض نهر الـ « بو » . اي ان اي تقدم يحرزه الايطاليون نحو الشمال لا بد ان يجابه دفاعاً نمساوياً في تلك الجبال . غير ان النمسا كانت قد أقامت سلسلة من القلاع المحصنة على حدودها الجنوبية هذه . وكانت تلك القلاع معمورة بالجنود في اوقات السلم ، بغية المحافظة على الحدود ، ومنع نشاط التهريب .

اذن ، فليس على النمسا ان تنقل الى تلك السفوح جيوشاً جديدة ، حتى لو هاجمها الايطاليون من هناك . نعم ، انها قد تعزز حاميات تلك القلاع .. ولكن هذا لن يؤثر في قليل او كثير على الضغط في جبهة فرنسا .

ايطاليا ورطة للحلفاء !

وبخلاف هذا تكون الحال مع الحلفاء . فجيوش ايطاليا المهاجمة تتطلب لوازم كثيرة من اجهزة وعتاد .. والحلفاء هم الذين سيقدمون معظمها ، ان لم يقدموها كلها . ومن شأن ذلك ان يربك انتاج المجهود الحربي لديهم، فيكون عاملاً معيقاً اكثر منه مساعداً في كسب الحرب.

ولقد واجه الحلفاء موقفهم الجديد.. فغُصوا . ولكنهم تحملوه على كل حال . وقد وجد بين الساسة البريطانيين والفرنسيين من فكروا على هذا النحو : ان انتقاض ايطاليا على حليفتها السابقة ، النمسا ، قد يثير شعوب تلك الامبراطورية (وهم من قوميات مختلفة) على آل هابسبورغ. فاذا تم هذا ، كانت نتيجته ان تتمزق الامبراطورية من داخلها .

مجرد اماني حلوة !

لكن هذا التقدير لم يكن صائباً . فقد نظرت شعوب تلك القوميات بشيء من العطف تجاه الامبراطورية العجوز ، وحنقت على ايطاليا الغادرة لأنها طعنت حليفتها من الخلف . ولهذا تمنّت تلك الشعوب ان يدفــع الايطاليون ثمن غدرهم . وقد سرها بالفعل ان لا ينجحوا في اية معركة يخوضونها .

جيش المعكرونة الرقيع !

واذا نركنا الملامح النفسية لدى شعوب الدول المتقاتلة وعُدنا الى الوقائع الحربية ذاتها ، وجدنا الجيش الايطالي جيشاً رقيعاً كُتب عليه



الجنود الايطاليون ينهكهم الاستمرار في السير ..
فالمعكرونة تنزلق على الصخور ، وتتجمد على الثلج !

الهزيمة على الدوام. ان المراقبين العسكريين في الوقت الحاضر لا يُجهدون انفسهم حين يقولون : « في ١١ محاولة قام بها الجيش الايطالي لاجتياز حدود بلاده الى الشمال واحتلال التيرول لم يخسر الا ١١ مرة فقط !!».

كان بعض الساسة الايطاليين قد دخلوا الحرب ظناً منهم ان روسيا سريعاً ما تقهر النمسا ، وانهم اذا لم يشاركوا في النصر المرتقب لم يكن لهم ان يطالبوا بشيء من الغنيمة . اما نظراء هؤلاء الساسة في بريطانيا وفرنسا ، فقد هدفوا من جرّ ايطاليا الى الحرب ، مساعدة روسيا ضد فيالق غليوم .

والواقع ان نظرة هؤلاء وهؤلاء كانت تنطوي على شيء من الصواب. فلو اقتصرت الحرب على الروس ضد النمساويين لانهزمت النمسا بعد وقت قصير . لكن الالمان في تلك الأثناء كانوا قد التفتوا الى روسيا . ومقابلة الجيوش الالمانية شيء يختلف تماماً عن خيّالة النمسا .

جاء فولكنهاين يا قوزاق !

وكان ما اغرى الالمان بالتركيز على الجبهة الشرقيـــة ، ان الجيش الروسي ، ومعظمه من القوزاق ، عاود هجومه على غاليسيا ، واستولى على قلعة « برزميسل Przmysel » الحصينة في ١٥ نيسان (ابريل)



الجيش النمساوي يفتش عن عدو يقاتله .. لان خطوط الجبهة غير محددة

١٩١٤ . وعندئذ قرر فولكنهـــاين ان يلقن القوزاق درساً مريراً . وكان هدفه العسكري من ذلك انه : اذا تم دحر الروس واحراز نصر حاسم على جيوشهم ، أمكن التفرغ للجبهة الغربية فيما بعد . وبفعل الضغط المركّز على الجيوش الحليفة هناك يمكن التوصل الى مساومة يعقبها صلح مع بريطانيا وفرنسا ، ويكون لصالح المانيا الى حد معقول .

من هذه النظرة في نفس فولكنهاين ، أخذت القطارات تنقل الوف الجنود الى الجبهة الشرقية . وحتى هيئة القيادة الألمانية العامة ، بما فيها غليوم نفسه ، القائد الأعلى (اسمياً) ، وفولكنهاين ، انتقلت الى هناك . ولما كان في هذا الانتقال ما فيه من تحدٍّ للجنرالات العاملين في الشرق ، وأبرزهم القائدان لدندورف وهندنبرغ ، فقد أخذت المنافسة بينهما وبين رئيسهما فولكنهاين تبرز بصورة ملحوظة .. أصبحا ينتقدان خططه ، ويقدمان خططاً نقيضة لها ، وجعلا يحمّلانه مسؤولية كل خطأ قد يقع .

شليفن من جديد .. واختلاف القادة !

وقد تبلور الاختـــلاف وانفجر حين بحث غليوم معهم جميعاً وضع خطة للانقضاض على الجيش الروسي المقابل . وكان لدندورف وهندنبرغ ، وهما في روسيا الشرقية ، يريان انه من الأضمن نجاحاً استعمال خطة على نسق خطة شليفن . اذ يلتفّ الجيش الألماني من الشمال ثم يتجه جنوباً بسرعة خاطفة ، فيتم له بذلك تطويق الجيوش الروسية وافناؤها .

أما فولكنهاين فقد بيّن مآخذه على هذه الخطة بأن قال :

« ان خطة شليفن في الغرب لم تعط النجاح المأمول . كما ان سرعة الجيش المنسحب الى الخلف في خط مستقيم ، اكبر من سرعة الجيش المهاجم والزاحف على قوس نصف دائرة . ولهذا فإن الجيوش الروسية قد تنجو من التطويق . وحينئذ يتحتّم علينا ان نأخذ موقف الدفاع من مختلف الجهات ، ولا نأمن ان يتم تطويقنا نحن . »

وقد قرّر غليوم الأخذ برأي فولكنهاين . وعلى أساس ذلك تم سحب فرق كثيرة من قوات هندنبرغ ، وتوجيهها الى الجنوب لتعزيز الجيوش النمساوية ضد روسيا . وحين وصلت هذه القوات ، قامت بالاشتراك مع القوات النمساوية بالهجوم على « غروليس Grolice » في ٢ أيار (مايو). وكان عرض الجبهة ٢٧ ميلاً .

كانت الخطوط الروسية هناك غير مكينة . فكثافة النار معدومة ، والقليل من الجنود من تلقّوا تدريباً عسكرياً كافياً . وحتّى البنادق العادية كانت غير متوفرة للجميع . ولهذا سُهل على الالمان ان يشطروا الجيش الروسي الى قوّتين ، كان طرفاهما المتقاربان يبعد الواحد منهما عن الآخر بقدر عرض الجبهة ، أي ٢٨ ميلاً .

هذه هي العملية الحربية الوحيدة طوال الحرب الكبرى ، التي كانت ناجحة تماماً في اختراق جبهة لا يمكن تعبئة الفراغ الناتج عن اختراقها ، من جديد . وهي العملية الحربية الوحيدة ايضاً التي يمكن اعتبار الانتصار فيها حاسماً . اما نتيجتها ، فكانت عظيمة جداً لصالح الالمان :

لقد انسحب الروس أولاً من غاليسيا ، ثم من معظم بولندا ، وبذلك استولى عدوهم على رقعة من الأرض تعدل مساحة فرنسا ، كما وقع في يده ثلاثة ارباع مليون أسير روسي .

ومهما بدا هذا النصر حاسماً فقد شاءت طبيعة الأرض الروسية ان لا تجعله نهائياً . وكلنا يعرف نابليـــون وما لاقى من شتاء روسيا وامتداد سهوبها . ولا أظن أحداً من ابناء هذا الجيل قد نسي هتلر ، وطريقة الروس في حربه (العالمية الثانية) . مثلَ هذه الخطة استعمل الروس في الحرب العالمية الأولى . أيقنوا ان لا طاقة لهم بالصمود امام تسليح الجيش الألماني وتكتيكه فانسحبوا على طريقة « الأرض المحروقة » .



« ببركة الرب وقيصر روسيا .. سيروا الى الحرب »
موتوا .. او اقتلوا غيركم !!

الموقف الجديد

ونتيجة ذلك غدا الموقف كما يلي :

الروس ينسحبون مقتربين من خطوط تموينهم (مهما بدت هذه الخطوط فقيرة أو معدومة الترتيب) ، والالمان والنمسويون يتعقبونهم فيبتعدون عن خطوط تموينهم (الطويلة سابقاً) .

ولقد استفاد الروس من عدم وجود سكك حديدية في بلادهم هذه

المرة . نعم ، لو كان هنالك سكك لكان هجومهم على غاليسيا قد حدث قبـل الوقت الذي تمّ فيه ، ولكن .. لو كان الالمان يستعملون تلك السكك في تراجع الجيش الروسي ، لكانوا قد أبادوه تماماً !

هكذا استفاد الغراندوق من تأخر بلاده .

نتيجة خطة فولكنهاين

كان ثقل الهجوم الذي استعمله فولكنهاين في هذه المعركة معيقاً لسرعة الحركة في جيوشه الضخمة . فلم يحلّ ايلول (سبتمبر) من سنة ١٩١٥ حتى كان الروس قد بنوا خطاً حديدياً في بلادهم على بعد ٣٠٠ ميل الى الشرق . وهو خط قصير المدى طبعاً ، لكنه وسيلة اتصال حديثة على كل حال . وببناء هذا الخط ظهر ان روسيا قد تحطّمت .. لكنها لم تخرج من الحرب . وعدم خروجها من الحرب معناه فشل خطة فولكنهاين في الاستفادة من حملته الكبيرة .

وزاد الأمر سوءاً ان الجيش الألماني الآن اصبح مضطراً لابقاء اعداد ضخمة من قواته على الحدود الشرقية الطويلة جداً ، والتي خلقتها الحملة الجديدة . واذ كان الألمان في السابق لم يحتاجوا اكثر من بعض الحاميات في بولندا ، فقد أصبحوا الآن في موقف استعداد دائم للقتال في جميع الأراضي الروسية الجديدة . انهم يخشون ان يعاود الروس القتال على حين غرّة ، وأن ينتهز الحلفاء في الجبهة الغربية هذه الفرصة فيقوموا بهجوم مركز من جانبهم ايضاً .. وبهذا يقع ما ظل الالمان لا يحتملون التفكير فيه ابداً . لقد دخلت المانيا الحرب لئلا تواجه مثل هذا الموقف ، فكيف بها وهي تراه وشيك الوقوع !!

كذلك لم تنجح خطة فولكنهاين من ناحية ثانية . اذ ان التفاوض مع الروس غدا الآن مستحيلاً — فالقيصر والغراندوق ، لا يتسامحان في وجود أرض روسية يحتلها العدو . وحتى لو عرض الألمان إخلاءها عن

طريق المفاوضات ، فإن الحكومة الروسية لن تقبل بهذه المذلة ، وبخاصة انها أعلنت تصنيمها على نيـــل النصر من قبل . كما ان حرب القيصر وجدت لها مبرراً يتقبله شعب بلاده الآن ، فهو يقول لهم : « ان روسيا الأم تستصرخكم » ، وما أعمق شعور الشعب الروسي بعلاقته بأرضه ! انه يكاد يعبدها . ولزيادة حماسة المقاتلين الروس ، عزل القيصرُ الغراندوقَ وتولى القيادة بنفسه . نعم ، ان قيادته كانت مجرد قيادة اسمية ، ولكنها ذات أثر في نفوس « أبنائه الروس » على كل حال .

الساسة هم القادة !

والغريب ان جميع رؤساء الدول المتقاتلة كانوا هم القـــادة الاسميين لجيوشها . حتى رئيس الجمهورية الفرنسية بونكاريه ، ومع كل أناقته وطراوة عيشه ، كان هو القائد الرسمي لجيوش جوفر . واذا كان ملك انكلترا وبونكاريه ، وامبراطور النمسا ، وغليوم المانيا يكتفون من قيادتهم الاسمية بالمباحثة مع القادة العاملين ورؤساء هيئات الحرب لديهم ، فإن نيقولا الثاني في روسيا لا يقنع بذلك . انه يباشر القيادة فعلاً ، فيتدخل في شؤون عسكرية عليا لا يفقه فيها شيئاً .

وقديماً قيل : « ان لقدرة القائد نصيباً كبيراً في كسب اي حرب أو خسرانها » ، هذا اذا كان الجيش نفسه كفؤاً من جميع الوجوه . فما بالك الآن ، والجيش الروسي منهار والقائد هو نيقولا الثاني بكل غبائه !!

* * *

لم يكن لدى الحلفاء ما يسعفون به الجيش الروسي عنـــدما كان يلقى الهزيمة تلو الأخرى . فقد كان جوفر وتكرار هجوماتـه الفاشلة ، وبخاصة هجوم شهر أيار (مايو) في ذلك العام ، قد أنهك قوات الحلفاء في الجبهة الغربية . ولهذا ظلوا يتفرجون على انكسار الروس والمذابح الجديدة

فيهم . وقد عرض جوفر على حكومة بريطانيا القيام بهجوم جديد في حزيران ، لكن هذه رفضت المغامرة ، وجعلت من استراتيجيتها عدم القيام بنشاط فعال الى ان يتم تجهيز جيش كتشنر الضخم الجديد في سنة ١٩١٦ . اضف الى ذلك ان الساسة البريطانيين رأوا ان نفوذ بريطانيا في الشرق سيتضعضع ، ان لم يتلاش ، اذا لم يتم احراز نصرٍ ما في غاليبولي .

محاولة تنسيق استراتيجية

وفي ٥ تموز (يوليو) انعقد مؤتمر بين وزراء بريطانيا وفرنسا في « شانتلي » ، وكان هذا اول محاولة جدية لتنسيق استراتيجية البلدين المتحالفين في الحرب . ولما كان كتشنر هو الانكليزي الوحيد الذي يعرف الفرنسية بين اعضاء وفد بلاده ، فقد سيطر على المؤتمر ، وبدا انه اوصله الى ما شاء هو ، اي : الدفاع في فرنسا ، والهجوم في غاليبولي .

لقد توجه الى جوفر قائلاً : « انني اعدك بتأييد القيام بهجوم عام في الجبهة الغربية اذا ما وافقتَ على ضرورة القيام بحملة بحرية على الدردنيل .. وعلى شرط ان تتم الحملة البحرية اولاً ، ويكون الهجوم البري في تشرين الأول (اكتوبر) من هذا العام » .

هكذا تمت الصفقة

ووافق جوفر على صفقة كتشنر ، فعاد كل منهما الى مركز قيادته . اما جوفر فأخذ يُعد العدة للهجوم المنتظر ، واما كتشنر فسارع الى غرف العمليات الحربية في مبنى الاميرالية بلندن . ومن هناك تم ارسال ٥ فرق الى السير هاملتون لتنضم الى ٨ فرق كانت معه فيرتفع العدد الى ١٣ . واذا كان نصيب حملة الدردنيل ٥ ، فقد كان نصيب الجبهة الغربية ١٦ فرقة جديدة .. كل ذلك ارضاء لجوفر .

ومن الطبيعي ان الاتراك لم يضيعوا الفترة ما بين فشل الهجوم الاول، وهذه الايام . فقد جلبوا كل ما استطاعوا من قوات ، واستوردوا او نقلوا ما قدروا عليه من ذخيرة ، سواء للجنود القناصة في القلاع ، او للمدفعية المركّزة على السفوح . وغدا مجمل قوتهم الآن ١٦ فرقة .

وقد طلب هاملتون من كتشنر ان يسعفه ببعض الضباط والجنرالات الشباب من الميدان الغربي ، الا ان كتشنر كان جافاً في إجابته على هذا الطلب . فلقد ابلغه : « ان الأقدمية والرتبة الأعلى في الجيش هي ذات الحق الطبيعي في القيام بهذه المهمة . ولست ارضى منك الاعتراض على تقاليد الجيش العريقة ، الا اذا كنت تعني باعتراضك هذا تبريراً مسبقاً » .



شاطىء « سوفلا » الصخري
حتى هنا كانت الخيول ضرورية..

وبعد ذلك ارسل كتشنر الجنرال ستوبفوردِ ، مساعد حاكم برج لندن . وكان هذا الرجل ادارياً صرفاً لم يشهد في حياته معركة واحدة ، بل كان يجهل كل شيء عن طبيعة الدردنيل وظروف القتال المتوقع فيه .

بدء الهجوم والمباغتة

وتقرر ان يبدأ الهجوم في ٦ آب (اغسطس) ، وللمرة الثانية استفاد هاملتون من عامل المفاجأة ضد الاتراك . ففي « انزاك » توغل طابور انكليزي الى عمق ربع ميل في ارض العدو ، ولم يجد امــامه الا ٢٠ جندياً تركياً ، قضى عليهم بسهولة . ولكن آمر الطابور جعل جنوده يتوقفون عن التقدم كي يتناولوا فطورهم . وما ان انتهوا من ذلك حتى كان السفح مليئاً بالبنادق .

قائد في معركة.. وينام!

وفي خليج «سوفلا Suvla » ، استطاع (٢٠) الف جندي ان ينزلوا الى البر دون اية خسارة ، ولم يجدوا امامهم الا الف تركي ليس معهم سدفع « ماشين — غن » واحد . وكان آمر هذه القوة ستوبفورد ، فلم يُصدر امره بالتقدم نحو الداخل ، بل اكتفى بأن هنأ الجنود على نجاح عملية الانزال ، ثم ذهب الى خيمته ليتمتع بغفوة قصيرة في القيلولة . اما الجنود النازلون فقد طُلب اليهم ان يستريحوا ليجددوا نشاطهم . وهذا ما تم بالفعل ، فقد ذهب عدد كبير منهم يستحمون في مياه البحر .

الأدب واللياقة في الميدان !!

وفي هذه الاثناء كان هاملتون يناور في سفينته ، فحضر الى منطقة انزال ستوبفورد . ولم يشأ ان يتدخل لأدبه ، اول الأمر .. لكنه حين لاحظ اهمال ستوبفورد طلبه اليه . بيد ان الرسول وجده نائماً ، فاضطر الى ايقاظه ، وهو يتعجب من قائد ينام وجنوده قد نزلوا ارض العدو

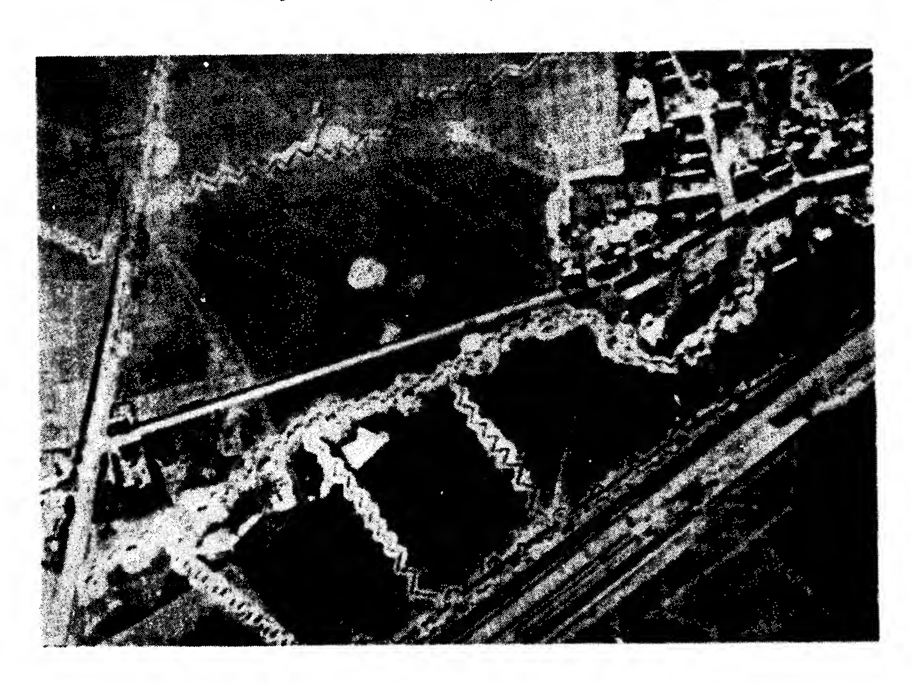
في صبيحة ذلك اليوم !

وحين طلب هاملتون من ستوبفورد ان يباشر تقدمه فعلاً ، كـان جواب ستوبفورد : « الوقت طويل ، والجنود الآن غير مستعدين . أرى تأجيل ذلك الى الغد » . وقد ذُهل هاملتون من جواب مرؤوسه لكنه، بفعل الأدب ايضاً ،انسحب ولم يشأ ان يكون عسكرياً صارماً معه.

وهكذا ، حفر النازلون في تلك الليلة خنادق لهم ، وقضوا ليلتهم في هدوء بال .

٤٨ ساعة في الميزان

وفي ٨ تموز (يوليه) حاول ستوبفورد التقدم . لكن الاتراك كانوا اقوى منه كثيراً هذه المرة . ففي الـ ٤٨ ساعة التي بددها ، كان القادة



نظام الخنادق من الجو
لاحظ الانتظام النظري فيه

الاتراك قد عملوا ٤٨ ساعة تامة . لقد جيء بالآليات والطوابير من مختلف المواقع القريبة ، وكُدّست جميع الحاميات المجاورة

كان تفكير القادة الاتراك ينطلق من انه :

« اذا نجح الانكليز في تثبيت اقدامهم حيث نزلوا ثم استطاعوا التقدم الى الداخل من هناك – اصبح بوسعهم ان يقطعوا المواصلات بين القسطنطينية واوروبا . وفي هذه الحال نغدو مضطرين الى مواجهة كامل ثقل الحلفاء ، وقد يستعملونه في ممتلكاتنا الآسيوية . » ولما كانت هذه الاجزاء الآسيوية لم تتم تعبئتها بعد ، كما ان اهلها مشكوك في ولائهم الصادق للدولة ، فان خسران الحرب حينئذ يغدو وشيكاً .

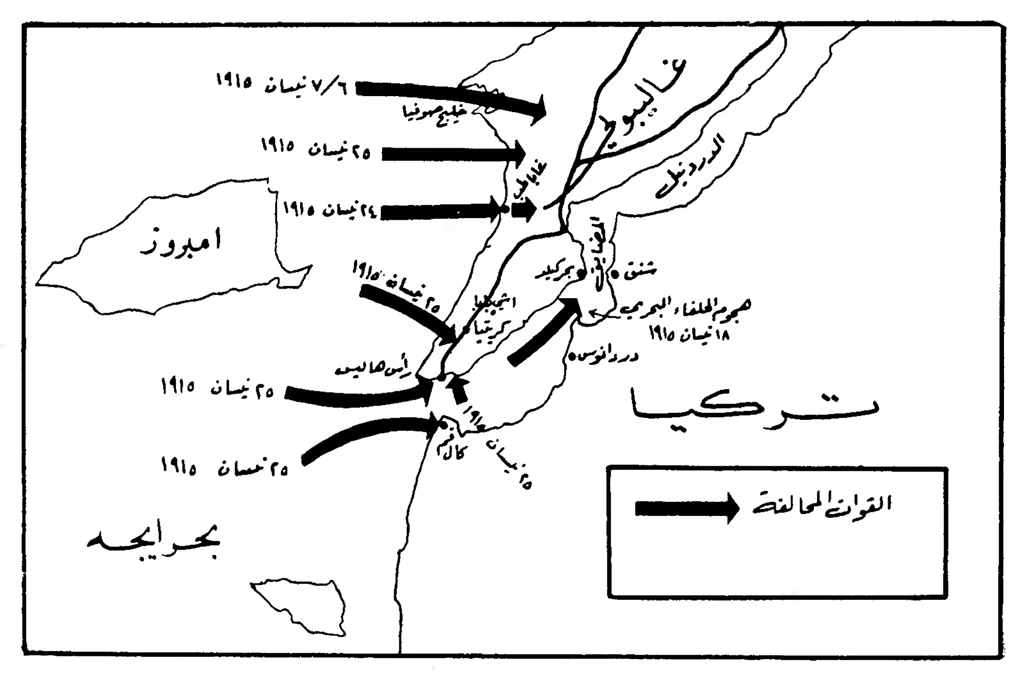
مصطفى كمال (اتاتورك) على المسرح

وهكذا انقلبت محاولة تقدم ستوبفورد الى ملحمة أجاد فيها « بيادى» الاتراك في رمي النار . وفي هذا اليوم بالذات نُقل خبر المعركة الى الجنرال الالماني « ليمان سندرس » قائد الجيش التركي في غاليبولي ، فأرسل فرقتين من قواته لمساعدة الاتراك المدافعين . وصدف ان تأخر قائد احدى الفرقتين عن الوصول في الوقت المعين : فعزله سندرس ، وعين مصطفى كمال بدلاً منه .

عبقرية عسكرية

وهكذا صار مصطفى كمال هو القائد الاعلى الذي يوجه الدفاع . والحق ان عبقرية هذا الرجل العسكرية برزت في هذه المعركة . وخير شاهد على ذلك ما نقله الاستاذ عمر ابو النصر مترجماً عن الكولونيل النسون . وكان هذا ضابطاً اشترك في المعركة نفسها ، وهو يقول :

« تقرر ان يبدأ الهجوم على الخطوط التركية حين تنتهي المدفعية والاسطول من اطلاق القنابل . وكانت القنابل تتساقط بصورة مفزعة



خريطة الدردنيل وغاليبولي

مخيفة على الخطوط التركية فتنسفها نسفاً ، وتجعل الجبل يتحرك من مكانه. ولما توقفت المدافع عن اطلاق النار اشرتُ الى جنودي بالهجوم فتقدمنا .

وكان الترك بانتظارنا ، فأصبت بجرح في رجلي من طعنة سيف . واشتبك جنودي في معركة بالسلاح الأبيض مع الجنود الاتراك ، فتراجعوا امامنا ، فأخذنا اللحاق بهم . وعندئذ بدأت مدافع اسطولنا تقذف قنابلها علينا ، وقد ظنتنا من الترك ، فاختل نظامنا ، واضطررنا للتراجع ..

وكانت المراكز التي وصلنا اليها تشرف على المضايق اشرافاً تاماً . ولو كانت هناك قوات تساعدنا ، لتمكنا من الثبات فيها ، والسيطرة على وسائل النقل التركية كل السيطرة .

ولما ذهبت في اليوم التالي لرفع تقريري الى القيادة العامة .. واخبرتهم

انىنا بحاجة عظيمة الى نجدات ، قالوا :

ـ لقد فشل الهجوم تماماً في كل المراكز .. وعلينـــا ان نتراجع .

وهكذا خسرنا اثني عشر الف جندي للوصول الى القمة التي تشرف على المضايق .. ولكننا مع الأسف لم نتمكن من الاحتفاظ بها . فكأننا لم نفعل شيئاً » .

انافورطة

اذن ، لقد فشلت حملة الدردنيل للمرة الثانية .. فاستدعي الجنرال ستوبفورد الى بريطانيا ، وغدت الوزارة البريطانية تنظر الى تقارير هاملتون عن امكانية نجاحه فيما بعد ، بكثير من الارتياب . لكن اهم من ذلك، ان الجنود البريطانيين في غاليبولي ظلوا يموتون .. ففي ٢١ آب، (اغسطس) اي بعد عشرة ايام من الفشل السابق ، حـــاول هاملتون اخذ الاتراك بالفجاءة ايضاً ، لكن مصطفى كمال صده في « انا فورطة » وكبّده خسائر فادحة .

وبهذا صار لدى الوزراء البريطانيين الذين هددوا بالاستقالة من الوزارة مبرر كاف لعدم التعاون مع كتشنر وقواده . اما الوزراء الآخرون الذين رفعوا عقيرتهم بأن : « نفوذ بريطانيا وهيبتها الدوليـــة قد تمرغا في وحول الدردنيل » ، فقد جاء هاملتون يقول لهم : « آمين » .

هذا صك طال اجله

ان احداً لا يشك في وطنية جوفر ، ولكن الطبيعة البشرية لا تتغير ، فهذا القائد الكبير بدا عليه شيء من الشماتة حين تقدم الآن يعرض فكرة القيام بهجوم عام في الجبهة الغربية . لقد قال : « ان هذا صكّ قد أجلّتُ استيفاءه » ، وفعلاً كانت الحال كذلك ، فقد سبق ان وعده كتشنر بهذا الهجوم . وحين عُرضت الفكرة على مجلس الوزراء البريطاني

عارضها الجميع تقريباً . كانوا آنذاك يفكرون في النكبة الحديثة العهد في الدردنيل ، ويودون لو أجّلوا كل نشاط حربي في تلك الايام ، ريثما يفيق الجيش من الصدمة ، وترتفع معنوياتهم هم .

كتشنر يؤيد جوفر بتحليل الموقف

عند ذاك انبرى كتشنر مدافعاً امامهم عن فكرة جوفر .. لقد قال بصرامة وغيظ : « اسمعوا ايها السادة ، ليست الحرب ان تفعل ما تشتهي ، بل ان تفعل ما يتوجب عليك فعله . لقد دخلنا الحرب ، ولنا في الجبهة الغربية مقاتلون . وارجو ان تعلموا جميعاً ، ان جوفر سيفقد منصبه اذا لم نسنده نحن من هنا . فاذا فقد هذا الرجل منصبه ، لم يجد الفرنسيون جنرالاً في كفاءته ، وحينذاك تنهار الجبهة الفرنسية بكاملها . افرضوا معي الآن ان فرنسا قد استسلمت . عندذاك يبرز امامكم موقفان:

الأول : ان نستمر في الحرب وحيدين .

والثاني : ان تستسلموا بدوركم ايضاً .

فهل هناك من يعمل منكم لهذه الغاية ؟ »

كانت هذه تهمة خطيرة ، ما كان اي من الحاضرين يقبلها لو جاءت من غير كتشنر ، ولذلك خضعوا جميعاً لرأيه ، وابصروا الحكمة في قوله : «ان الحرب ان تفعل ما يتوجب عليك فعله » ، ووافقوه .

فكرة غريبة !!

وفي تلك الموافقة منطوى جديد . فمضمونها هو : « يجب ان يموت الجنود البريطانيون في الجبهة الغربية من اجل ان تظل فرنسا شريكة في الحرب الى آخر الشوط . » وهذه فكرة جد غريبة ! فقد دخلت بريطانيا الحرب (ولو زعماً) للدفاع عن حياد بلجيكا ، لا لإبقاء جوفر في منصب القيادة ، ولا للتوسل الى فرنسا كي تستمر في القتال .

فلنقل الآن مرة ثانية : هذه أحجيات الحرب .

هجوما شامبين وأراس

كان جوفر واثقاً من النجاح الآن ، شأنه في العادة . وكانت خطته ترتكز الى القيام بهجومين مركّزين ، احدهما على الجناح الألماني الأيمن في « شامبين » . والثاني على الأيسر في « أراس » . اما النتيجة المرجوة من ذلك ، فهي اجبار الألمان على التراجع الى ما وراء نهر الموز ، او الفوز بانتصار حاسم لصالح الحلفاء .

وقام الفرنسيون بهجومهم في ٢٥ ايلول ، فاستطاعوا اختراق خط الميدان الألماني . ولكنهم هنا اكتشفوا حقيقة اذهلت قيادتهم ! لقد وجدوا ان للألمان خطاً محصناً ثانياً وراء خط الجبهة .. وانهم ، حتى لو اخترقوا خط الدفاع الأول ، سيكون عليهم القتال من جديد امام خط الدفاع الثاني .. ومعنى ذلك بلغة العسكريين :

ان عدة هجومات ، سريعة ومتتالية ، وكلاً منها بقوى جديدة .. هو ما كان من المحتمل ان يحتاجه تنفيذ خطة جوفر .

خدعة يقابلها غباء

وزاد الأمر نُكراً على الفرنسيين اكتشافهم ان الخط الثاني هو الذي كان يعوّل عليه الألمان في عملياتهم الحربية ، الدفاعية منها والهجومية . اما الخط الأول ، فقد جُعل لمجرد المناوشة والتمويه !

ومع ان هذه حقائق عجيبة ، الا ان غباء جوفر لم يستفد منها عبرة ما ، اذ امر باستمرار الهجوم . ودام الهجوم ثلاثة ايام ، كان تقدم الفرنسيين اثناءها شبراً واحداً معناه افناء الصف الأول من المتقدمين .

ان القتال يومذاك لم يكُ حرباً ، وانما مسلخاً عاماً للبشر هـا هم الضباط الفرنسيون يقودون جنودهم اليه .



الحرب: في الخنادق يسيطر الموت سنة ٩١٥

وهكذا سُحب الهجوم الفرنسي ، اضطراراً ، وأعيد الخيالة الذين كانوا ينتظرون مطاردة الألمان ، الى ثكناتهم خلفَ الجبهة الفرنسية .

جوفر في عناده كبغل استرالي !

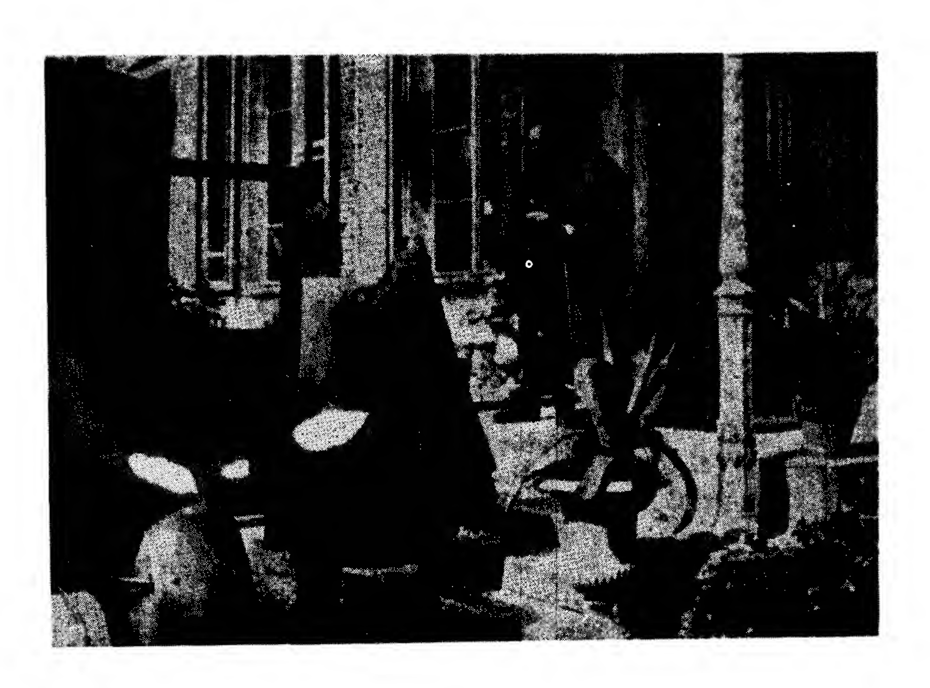
جابهت تلك الحقائق جوفر بكل وضوح ، ومع هذا لم يتراجع عن فكرته في ضرورة الهجوم الانكليزي . لذا نجده يقرر ان يتم الهجوم في موقع « لوس Loos » ، وحتى دون ان يدرس طبيعة ذلك الموقع وكثافة القوات التي ستحاول صد الهجوم فيه . ولسنا نظلم الجنرال القدير حين نقول : يبدو انه قرأ اسم المدينة على الخريطة ، ثم اشار اليه ، وكفى !

وقد عارض السير جون فرنش في اختيار هذا الموقع، وعرض نقاط انطلاق اخرى لهجوم جنوده . فاتصل جوفر بكتشنر في لندن – وكان هذا يعاني ناحية ضعف تجاه جوفر – فما كان من كتشنر الا أن أمر السير فرنش بالخضوع .

هجوم .. غاز .. نكبة !!

كان قائد الفرقة المهاجمة هذه المرة هو الجنرال هايغ ، وكان شبه واثق من النجاح في حملته الجديدة ، اعتماداً على الاستفادة من اطلاق الغاز . غير ان الريح في اليوم المحدد كانت معاكسة تماماً للاتجاه المطلوب ، حتى ان قائد فصيلٍ امر باطلاق الغاز فسمم جنوده انفسهم . ولهذا تبخر عامل مهم كان هايغ قد بنى أمله عليه .

وقام الجنود البريطانيون بالهجوم .. واستطاعوا اختراق خط الدفاع الألماني الأول ، وكادوا يخترقون الثاني ، الا انه حدث شيء عجيب في تلك اللحظة . اذ كان هايغ قد طلب امدادات من رئيسه جون فرنش، وكان هذا غيوراً من نجاح هايغ المنتظر ، ولذلك نجده ابقى كتائب الاحتياط متخلفين في المؤخرة . اما الآن ، وهايغ يطلب امداده بهم ،



هايغ يشعر برجفة البرد حين طلب اليه
بيتان ان يطول خطوط جبهته

فقد امر فرنش بتلبية طلبه .

وتقدمت كتائب الاحتياط هذه في الساعات التي كان فيها الألمان يقومون بهجوم معاكس على هايغ ، يضطر قواته الى التراجع .

وهكذا اختلط الجنود البريطانيون المتراجعون برفاقهم القادمين لنجدتهم ، وتدافع الفريقان على عرض الجبهة . فقدموا بذلك فرصة نادرة المثال للقناصة ورجال المدفعية الخفيفة والثقيلة ، الألمان . لقد أصلاهم هؤلاء ناراً حامية ، حتى اختلط فيهم الحابل بالنابل . وكانت المذبحة .

النتيجة ..!

وما ان سيطر الضباط البريطانيون على كتائبهم وسراياهم وفصائلهم

حتى استداروا لهجوم الألمان المعاكس وصدّوه .. ولكن .. ماذا كانت نتيجة الحملة الحمقاء !!

اولاً : لم يكسب البريطانيون موقعاً استراتيجياً واحداً .

ثانياً : كانت خسائرهم ٥٠ ألف إصابة لقاء ٢٠ الف اصابة فقط من الالمان .

ثالثاً : انكشفت الخطة المشتركة بينهم وبين الفرنسيين في الهجوم ، للألمان .

واذا قارنا هذه النتيجة بما ادى اليه الهجوم الفرنسي السابق ، وجدنا الثانية افضل من الاولى على كل حال . فقد كانت نتيجة الهجوم الفرنسي ما يلي :

أولاً : لم يكسب الفرنسيون شبراً واحداً من الارض .

ثانياً : كانت خسائرهم (٩٠) ألف إصابة مقابل ١٢٠ الف اصابة عند عدوهم .

ثالثاً : تزعزع مركز جوفر الذي كان يترنح من قبل .

وفي هذه النقطة الأخيرة خطر اكيد على مجرى الحرب بكامله .

اعتراف غير مباشر بالفشل !

أغرب من كل هذا ، ان جوفر ظل مستبشراً يؤكد لضباط الاركان في قيادته ان كسب الحرب ممكن عن طريق الهجوم . لكنه الآن بدأ يتخذ خطة غير مباشرة في الاعتراف بالفشل . لقد جعل يقول :

« حتى ولو اننا لم نهزم الالمان ، فاننا قد انهكنا قواتهم ، واظن في هذا ربحاً كافياً لصالحنا . »

ولكن ما عساه يقول لو فسر له احد ضباطه المدى الذي تذهب اليه « نظريته الجديدة » هذه ، فسأله : « وهل توافق يا حضرة الجنرال

على حقيقة انهم انهكونا . وبضعف المقدار ، ايضاً ؟ » .

معلق ساخر .. !

وقد كتب احد المعلقين العسكريين الفرنسيين عن هذه الموقعة ، فيما بعدُ ساخراً ، فقال على لسان جوفر :

« اخواني كبار الضباط : ها انتم ترون اننا قد عطلنا (١٢٠) الف الماني عن العمل ؛ وفي مرة واحدة . وها هم اخواننا البريطانيون قد عطلوا (٢٠) الفاً .. وانتم تعلمون ان الالمان ليسوا رجالاً لا عدد لهم.. فنحن سنستطيع تعطيلهم كلهم يوماً ما . »

ثم اضاف ذلك المعلق ، مكملاً سخريته !

« وعندئذ اجابه واحد من الحاضرين : « لكن الألمان اكثر عدداً من الفرنسيين على كل حال . ولا اظن البريطانيين سينقلون كل مواطنيهم الى « لوس » او « اراس » !! »

والواقع ان سخرية هذا الناقد ترتكز الى شيء من الواقع ، فقد بدا ان جوفر يسير على فكرة الناقد نفسه .

المانيا تلتفت الى الميدان الشرقي .. !

لم يفشل الحلفاء في هجومهم الخريفي السابق فحسب . بل انهم لم يؤثروا على خطط القيادة الالمانية لا من حيث التعبئة ولا من حيث التنفيذ ايضاً . وحتى مجرد إعاقة نشاطات تلك القيادة لم يتوصلوا اليها . فها هي المانيا تلتفت الى الميدان التركي لأول مرة . وهنا واجهتهم بعض العقبات. فمع ان هجوم الحلفاء البحري قد تحطم في المرة الأولى بفعل الالغام الجانبية في المضايق ، وفي المرة الثانية من جراء تلكؤهم وعدم اغتنامهم فرصة عدم وجود قوات تركية في انا فورطة ، في الـ ٤٨ ساعة الاولى بعد الانزال — مع كل هذا ، فان تركيا كانت في خطر . ان الذخائر

لديها تتناقص بسرعة كبيرة ، وليس في البلاد مصانع للأسلحة، تستطيع تعويض العتاد المستهلك . كما ان فشل الحلفاء غير مضمون في المـبرة القادمة . لذا ، فإن على المانيا ان تسارع الى مد يد المعونة لحليفتها .

هذا هو التحليل من زاوية عسكرية .. اما من الناحية السياسية فغير ذلك.

كانت المانيا قد اكتفت بامتياز قسم من خط حديد (برلين — بغداد) ، فلماذا لا تفوز بالخط بكامله الآن ؟! والمانيا تعلم حقيقة الوضـع في ممتلكات « الرجل المريض » في آسيا ، وتوقن ان هذه الممتلكات وشيكاً ما تنسلخ عن « الباب العالي » ، فلماذا لا تكون هي شريكاً ، ان لم تكن وارثاً ، لها ؟

وقد يدخل في هذه النظرة تسهيل تجريد روسيا من نفوذهـا لدى السلافيين في البلقان ، والنفوذ الى مياه البحر المتوسط ، والتحـكم في المضايق .



الارشيدوق «فرانز فرديناند» قبل زفافه بأيام



الكونتيسة « صوفي شوتيك» زوجة الارشيدوق

لكن كل هذه الافكار كانت تصطدم الآن بواقع مغاير .. فألمانيا يجب ان تمد حليفتها تركيا بالذخيرة مهما كان الثمن .. وصربيا تمنع هذا الامداد ، بل تمنع الاتصال نفسه. وصربيا هذه في حرب مع النمسا ..

(واظننا لا زلنا نذكر مدينة سر اجيفو وحادثها المشؤوم) .



« جفريلو برنسيب ».. قاتل الارشيدوق

صربيا تدخل المعمعة !!

اذن ، على المانيا ان تكتسح صربيا .

ولهذا نقل الألمان فرقاً كثيرة من قواتهم في الجبهة الغربية ، ومن جيوش كانوا قد عبأوها حديثاً في المانيا ذاتها ، الى حدود صربيا . وهاجمت تلك الجيوش صربيا فاكتسحتها .

وهنا يدخل مسجلو وثائق الحرب في دهاليز مختلفة من التأويلات . فبعضهم يقول : كان على الحلفاء ان يتنبهوا لهذه الخطة ، والا ، ماذا كان يشغل دوائر استخباراتهم آنذاك ؟ وآخرون يقولون : وحتى لو علمت دول الحلفاء بالخطة بكاملها ، هل كان بوسعهم ان يساعدوا صربيا ، وقد عجزوا هم انفسهم عن الاستيلاء على شريط ضيق في غاليبولي !!

لكنهم مهما اختلفوا في نسبة تقصير الحلفاء ، يتفقون جميعاً على ان صربيا لم تكن نداً للجيوش الالمانية . ثم يضيفون قائلين : « ومع هذا ، فقد قاتل الصربيون ببسالة .»



الجنود من الصرب

بلغاريا عروس مدللة .. !

وبعد صربيا جاء دور بلغاريا . وكان لهذه الدولة وضع خـاص . فكما كانت ايطاليا، قبل توريطها في الحرب ،عروساً يخطب ودها الحلفاء ودول الوسط ، صارت بلغاريا الآن . كان الألمان في حاجة الى انضمام هذه البلاد الى جانبهم ، تقويةً لمركزهم في البلقان ، وإبعاداً لامكانية هبوط الجيوش الروسية على تركيا من الشمال الغربـي .

وكان الحلفاء في حاجة الى بلغاريا ايضاً ، للضغط على مؤخرة الجيوش العثمانية ، وضماناً لاستمرار صربيا في الصمود امام النمسا .

ولكن بلغاريا طبعاً كانت تختار الأفضل لها . اما ما هو الافضل في تلك الفترة فينبني على ما يلي :

نتيجة للحرب البلقانية ١٩١٢ — ١٩١٣ ، أعطيت مقاطعة مقدونيا الى صربيا . وكانت بلغاريا تدّعي ان هذه المقاطعة من أراضيها .. اذن فهي تساوم الفريق الذي ستنضم اليه ، على مقدونيا . وفي هذه المسألة ترجح كفة المانيا وحليفتها . ذلك ان المانيا قد اكتسحت صربيا ، فهي تستطيع ان تعد بتوزيع الأراضي الصربية بعد الحرب اذا تم لها النصر . اما الحلفاء ، فليس من المعقول ان يعدوا بتقسيم أراضي دولة حليفة لهم ، اذا خرجوا منتصرين .

وخلاصة كل ما سبق ان ملك بلغاريا ، فرديناند ، المخادع ، غدا



« فرديناند » الثعلب ، ملك بلغاريا
والى جانبه الارشيدوق النمساوي شارل الذي أصبح امبراطوراً فيما بعد

حليفاً لألمانيا ، بشكل سري في شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٥ .

وجواباً على ذلك ، ملأ الحلفــاء الهواء بالخطب الحماسية والوعود متفاخرين بأنهم سيقدمون معونات عسكرية فعالة الى صربيا .. لكن صربيا دولة داخلية ، ومنفذها الطبيعي هو اليونان !

جاء دور اليونان ... !

اذن ، فلينزل جنود الحلفاء الى الشاطىء اليوناني ، ومن هناك يتقدمون . بيدَ أن اليونان دولة محايدة لم تعلن الحرب ، فلا يجيز العُرف الدولي لأية دولة أخرى ان ترسل اليها قوات عسكرية !!



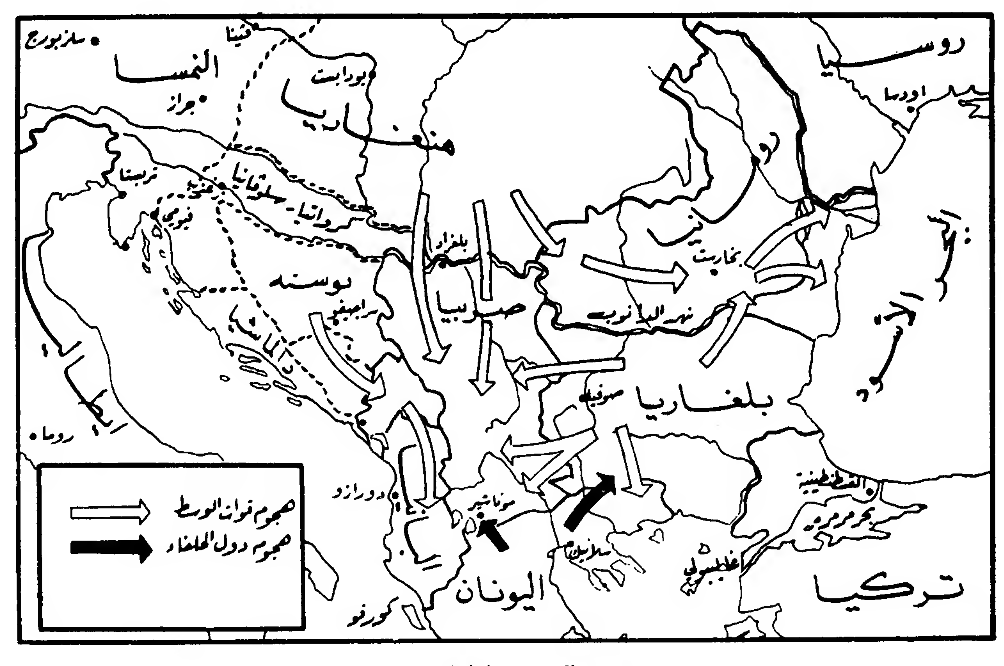
الجنود المشاة الفرنسيون يحطون في « سلانيك » باليونان

هذا هو الموقف الذي واجه ساسةَ الحلفاء قبل انزال الحملة . وهو ذاته الذي تكلم فيه أصحاب « الخرائط الحربية » من الجنرالات وصمتَ الساسة كسكان القبور . وقد كتب بعض المعلقين السياسيين فيما بعد قائلاً :

« لقد دخلت بريطانيا الحرب دفاعاً عن حياد بلجيكا ، كما زعمت .

لكن حياد اليونان أغراها بعدم الدفاع عنه ، أليست هذه نقطة جديرة بالتأمل !! »

ومهما كانت الحال ، ودون النظر الى التفسيرات الفقهية في القانون الدولي ، فقد أنزلت فرقتان من جنود الحلفاء ، واحدة انكليزية وأخرى فرنسية ، في سلانيك ، في ٥ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٥ .



خريطة حرب البلقان ..
لاحظ اتجاه قوات الوسط ، ودفاع الحلفاء الفاشل

وفي ٧ تشرين الاول ، اي بعد يومين من ذلك الانزال ، اجتازت الجيوش الألمانية ـ النمساوية نهر الدانوب باتجاه الجنوب . وفي ١١ تشرين نفسه ، غزا البلغار مقاطعة مقدونيا اليونانية .

الصرب امام بطش الالمان

ولما حاول « سريل Sarrail » التوجه من سلانيك الى أعـلى وادي

نهر « فردار Vardar » ، اصطدم بالبلغار ، فوجدهم في وضع عسكري أقوى منه عَدداً ، وعُدداً . وحينئذ اضطر الى التراجع .

وهكذا كان على الصربيين البؤساء ان يجابهوا بطش الألمان وانتقام النمساويين ، فتبدد جيشهم مِزقاً بعد أول هجوم كاسح قُدّر لهم ان يذوقوا ناره . فمات منهم من مات ، والتجأ الباقون عبر جبال البانيا الى جزيرة كورفو ، حيث وصلوها يحملون ملكهم العجوز على محفّةٍ لضعفه .

لكن القادرين منهم على حمل السلاح لم يستسلموا للهزيمة ، ففي اوائل سنة ١٩١٦ كانوا قد التحقوا بقوات الحلفاء في سلانيك .

وفي هذه الأثناء كان النمساويون يوالون انتصاراتهم في البلقان ، اذ سقطت في أيديهم مونتنجرو Montenegro ، ثم اكتسحوا « البانيا » ايضاً .

لنعد الآن الى حملة سلانيك .

لقد فشلت حملة الحلفاء على سلانيك في الوصول الى الهدف الذي أُعدّت من اجله . فصار من المنطقي سحب تلك الحملة .. وهذا ما اقترحه البريطانيون . غير ان فرنسا ، وهي التي كانت تعارض فيها أصلاً ، أصرّت الآن على البقاء .

فما هو وجه الحكمة في ذلك الاصرار ؟

ليس هنالك من غاية استراتيجية عامة ، او هدف تكتيكي خاص . فالحملة قد ثبت فشلها ، والأعداد الضخمة التي عُطِّل نشاطها في تلك الحملة يمكن الاستفادة منها في مكان آخر : فالجبهة الغربية في حاجة الى مقاتلين ، على الدوام ، ونصف المليون جندي المجمدين في سلانيك محصورون في منطقة ليس من العسير على الألمان ان يهاجموها فيأسروهم ، مهما حاولوا الدفاع عن أنفسهم .



الملك بطرس ، ملك صربيا يفكر في مذلة الهزيمة



جنود الصرب يصلون كورفو

اذن ، لماذا تصرّ فرنسا على ابقائهم هناك ؟

السبب واضح للغاية . فالذي يصرّ هو جوفر نفسه ، والدافع لإصراره هو ابقاء « سريل » بعيداً عن الجبهة الغربية ، لأن جوفر يرى فيه منافساً خطيراً له في القيادة .

وهكذا : من أجل ان يظل جوفر في منصبه ، لا بأس من ان يموت نصف مليون !! وقد يقول قائل :

ان وجود حملة الحلفاء في سلانيك ستُبقي البلغار عاجزين عن القيام بعمليات عسكرية في مناطق أخرى ، اذ أن همهم سينحصر في الاستعداد لهجوم تلك الحملة الذي لا يُعرف موعده . والردّ على ذلك : أن البلغار لم يكونوا يطمعون أصلاً في القيام بأية عمليات حربية خارج بلادهم .

اذن ، كان مع الالمان الحق كل الحق في ان يطلقوا على سلانيك اسم « المعتقل الاختياري للحلفاء » من باب التندّر .

ماذا يفعل الحلفاء بالدردنيل ؟

لقد عرض الكومودور كيس Keyes ان يستولي على المضايق بالقوة البحرية وحدها ، ووافق على ذلك قائد الموقع . لكن الحكومة البريطانية عارضت ذلك بشدة . واقترح هاملتون أيضاً استئناف المحاولة ، فاستدعته حكومته ، وكفّت يده .

وللخلاص من هذا الموقف ، أرسل السير شارلز مونرو ، وكان في فرنسا ، الى منطقة الدردنيل ليدرس الموقف عن كثب . وكان هذا ضابطاً بعيد النظر ، يتخذ قراراته على ضوء الواقع العسكري ، دون اعتبار أية معقّبات سياسية على الاطلاق . فما ان اطّلع على وضع الجبهة هناك حتّى أوصى بضرورة الانسحاب . وقد اتخذ هذه التوصية بعد ٢٤ ساعة فقط من وصوله الى الموقع ، وبعد ٦ ساعات كاملة من المداولة والنقاش مع ضباط المشاة والبحرية الذين كانوا يمانعون في الاعتراف بفشلهم .

كانت هذه التوصية ضربة موجهة الى كتشنر بالذات . فاستنكرها ، ورفض الاذعان لرأي اكثرية رفاقه في الوزارة . وحينئذ أدى عناده إلى انقسام الوزارة على نفسها . فقد خشي بعضهم من وقوع اصابات بالغة اثناء عملية الانسحاب ، كما كان آخرون يودون الخلاص من كتشنر ويرون تلك التوصية فرصة مناسبة لذلك .

والحق ، ان كتشنر في معارضته كان عنيداً لمجرد العناد . حيث لم يكن للحلفاء الخيار في الانسحاب . ولو سأل أحدُ الوزراء زميله كتشنر عن نقيضٍ لرأي مونرو ، لما كان في استطاعته ان يجيب .

وعلى كل حال ، فقد استطاع اسكويث ، (رئيس الوزارة) ان يجد لنفسه ووزارته مخرجاً من المـأزق . لقد كلّف كتشنر ان يذهب بنفسه الى الدردنيل ليدرس القضية برمتها ، وكان يأمل الا يعود الذاهب من هناك ابداً .

من الذي فشل !

كان اكثر الوزراء الآن يُلقون تبعة الخيبة والفشل على عاتق كتشنر ، وكانوا يرون فيه متغطرساً يسوق البلاد بعناده الى الدمار ، لكنهم جميعاً مع هذا ، كانوا يودون الاستفادة من ابقائه كرمزٍ عسكري للبلاد . وكما قالت عنه زوجة اسكويث ، ذات يوم : انه « ركيزة عظيمة » .

ومن الغريب فعلاً ، انه في اليوم الذي تسلم فيه كتشنر تقرير « مونرو » موصياً بسحب حملة الدردنيل ، تلقى فولكنهاين والامبراطور تقريراً من الأدميرال الألماني اسدوم ، قائد الموقع ، يوصي فيه بضرورة سحب قوات الوسط من هناك . وكان تعليل مونرو : « ان اية حملة عسكرية تقوم بالهجوم في تلك المنطقة سيكون نصيبها الفشل . فقد صمد الأتراك بأسلحتهم العتيقة ، وذخيرتهم الوشيكة النفاد . فكيف الآن ، وقد اتصل بهم الألمان بعد اكتساح صربيا !! »

أما تقرير أسدوم فهذا مجمله :

« يبدو ان القوات المعادية لا تنوي الانسحاب . ونحن هنا غير قادرين على طردهم من مواقعهم بالقوة .. ان عددهم ضخم ، وأسلحتهم فتاكة ، ووراءهم اسطول يكفُل سرعة الامداد والإسناد . ولهذا فإني أنصح بالانسحاب . »

كتشنر يرضخ للواقع المر

زار كتشنر جبهة الدردنيل ، ورأى بأم عينه خطورة موقف الحلفاء هناك ، فوافق على الانسحاب . لكنه بدلاً من البقاء في الشرق الأدنى ، سارع بالعودة الى لندن . وهناك وجد كل شيء غير ما يعهده . فحتّى ذلك اليوم كان كتشنر يدير العمليات الحربية البرية بنفسه ، ولا يُطلع الوزارة الا على الخطوط العريضة الاستراتيجية التي يرسمها . انه لم يتخذ له مستشارين عسكريين ، بل استأثر بمنصبه كوزير للدفاع ، كاملاً . وكان هذا ما يضيق به صدر اسكويث ووزارته .

مستشار حربي جديد

وفي غياب كتشنر انتهز اسكويث الفرصة ، فاستدعى السير وليم روبرتسون من مركز قيادته في فرنسا ، وعيّنه مستشاراً خاصاً للحكومة في قضايا استراتيجية الحرب . وهذا أساس لا يوافق عليه كتشنر . ذلك ان السير روبرتسون اصبح هو الشخص الوحيد الذي يحق له الاتصال بالجنرالات في الميدان ، واصدار الأوامر الخاصة إليهم فيما يتعلق بالاستراتيجية العامة أو تحرّكات الجيوش . وفي هذا صفعة الى كتشنر ، حيث اصبحت مهمته بعد الآن مقصورة على « توريد الجنود » كما قال غاضباً .

وحتى هـــذه المهمة غير الجليلة ، سرعان ما سحبتها الحكومة من خلفاء كتشنر .

روبرتسون حاكم مطلق !

طوال سنتين ظل السير روبرتسون هو الحاكم الاعلى ، وان كانت قليلاً ما تعترض احكامَه بعضُ الآراء التي يبديها الوزراء المدنيون . ظل يتمتع بصلاحية تكاد تكون مطلقة ، شأن ما كان يتمتع به جوفر في فرنسا ، واكثر مما كان يباشره فولكنهاين في المانيا ، واعظم بكثير مما حلم به اي جنرال في الحرب العالمية الثانية . كان يصوغ استراتيجية الامبراطورية كيف يشاء ، ويحرك جيوشها حسب ما يتبدى له من وجهة نظر .

القائد الفظ

وكان هذا الحاكم المطلق اقرب الى الفظاظة وصرامة الجنود . انه الوحيد الذي ارتفع الى منصبه الأخير من بين الطوابير واوحال الخنادق . ولهذا كان منطقه عسكرياً صلباً ، مما أدى الى الاصطدام مع اسكويث الذي كان يظل يقول له : « لقد سمعتُ خلاف ما تروي » . وقد أجابه روبرتسون مرة :

« ان من ضياع الوقت ان اشرح لك الاستراتيجية . فلكي تفهم هذا الامر ، عليك ان تكون قد نلتَ الخبرة التي مارستها انا . »

نظرية روبرتسون لكسب الحرب

اما نظرية روبرتسون في امكان كسب الحرب ، فكانت بسيطة للغاية. انه يقول : « ان الميدان الفرنسي هو الوحيد المؤهل لكسب الحرب فيه . » وهذا هو رأي جوفر . لكن السير روبرتسون ينطلق من زاوية اخرى غير زاوية جوفر . فهو يقرر : « ان السبب في كون الميدان الفرنسي كذلك ، هو ان الحجم الأكبر من الجيش البريطاني موجود هناك » . ولو سأله سائل : «ولماذا يوجد هذا الحجم في الميدان الفرنسي

بالذات : » لأجاب : « لأن الميدان الفرنسي هو الميـــدان الرئيسي للجيش البريطاني » !!

اذن ، فهو يستنتج نقطة يفرضها مسبقاً !!

ليس هذا فحسب ، بل ان روبرتسون كان يقتفي خطوات جوفر في افكاره ايضاً . فقد كان من رأيه ان الالمان ، عاجلاً او آجلاً ، ستنفد مواردهم من الرجال . وهذه حسابات خاطئة من اساسها . فقد ظل الألمان يجدون من البالغين من ابنائهم ما يسد حاجة كافة جيوشهم الى آخر الحرب .

الانسحاب من الدردنيل !

وعلى الرغم مما يظهر زيفه من آراء روبرتسون (فيما تقدم) ، ظل الجنرال الجديد يدعو الى المبادرة الى الهجوم في فرنسا . ولما كان هذا الهجوم يتطلب امدادات جديدة ، فقد حان الموعد لانهاء مشكلة جبهة الدردنيل .



« التدمير » قبل الانسحاب
الجنود يحرقون المخازن على شاطىء غاليبولي ، قبل تراجعهم

وهذا ما فعله روبرتسون . ففي الايام الأخيرة من كـانون الأول (ديسمبر) ١٩١٥ تم الانسحاب من « أنزاك » و « سفلا » . وفي ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ أخلي « خليج هاليس » . وكـان الانسحاب ناجحاً تماماً . ان رجلاً واحداً لم يفقد حياته اثناء تلك العملية الضخمة.اما كميات المؤن والعتاد التي دُمرت او ابقيت هناك فهائلة حقاً .

بهذا الانسحاب ، صُفي حساب حملة غاليبولي ، وظهر انها فكرة استراتيجية رائعة ، ولكنها نفّذت دون استعداد كامل وحسن تقدير ، ومع غياب القيادة الكفؤة الحازمة .

احتمالات نجاح حملة الدردنيل

من اضاعة الوقت ان نتأمل ما كانت هذه الحملة قد تتمخض عنه من نتائج لو قدّر لها النجاح . لكن دعنا نفعل ذلك .

اولاً : اقصاء تركيا من الحرب ، وهذا يفتـح طريقاً مباشر للاتصال بروسيا وامدادها .

ثانيـاً : فتح جبهة روسية ثانية على المانيا .

ثالثـاً : خلق ثورات في ممتلكات النمسا في البلقان ، وتحطيم طاقاتها التعبوية هناك .

ولكن .. لقد اخفقت هذه التقديرات ، وظهر للعيان فشـل من ارتأوها . ووقع اللوم على ونستون تشرشل ، فاستقال من الوزارة ، ولم يستعد اعتباره ، كسياسي قدير ، طوال بقية الحرب العالمية الاولى .

*

وهكذا ، ظلت المضايق مغلقة ، وظل الاتصال بروسيـا عسيراً . نعم ، لقد حاول الحلفاء استعمال ميناءي اركانجل ومورمنسك في شمال روسيا ، ولكن جدوى مرفأيها كانت ضئيلة ، لوقوعها على حـدود المنطقة المتجمدة . وحتى حين كانت تصلها الأعتدة والتجهيزات ، كان

نظام سكك الحديد الروسية المهترىء يعيق تماماً نقل تلك الأعتــدة في الوقت المناسب . ولهذا السبب ، كانت العنابر مكدسة بلــوازم الحرب حين خرجت روسيا منها بعد الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ .

بعد كل هذا اصبح التركيز على الجبهة الغربية هو الشغل الشاغــل لروبرتسون . الا ان خططاً جانبية ظل يجري تنفيذها رغم معارضته ، ومن هذه الخطط ، حرب فلسطين والعراق .

الحماية تنقلب غزواً !

كان من الطبيعي ان تتم حماية قناة السويس ، ضرورة . غير ان تلك الحماية لا يمكن ان تتوفر بدون السيطرة على مؤخرة القناة نفسها ، اي السيطرة على سيناء . لكن صحراء سيناء ليست هي البلد العامر بالسكان الذي ينتظر ان يتم الهجوم منه . اذن لا بد من الاستيلاء على فلسطين.

وهكذا تحول ذلك العمل الدفاعي في اول امره الى خطة هجوميــة واسعة . وفي هذه الحال غدت الحاجة الى جنود يلتحقــون بالقوات البريطانية العاملة في الميدان اكثر واكثر .

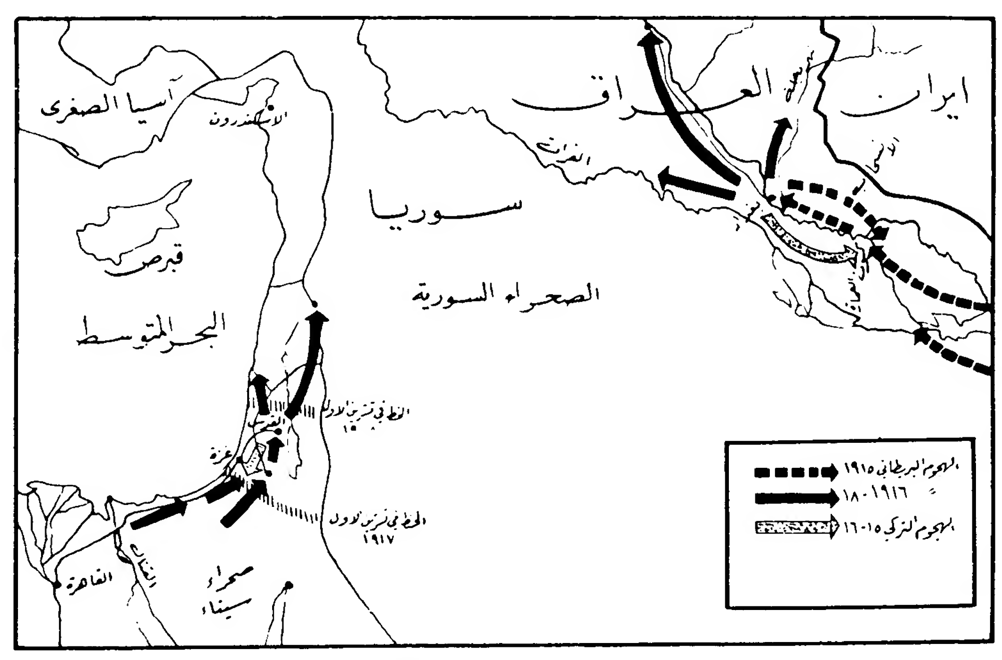
ومثل هذا تم بشأن حملة العراق .

فقد كان البريطانيون يتولون حراسة آبار النفط هناك . والنفط عامل حيوي ، بل اساسي في صناعة بريطانيا . ومن المحتمل جداً ، ان يعمد الاتراك ، او يدفعهم الالمان ، الى تخريب مصادر النفط هذه ، اذا ما قام البريطانيون في مصر بغزو فلسطين .

ولهذا يتوجب حماية آبار النفط ، وعن طريق غزو العراق ايضاً .

وطبيعي ان من شأن نجاح هذه الخطة الجانبية في الحرب ، اذا ما تم لها ان تنتصر في فلسطين والعراق ، ان تعيد لبريطانيا شيئاً كبيراً من نفوذها المنهار بعد خذلان « غاليبولي » وحملة « الدردنيل » .

ومن هذا المنطلق تقدمت الكتائب البريطانية من البصرة ، صاعدة الى



خريطة الهجوم البريطاني على فلسطين والعراق
لاحظ التقدم وتاريخه

الشمال مع مجرى النهر . الا ان مأساة كانت تنتظرها في الطريق ، فقد تم تطويقها في « الكوت » حيث استسلم قائدها لمهاجميه الاتـــراك في نيسان (ابريل) ١٩١٦ .

وباستسلام « تونسند » تبدت فاجعة اخفاق الخطط الجانبية من جديد لكن بريطانيا لم تستسلم هذه المرة . ففي سنة ١٩١٦ كـــان هنالك : (٦٠٠) الف جندي في ميدان العراق ، و (٥٠٠) الف جنـــدي في ميدان فلسطين ، و (٥٠٠) الف آخرون في سلانيك . كل هؤلاء لم يشتركوا اشتراكاً مباشراً في كسر المانيا ، الا جيش سلانيك في آخر الحرب . لكن جنود حملة العراق وفلسطين كانوا لا شك يضعون الاساس لاستحواذ بريطانيا على المستعمرات في الشرق بعد نهاية الحرب .

ويحسن بنا ان نشير هنا الى ما تم في جزيرة للعرب بشكـــل اجمالي سنفصله فيما بعد .

شبه جزيرة العرب

كانت شبه جزيرة العرب عند نشوب الحرب العالمية الاولى مجزأة الى دويلات عديدة : الحجاز ، وعاصمته مكة ، يخضع لحكم الشريف حسين من البيت الهاشمي ، الذي كان يقيم في استانبول منذ عام ۱۸۹۳ «ضيفاً» على السلطان عبد-الحميد .

نجد

اما نجد فكان موزعاً بين إمارة شمّر – وأصحابها آل رشيد ، وعاصمتها حايل – وبين الوهابيين وعاصمتهم الرياض . وكان تاريخ آل رشيد حافلاً بالمنازعات العائلية . اما اعظم رجال هذه الاسرة ، محمد بن عبد الله ابن رشيد (۱۸۷۲ – ۱۸۹۷) ، فقد وُفق بمساعدة الاتراك الى ان يقضي على سلطة آل سعود ، وهم الاسرة الأعرق في الرياض . لكنه في عهد ابن اخيه عبد العزيز بن متعب استطاع عبد العزيـــز آل سعود ، من منفاه عند الشيخ مبارك في الكويت ، ان يسترد الرياض ، سنة ۱۹۰۲ . وكان عبد العزيز بن سعود قد وفّق الى بعث الروح الوهابية القديمة من طريق تأسيس جماعة « الاخوان » ، سنة ۱۹۱۰ . والحق انه فرض على اتباعه الجدد التقيد التام بقواعد الشرع الاسلامي . كما اسكن ابن سعود « إخوته » – الذين كانوا يؤلفون آنذاك جيشه النظامي – في مستعمرات زراعية في اجزاء من نجد خصبة نسبياً ، فكانت هذه «المهاجر» المراكزَ الاولى للتنظيم السياسي هناك . وفي سنة ۱۹۱۳ افاد من ضعف الامبراطورية العثمانية فاستولى ، بالاتفاق مع حكومة الهند البريطانية ، على مقـــاطعة الاحساء المحاذية لممتلكاته . وهكذا اصبح يملك منفذاً الى البحر . وبدلاً

من ان تعاقبه الدولة العثمانية على هذا الصنيع ، سعت لاكتسابه الى جانبها فسمته والياً على نجد من غير ان تفرض عليه أيما التزام .

عسير

اما منطقة عسير الجبلية الواقعة جنوبي الحجاز ، فكانت مستقلة استقلالاً تاماً ، رغم بقائها اسمياً ، جزءاً من الامبراطورية العثمانية .وفي اواخر القرن الثامن عشر استقر في تلك الديار احمد الادريسي . وسرعان ما نظر اليه سكان المنطقة كولي او قديس ، فضمن ذلك لخلفائه شبه سلطة سياسية . والواقع ان احد هؤلاء ، السيد محمد الذي عاش فترة مع السنوسية في كفرة من اعمال برقة ، جمع شمل اتباعه في الاراضي الجبلية ونظمهم . وفي سنة ١٩٠٩ أبى الخضوع للاتراك . فهُزم هو وحليفه الامام يحيي إمام الزيدية ؛ ولكنهما وُفقـا الى ان يتحررا (من العثمانيين) آخر الأمر بمساعدة الايطاليين .

اليمن

وفي اليمن ، وفقت السلالة الزيدية الى التمكين لنفسها في البلاد على الرغم من ان الاتراك ما انفكوا يحاولون ، منذ سنة ١٨٥٠ ، إخضاع البلاد . حتى اذا ادركت حكومة السلطان عبد الحميد ، ان هذه الولاية لا يمكن الاحتفاظ بها بالقوة ، اعلنت استعدادها لأن تطلق يد الامام يحيي في حكم الاقسام الداخلية الجبلية منها . بيد ان رجال «تركية الفتاة » رأوا في هذا التخلي إهانة للشرف الوطني ، فاستأنفوا الصراع حتى اضطروا في تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١١ الى توقيع معاهدة صلح ، مع الإمام بالشروط نفسها .

السلاطين

وفي المناطق الساحلية الممتدة على شواطىء المحيط الهنـدي والخليج

الفارسي ، من حَضرموت الى عُمان فالكويت ، كان عدد من السلاطين ، الذين خضعوا جميعاً خضوعاً مباشراً لبريطانيا بعد ان مكّنت لنفسها في عدَن سنة ١٨٣٩ ، وكانت معنيّة جداً بسلامة طرقها البحرية الى الهند .

الاتصال بالبريطانيين

كان الشريف حسين قد سعى منذ ربيع ١٩١٤ الى الاتصال بالبريطانيين في مصر ، بواسطة ابنه عبدالله ، علّهم يساعدونه على الاستقلال عن دولة الخلافة . فلما دخلت تركيا الحرب أصمّ اذنيه دون دعوة « شيخ الاسلام » الى الاشتراك في الجهاد او الحرب المقدسة . لكن بريطانيا كانت تهدف الى دفعه الى المشاركة الفعلية في الحرب ضد الاتراك . وهكذا شرعت طائراتها توزع نشرات الدعاية الى الاهلين ، داعمة حملتها بمنع استيراد القمح المصري الذي كان الحجازيون في أمسّ الحاجة اليه. وفي تموز (يوليو) سنة ١٩١٥ اصبح الشريف حسين مستعداً للدخول في مفاوضات مع المندوب السامي البريطاني في مصر ، السير هنري ماكماهون . وفي مذكرة بعث بها الى ماكماهون في ١٥ تموز (يوليو) عرض الشريف على بريطانيا مساعدة العرب لها اذا ما وعدتهم بالاستقلال في حدود مرسين – أطنة في الشمال الغربي وحتى ايران في الشرق والمحيط الهندي في الجنوب ؛ واذا اعلنت موافقتها على انشاء خلافة عربية . ولقد أجاب ماكماهون ان بريطانيا لا تعارض في انتقال الخلافة . لكن الوقت لم يحن بعد لتعيين الحدود المطلوبة . لاسيما وان كثيراً من العرب لا يزالون يحاربون في صفوف الاتراك .

وكان هذا بداية التمهيد لـ « الثورة العربية » التي سنرجىء بحثها الى فصل لاحق . فلنعد الآن الى مسار الحرب في جبهة فرنسا .

عودة الى الميدان الغربي !

من الملوم ؟

كانت الاخفاقات التي منيت بها بريطانيا في الجبهة الغربية سنة ١٩١٥

عظيمة الأثر . ولم يكن كتشنر القائد العسكري الوحيد الذي تجرع مرارتها، كلا ، فالسير جون فرنش كان الضحية الاولى . بل ان هايغ نفسه لحق به رذاذ اللوم . لقد اخذ البريطانيون يتساءلون عن الاسباب التي فرضت هذا الخذلان المتلاحق . اما كتشنر فكان يصمت ، واما فرنش فكان يلقي عبء اللوم على كاهل هايغ ، وبخاصة فيما يتعلق بطلب قوات الاحتياط في معركة لوس . ومع ان الغلطة كانت من عمل فرنش ، فان كونه القائد الأعلى جعله في مركز اقوى من هايغ .

قائد عامر المائدة ..

الا ان هايغ الآن شعر بالخطر ، فاتخذ جانب الدفاع عن نفسه تجاه قائده الفاشل . لقد شرح جميع نقائص السير جون فرنش الى اسكويث، كما ظل على اتصال شخصي بالملك جورج ، وكان صديقاً حميما له من



الماريشال « دوجلاس هايغ »
كان عظيم الثقة بنصر الرب

قبل ، فبيّن لجلالته غباء فرنش ، والنتائجَ المرعبة التي يمكن ان تترتب على استمرار بقائه قائداً في الجبهة الغربية .

ويبدو ان هايغ كان كريماً في مقر قيادته حين يزوره احد الرسميين الكبار، فهو يولم لهم ، ويعتني برغباتهم الشخصية الصغيرة .

ومهما كان الحال ، فقد تم في كانون الثاني (يناير) ١٩١٥ ان استُدعي السير جون فرنش من فرنسا ، واسندت قيادة الجيوش الانكليزية هناك الى هايغ ، الذي ظل في هذا المنصب حتى نهـاية الحرب .

سننتصر بمشيئة الرب

والمعروف عن هذا القائد انه كان جميل الهيئة ، شديد الاخلاص للواجب . ومع إنه لم تكن لديه فكرة معينة عن « كيف يتم النصر» ، الا انه كان واثقاً من النصر وثوقا مطلقاً . كان يقول : « اننا سننتصر ، وبإرادة الله ، فالرب يريد ذلك . » وبصدد النقائص والثغرات الموجودة في موقف الحلفاء تجاه الألمان كان هايغ يجيب : « نعم ، هنالك ثغرات في موقفنا تجاههم . ولكن الله سيعبئها .. انه سيعمي عيونهم عنها . »

بهذا الايمان الطفولي ، والعناد في تقبل الهزيمة ، استطاع هايغ ان يخرج منتصراً آخر الحرب . لقد ذاق مرارة الفشل في مواقع كثيرة ولكنه جعل من تكرار الفشل نجاحاً . وبهذا محا صفحة سوداء كانت ستظل في تاريخ الجيش البريطاني الى الأبد .

نقد هايغ

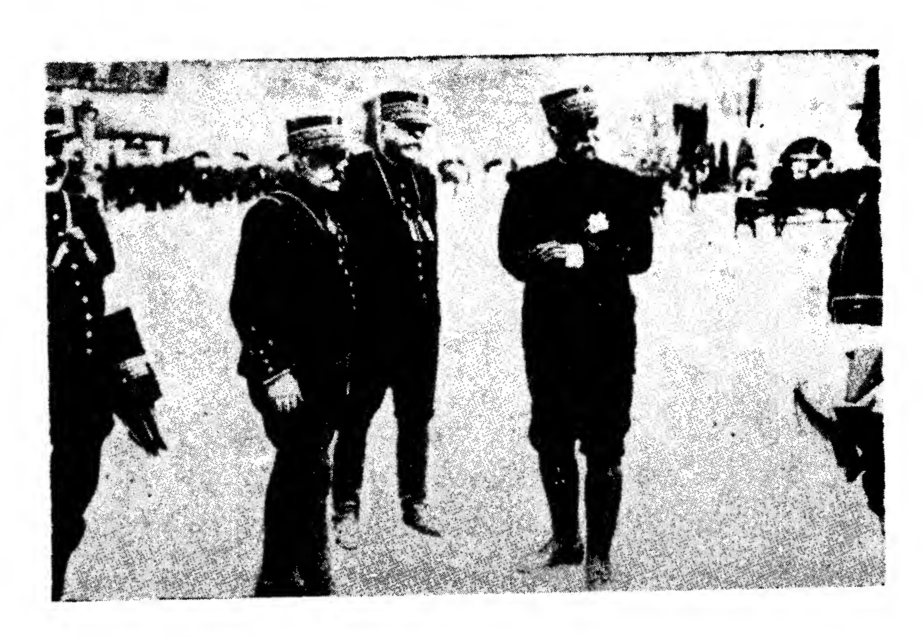
ويختلف المعلقون العسكريون في تقدير شخصية هذا القائد ، لكنهم يكادون يجمعون على نقطة واحدة ، هي :

« لقد كانت قراراته صائبة وعميقة في استراتيجية الجبهة الغربية ، وان ظل على الدوام عاجزاً عن تنفيذها كاملة . »

لهذا يرى بعضهم انه كان عليه ان « ينتظر حتى يتم تطوير الدبابات في بريطانيا، اي حتى سنة ١٩١٧ . ثم يتخذ جانب الهجوم، بعد تزويده بعدد كاف منها » . بينما يرى آخرون « ان الفرنسيين بقيادة جوفر ما كانوا يقبلون من حلفائهم البريطانيين التزام جانب الدفاع حتى ذلك التاريخ ، كما ان الرأي العام البريطاني طوال تلك المدة كان سيظل يشعر بالمذلة والهوان . »

التزام الدفاع معناه المفاوضة للصلح

والحق ، ان هايغ كان مضطراً الى السلوك الذي سلكه . فبقاؤه في جانب الدفاع ، كان معناه فتح المفاوضات للصلح . وهل هناك من كان يجرؤ على فتح هذا الباب ، مقنعاً حتى المدنيين البريطانيين بأن من



جوفر في الوسط بين اثنين من جنرالاته في الجبهة الغربية

الحكمة ان يتم الصلح ، بعد فشل جيشهم في الميـــدان !! (فكيف بالفرنسيين !)

لو فعل ذلك اي وزير بريطاني ، لما ضمن له زملاؤه الخروج الى الشارع ثم بقاءه على قيد الحياة . فقد كان جنون الحقد ، الذي هو رد فعل عكسي للاخفاق في الجبهة ، يطغى في موجة عنيفـــة على الرأي العـــام .

اما في فرنسا ، فالحال أدهى وأمرّ : لو تقدم بهذا الرأي «جوفر» ، مع انه رمز المجد العسكري الفرنسي آنذاك ، لهوى الى الحضيض واعتبره مواطنوه خائناً . ولأشاروا اليه قائلين : « اين ليل ، وأراس ، ومناجم الفحم ايها الجنرال الخائن !! » ، ثم عطفوا على ذلك : « بل أين الالزاس واللورين !! » .

المدنيون يتحركون

وبالرغم من ان هايغ قد فشل مرات كثيرة في جلب النصر ، فانه لم يكن في بريطانيا من يحل محله !

ومثلما كانت الحكومة البريطانية تواجه الأزمة مع شعبهـــا في هذه الفترة ، كانت حكومة فرنسا تترنح ، ولنفس السبب .

كانت الرؤوس تتساقط في وزارة فرنسا ، اذ اثار الشعب ان حكومته فشلت في مساعدة صربيا ، واخفقت في ابقاء بلغاريا بعيدة عن المشاركة في الحرب . وحين استقال وزير الخارجية « دلكـــاسيه » ، سقطت الوزارة الائتلافية التي كان يرئسها « فيفياني » بكاملها . ووقع الحكم في يد « بريّان » ، الخطيب المشهور . الا ان الأمـــر لم يقتصر على هذا . فقد اخذت مياه كثيرة بانت راكدة ، تتحرك . ها هم اعضاء الجمعية الوطنية يرفضون الاستمرار في طأطأة رؤوسهم لجنرالات الحرب : انهم يقولون : « نحن ممثلو الشعب ، والحرب التي يدفع الشعب ثمنها

باهظاً يجب ان تكون من اختصاص ممثليه » .

ثم طفق مفوضو الشعب يترددون على الجبهة ، ويناقشون الجنرالات الفرنسيين هناك ، بل ويحرجونهم مراراً كثيرة ، مبينين لهم ان المفوضين ينكرون على جوفر زعمه في انه : دكتاتور للحرب . وهنا تبرز حكمة جوفر . فالواقع ان هذا الرجل كان سياسياً حاذقاً اكثر منه عسكرياً موهوباً .

لباقة جوفر

اننا نجده الآن يصرف بعض مساعديه العسكريين ويصغي الساعات الطوال لأحاديث الوزراء المدنيين الذين يطلب منهم التكرم بزيارة مقره. وأحكمُ من ذلك ، ها هو يوجد لبقائه في مركزه تبريراً مقنعاً بعض الشيء .. انه يحدّث الوزراء قائلاً :

« انني الرجل العسكري الوحيد الذي يمكن ان يخضع لاشرافه حلفاء فرنسا وقادتهم على ارضها . وبدوني ، شخصياً ، يصعب كثيراً على فرنسا ابقاء بريطانيا حليفة مخلصة في الحرب ، معها . »

وقد قبل منه الفرنسيون هذا التعليل ، فأبقي في منصبه كقائد اعلى عام للجبهة ، والفرنسيون يظنون في ذلك إرضاءً للحلفاء ، بينما يظن الحلفاء فيه مداعبة لغرور الفرنسيين وارضاءً لهم .

موقف فولكنهاين

اما العسكريون الألمان ، فقد انجتهم فطنتهم من الوقوف موقف النقد المر . ان هؤلاء يتمثلون في فولكنهاين ، وفولكنهاين قد انتصر . أليس هو الذي سحق الجيوش الروسية ، وكبّدها خسائر لم يسجل التاريخ من قبلُ اعظم منها ! أليس هو الذي اجتاح صربيا مظفراً ، ففتح الطريق الى القسطنطينية ، وساند حكومةً حليفة ، ربما كانت قد انهارت

لولاه ! أليس هو وقادته العسكريون ، الذين يعملون مستشارين لدى تركيا ، هم الذين جمّدوا طاقات نصف مليون جندي من الحلفاء في سلانيك ، ثم اضطروهم الى الاعتراف بالخيبة ! كل هذا لصالح فولكنهاين . فهل يُنتظر ان يفقد منصبه ؟ كلا ، طبعاً .

وعلاوة على ما سبق ، فان فولكنهاين قد ظل يلتزم خطة الدفاع في الجبهة الغربية ، وبهذا قلّل من خسائره كثيراً بالنسبة الى خسائر مهاجميه ، كما رسّخ اقدام قواته منيعة في موقعها .

واكثر دلالة على حكمة هذا القائد ، انه الوحيد بين جنرالات الحرب العالمية الأولى ، الذي كان لا يطمح الى الحصول على نصر حاسم. لقد سبق ان ادرك ان هذا النصر لا وجود له ، فكان كل ما يبغيه فولكنهاين هو : ايجاد ظروف مواتية لعقد مفاوضات للصلح ، وبشروط لصالح المانيا ، دون ان تكون مجحفة بأعدائها .

الحقد اعمى

لكن كل هذه الميزات لم تشفع له عند خصومه الحاقدين عليه والمقربين عند غليوم . فأثاروا كلاً من هندنبرغ ولدندورف ضد رئيسهما. ولاقى ذلك هوى في نفس القائدَين ، وبخاصة انهما اضطرا الى التخلي عن بعض الفرق من قواتهما وإرسالها الى الجبهة الجنوبية في صربيا ، ومن ثم مساعدة النمسا والعثمانيين . وقد زعم القائدان ان : «فولكنهاين قد اخفق في اخراج روسيا ، بالكلية ، من الحرب » . ونقما على ذلك زاعمين انه « كان بإمكان القوات الالمانية التي شطرت الجيوش الروسية ان تبيدها لو تعقبتها الى الداخل ، لكن الاوامر التي اصدرها فولكنهاين حالت دون هذه النتيجة المرجوة » .

والحق ، انه كان بوسع فولكنهاين تخطئة هذا الرأي من ناحية عسكرية ، ولكنه آثر عدم ذلك . فقد كان الرجل حريصاً على وحدة

القيادة ، حتى لو كان ذلك على حسابه هو .

القائد هو « الرمز العسكري » !

ظوال سنة ١٩١٥ كان جوفر هو الرمز العسكري للنصر في فرنسا ، وكتشنر نظيره في بريطانيا ، وهندنبرغ لا فولكنهاين ، قبالتهما في المانيا. اما لماذا لم يكن فولكنهاين نفسه ، فلأنه لم يكن رجل مجتمع يعشق تسليط الاضواء على شخصه . كان عبقريةً عسكرية لا غير .. ولهذا كانت الريح تجري ضده كلما طالت الحرب .

واخيراً ، قرر الالتفات نحو الجبهة الغربية ، معللاً تحوله هذا بحجج فنية وعسكرية سليمة ، وان كانت تنطوي على فكرة الابتعاد عن منافسة هندنبرغ ولدندورف . وفي اواخر عام ١٩١٥ تحرك قطار غليوم واعضاء قيادته نحو الجبهة الغربية للتفقد والاستطلاع .

وهكذا ، انقضت سنة ١٩١٥ . ومواقف القادة العسكريين في بلادهم، وفيما بينهم، متناقضة اشد التناقض .

فـ « جوفر » المتكرر الخيبة ، باقٍ في منصبه . والفرنسيون والحلفاء موافقون على ذلك .

و « كتشنر » في بريطانيا ، جُردت منه سلطاته الفعلية ، وبقي رمزاً ، لمجرد عدم الرغبة في احداث هزة في الرأي الشعبي العام .

و « فوكنهاين » ، وهو صاحب النجاحات الوحيد ، في تلك السنة ، غير مرضي عنه ولا يتمتع بشهرة عريضة مثل صاحبيه .

فيا له من عجب : كان الاخفاق يرسّخ اقدام جوفر ، وينقذ كتشنر من فضيحة نقصان الذخيرة ؛ بينما كان النجاح يحط من قدر فولكنهاين !

ولننتقل الآن الى اوساط الشعب في الدول المتحاربة لنلقي نظرة عليها.

الموقف الرسمي بين الشعوب المتحاربة !

١ – بريطانيا

كان الصحافيون البريطانيون الذين لا يجدون اخباراً دسمة عن تحركات الحرب وعملياتها يلجأون الى اختراع القصص ونسج الوقائع الخيالية عن بطولة ابناء بلادهم في الميدان . ولا ينسون ان يشيروا بطريقة او اخرى الى «الروح الملهمة، والعبقرية العسكرية » التي يتحلى بها قادتهم . ومن الطبيعي ان ينال كتشنر من ذلك النصيب الأوفى . فلم يعدم شاعراً من المطبلين والمزمرين ، ولا صحافياً يُدعى الى وليمة خاصة ، فيدفع ثمن ذلك على صفحات جريدته . مثل هؤلاء الأقزام ، اضفوا على كتشنر



لويد جورج .. شواربه تهتز وهو مطرق..

هالة من القداسة ، وان كانوا في نفس الوقت الهبوا مشاعر المواطنين بما نشروه من هُراء .

٢ – فرنسا

وفي فرنسا كان جوفر هو « مسيح مجد فرنسا المنتظر » . واذا كان البريطانيون أرصن في عواطفهم الوطنية وإبدائها ، فإن الفرنسيين شعب سهل الاندفاع حتى التضحية ، وسهل الفتور حتى الركود . ولما كانت اخبار المعارك معماة على الصحف ، كما اسلفنا ، فالخيال الفرنسي أقدر على الاختراع ، واخصب في الخلق . لهذا نرى القصص عن « اطفال فرنسيين اسروا ضابطاً المانياً وجردوه رتبته ، وفتيات فرنسيـــات صرن عشيقات لكبار القادة الالمان كي ينقلن اسرار الاعداء . » اما جوفر ، فروحه هي التي تلهم كل هذه « المـآثر الجليلة » ، وفي عبقريتـــه العسكرية يجتمع الاسكندر ويوليوس قيصر ونابليون . !!

٣ – المانيا

اما في المانيا فالأمر يختلف . ذلك ان غليوم ، والى حد ما هندنبرغ ، هما مركز الدائرة . فغليوم هو الوارث الشرعي لعبقرية بسمارك ، وهو الذي سيقهر فرنسا كما قهرها بسمارك في حرب السبعين .. على يديـــه ستقوم امبراطورية المانية لا حدود لها ، وبفضل هندنبرغ ستغدو اوكرانيا ، اللعينة ، اهراء طبيعية لألمانيا يجلب منها القمح والخيول . وبعد الانتصار المنتظر ستجرّد بريطانيا من مواقعها في آسيا ، ويتم توزيع مستعمراتها ، فتعود جزيرة قاحلة يعيش اهلها من صيد السمك وزراعة البطاطا .

٤ – روسيا

واما في روسيا القيصرية ، فالقيصر هو البطل .. ان الكنيسة لن تألو جهداً في الدعاء والصلوات كي يحفظ الرب ارض روسيا العزيزة سالمة لشعبها ! وكتائب القوزاق سيطردون الألمان عما قريب . وهم لن يستعملوا



لويد جورج وجوفر والجنرال هايغ ..
انهم يتحدثون عن القيام بهجوم جديد

البندقية او المدفع ، وانما يكفي السوط وحده . أليس هو الذي يلهب ظهور الفلاحين في البلاد ؟ بلى ، اذن فهو كافٍ لإلهاب ظهور الالمان المعتدين ايضاً !!

وطبيعي ان مخازي الهزائم المتكررة لم تكن موضع مناقشة ، لا في بلاط القيصر ولا بين ركام البشر في الارياف ..!!

٥ – تركيا

ولا يختلف الحال عن ذلك في قصر السلطان في الآستانة. فها هنا: ليس الوقت وقت « حزب الاتحاد والترقي » ، ولا « جمعية تركيا الفتاة » ، وانما هو : « العقيدة المحمدية تواجه الكفار » . ها هو السلطان قد تبرك بـ « بردة الرسول » ونال بركات « شيخ الاسلام » ، كما انه يدعو افراد « التابعية العثمانية » للجهاد . انه يعدهم بكل خير بعد الخلاص من هذه « الغمّة » ، ويندبهم لحرب « المسكوب » . وهو يذكّرهم بأن فرنسا استولت على الجزائر وتونس ، وان ايطاليا استولت على بنغازي وطرابلس قبل ذلك بقليل .. وان « البريطانيين » يسومون اخوانهم المسلمين في الهند خسفاً وإذلالاً . ويبين لهم ان « الحرمين الشريفين » سيكونان في خطر من « تدنيس اعوان ابليس » اذا انتصروا ، ولن ينتصروا بإذن الله .

ثم يتبع ذلك بـ « فرمان شاهاني » عن قرب النصر .

حقيقة الموقف في نظر الشعوب

تلك هي الاوضاع النفسية التي كانت سائدة في اواخر سنة ١٩١٥ في المقامات الرسمية ومن يتأثر بها من المغفلين في شعوب الدول المتحاربة ، وهي تختلف اختلافاً كبيراً عن حقيقة الموقف في نظر الشعوب .

١ - ايرلندا

ففي ايرلندا مثلاً ، برزت الى السطح منظمة قومية متعصبة تقول : « ان في مغرم بريطانيا مغنم لنا »، ثم تضيف : « فعلى كل ايرلندي ان يساعد في جلب الأسلحة والتدرب عليها استعداداً لفرض استقلالنا على مستعبدينا » . وبالفعل ، تدفق على ايرلندا سيل من الاسلحة المهربة، وتدرب عليها الايرلنديون ، ثم استعملوها فيما بعد وانتصروا بأن فرضوا استقلالهم .

٢ - تشيكوسلوفاكيا

وفي تشيكوسلوفاكيا، كانت الحماسة فاترة في الانتقاض على امبراطورية آل هابسبورغ ، اذ ان الأهلين يجدون الحياة في ظل حكمها افضل كثيراً من حياة اخوانهم السلافيين في ظل القيصر الروسي ، زعيم دولتهم القومية ذاتها .

٣ - الاشتراكيون الراديكاليون

وهنا وهناك ، في فرنسا ، كما في المانيا وروسيا ، كان هنالك بعض الاشتراكيين الراديكاليين ينشرون دعاية ضد الحرب من اساسها . ولكن هؤلاء كانوا نفراً يسيراً لم يأبه لهم احد . كما ان تعارُض مثاليتهم مع واقع الحرب ، ومع كون معظم الجيوش المتحاربة تدافع عن ارض وطنها نفسه ، اضعفَ الى حد كبير جداً من تأثيرهم في اوساط الشعب.

كان هؤلاء مثلا يقولون للروسي : « لا تقاتل الالمان ، فليسوا هم الذين ابقوك في حالك التاعسة هذه ، وانما قاتلْ مستثمريك — القيصر والكنيسة ، والكولاك » . فهل ، يُعقل ان يرى الروسي بلاده مشطورة مهانة ، فيقبل باحتلال الألمان لأرضها ، وينصرف الى الثورة على بطرسبرج !!

ومثل هذا كانوا يطلبون الى الفرنسي ، فهل يرى الفرنسي الجزء الشمالي الشرقي من بلاده خاضعاً للغزاة الألمان ثم يقبل بعد ذلك بالاستدارة الى الخلف لاسقاط حكومة باريس !!

لو فعل ذلك . لكان معناه : « لست وطنياً ، وانما خائن ،فتعالوا يا اعداء فرنسا وأذلّوها ، ولتكنْ لكم الالزاس واللورين الى الأبد » .

واما في المانيا ، فلو فعل ذلك احد ، لنال من جسده الرصـــاص قدراً كبيراً . ان جزاءه الاعدام .

اما في تركيا وممتلكات الدولة العثمانية في آسيا ، فسيكون حينذاك ، « عدواً للدين » و « ممالئاً للكفر » ، وخاذلاً للجهاد والسلطان . ولن يعدم رصاصة يأمر باطلاقها « أمير آلاي » السُنجق الذي هو فيه ، او انشوطة يشنقه بها في احدى الساحات العامة .

ومثل هذا يكون البلجيكي الذي يدعو الى وقف الحرب ، والانصراف الى تطاحن طبقي في الداخل ..

والواقع ان الجنود المقاتلين في قارة اوروبا كانوا ، كما اسلفنـــا ، يقاتلون دفاعاً عن سيادة دولهم القومية . هذا اذا استثنينا الألمان الذين كانوا يحتلون اراضي غيرهم .

٤ – بولندا

وهنا نقع على مثال فريد . انه بولندا . فقد كانت هذه البـــلاد خاضعة للحكم الروسي قبل الحرب ، وإثر حروب متكررة في القارة الاوربية ، انتهت باقتسام البلاد . وها هم الألمان يطردون الروس منها . اذن فقد استبدلت البلاد سيداً قوياً بآخر ضعيف . واذا كـــان السيد الضعيف قد استطاع البقاء متسلطاً فيها لمدة طويلة – عن طريق التعامل مع بقايا الاقطاعيين ، وبفضل الجهل العام في البلاد – فمن الاولى ان يستطيع ذلك السيد القوي ، المتسلح بجبروت فيالق الألمان .

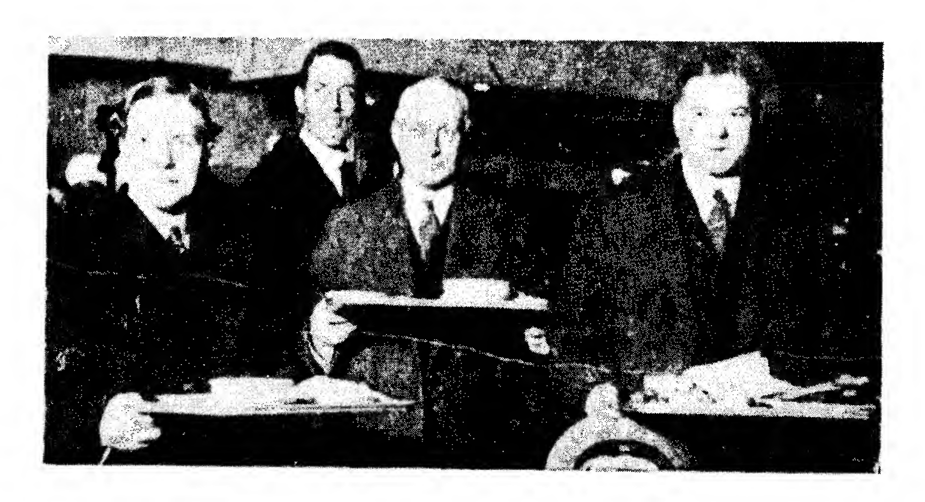
نعم ، لا شك انه كانت هنالك بذور وطنية يتحسس الداعون الى استغلالها ظلالاً من « قومية بولونية » — فهذا أمر طبيعي في كل شعب وفي كل زمان — ولكن هذه القومية لم تكن واضحة المعالم بعد .

لذا نجد البولونيين يخفضون رؤوسهم أذلاء بدل ان يثوروا على اسيادهم الجدد .

ه – بلجيكا

وقد يتساءل بعض الناس : لماذا لم ينشط البلجيكيون ويقوموا بحرب عصابات ، مثلاً ؟ هل زايلتهم وطنيتهم ؟

والجواب ، ان رقعة البلاد الضيقة ، والفرق الواسع بين قواهم وقوى الألمان كانا يحولان دون نجاحهم ، حتى لو فعلوا . هذا أولاً . وثانياً : ان حرب العصابات الناجحة تتطلب أرضاً ذات طبيعة جبلية ، أو مكسوة بالغابات . لهذا نجدها قد نجحت على يد « الأنصار » في روسيا إبان الحرب العالمية الثانية ، ثم في حرب تحرير الصين . أما بلجيكا فهي سهل منبسط تخترقه القنوات والأنهار . وثالثاً ، ان حرب العصابات ما



هربرت هوفر يقدم المؤن اعانة الى لاجئي البلجيك

هي الا حديثة العهد في أساليب الحرب ، اي أنه لم تكن قد وُضعت لها القواعد التي تكفل البدء بها او نجاحها .

لكل هذا عجز البلجيكيون عن عمل أي شيء ، الا استدرار دموع ذوي النفوس الرقيقة المشاعر في بريطانيا وامريكا . فاستقبلت بريطانيا لاجئيهم ، وعطفت عليهم امريكا فقدمت لهم ، من باب الصدقة والاحسان ، بعض المواد الغذائية .

بريطانيا تقلب « الانسانية » الى « تجسس »

كانت بريطانيا في أول الأمر تسمح بايصال هذه الشحنات التموينية ، دون ان يتعرض لها نظام الحصار البحري على ألمانيا . لكنها سرعان ما منعت ذلك . أما السبب في هذا المنع فيذكره صحافي الماني درس وثائق الحرب الكبرى في بلاده ثم التجأ الى سويسرا بعد نهايتها ، وهو يقول :

« اتخذت بريطانيا من قضية العطف الانساني على جوعى البلجيك بؤرة للتجسس . فلما ان اكتشفت السلطات الألمانية ذلك ، وحاولت التجسس العكسي عن نفس الطريق ، تبين لبريطانيا ان زيف انسانيتها قد افتُضح . ولهذا لجأت الى خلق دعاية تزعم ان الألمان يأخذون التبرعات الأمريكية لتغذية جنودهم . وسرعان ما منعت وصول تلك التبرعات بهذه الدعوى» .

وهنا يجدر بالقارىء ان يتساءل : هل كانت امريكا تتبرع لاغاثة البلجيكيين سنة ١٩١٥ خوفاً عليهم ان يموتوا جوعاً ، مع انها كانت قد أهلكت عدداً وافراً من جيرانها المكسيكيين قبل ذلك بسنوات ؟ ان هذا لعجيب ! والجواب على ذلك سهل للغاية : انظر ايها القارىء الكريم الى عالم السياسة الدولية اليوم .. وسترى أدهش من كل ذلك .

ولنعد الآن الى مجرى الحرب .

حرب جنرالات

لقد ورد في تقرير رفعه سفير سويسرا الى حكومته ، التي ظلت

محايدة في الحرب ، قوله : « ان هذه الحرب حرب جنرالات ، وليس بوسع السلك الدبلوماسي ان يحرز اي وساطة او نجاح . » وما أصدق هذه العبارة . ففي الحرب الكبرى تسلّم الجنرالات زمام السلطة الفعلية في بلادهم ، وان لم تبلغ بهم الوقاحة أن يطلبوا اسم « ملوك أو سلاطين » .

موقف الساسة المدنيين من ذلك

اما الساسة المدنيون ، فقد تواروا خلف هؤلاء العسكريين كظلّ لهم . ولم يكن ذلك التواري بحكم الاخلاص لأولئك الجنرالات ، ولا من باب الثقة بهم ، وانما كان من جراء العجز عن زحزحتهم أولاً ، والحيرة فيما يجب فعله للتخلص من الحرب ، ثانيــاً . كان الساسة يصغون الى الانتقادات المؤلمة ، والاتّهامات الخطيرة التي يكشفها الجنرالات المتقاعدون ويشرحونهــا لهم .. ولكن إبعاد الجنرالات العاملين ، والأتيان بآخرين متقاعدين ، ما كان سيغير من الأمر شيئاً . اذ سيظل الجنرالات هم الجنرالات .

لم يكن بين اولئك الساسة أحد يمسك بين يديه دفتي السلم والحرب كما فعل روزفلت وتشرشل وهتلر وستالين في الحرب العالمية الثانية . فقد ظلوا يعتقدون ان البقاء بعيدين عن طريق المغامرين العسكريين لهو أسلم .. وليظلّ الجنود يقتل بعضهم بعضاً .

وهذا عجيب حقاً .

ألم يفطن لويد جورج وبرايان ورذينو وقيصر روسيا وسلطان تركيا ، الى ان العقلية العسكرية، حين يطول بها المدى ، تتجرّد من كل اعتبار انساني ، وتنقلب أقرب الى وحشية الغاب ؟ ألم يجدوا ذلك الخلُق حتى في صرامة وجه كتشنر ولدندورف وهندنبرغ ، وشاربَي جوفر وعبوس جمال باشا السفّاح !!

انه لمن المؤسف حقاً ان نقول : لقد كان الساسة آنذاك أغبى وأكثر وحشية من جنرالاتِ صناعتهم الموت .

كان لويد جورج مثلاً جاهداً في تقوية ما سماه « الحرب على الجبهة الداخلية » ، اي زيادة انتاج العتاد ، وقد ساعدته قدرته الخطابية في هذا البــاب . ففي تموز (يوليو) من هذا العام ، استطاع ان يفكّ اضراب عمـــال مناجم الفحم في جنوب ويلز ، بأن أثار فيهم الروح الوطنية ، وملأ بطونهم وعوداً بالخبز والزبدة بعد الحرب . ولم ينسَ أن يُسيلَ لعابهم حين منّاهم بالحصول على مستعمرات جديدة لبريطانيا تستغلها لصالحهم . لقد حدّثهم ان كنوز الهند تنتظرهم عشية نهاية الحرب ، فما عليهم الآن ، الا العمل بإخلاص كي يحموا وطنهم . ويستثمروا تلك الكنوز بعد قليل . بهذا خدعهم ، فلما تمت الحرب ، وجدوا أنفسهم لا يزالون حيث هم . أما غنائم المذبحة فقد أخذت تتكدس في جيوبه وجيوب أمثاله .

ولكن يبدو ان مقدرته الخطابية قد خانها التوفيق في جلاسجو . فهناك رفض ثلاثة آلاف عامل من أجراء المحلات التجارية ان يصغوا له يوم عيد الميلاد . ولم يكفهم الانفضاض من حوله ، وتلك اهانة كبرى ، بل أخذوا يتهجمون عليه ويبيّنون له عدم ثقتهم بوعوده . وحين نشرت جريدة « التقدم Forward » ريبورتاجاً تفصيلياً عن ثرثرة « معالي » الوزير ، منعت الحكومة صدورها .

التجنيد الاجباري

وأهم أحداث عام ١٩١٥ في بريطانيا هو اللجوء الى التجنيد الاجباري . فمنذ قـــديم الزمن ظل الالتحاق بالجيش اختيارياً ، وظلت بريطانيا قوة بحرية أكثر منها برية . أما الآن فقد اختلف الموقف . ان الألمان يحصدون المتطوعين الانكليز في فرنسا ، والأتراك هشّموهم في غاليبولي ، بينا

يظل جوفر يصرخ طالباً قوات جديدة لهجوم جديد .. فماذا تفعل حكومة بريطانيا ؟

حين استشير الجنرالات كان جوابهم : « التجنيد الاجباري يحل المشكلة » . وزعق بعض اعضاء حزب الأحرار منددأ بذلك .. لكن الظروف الحربية التي خلقت نقصاً في الرجال . اجبرت الجميع على الموافقة . وهكذا أوقف التطوع . ونفّذ قانون « خدمة العلَم » في كانون الثاني (يناير) ١٩١٦ .

وكان المأمول من تنفيذ هذا القانون الحصول على ٦٥٠,٠٠٠ شاب قادر على حمل السلاح لم يتطوعوا . حسب تقديرات الرأي العام وضجة الصحف . لكن ما حصل كان غير ذلك . فقد تقدم (١,٥) مليون رجل يعملون في مراكز حيوية للمجهود الحربي يطلبون الإعفاء . بينما لم يظهر أحد من الـ ٦٥٠,٠٠٠ المتهمين بالتهرب .

نرفض الحرب ، اية حرب !

هذا الى أن أوجهاً أخرى تولدت من سن هذا القانون . فقد ظهر علانية الآن في بريطانيا من يعارضون الحرب من أساسها . نعم ، لقد كان هؤلاء خمسة أو ستة آلاف رجل . فهم قليلون ، ولكن الناحية الفكرية التي نفذوا منها كانت بالغة الأهمية . فهم الآن يرفضون الحرب ، لأنها حرب ، وهم يريدون ان يفقهوا سببها .

والحق ، انه الآن بدأ البريطانيون يتساءلون « لمَ نشبت الحرب ؟ »

ولما كان هؤلاء « الواعون » مسلّحين بقيم خلُقية رفيعة تدفعهم الى استنكار الحرب والاستنكاف عن المشاركة فيها ، فقد جعلت الحكومة همّها ان تقلل من شأنهم في نظر الرأي العام . بل وان تحجزهم ، خوف ان يتفشى مرض « العقلانية » الذي أصابهم بين ظهراني الشعب .



كير هاردي يخطب ضد الحرب في ساحة « الطرف الأغر » بلندن



« الواعون » يرفضون الحرب . ها هم يشتغلون بزراعة الأرض في « دارتمور » .

ومثل هؤلاء « الواعين » ظهر في المانيا . ولكن بشكل آخر ، وان كان في نفس الوقت تقريباً . ففي كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٥ انشقّ عشرون عضواً من اعضاء حزب « الديموقراطيين الاشتراكيين » ، وصوّتوا ضد ميزانية الحرب . وفي أول سنة ١٩١٦ انشق هذا الحزب بكامله الى فئتين .

وهكذا ظهر في أوروبا ، آخر الأمر ، من يتحدى الحرب ولو على نطاق ضيق .

التفكير في عواقب النصر او الهزيمة

وفي هذا العام (١٩١٥) كانت اهداف الحرب قد تقررت الى حد ما ، سواء منها جانب الدفاع او احراز النصر . فإذا انتصر الألمان فلا شك انهم سيضمون الى بلادهم بعض الممتلكات الجديدة من جهة الغرب ومن جهــة الشرق . اما اذا انتصر الحلفاء فإنهم سيسترجعون أراضيهم المحتلة على كل حال .. اي انه لم يكن أحد يفكر في تجريد المانيا من قوتها العسكرية ، ولم يدر بخلد الساسة الانقضاض على مستعمراتها كغنيمة حرب .

هذا في أوساط الحلفاء . اما لدى الألمان فالوضع مغاير لذلك . كانوا قد فتحوا الطريق الى القسطنطينية بعد اجتياح صربيا ، وانضمام بلغاريا الى جانبهم . وبدا ان طريق سكة حديد « برلين — بغداد » قد اصبحت مفتوحة أمامهم . وفي هذا على بريطانيا خطر كبير . وبخاصة ان أحد كبار المتمولين الألمان صرح « ان المستقبل سيكون لوسط اوروبا » .

المستقبل لوسط اوروبا

وحينذاك نظر الساسة البريطانيون ، وكلهم من ذوي المصالح المالية الكبيرة ، الى خريطة اوروبا وآسيا ، وتساءلوا : « أمن المعقول ان

المانيا قد جعلت هدفها ان تتخذ وسط اوروبا بكامله ، ثم البلقان ، فتركيا والهلال الخصيب ، حتى خليج العجم — كلٌ هذا مجالاً حيوياً لتوسعها الاقتصادي فيما بعد ؟ يا له من هدف ضخم ! »

لكنهم نظروا الى الواقع الراهن في ايامهم وقالوا : « ان المانيا لم تستفد من تركيا أية مغانم اقتصادية ، ولا هي فعلت ذلك من النمسا او بقية البلقـــان . وحتى الخطوط الحديدية في البلقان لا تزال عرجـــاء عاجزة عن ان تفرض لها شأناً في مجرى الحرب . وألمانيا لم ترسل الى حليفتها تركيا قوة تكفيها للصمود أمام الحلفاء لو شاءوا التركيز عليها .

اذن ، ماذا تبغي المانيا من فكرتها هذه ؟ هل تريدها هدفاً حقيقياً للحرب ، أم انها قنبلة دعائية للتخويف واثارة البلبلة ؟ »

والواقع انها كانت كذلك . اذ ان الطبيعة الجغرافية والاخرى العرقية والثالثة الاقتصادية تعارض ضم هذه المنطقة المشار اليها ، في وحدة من اي شكل كان . لكن الألمان ارادوا ان يجعلوا للحرب اسطورةً ، فانتقوا هذه الفكرة الخيالية ، وأذاعوها .

ما الهدف من الاسطورة !

وكان لاذاعتها هدف ما . فالألمان يعرفون ان بريطانيا وفرنسا وروسيا ظلت تختلف ، وأحياناً تتحارب ، على مطامعها في املاك الدولة العثمانية طوال قرن كامل . فهم يودون الآن ، ان يثيروا الاختلافات بين هذه الدول ؛ فلا تطمئن إحداها للأخرى ويفتر نشاط الجميع للحرب .

لا ثقة بين الحلفاء

ونحن نعرف مثلاً ، ان الروس كانوا قد احتاطوا لهذا الأمر من قبل . فحين عُرضت فكرة القيام بحملة الدردنيل في الربع الأول من سنة ١٩١٥ ، نراهم يشترطون ان تكون القسطنطينية والمضايق من نصيبهم . ولم تمانع في ذلك بريطانيا ما دام لا يؤثر على بقاء سيطرتها على مصر . اما فرنسا فقد عارضت ؛ لكنها اضطرت الى الاذعان آخر الأمر .

وقد جزم بعض المعلقين السياسيين فيما بعد بأن بريطانيا وفرنسا كانتا تحاربان سنة ١٩١٥ لمجرد أن « تقدّما القسطنطينية تفاحةً ذهبية الى روسيا ، كما وعدتاها بذلك في نيسان من ذلك العام » . وهذا غير صحيح . فقد وافقت بريطانيا على ذلك خشيةً من تفرق الكلمة إبّان الحرب .

الوعد لروسيا بالقسطنطينية والمضايق

كان هذا الوعد مفتاحاً لإثارة قضية كبرى أخرى . فقد غدا الفرنسيون يتساءلون : « ان جنودنا يموتون في الجبهة الغربية ، وعلينا يقع العبء الأكبر من هذه الجبهة ، ولكن يبدو ان حلفاءنا البريطانيين ينشّطون في الشرق ، بغيةَ الاستئثار بممتلكات الدولة العثمانية في آسيا ، فيما بعد . » ولهذا اضطرت بريطانيا الى أن تجعل سوريا من حصتهم . لكننا لا نود استباق الحوادث ، فلنترك اثر الحرب العالمية الأولى على البلاد العربية قاطبة الى فصل لاحق ، ويكفي هنا ان نقول :

« مع ان حملة غاليبولي قد أخفقت ، ومع أنه ثبت للحلفاء ان النصر على المانيا لن يكون في آسيا ، بل في أوروبا ، فإن تركة « الرجل المريض » قد جرى توزيعها في هذا العام ، (١٩١٥) . وكان افتضاح أمر هذا التوزيع هو الذي جرّد بريطانيا من كل تزييف للمثُل العليا التي ادّعت انها حاربت من أجلها . »

عام ١٩١٥ قريب من نهايته

بنهاية العام الثاني من اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى نكون قد قطعنا نصف تلك الحرب من الوجهة التأريخية ، اذ أنهـا انتهت في « الإحدى عشرية » كما يقول السير ونستون تشرشل في كتابه « الازمة

العالمية » . و « الاحدى عشرية » هـذه إشارة الى قوله : « ها هو بغ — بين Big Ben يدق الدقيقة الحادية عشرة من الساعة الحادية عشرة في اليوم الحادي عشر من الشهر الحادي عشر (نوفمبر ، تشرين الثاني) سنة ١٩١٨ ، مؤذناً بانتهاء الحرب التي لفحت بنيرانها أوروبا والعـالم طوال ٤ سنوات » . و « بغ — بين » هو الجرس الأكبر من مجموعة الأجراس في ساعـة Big Ben الشهيرة في لندن ، وهو يعرف باسم آخر هو « Big Chime » .

وما دام قد انصرم عامان على بدايتها . فإنه يجـدر بنا ان نستعيد الى ذاكرتنا ، عن طريق الصور ، بعضاً من اولئك الرجـال الذين اشتركوا في هذه المعمعة ، مراعين عدم تكرار الرسوم . ومن الأنسب ان تكون حادثة اعلان الحرب أو السبب المباشر في ذلك الاعلان ، هي الأسبق الى التذكّر . انها « حادثة سراجيفو » في « صربيا » .

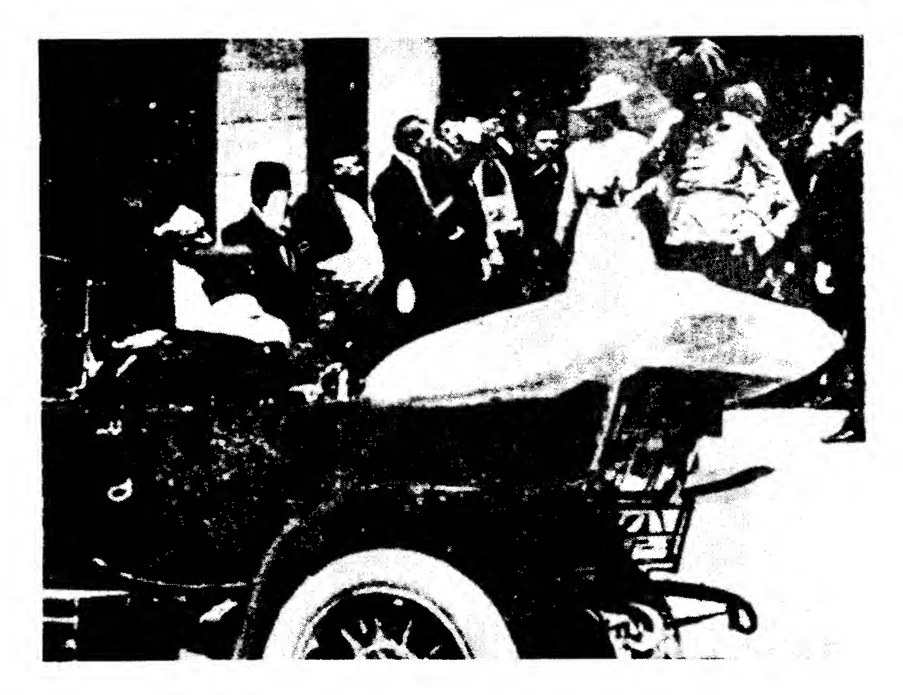
ثم الملوك وكبار الشخصيات المدنية التي عجزت عن ضبط أعصابها ، وساقها تيار الغرور أو المطامع أو الكبرياء الجوفاء الى دفـع العالم الى أتون تلك الحرب .

ولا يجوز أن ننسى رجال الحرب الذين سيطروا طوال هـذه الفترة من فترات « الجنون البشري » ، فأزهقوا من الأرواح ، وهدروا من المجهود الانساني . وأعاقوا من تدفق نهر الحضارة ما يدفعنا دفعاً الى القول بأنهم « مجرمون واتاهم الحظ ان يتنكروا في ثياب أبطال » . فكانوا أبطالاً مزيفين .

والحق، ان قولنا هذا لا ينطبق عليهم جميعاً . فالقائد العسكري الذي يدافع عن أرض وطنه حين يُعتدى عليها يظل وطنياً لا مجرماً. ولكن . كم من القادة هؤلاء كان يدافع عن ارض وطنه ؟ انهم البلجيكيون والصربيون وحدهم .

ولربما بدا هذا التقييم غريباً في نظر الجمهور الأكبر من الناس ، وعذرنا في ذلك ان مفهوم « العظمة » التي يضفيها الناس على « القادة

العسكريين » ينبع من غريزة إظهار القوة. وهي غريزة عميقة الجذور، لم تستطع المدنية ان تقتلعها من نفسية الانسان. لقــد ورثها الفرد من أسلافه الوحوش في الغاب.. وظلت كامنة فيه. ولذلك نجده يُكبر البطش ويُلهب خياله العنف، وكثيراً ما يقع فريسة سهلة لهذه الحماسة المستثارة، لكمونهــا في نفسه، فيمجّد القادة العسكريين في الحروب، المنتصِر منهم والمنهزِم، ولكنه يعبد القوة في المنتصر آخر الأمر.



قبل حادث الاغتيال . الارشيدوق والكونتيسة يخرجان من دار البلديـــة في سراجيفو



رسم مستوحى من تفاصيل الحادث .. برانسيب يقتحم السيارة ليقتل



الغراندوق - قائد الجيوش الروسية



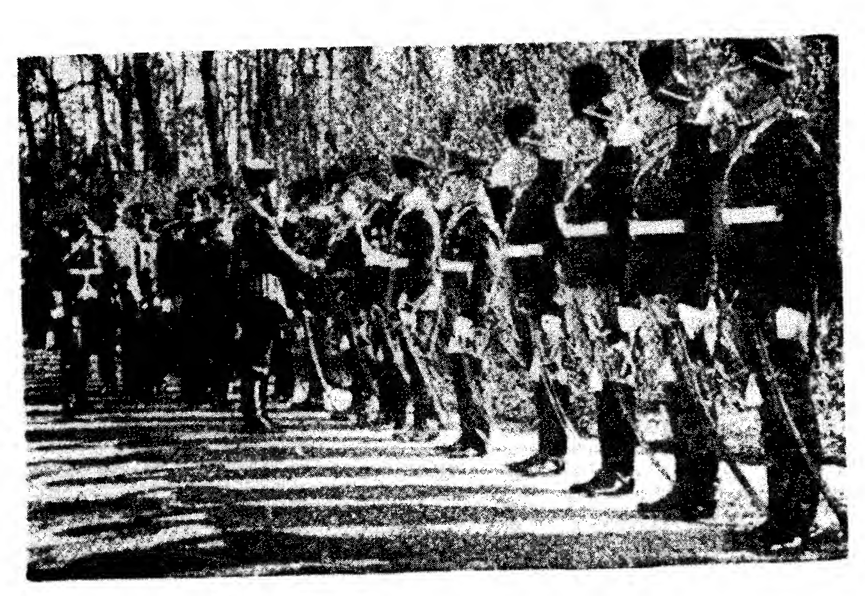
الارشيدوق والكونتيسة في نعشيهما في الكاتدرائية في « فيينا »
وكان نعشها ادنى من نعشه بعشرة سنتمترات لانها ليست من «آل هابسبورغ»!!



القيصر الروسي و « بونكاريه » ،
رئيس الجمهورية الفرنسية الذي جاء يباحثه بشأن الاستعداد للحرب



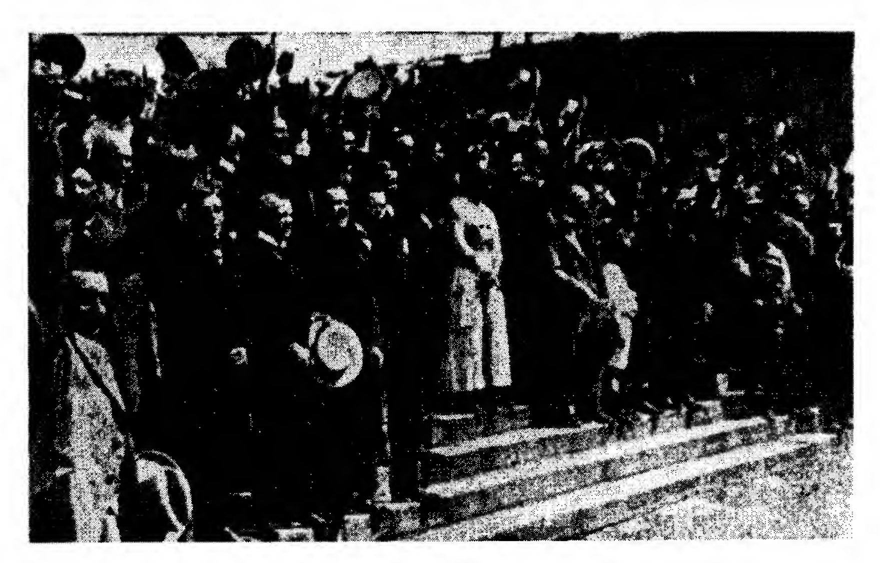
٢٩ تموز (يوليه) ١٩١٤ في فينا
الامبراطور في طريقه الى ضاحية فيينا للاجتماع بأركان القيادة هناك



٣٠ تموز (يوليو) ١٩١٤ في بطرسبرج
القيصر يستعرض ضباط حامية المدينة قبل اجتماعة بأركان القيادة



٢٩ تموز (يوليه) ١٩١٤ في برلين
غليوم يزور المجندين بعد اعلان التعبئة



٣١ تموز (يوليو) ١٩١٤ برلين
غليوم يخطب عن انذاره لروسيا ومدته ١٢ ساعة



١ آب (أغسطس) ١٩١٤ في برلين
غليوم في قصره الامبراطوري وأهل برلين يهتفون له



١ آب (أغسطس) ١٩١٤ في بطرسبورج
القيصر يستعرض الجيش بعد اعلان الحرب على ألمانيا ورفض الانذار



١ آب (اغسطس) ١٩١٤ في برلين
غليوم يجتمع بأركان حربه قبل اعلان الحرب بساعات



٣١ تموز
(يوليو)
بطرسبرج
الفوج الاول من
التعبئة ضد النمسا



الجريح الفرنسي
الاول



الجريح الألماني الأول

مصر عام ١٩١٤ - ١٩١٥

توطئة

قلنا في السابق ، اننا سنبحث علاقة الحرب العالمية الكبرى بالبلاد العربية في دراسة خاصة . ونحن الآن نود الاستدراك ، فنشير الى ان هذه العلاقة ستكون محصورة في نطاق الحرب ذاتها . فلن نتعرض للمشاكل السياسية أو الجمعيات العربية التي سبقت الحرب ، مثلاً ، ولا الى الواقع العربي في ظل السلطنة العثمانية .

ولكن هذا الاقتصار لن يعفينا من ذكر فذلكة مقتضبة جداً عن تاريخ البلد العربي الذي نبحثه ههنا . ولنبدأ بمصر نظراً لعلاقة الحرب بقناة السويس .

مصر القديمة

بين طيّات التاريخ القديم تلوح مصر كنجم مشرق ، ارتقت فيه حضارة أهل النيل من الوجهة الاجتماعية والمعمارية والفكرية . فقد تأسست في الصعيد مملكة مصر العليا ، ثم توسعت فضمت مصر السفلى في « فرعونية » واحدة ، قويت وتعاظمت وامتدت فتوحها الى فلسطين وسوريا .

وارتقى اثناء ذلك الفكر البشري ، فمن مقياس النيل بدأ ضبط الوقت ، ومن فكرة الحياة بعد الموت ظهرت الاهرام والتحنيط ، بل

« وحدانيةُ » اخناتون و « دينه » الأقرب الى التوحيد في « الديانات السماوية » التي تلت .

وزال عهـد الفراعنة وعقبه العصر اليوناني على يـد الاسكندر ثم البطالسة . وفي هذا العهد غدت مصر مركزاً حضارياً للفلسفة والفكر . ثم عقب ذلك عصر الرومان على يد يوليوس قيصر فانحط مركز مصر وخضعت كولاية يأخذ منها الرومان الغلال والعبيد .

وحين ظهرت المسيحية تقبلها عدد كبير من المصريين في الظاهر ، وإن ظلت نفوسهم تتوق الى رواسب دين الفراعنة ومجموعة الآلهـة اليونانية والرومانية .

مصر بعد الفتح

وبقي الحال كذلك الى يوم فتحها عمرو بن العاص . ومع الزمن استطاع الاسلام والعروبة ان يصبغاها بصبغة عربية أصيلة هـي الأولى والأخيرة اليوم .

ولسنا في معرض التفصيل عن مصر أيام الراشدين ثم الامويـين فالعباسيين فالفاطميين فالأيوبيين فغيرهم . ولكنا نقفز راساً الى المماليك البرجية والمماليك البحرية وسقوط مصر سنة ١٥١٧ م في يـد السلطان سليم الأول التركي . لكنه لن تفوتنا الاشارة ههنا الى فضل مصر في حدثين تاريخين بارزين . أولهما صدّ موجة الاستعمار الاوروبي في القرن الثاني عشر ، والذي جاء على شكل حملات صليبية ، وثانيهما الوقوف أمام جموع المغول المدمّرة أيام المماليك .

ثم ننتقل بعـد الفتح العثماني الى حملة نابوليون وظهور أسرة محمد علي الارناؤوطيـة ، فنقفز الى سنة ١٨٦٩ حيث حفر الشعب المصري قناة السويس تحت اشراف المهندس الفرنسي دي لسبس ، أيام الخديو اسماعيل .

وبحفر « قناة السويس » عاد لهذا الجزء من العالم أهميته التجارية في المواصلات ، بعـد ان كانت الاكتشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر ومطلع السادس عشر قد حرمته منها .

مصر والقناة

وبفعـل استدانة الخديو اموالاً طائلة أنفقها على البذخ والمظاهـر الجوفاء ، ولوجود « القناة » في طريق الهند ، « درة التاج البريطاني » — احتلّ الانكليز مصر سنة ١٨٨٢ وفرضوا حمايتهم عليها ، وان ظلت البلاد « رسمياً » خاضعة لسلطة « السلطان » .

ونحن الآن في أول الحرب الكبرى أي سنة ١٩١٤ .. فماذا نرى في مصر؟

نرى بريطانيا تود الابقاء الدائم على الاتصال بمستعمراتها في آسيا .. فهي تطلب ثروات الهند ، ورجال نيوزيلندا واستراليا ، وفي حاجـة ماسة الى بترول ايران ومطاط جزر الهند الشرقية وقصدير الملايو .

إذن فقناة السويس شريان الحياة البريطانية .. لذلك تبقي بريطانيا جيشاً كبيراً في مصر للمحافظة على هذه القناة .

هذا من حيث بريطانيا ، فمـا هو الحال عند المصريين أصحاب القنـاة ؟

مصر .. الشعب

هنا نرى نظاماً خديوياً ترتبط مصالحه مع مصالح بريطانيا ، يساعده في ذلك طبقة من مخلّفات الاتراك من الباشاوات الأقطاعيين وجمهرة من « الاروام » المغامرين ، من يونان وايطاليين وفرنسيين .. يتحكمون باقتصاد البلاد وخدماتها الداخلية . ومن الطبيعي ان يكون هؤلاء مطيّة للحاكم الأجنبي الذي يحفظ وجودهم بهيمنته .

أما الشعب المصري ، فعاملٌ في الغيطان علّه يسدّ رمقه بما تنتجه

الارض من قطن يستولي عليه الاقطاعيون ليصدّروه الى مصانع لانكشير في بريطانيا لأنه طويل التيلة ومن نوع جيد .

كان هنالك لا شك حركات وطنية تصيح : « مصر للمصريين » ، ولكن هذه الدعوات آنذاك كانت غامضة المفاهيم ، ففيها الاخلاص لسدّة السلطان في الآستانة ، ومحاولة بعث الخلافة الاسلامية ، بسمات دينية ، على نحو أو آخر .

الحرب .. ومشاعر المصريين

في مثل هذا الوقت نشبت الحرب العالمية الاولى .. فماذا شعر البريطانيون ؟ كان هؤلاء واثقين كل الثقة من أن المصريين يودون التحرر من ربقة استعمارهم ، ومن أنهم سينضمون الى دول الوسط ، لا حباً في تلك الدول ، وانما سيراً على مبدأ « عدو عدوّك صديقك » . فالمصريون لا يرغبون العودة الى أحضان التأخر في دولة الخلافة ، ولا يسعون من أجل أن تستعمرهم المانيا بدلاً من بريطانيا ، فيستعيضون عن سيد بسيد .

إذن : ان بريطانيا تواجه في مصر وميض نار العداوة . فهل تأمن على سلامة القناة ما دام الحال كذلك ؟ كلا ، طبعاً . ولهذا فإن عليها ان تحرسها .

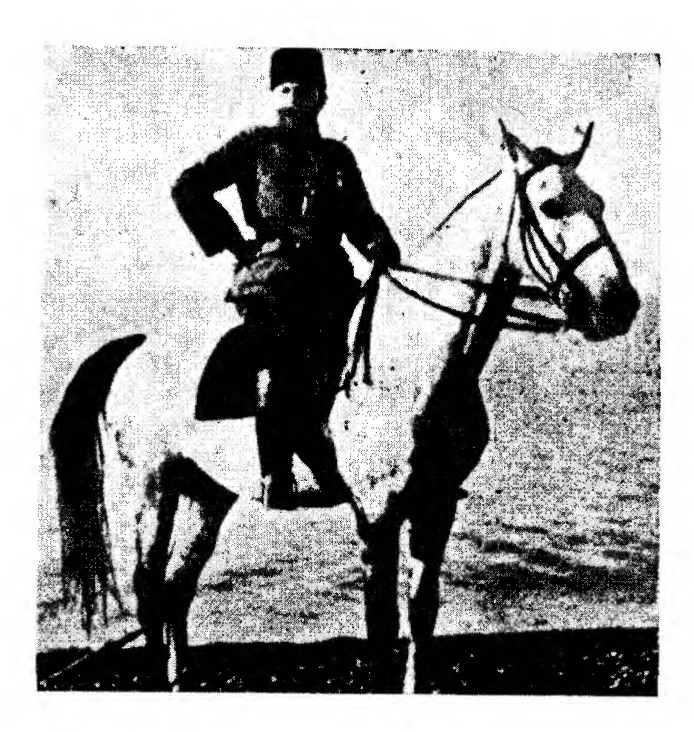
وقد جلبت بريطانيا بالفعل تعزيزات قوية الى حامية القناة ، إثر اشتباك خفَر القناة مع مائة بدوي اجتازوا الحدود من صحراء سيناء . كما بحث كتشنر في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٤ مع ماكسويل قائد الجيوش الانكليزية في مصر ، أمر قطع المواصلات بين تركيا وسوريا . ولكن الأخير أبلغ رئيسه عدم استطاعة قواته القيام بذلك العمل . فحاول كتشنر انزال حملة بحرية في الاسكندرون .. ولكنه عدل عن ذلك لأسباب شتى .

تركيا .. والقناة !

جمال باشا

وفي ٢ آب (اغسطس) سنة ١٩١٤ اعلنت تركيا التعبئة العامـــة بقصد مهاجمة القناة ، وعيّنت لذلك أحمد جمال باشا ، الذي كان في السابق وزيراً للبحرية ، قائداً عاماً على الحملة المزمعة .

حتّى اذا ما حل كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٥ تكاملت حملة القناة ، وغـدت مؤلفة من (٢٠) الف جندي مع (٩) بطـاريات مدفعيـــة .



جمال باشا ، قائد الجيش الرابع في سوريا ..
شنق احرار العرب ١٩١٤ ، ١٩١٦ ثم سلم القدس

اما وجهة هذه الحملة فكانت الاسماعيلية على القناة . لكن ، كيف تم مهاجمة الاسماعيلية هذه ؟

اليك الخطة التي رسمها جمال باشا بمساعدة اركان حربه ، وهم من الألمان : تتوجه الحملة من دمشق ، مركز تجمّع القوات ، فتسير عبر فلسطين في طريق داخلي حتى تصل منطقة النقب . ومن هناك تتجه الى العريش . حتى اذا ما وصلت اجتازت مفازة سيناء فهبطت على الاسماعيلية في عدوة القناة .

اما لماذا تسلك الطريقَ الداخلي في فلسطين ، فلأن الطريق الساحلي محفوف بالخطر اذ يمكن ان يهاجم الأسطول البريطاني او الفرنسي مركز التجمع لو كان مدينة يافا او غزة مثلاً .

الحملة

وقد تم تنفيذ هذه الخطة بالفعل . لكن اجتياز سيناء كان امراً عسيراً. فقد زوّدت الحملة بسبعة آلاف بعير ، على ظهورها تم نقل المؤن والذخيرة . وحتى قطع المدافع ، والتي كانت تسمى « اطواب » . ورغم كل الصعوبات ، نجح الضابط الركن «كرسنتين» الألماني بمعاونة زميله « فيشر » ، في توفير الماء للجيش ، واجتياز الصحراء .
وكانت الخطة العسكرية التي حاولت تنفيذها هذه الحملة هي التالية:

١ – تتجه قوة جزئية الى العريش .
٢ – « « اخرى الى السويس .
٣ – « القوة الرئيسية الى الاسماعيلية .

وكان المفروض ان لا ينتبه الانكليز الى هذه الخطة ، فيوزعوا قواتهم توزيعاً متكافئاً – بحيث يسهل على القوة الزاحفة على الاسماعيلية ان تضرب ضربتها فتقطع اتصال القناة من الجنوب .

لكن جواسيس الانكليز ، وبعضهم من الضباط الاتراك الذين اغراهم الذهب ، كانوا قد لمّحوا الى مستأجريهم خبراً عن هذه الخطة . فعمد الانكليز الى تعزيز قوات الاسماعيلية بشكل خاص .

وحين وصل الاتراك الى هدفهم ، وحاولوا القيام بالهجـوم المحدد ليلة ٣ شباط (فبراير) ١٩١٥ لم يستطيعوا عبور القنـاة الى العدوة الأخرى . كانت كلاب الحراسة الانكليزية قد نبهت اصحابها.. فأصلاهم هؤلاء ناراً حامية من رشاشاتهم المركزة قبالة نقطة العبور .

ولما كان من غير السهل ان يقفز الجندي في القناة ليخوضها سباحة، فقد اجتمع الاتراك في نقاط محددة يجري منها انزال الزوارق في الماء . وكانت هذه النقاط هدفاً ثابتاً لقصف المدفعية الشديد من جانب العدو .

وهكذا فشل هجوم جمال باشا ، وباء بالخسران .

تعليق

والغريب اننا نجد في مذكرات جمال باشا واقوال المؤرخين عنه لهذه الحملة ما يلي :

« ان اهل مصر ، وهم من الملّة ، لا بد ان يثوروا على الانكليز حين يبلغهم الانتصار الاول الذي نحرزه . لقد بعث السلطان الهدايا الى العلماء . »

وهكذا كان جمال باشا ، يتوقع من اهل مصر ان يعاونوه على ان يستعبدهم ! اما « رشاوئ » العلماء ، فكان قد ولّى زمن تأثيرها حتى مع بقاء « بعض » العلماء قابلين للارتشاء .

وانه لمن باب الطرفة ان اذكر هنا حديثاً بسيطاً فيه الطيبة والصراحة.. فقد حدثني جدي المرحوم جميل موسى ابو حجلة ، وكان قد اشترك

في هذه الحملة ، عنها قائلاً :

« بعد ما رفضوا ان يأخذوا « البدل » العسكري ، ساقونا الى نابلس . وكان معي « اجدادك » ... ومن هناك الى يافا قضينا يومين في الطريق . وفي يافا فرزوا جنود « الرديف » وسلّموني « بارودة » وسنجة ، وعدّة أكل .. وكانت بارودتي ببادى .. طويلة . ثم جاء « اومباشي » واخذ يدربنا باللغة التركية . وهناك ظللنا ١٤ يوماً . وفي اثناء هذه المدة كنت متضايقاً جداً ، حتّى اني فكرت في الفرار مثل الكثير من « اولاد » العرب . ولكن اين أفرّ ؟ المفاوز ودوريات التعقيب تزور كل قرية تقريباً .. وفكرت في ان أختبيء عند اهل قرية « يازور » .. ولكنهم لن يخفوني الى الأبد !!

ومن يافا ارجعونا الى « اللدّ » . وقلنا : يظهر انهم سينقلوننا بـ « الترين » . لكنا في محطة « اللد » ، وجدنا الترين بدون فحم حجر ، ورأينا عروق الزيتون المقطوعة من اجله مكوّمة في ساحة المحطة. ولم نركب القطار، وانما جعلونا نمشي من قرية الى اختها حتّى وصلنا قريباً من العريش . وهناك بلّغونا ان آلاي ١٨ هاجم القناة ليلة وصولنا . وعلينا ان نستريح ٣ ايام لا نغادر فيها مواقعنا ابداً . وفي اليوم الثالث ، جاء الخبر ان جيش السلطان قد انكسر .

وتفرق « اولاد » العرب من هناك . فأنا مثلاً ، استأجرت (دابة) بأربعة مجيديات ، نقلني صاحبها الى بلدة صغيرة .. نسيت اسمها ، بعيدة عن رواح ومجيء العسكر .

ومن هناك صرت اتنقل بين القرى حتّى عدت الى نابلس » .

وهكذا يكون جدي المرحوم جندياً لم يحضر المعركة . والحق انه لم تكن هناك معركة ، وانما مجرد محاولة عبور للقناة صدّها الانكليز .

ولننتقل الآن الى العراق .

العراق ١٩١٤ - ١٩١٥

« لمحة في التاريخ القديم »

يصدق على العراق معظم ما قلناه عن مصر ، من حيث تاريخها الحضاري القديم . فهذه ارض استوطنها الانسان الأول ليغتني بغناها . ولا يذهب التاريخ المعروف عمن سكن ما بين النهرين الى ابعد من السومريين . ويرى (كرامر) ان هؤلاء لا بد ان يكونوا قوماً هبطوا من الجبال في الشمال . ولاستقرارهم في اراض خصبة ، انقلب مجتمعهم من مجتمع رعوي الى آخر زراعي . ثم بدأت حضارة الاستقرار تنمو وتزدهر . وتدلنا (اساطيرهم) كما يؤرخها البروفسور (هوك) على انهم كانوا اهل حضارة ، وفكر ، ومعمار . فمن حضارتهم الكتابة المسمارية التي عثرنا على عدد وافر من آجرّاتها ، ومن فكرهم تلك الديانة الجميلة لتأصلّها في واقع حياتهم ، ومن معمارهم (الزاقورات) التي ارادوا بها تقليد مواطنهم الجبلية الأولى .

ثم غلب على العراق الاكّديون ، وكانوا اهل رعاية ، لكنهم هضموا الحضارة السومرية وتمثلوها ، ولم يأخذوا عن اسلافهم لغتهم .

ومن بعد هؤلاء جاء الأموريون . وشرائع زعيمهم ثم ملكهم حمورابي لا تزال تعتبر منطقية سليمة الأساس ، حتى اخذ منها اليهود في وصاياهم .

وقد تعاقبت بعد ذلك على العراق امم شتى ، اذ استوطنها البابليون والكلدانيون والأشوريون ثم الفرس . وكلٌ من هؤلاء بنى لنفسه امبراطورية ضخمة . وقد عُرف الأشوريون بالبطش والكلدانيون بالعمارة والعلوم ، اما الفرس فبالتنظيم الاداري والنهضة الزراعية .

ثم غزا اليونان بقيادة الاسكندر ، ما بين النهرين ، وحكموها . لكن دولتهم لم يطل عهدها فاستعاد الفُرس البلاد ، واخذت تنتقل الى

(السواد) بعض القبائل العربية . وقد ظل العراق (فارسي) الحكم طوال المدة التي قضاها الرومان في سوريا قبل الفتح العربي . لكن مملكة عربية الأصل هي (دولة المناذرة) ظهرت في طرفه الشمالي ، وكانت في حماية الفرس ، يتخذونها وقاءً لهم ضد تقدم الرومان من سوريا ، وقُبالة (الغساسنة) عند الرومان .

وقد انتشرت المسيحية في قرونها الأولى في شمال العراق ، حتى ان بعض ملوك الحيرة اعتنقوها كما يقول (الأب شيخو) و (الأب انستاس الكرملي) . لكنها لم تعمّ او تعمّق جذورها في الشعب . فظل هذا وثنياً في اكثره ، وعلى دين الزرادشتية ، ومذاهبها المتأخرة ، خضوعاً للتأثر الفارسي .

في الاسلام

وما ان سطع نو الاسلام في بطحاء مكة ، وسيّر ابن الخطاب ابطاله المثنى بن حارثة وخالد بن الوليد وسعد ابن ابي وقاص الى ديار الفرس حتى انهارت امبراطورية الأكاسرة في القادسية ، وهرب (يزدجرد) الى حيث قتله احد اعوانه .

ولسنا الآن في معرض احداث العراق في خلافة (علي) ولا انشقاق اهله عن الخلافة الأموية في عهد يزيد بن معاوية ، وواقعة كربلاء ، ولن نذكر الحجاج والخوارج والمهلّب ، وابن الأشعث ، وقتيبة . وانما نقفز الى بداية عهد (دعاة) العباسيين ، ثم اظهار دولتهم في (مرو) بخراسان ، ومن بعد ذلك استيلاء ابي العباس السفاح على الكوفة حيث رسّخ اساس الخلافة العباسية التي دامت حتى ١٢٥٨ م يوم خرّب هولاكو والتتار بغداد .

ولن نعرض لمجد الرشيد ، وحكمة المأمون ، وبطولة المعتصم في عمورية ، وانما نكتفي بالقول : (ان الشأو الذي بلغه العراق في هذه

القرون لا يزال في الوقت الحاضر يطمح اليه .

العهد التركي

وعلينا الآن ان نتخطى ثلاثة قرون ، حتى نبلغ العهد التركي ، حين فتح (سليم الأول) البلاد وقهر الشاه اسماعيل الصفوي الذي كان آنذاك مسيطراً في العراق . وتغرق البلاد في لجة من الاهمال والفوضى ، وبحران من التأخر في عهد السلطنة العثمانية حتى اوائل القرن العشرين ، وحتى الحرب الكبرى على التحديد . ويكفي العراق تعاسة انها ظلت تحت حكم (الرجل المريض) .

كلمة !

وهناك كلمة لا بد من قولها عن العراق ، تتعلق بتركيب السكان فيه : كان من دواعي الفُرقة في العراق ان اهله ليسوا من قومية واحدة ، ولا مذهب في الدين واحد . فهنالك العرب ، والآشوريون ، والاكراد ، والسريان ، والأتراك ، والايرانيون . ولكل من هؤلاء مطامح ومصالح ، تستغلها الدول الطامعة في الاستبداد بالجميع ، وتسير على مبدأ (فرّق تسد) .

وهنالك المسلمون الشيعة ، والمسلمون السنيّون . ومن الطبيعي ان تحاول الدول والقوى التي تضمر الشر للعراق ، التفريق بينهما ، ضحكاً على الذقون .

طبيعة العراقي

ويتميز العراقيون طوال التاريخ بصفات معينة . فهم رجال أشداء في القتال اذا آمنوا بما يقاتلون في سبيله . وفيهم ، وحتى الآن ، رجولة البداوة الأصيلة وبعض جفافها ، كما ان فيهم بساطة ارضهم المسطحة

وبعض مكر الفيضانات . وهم سريعو الانفعال ذوو حدة في مزاجهم ، يميلون الى التناقض في عواطفهم ، فتارة تراهم اهل متعة وترف ورقة مشاعر ، واخرى تشهدهم ذوي نزعة الى الكآبة العميقة والحزن الدفين. ومهما كان حالهم ، فهم اهلٌ لنا وخير إخوة .
ولنتحدث الآن عن احوال العراق قبل الحرب .

العراق قبل الحرب

يطالعنا العراق ولاية عثمانية مقسمة الى سناجق على كل سنجق والٍ يعينه السلطان « بفرمان » شاهاني ، ويؤدي عدداً معيناً من (آقجات) الليرات العثمانية لخزينة (الآستانة) .

ويكفني هذا لأن نقدّر ان العراق ، شأن بقية الممتلكات العثمانيـة في آسيا العربية ، غارق في ظلام الجهل والفقر ، وراتع في نعيم التأخر.

على هذه الحال المزرية كان العراق حين منح السلطان من قصره (يلدز) امتيازاً لشركة المانية بمد خط حديدي بين الموصل وبغداد ، ثم لأخرى انكليزية لتكملة ذلك الخط الى البصرة .

ولننتقل فجأة الى اعلان الحرب .

العراق .. الحرب ، وبريطانيا تتحرك

حين اعلنت تركيا ، تحت ضغط من المانيا ، الحرب على الحلفاء ، قدّرت السلطات الانكليزية في الهند ان منابع النفط الايرانية في عبادان سريعاً ما تصبح في خطر .

وكانت بريطانيا هذه قد فصلت (قائمقامية) الكويت عن ولاية بغداد ، وخلقت لها وضعاً خاصاً سيطرت فيه على كل شيء ، إثر معاهدة حماية عقدتها مع الشيخ هناك .

اذن ، فبريطانيا ذات مصالح واسعة في الخليج . وبحجـة حماية تلك المصالح ، خوفاً من وقوع العراق في يد ألمانية تستطيع ان تهدّد طريق مستعمرة الهند — ارسلت حكومة الهند قوات من عندها للمرابطة في منافذ الخليج والاسراع الى نجدة منطقة النفط ، إذا دعت الحاجة .

وقد أمرت تلك القوات البحرية ان لا تنزل الى البر الا بعد ان تعلن تركيا الحرب . وهذا ما حدث بالفعل . فقد ظلت تلك القوات على ظهر سفنها الى ان تم الاعلان .

الأمر بالحركة وسقوط الفاو ..

وفي ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٤ تلقى آمر القوة الانكليزية أمراً بالاستعداد للتقدم . ولم يطل الانتظار ، ففي تشرين الثاني (نوفمبر) قصفت المدفعية البحرية الانكليزية موقع « الفاو » في الأراضي العراقية . وفي أقل من ساعة سقطت المدينة بيد القوة المهاجمة ، فتقدمت هـذه صاعدة في شط العرب مسافة ٣٠ ميلاً حتى معمل تكرير البترول في جزيرة عبادان .

سقوط البصرة

ثم أرسلت حكومة الهند إمدادات قوية الى قواتها في عبادان ، فقرر قائدها « باريت » ان يجعل البصرة هدفاً له . ولذلك تقدم نحو هدفه محتلاً المواقع التركية واحداً إثر آخر . وكانت هذه المواقع غير معززة بالحاميات الكبيرة ، كما ان الأتراك فيها اظهروا نذالة وجبناً لا مثيل لها ؛ فكانوا ما اسرع ما يستسلمون او يهربون !

ومن غباوة الأتراك مثلاً ، انهم انسحبوا من البصرة دون قتال فاحتلها البريطانيون في تشرين الثاني (نوفمبر) دون خسارة تذكر . وباحتلال البصرة ، سقط ثغر العراق الوحيد في يد العدو ، وخسر الأتراك مدينة كانت مفتاح الخليج على الشرق .

بعد ذاك اخذ الانكليز يتطلعون بصورة جدية الى احتلال العراق . لقد تغيرت استراتيجية الحرب في نظرهم . فقد كان لهم في هذا الوقت جيش يقاتل على الطريق من مصر الى فلسطين ، وآخر يسانده على الطريق من البصرة الى بغداد . ولقد قدّر العسكريون والساسة الانكليز انهم بإشغالهم الدولة العثمانية في ميدانين ، وفي أقصى ممتلكاتها ، انما يوجهون لها ضربة قاضية ، ربما اخرجتها من الحرب كلياً . وحين يتم ذلك يتسنى لهم الاتصال بروسيا والانقضاض على بلغاريا ، ومعاونة صربيا ، واثارة القلاقل للنمسا في البلقان . ومن شأن كل هذا ان يزيد الضغط على المانيا ، فيقرّب انكسارها في ميدان فرنسا .

سقوط القرنة

وبعد سقوط البصرة تقدم الانكليز شمالاً الى « القرنة » حيث هاجمتها مدفعيتهم الثقيلة من سفن النهر وبطاريات الجنود والمشاة . وكان في الموقع ما ينوف عن الف جندي من الأتراك ، استسلموا دون قتال ، فنقلهم الانكليز أسرى أذلّة الى الهند .

وبسقوط القرنة الواقعة عند التقاء نهري دجلة والفرات ، ضمن الانكليز صيانة مصالحهم البترولية ، ودقوا اسفيناً في الجبهة التركية في العراق . ويعزو الذين درسوا هذه الوقائع من المعلقين العسكريين ، سبب سهولة الاستيلاء على هذا الجزء من العراق ، الى سببين :

أولها : عدم تعاون العرب مع الأتراك الذين أذلوهم طويلاً .

وثانيهما : عدم اهتمام الدولة العثمانية بالجبهة في العراق أصلاً .

السلطان يتحرك اخيراً !

كان سقوط البصرة نكبة كبرى على رأس السلطان في الآستانة .

فتشاورت الوزارة التركية ، وقررت ارسال نجدات الى قواتها هناك ، والاهتمام بتلك الجبهة ، خشية ان يضيع العراق بأكمله . لهذا زحف حوالى (٣٧) الف جندي من سوريا الى بغداد . وقرر هؤلاء التقدم جنوباً في محاولة لاسترداد البصرة .. وهناك وقعت معركة « الشعيبة » في ١٢ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٥ حيث انتصر الانكليز بفضل امدادات غزيرة وصلتهم إبان تلك المعركة من الهند . وقد انتحر القائد التركي حين علم بفشل قواته .

من مخازي الأتراك

ثم تعقب الانكليز الأتراكَ المنسحبين الى « العمارة » . ومما يذكره التاريخ في باب « مخازي الأتراك في العراق » ان متصرف العمارة وواليها استسلما لباخرة نهرية انكليزية بينما كانت قواتهما ١٤٠ ضابطاً و٢٠٠٠ جندي !.

وبعد سقوط العمارة والبصرة اصبحت « الناصرية » هي المركز الثالث المنشود . لقد طلبت إسقاطه حكومة الهند . وتمهيداً لذلك احتل الانكليز « سوق الشيوخ » في ٦ تموز (يوليو) سنة ١٩١٥ . ثم اعقبوها « الناصرية » اذ انسحب الاتراك منها دون قتال مباشر ، اللهم الا القصف بالمدفعية من البواخر في النهر .

سقوط كوت العمارة

وبعد كل هذه الهزائم المتلاحقة من جانب الأتراك ، اصبح المطمع المباشر للانكليز هو « كوت العمارة » . وكان الاتراك قد حفروا حولها الخنادق وأقاموا استحكامات محصّنة بغية جعلها خط الدفاع الأول عن بغداد .

وفي ٢٦ ايلول (سبتمبر) اصطدم الانكليز بالقوات التركية في الكوت ، وكان عددها ٦٠٠٠ ، ثلاثة ارباعهم من العرب المكرَهين على القتال . والحق ، ان القتال في هذه المعركة كان حامياً ، حتى ان الانكليز خشوا



الهنود في العراق

ان يكون هذا موقفهم الأخير في ارض العراق . لكنهم في صباح اليوم التالي وجدوا الأتراك قد انسحبوا ، مولّين الأدبار الى بغداد .

وهكذا سقطت «كوت العمارة» في يد القوات المهاجمة ، ايضاً . وكان هذا ما جعل الانكليز يقررون الإسراع في التقدم قبل ان يلمّ الأتراك فلولهم المنهزمة . لكنه في هذه الأثناء كانت هناك حملة تركية تتجه من شمال العراق الى الكوت .. فاصطدمت بالقوات الانكليزية المتقدمة عند « سليمان باك » ، واستطاعت قهرها ، والانتصار عليها، حتى ردّتها مهزومة الى الكوت .. ثم تعقبتها الى هناك وحاصرتها حصاراً مراً اضطر معه قائد القـوة « تاونستد » الى الاستسلام ، هو وجنوده . لكن هذا حدث في أول سنة ١٩١٦ ، فلنرجئه الى وقائع تلك السنة .

ومما سهّل على الانكليز ان ينتصروا على الاتراك في العراق ، كما قلنا ، عاملان لا مانع من التذكير بهما ثانية ، أولهما عدم تعاون العرب ، وثانيهما : عدم اهتمام الدولة العثمانية بتلك الجبهة . لكن نضيف هنا عاملاً ثالثاً هو : استئجار الانكليز للبدو الذين يأخذون الذهب ويبيعون الوطن وأهل الوطن معاً ، ولذا نجدهم عماد سلطة الحاكم الذي يُضمر خيانة بلده ، فهم كالقوزاق ايام القيصرية الروسية .

الفصَل الثَالث

١٩١٦

أطلّ عام ١٩١٦ واوروبا في سعير المعركة ، وجزء كبير من العالم يدفع اليها الوقود . ولكن هذا الوقود كان يُستهلك من طرف واحد ، ذلك أن الجيوش العثمانية لم تشترك الا في ميدان اليونان من اوروبا . ولم يكن هــــذا هو الميدان الرئيسي في الحرب على كل حال . اما ميدان فلسطين والقناة ، وجبهة العراق ، فهما أسيويان موقعاً ورجالاً .

وقبل ان ننطلق في ذكر احداث الميادين الأوروبية الثلاثة ، علينا ان نستعيد جماع الموقف الذي خلّفناه في اواخر سنة ١٩١٥ :

اولاً : الميدان الشرقي

وكان يقاتل فيه الروس ضد الألمان والنمساويين .. وبعد ان انتصروا انتصاراً جزئياً على النمساويين باحتلال برزميسل ، قذفهم فولكنهاين بقواته الصاعقة فمحقهم وفتح في مواقعهم ثغرة عرضها ٢٨ كيلومتراً .

اذن ، فالموقف كما يلي :

تقدّم ألماني وتقهقر فوضوي من جانب الروس .

وفي هذا الموقف ما فيه من مآخذ على الألمان وحسنات لصالح الروس . فالروس الآن بتقهقرهم يقصّرون خطوط تموينهم ويكثّفون مواقع دفاعهم . بينما ينساح الألمان في سهول روسيا الشاسعة التي هجرها (١٠) ملايين انسان ، منسحبين للاحتماء ببقايا جيوشهم المنهارة .

ثانياً : الميدان الغربي

وفيه يقاتل الألمان ضد الفرنسيين والانكليز ، وفلول قوات بلجيكية .

وفي هذا الميـــدان ترسّخت المواقع وغدا القتال ينحصر في مضمون عبارة « حرب الخنادق » ، فالألمان لا يطمعون في التقـــدم لالتزامهم « نظرية الدفاع » في الحرب ، والفرنسيون يدفعون الضحايا الكثيرة من جراء عناد « جوفر » واصراره على الاستمرار في الأخذ بـ « نظرية الهجوم » .

أما البريطانيون ، فتحت قيادة هايغ المستحدثة ، ينفّذون آراء جوفر نتيجة لعقدة كتشنر تجاه هذا الرجل .

ثالثاً : الجبهة الايطالية

وفيها يقـــاتل الجيش الايطالي ضد حرس الحدود وحاميات القلاع النمساويين . والعمليات الحربية في هذه الجبهة غير ناشطة ، اذ اثبت الايطاليون غباءً (يدعو الى الاعجاب !) وجُبناً يجعلهم (جديرين بالتهنئة !) . لقد حاولوا اختراق الحدود فجابهتهم الخيبة ، فـآمنوا عند ذاك بحكمة « الكسَل » ومنافعه .

اما الحرب في آسيا فهي على النحو التالي :

اولاً : جبهة القناة

ويقاتل فيها البريطانيون ضد الاتراك الذين يشرف الضباط الألمان على عملياتهم الحربية . وقد فشل جمال باشا في حملة القناة ، فانسحب العثمانيون الى مـــواقعهم الرئيسية في نابلس من اواسط فلسطين .. ولم يتعقّبهم البريطانيون مباشرة آنذاك .

ثانياً : جبهة العراق

ويقاتل فيها البريطانيون ضد الاتراك . وقد تقدم المهاجمون فاحتلوا البصرة بعد الفاو ثم صعدوا مع شط العرب حتى العمارة والكوت ، الا ان امدادات تركية هبطت من سوريا فاسترجعت سليمان باك وحاصرتهم في الكوت .

وفيها يقاتل الاتراك بالذخائر الالمانية ضد الفرنسيين والبريطـانيين ، ومتطوعي الصرب بعد اجتياح المانيا لبلادهم . وقد خسر الحلفاء في هذه الجبهة وحصرهم الأتراك في ما كان الالمان يسمونه « المعتقل الاختياري» . وهو الشريط السهلي الضيق بين البحر وقلاع مرتفعـات سلانيـك المواجهة له .

نشاطات اخرى

كل هذا ينحصر في عبارة « النشاط البري » للحرب . اما النشاط البحري فقد خمد بعد اغراق الاسطول البريطاني لمدمرات المانيا القادمة من الشرق الأقصى . واما النشاط الجوي فقد كان مقصوراً على اعمال الدوريات الاستكشافية ، بعد فشل المانيا في الاستفـادة من الزبلين على نطاق واسع ، نتيجة لسهولة اصابته .

* * *

وانه لينبغي علينا ان نستعرض احوال شعوب الدول المتقاتلة ، اذ ان هدفنا هو عرض « نفسية الحرب » ، اذا جاز التعبير ، كما اشرنا في مقدمة هذا الكتاب .

لنبدأ بألمانيا :

ان تصوير نفسية الشعب الألماني حتى اول سنة ١٩١٦ سهل للغاية . والصورة التي تتراءى لنا كقطعة العملة ، فهي ذات وجهين متلازمين . الأول : صورة اندفاع شعب ألهبه الحماس بتأثير تضخم قوته العسكرية ، وانسداد مجال الاستفادة من تلك القوة .. فهو مكبوت يريد ان ينطلق . وطبيعي ان يكون الانفجار مدمراً . أضف الى ذلك ، ان حداثة عهد هذا الشعب بالوحدة القومية ــ والانتصارات التي رافقت قيام تلك الوحدة

وتبلور تلك القومية – خلقت في نفوس العسكريين منه شيئاً اقرب الى تمجيد الحرب . واتفق ذلك مع وجود قيصر طموح الى العظمة، وجيران ضعفاء نسبياً في الشمال والشرق والغرب ، فأدى كل هذا الى نوع من « الغطرسة القومية » ، ساعدت على تقديم الضحايا في اول الحـــرب دون تقديرٍ لحساب .

لكن هذه العواطف لا تملأ البطون ، والقتلى والمشوهون الذين قذفتهم معارك الـ ١٩١٤ والـ ١٩١٥ اصبحوا مصدر تساؤل وقلق عن الحكمة في الحرب ، بين مواطنيهم . وحين ساءت احوال التموين في البلاد ، بسبب من نجاح الحصار البحري الذي فرضته بريطانيـا ، وبسبب من تحويل الانتاج بكامله الى مجهود حربي ، صار الشعب ناقماً على الحرب ومن اعلنوها .

صارت النساء الألمانيات يفتشن القُمامة علّهن يجدن بقايا طعام ،وصار القمح الذي كان مأمولاً ان يتدفق من الاراضي الروسية المحتلة نادراً، لاتباع الروس خطة (الأرض المحروقة) . واصبح الفلاحون الألمـــان يزرعون ليملأوا قطارات التموين المنطلقة الى الخطوط الخلفية للجبهة ..

كل هذا خلق نقمة عارمة .. ولكنها غير ناضجة ، لأنها عاجزة عن تبين هدفها .. كان هناك ارستقراطية المانية ، وكان هناك بورجوازية المانية ، وكان هناك حكم فردي في الواقع ، وان اتشح ببرلمان .. وكل هؤلاء يستفيدون من الحرب ، او يطمحون الى الاستفادة منها اذا نجحت.

وكان هناك شعب من زارعي الشمندر وعاصري الجعة ، والموظفين الصغار ، والأرامل ، والطلاب الثانويين الذين هم على ابواب الالتحاق بالجبهة .. وكل هؤلاء تكويهم الحرب بنارها من حيث كل شيء : انتاجهم الزراعي والصناعي ، وفقدان الاصابات منهم ، وضياع المستقبل.
وفي ذات الوقت كان هناك مفكرون يرون في الحرب من اساسها

رأياً آخر .. انهم الديمقراطيون الاشتراكيون . وهؤلاء يدعون الى «الحرب الطبقية » . نعم ، انهم لم يعارضوا غليوم في اول .الحــرب ، لكنهم الآن أدركوا خطأهم ، فهم يطلبون للشعب الحرية السياسية والرفه الاجتماعي ، والكفّ عن التقتيل . وهذه جميعاً افكار مغرية . انها تلوح للمنكوب كالسراب في المفازة ، فهو يظنه ماءً وما هو بماء . واذا كان السراب يخدع الظامىء فيهلك الأخير عطشاً ، كذلك فإن افكار هــؤلاء كانت تُهلك اصحابها في سجن القيصر .. لكن هلاك هؤلاء يختلف عن رمّة تنوشها الطير في الصحراء ، اذ ان السجن لم يقتل الفكر ابداً ، وطوال التاريخ .

وملخص القول : كانت المانيا في اوساطها العسكريـــة تلقى الحماسة الدائمة والخيبة احياناً . اما في اوساط الشعب ، فالجوع والنقمة والكبت والتساؤل .

* * *

اما في روسيا فالأمر اشد من ذلك .

لقد دخلت روسيا الحرب للحفاظ على الهيبة ، وإظهاراً لعدم الرضوخ للانذار الألماني المعروف ، ودخلتها ومجتمعها على النحو التالي :

أ ــ قيصر تجمّع فيه الغبـاء ، وشهوات القيصرة ، وشعــوذات راسبوتين . وهو يحكم حكماً فردياً مطلقاً يساعده فيه اعوان هذا النوع من التفكير في الحكم . وهم الكنيسة ورجالها ، وكبار مالكي الأراضي (الاقطاعيون) ، واصحاب المؤسسات الأجنبية في البلاد .

اما خطة الحكم وسياسة القيصر فهي محصورة في ٣ نقاط :

١ ــ نشر الجهل .

٢ ــ تسليم مرافق البلاد لمؤسسات غير روسية .

٣ ــ خنق الأفكار التي تناقض الأوضاع الراهنة .

والناتج الطبيعي من تطبيق هذه الخطة في الحكم في الداخـــل ، هو تطبيقها في الخارج ايضاً . فالحكومة التي تقوم على اساس كبت الحريات لشعبها ، لا يمكن ان تكون مخلصة لشعب آخر يقع تحت سيطرتهـــا . ولهذا نجد الاضطهاد القيصري يطال بولندا والجمهوريات الاسلاميـــة في اواسط آسيا . ومع الاضطهاد طبعاً يزحف التأخر .

ب ـ طبقة رجال الدين :

وكان هؤلاء من اعوان القيصر ، شأنهم مع كل حاكم على الدوام، الا ما ندر . فللكنيسة والأديرة ممتلكات واسعة وغنية تبلغ ثلث مساحة روسيا الاوروبية ، والقساوسة يعيشون في بحبوحة من جهل الشعب وسخاء أرضه . وممتلكاتهم معفاةٌ من الضرائب ، بل تتقاضى مساعـــدات من الدولة . ولم يكن هؤلاء رجال دين متنوّرين ، او انهم تلقوا اصول علم اللاهوت في مدرسة مختصة ، بل كانت اغلبيتهم الساحقـة جهلة كل امتيازهم انهم أقل جهلاً من العامة بقليل . اما أعدادهم فجموع وافرة من القلانس والمسوح .

ج ـ الاقطاعيون :

اذا كانت اوروبا الغربية قد تخلصت من الاقطاع حين بـــدأت في انشاء الممالك القومية فيها ، فإن روسيا قد أبقت الاقطاعية لتساعد على بقاء دولتها القومية . وكان هؤلاء يملكون الاراضي الشاسعة ، والقرى الكثيرة ، ويشتغل فيها الفلاحون على اعتبار انهم تابعون للأرض «Serfs» . نعم ، انهم لم يكونوا أرقّاء اسماً ، لكنهم ، وسوطُ السيد او وكيله يُلهب ظهـورهم ، كانوا كذلك فعلاً . ولا حاجة الى شرح مستفيض عن هذه الطبقة المنكودة ، ففي الأدب الروسي * في اوائل القرن العشرين وصف صادق وفاجع لمأساة الحياة عند هؤلاء .

* خير ما يمثل ذلك هو ادب « مكسيم غوركي » .

د ــ المثقفون :

وهؤلاء ينقسمون شقين : أ ــ مثقفون تلقوا تعليمهم داخل روسيا فظلوا ذوي اخلاص ، قليل او كثير ، لشعبهم وارضه ، وان كانوا يتصفون بشيء من ضيق الأفق . ب ــ مثقفون ثقافة روسية ثم اوروبية ، وهؤلاء يسايرون اوضاع حكومتهم حفظاً لمصالحهم الشخصية .

مجتمع صدمته الحرب !

في اول الحرب كان هذا المجتمع الهاجع في غفوة القرن السادس عشر ، هو الذي صُدم فجأة ، فكيف يتصرف ؟

لقد توالت الهزائم على جيشه حين اصطدم بعقلية القــرن العشرين الحربية ، واذ ذاك تلاشت الهالة شبه المقدسة التي كان يضفيها البلاط القيصري على « المجد الروسي » ، وبخاصة ان الحرب اليابانية الروسية قبل عقد واحد من الزمن كانت قد لطخت ذلك المجد الموهوم . ثم عقبت تلك الحربَ ثورةُ ١٩٠٥ فزادت من امتهانه .

وحين تحول الانتاج بكافة طاقاته الى المجهود الحربي ، زادت حياة الروس بؤساً على تعاسة . ومع هذه الزيادة زادت غطرسة القوزاق ورجال الجيش المهلهَل على الشعب ايضاً .

افكار مضادة !! قمحكم لكم.

عند ذاك وجدت الافكار المضادة ، والتي كان يبثها الاشتراكيون تربة خصبة ، فتقبلها الناس ، لا عن تفهم لها او تعمق واعتناق ، وانما لمجرد الأمل في الخلاص من جحيم الواقع . لذا امتلأت منــافي سيبريا الجليدية . وأزهقت أرواح الألوف .. و .. و .. لكن كل هذا كان كضغط الغاز في قارورة سريعة الدوران . فلا بد ان تنفجر ، ولربما مزقت من يديرها .

كان الروس جائعين ، والاشتراكيون يقولون لهم : « قمحكم وشوفانكم لكم » . وكان ابناء الشعب ينفرون من الموت بحراب الألمان ورشاشاتهم، والمنفيّون يقولون لهم : « هذه حرب استعمارية * ستعود فائدتها للطبقة الحاكمة في البلدان المتحاربة ، ولستم انتم من هؤلاء » . وكان الناس يودون ان يرسلوا ابناءهم الى المدارس لكنها غير موجودة ، فجاءت « نشرات » هؤلاء تقول : « الدولة ملزَمة بالتعليم المجاني للجميع ».

كل هذه الاستثارات النفسية ، ومداعبة الآمال التي كان افراد الشعب لا يجرؤون على التحدث بهـا بينهم وبين انفسهم — تركت اثراً في مشاعرهم تجاه القيصر وحكومته ، والحرب وفظائعها . ولكنهم مع هذا ظلوا يسوقهم القوزاق دفاعاً عن «روسيا الأم» و«القيصر» المقدس .

اذن ، كان مجمل الوضع في روسيا هو : تأخر من جميع الوجوه، واذلال قومي عميق الجراح ، بفعل الهزائم ، وغليان شعبي تائه الطريق.

علينا الآن بالدولة العثمانية :

وحشية .. ونذالة !

يقول الاستاذ ساطع الحصري في كتابه «البلاد العربية والدولة العثمانية» ان : « الدولة العثمانية نشأت وقامت وتنظمت ادارياً على اساس انها دولة عسكرية الصبغة » . وهذا صحيح . فالقبائل التركية الشديدة المراس حين هاجرت اول امرها الى ديارها المعروفة كانت جماعات من رجال يتصفون بالقسوة الى درجة الوحشية ، والخداع الى درجة النذالة . وهاتان الصفتان تنطبقان حتى على سلاطينهم شخصياً، من بايزيد في «قوصوة» ، وسليم الأول في « مرج دابق » حتى عبد الحميد في « يلدز » .

* في متحف لينين بموسكو مجموعة وثائقية من هذه المنشورات وبخاصة عن الحرب .

لقد اعتنق الأتراك الاسلام ، فكانوا يفقهون حدوده الضيقة وحدها، ثم تُعقّد عقليتهم البدائية هذه الحدود ، فيجردونه تماماً من روحه السمحة وسموّه الفكري . لقد جعلوه طرقاً صوفية وشعوذات ما أبعدها عن الصوفية الحقة ، وما اقربها الى غموض وثنيتهم في جبال آسيا الوسطى قبل هجرتهم .

وحين واتاهم الحظ وأسقط هولاكو خلافة العباسيين في بغداد ١٢٥٨م، هرب الخليفة الى مصر ،حيث بقي هناك.وحين فتح سليم الأول مصر سنة ١٥١٧ ، يذكر المؤرخون ان الخليفة خلع عليه لقبه وتنازل له . وهذه قصة مختلَقة ينفيها الاستاذ ساطع الحصري بحجج وجيهة . وهو يرى ان السلاطين العثمانيين اغتنموا ضعف العرب ، فلفقوا قضية التنازل هذه ، كي يضفوا على حكمهم صبغة اسلامية ، كانوا يظنون انها تسهّل لهم قيادة « الملّة » .

بقايا عظمة !

وقد كان للعثمانيين « اوج عظمة » شيمة بقية الدول ، ففي سنة ١٥٢٩م حاصروا فيينا، مثلاً . وطوال القرن السادس عشر كانت اوروبا بكاملها تخشاهم . لقد أذلوا بطرس الأكبر الروسي * ، وقهروا شعوب البلقان وسيطروا على ساحل شمال افريقيا . وكان هذا يؤهلهم للبقاء لو انهم استفادوا من الثورة الصناعية التي عرفتها اوروبا بعد ذلك . لكنهم ويا لسوء حظهم ، جمدوا ، والجمود هو التقهقر ما دام العالم يسير قُدماً بشكل مطرد . وطول الجمود هو استمرار في التقهقر . وهذا يبلغ نهايته آخر الأمر بالفناء .. تلك سنّة الطبيعة .

---

* لكن الذهب وجمال زوجته خلصاه من الوقوع في الاسر .

الرجل المريض

كانت « الدولة العليّة » رجلاً مريضاً تتنازع دول اوروبا اقتسام تركته ، قبل الحرب العالمية الاولى بقرن كامل . فكيف تكون الدولة « رجلاً مريضاً » ؟ . هناك اعراض لكل مرض ، فاذا تكاثرت الاعراض واختلفت وتناقضت دلّ ذلك على ان صاحبها مأزوم .

طريقة الحكم

كان حكم « شاهنشاه » و «خاقان البرّين» يقوم على اساس ديني مطلق . فهو خليفة المسلمين ، او « خليفة رسول الله » فيهم .وحسب التفسير الذي « ابتدأ به » ابو جعفر المنصور العباسي ، يكون الخليفة مسؤولاً عن « رعيته » تجاه الله وحده * . اذن، ليس للبشر ان يسألوا « الذات السلطانية » لمَ فعل هذا ، وما الحكمة منه . لأنه ليس مسؤولاً امامهم . ولا حاجة بنا الآن لأمرين :

الأول : القولُ بأن الاسلام بريء من هذا التشويه وحتّى من النظام الملَكي او السلطنة اصلاً .

والثاني : انه لا يزال هناك بعض المنتفعين بادعائهم هذا ، من الحكام في القرن العشرين ، ومن المسلمين على الخصوص .

نظام الادارة

وبموجب سلطة الخليفة،فهو المسؤول والمتصرف (والثانية هي المهمة) في اموال « التابعية العثمانية » وارواحهم . ولهذا كان نظام الادارة غريباً فالدولة العثمانية مقسمة الى ولايات ومتصرفيات وسناجق وقائمقاميات ونواحٍ .

---

* وهذا اساس « حق الملك الالهي » الذي ظهر في اوروبا فيما بعد .

على كل قسم من هذه ضريبة مقررة من « الآقجات » يتم توريدها الى « خزينة السلطان » بعد تسديد النفقات المحلية منها .

ويتم ذلك التسليم عن طريق « التلزيم » ، فالضرائب نوع من « المزايدة » ولمن يقع عليه « البيع » ان يجمع تلك الضرائب بالطريق الذي يشاء ، وبمساعدة « المفارز » و « الجندرمة » *

وعلى كل قسم من الأقسام الادارية ايضاً ، تقـديم عدد معيّن من « الصواري » اي « جنود الخيّالة » ، بدوابهم ، وعدد من « البيادى » أي المشاة .

جهاز الحكم

ويساعد السلطانَ في الحكم ، الصدرُ الأعظم ووزارة ليس لها من الأمر شيء ، اذا تعـارضت مشورتها مع رأيه . وهو الذي يصدر « الفرمانات » بتعيين الولاة والمتصرفين ، الذين يعيّنون القائمقامين ومدراء النواحي.

ولا ضمان لبقاء أي من هؤلاء في منصبه الا استرضاء رجال « يلدز » و « حريم القصر » أحياناً . اذن فالموظف غير مطمئن الى بقائه على الاطلاق ، فعليه ان ينهب اثناء وظيفته اكثر ما يستطيع . اما الشعب فهو مجبَر على الدفع والدعوة « للسلطان بالنصر » !

هكذا كان جهاز الدولة يقوم على قاعدتين : أولاهما الرشوة ، وثانيتهما : الظلم ، وقبالته الكراهية والنقمة .

وبلاد ، هذه أسس دولتها لن تكون الا على الوجه التالي :
تأخرٌ مطبق في النواحي العمرانية والاقتصادية والفكرية ، والعسكرية . أما الأحوال الاجتماعية فاسأل عنها أحد الذين حضروا « سفر برلك » أو عاشوا قبله بعقد واحد على الأقل .. لقد كانت متردّية للغاية .

---

* ظل هذا النظام متبعاً حتى منتصف القرن التاسع عشر .

والدولة العثمانية تضم قوميّات مختلفة ، في أوروبا ، وفي آسيا . وأكبر هـذه القوميات هم العرب . لكننا لن نتعرض لهذه القضايا المتشابكة ، فعلى من يود التوسع ان يراجع كتابات الاستاذ ساطـع الحصري بهذا الخصوص . وانما نقول :

حين أطلت الحرب الكبرى كانت الدولة العثمانية ممزّقة تماماً . ويهمنا من هذه المِزق شأن العرب . فقد كانوا غير راضين عن عدد أعضائهم في مجلس « المبعوثان » ، وناقمين على جعل اللغة التركية هي لغة التعليم الرسمية ، ويطالبون باعتماد مبدأ اللامركزية في الادارة ، ويسعون بكل ما اوتوا من قوة في سبيل إظهار ملامح قوميّتهم الناشئة آنذاك ، ويُنحون باللائمة على السلطان لضياع مراكش وتونس وليبيا منذ عهد قريب ، ويؤيدون اليونان والبلغار في تخلّصهم من الاضطهاد التركي ، وينظرون الى نزعة « الطورانية » * بكل ريبةٍ وحقد .

ومع كل ذلك ، فقد كانت عواطف العرب عامة ، مع الأتراك ، لوجود رابطـة الدين . فالانكليز مثلاً كانوا يخشون ان تنقلب عليهم مصر ، حتّى وهم في معركة حملة القناة . وها هو السنوسي في ليبيا يعلن الجهاد ضد ايطاليا ، وهي احدى دول الحلفاء . وكذلك سلطان دارفور يهدّد بالزحف على السودان ، وفي السودان انكليز . وحتّى الهنود المسلمون لم يتجمسوا للحرب ضد « خليفـة الاسلام » ، ولم يغفروا لـ « شريف مكة » الملك حسين ، ثورته على العثمانيين فيما بعد ، فلم ينصروه على « ابن سعود » .

لكن العواطف لن تقيمَ دولاً سائرة الى الانهيار . كان اقتصاد الدولة العثمانية منهاراً ، والسكك الحديدية فيها غير متوفرة ؛ كما انها خاضعة

* اي التعصب لسيادة العنصر التركي ، ومن قبيل ذلك محاولة تتريك العرب .

لامتيازات الشركات الأجنبية . اما الطرق البرية ، فشبه معدومة . وكان الجهل عاماً .

جهل مطبق نشرته الدولة بين العرب

واني لأذكر بهذه المناسبة ان المرحوم والدي (واسمه احمد مصطفى ابو حجلة) كان احد افراد قليلين يلجأ اليهم الناس لقراءة « المكاتيب » و « كتابتها » في قرية ديراستيا من قضاء نابلس . هذا مع ان هذه القرية بالذات كانت تعتبر « بلد الشيوخ » في المنطقة . والشيوخ تعني « الأغنياء والمتعلّمين ، معاً » قبل نصف قرن .

نعم ، كان هنالك بعض المدارس ، وكلها تحمل اسم « الرشادية » أو « المجيدية » أو « الحميدية » على اسماء السلاطين ، ولكن هذه المدارس كانت تقوم في المدن . ولم يشكّل سكان المدن آنذاك نسبة كبيرة من اهل البلاد . كما ان الريف هو مقياس تقدّم اية دولة لا غيره .

الخلاصة

ومجمل القول : كانت الدولة العثمانية آيلة الى الانهيار ، تقوم بمجهود حربـي من طراز عتيق ، كأن تستعمل خشب الزيتون في قاطرات السكة الحديدية عوضاً عن الفحم الحجري ، وتستعمل أسلحة صدئة تنكسف امام الاسلحة الاوروبية الحديثة ، وذات نظام عسكري مضحك ، وكُرهٍ في نفوس العرب عميق . لقد قهرها الفرنسيون والايطاليون في السابق ، وأعجزها الإمام يحي في اليمن ، بمساعدة الايطاليين ، وفشلت في نصر « ابن رشيد » في « حايل » ضد عبد العزيز بن سعود الذي ساندته حكومة الهند (البريطانية) .

وطبيعي ، مع نكبات الحرب ، والانكسارات المتلاحقة في العراق ، وفي القناة ، وفي القوقاز من قبل ذلك ، ان يترقب العرب ، مشوقين ، لحظة تحررهم من ربقة هذه الدولة « الطورانية النزعة » .

وفي هذه الأثناء كان نشاط الجمعيات العربية السياسية *، وهي سرية، عظيماً، فأبعدت العرب عن امكانية التعاون الفعّال مع مستعبديهم. وبذلك زاد الأمر سوءاً في وجه جمال باشا السفاح ودولته.

عرب خاين .. ارمن كافر !!

وليس من الصحيح ان لا نشير ههنا الى مذابح الأرمن وتهجيرهم. فقد تعاون هؤلاء مع الروس ضد الأتراك في حملة القوقاز، فصار الحكم العثماني ينطلق في معاملتهم من مبدأ « عرب خاين .. أرمن كافر ». صاروا يهجّرونهم من قراهم بكل وحشية. فيموت اكثرهم جوعاً، ويتكفل رصاص حاميات الطريق بعدد كبير من الباقين. وحين يصلون لبنان أو سوريا، وبعضهم الى مصر، يقاسون آلام الفاقة والغُربة، وقد يقضي الجوع على الضعاف منهم. لقد شتتهم الأتراك بكل فظاعة ووحشية، وعاملوهم بطريقة اقرب الى ما كانوا يعاملون به قبيلة عدوّة وهم في مواطن وحشيتهم في أواسط آسيا. وللأرمن حتى الآن، قضية لم تحل، شأنهم في ذلك شأن الأكراد في الشرق الأوسط.

الجوع .. والمرض.

ونتيجة لمختلف عوامل التأخر الذي أشرنا اليه، مضافاً اليها حصار السواحل الذي تقوم به أساطيل الحلفاء، ثم سوء نظام الادارة – انتشر الجوع في البلاد العربية على الخصوص، والدولة العثمانية على العموم.

لقد غدا بعض الناس ينقُب الشعير من روث خيول العسكر كي يجففه ويطحنه، وأكل لحم الحمير والكلاب، وحتى لحم الأطفال احياناً. ولهذا انتشر السلّ، وفتكت الأمراض بالأطفال خاصة .. ورأى الناس غمّة ما بعدها غمة. وإني لأعرف عجوزاً لا تزال حيّة ترزق حدّثتني: « لقد زوّجني ابي في بلدكم بعد ان اعطاه (الزوج) ... صاع

* راجع كتاب « يقظة العرب » لجورج انطونيوس في هذا البحث.

قمح . وقد ساقني ابي الى بلدكم وعمري ١٤ سنة .. وكنت حافية .. وعليّ جلاّبية زرقاء خيّطتها لي امي في تلك الليلة على ضوء سراج .. وظلّت تبكي ، لا لأني سأفارقها ، بل لأن الجلاّبية هي اثر من اخي الذي راح في حرب اليمن .. وما رجع » .

• • •

مما سبق نقول : كانت البلاد العربية ناقمة على العثمانين فهي في مخاض ثورة . وكان الجيش التركي ايضاً ناقماً على حكومته فهو على وشك تمرد وانقلاب .

وما دمنا قد أتينا على سوء الأحوال الاجتماعيـــة في كل من الدولة العثمانية وروسيا والمانيا ، بعد ان انهكتها الحرب طيلة عامين ، فإننا نكتفي بالاشارات الكثيرة العابرة عن الاوضاع المقابلة لهذه في كل من فرنسا وبريطانيا .

وهذا ما يجعلنا ننتقل رأساً الى احداث ١٩١٦ فنقول :

حلفاء .. ولكن لا تحالف !

قد يظن القارىء ، ومعه كل الحق ، ان دول الحلفاء الأربع كانت على اتصال وثيق فيما بينها اثناء الحرب . ومثلها دول الوسط . والواقع ان هذا الظن لا يستند الى اساس . فقد كانت كلمة « الحلفاء » لا تعني اكثر من « المشتركين في القتال » . كانت خطط كلٍ من هذه الدول تسير في فلك محدّد لها لا يتأثر بخطط الدولة الأخرى . فسياسة فرنسا مثلاً ، لا ترتبط اي ارتباط ، اللهم الا الحذّر والريبة ، بسياسة روسيا . ومثل ذلك بريطانيا وايطاليا .

وحتى تبـــادلُ المعلومات التي تحصل عليها دوائر الاستخبارات في دولة لم تكن لتُفضح امام الحليفات . أما تنسيق حركات الجيوش وتقرير تسليحها وامكانياتها ، فقد يكون الى حدٍ ما معقولاً بين الجيش البريطاني

والجيوش الفرنسية تحت قيادة جوفر . لكنه معدوم تماماً بين الجيوش الايطالية والجيوش الروسية مثلاً ، مع ان العدو المشترك هو النمسا .

ليست هذه طريق النصر

وقد لاحظ الحلفاء جميعاً ان هذا الأمر لن يؤدي الى طريق النصر ، فقرروا تنسيق خططهم لهذه السنة (١٩١٦) . ولذا عُقد اجتماع عام حضره مندوبون كبار عن هيئات اركان الحرب لجميع الدول المتحالفة . وكان ذلك في ٦ كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩١٥ .

وقد تمكن هذا الاجتماع من تحديد استراتيجية عامة لجميع نشاطات العام القادم ، وعلى الجبهات الثلاث : الغربية ، والشرقية ، والجبهة الايطالية . لكن التنفيذ كان هو المشكلة . فالقليل جداً من اهداف هذه الاستراتيجية العامة هو الذي برز الى حيز العمل .

سبب التعويق

اما السبب في ذلك فيمكن تقديره : لقد عجز الايطاليون عن القيام بهجوم ناجح يكون له أثر في تحويل بعض القوات الألمانية الى الجبهة النمساوية . كما ان الروس أخذوا يميلون أكثر فأكثر الى تبنّي الخطط الطويلة الأجل .

وهكذا ظل جوفر في الميدان الغربي مضطرباً ، وان كانت استراتيجيته تكاد تكون ثابتة . ومع جوفر كانت الجيوش البريطانية . وهكذا غدت الجبهة الغربية الآن ، مرة اخرى ، هي مركز الدائرة في الحرب ، سواء عند الألمان او الحلفاء .

جوفر .. وهايغ وفرق عديدة

وفي ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٥ ، اجتمع جوفر بالجنرال هايغ ، الذي كان قد اصبح قائداً أعلى للقوات البريطانية العاملة في فرنسا ،

بعد سحب السير جون فرنش . وكان هايغ قد انقلب على نظرياته السابقة والتي انتقد فرنش من جرائها . لقد غدا يؤمن بجدوى « خطة الهجوم » . وبخاصة ان قواته كانت ٣٨ فرقة في مطلع سنة ١٩١٦ . وكان لدى الفرنسيين ٩٥ فرقة ، ولدى متطوعي البلجيكيين ٦ فرق . فيكون المجموع ١٣٩ فرقة مقابل ١١٧ فرقة للألمان . وفي تموز (يوليو) من سنة ١٩١٦ وصلت الى الميدان ١٩ فرقة بريطانية جديدة ، فازدادت اهمية الجيش البريطاني في الميدان .

خطة هايغ

وكان لدى الجنرال هايغ خطة حربية جديرة بالتأمل . فهو يرى من الأفضل ان يهاجم الحلفاء القوات الألمانية في بلجيكا اولاً ، ثم من هناك ينعطفون الى الجنوب فيقابلون قلب الجيش الألماني في الوسط . والحكمة في هذه الخطة ان جناح الألمان موجود في بلجيكا ، وان ذلك الجناح كان اضعف من القلب المنيع . لكن جوفر رفض هذه الخطة حين عُرضت عليه . وطبيعي انه قدّم اسباباً عسكرية لهذا الرفض . اما السبب الحقيقي فكان ما يلي :

كان جوفر يرى ان الانكليز ليسوا أهلاً للثقة بهم في القتال . وكان يعتقد ان اي ميدان يقومون فيه بالعمليات الحربية ، لوحدهم ، لن تكون نتيجته الا الخسارة ، وتوسيع الرقعة الخاضعة للألمان من اراضي فرنسا . إنه يصرّ على ان يقاتل الانكليز تحت قيادته ، ومع القوات الفرنسية ، وفي هجوم مشترك .

« هنا على الانكليز ان يقاتلوا ! »

ولما كانت خطوط دفاع القوات الانكليزية والفرنسية تلتقي في « السوم » فقد اشار جوفر الى هـذا الموقع وقال : « هنا ، على الانكليز ان يقاتلوا » . والحق ، ان اختيار السوم كنقطة لهجوم مركّز كان امراً

يدعو الى الغرابة . فحتى لو تم النصر هناك للحلفاء ، أيّ موقع حربيّ هام يحصلون عليه ! لا شيء . اذ ان فقدان تلك المنطقة ، وفي ذلك الموقف الحربي على الخصوص ، يقوّي الألمان ولا يضعفهم . فبدون « السوم » تغدو خطوط الدفاع الألمانية أقصر ، وتصبح جبهتهم اكثر عمقاً ، لأنهم يرتدّون الى خطوط مواصلاتهم الأصلية ، ويقتربون من خطوط تموينهم ايضاً .

اذن ، لماذا اختار جوفر هذا الموقع ؟

لمجرد ان يُجبر البريطانيين على « القتال الحامي » كما كان يقول .

خضوع هايغ وتحديد الهجوم

كان هايـغ يعرف هذا عن جوفر ، ولكنه خضع لتعليماته بأمر من كتشنر . وكان جوفر وهايغ يظنان ان الوقت في صالحهما ، ولهذا حدّدا موعد الهجوم في منتصف العام ، حيث يكون البريطانيون قد تلقوا تدريباً كافياً ، ويكون الفرنسيون قد أعدّوا امدادات كبيرة اذا دعت الحاجة . وكان المقرر حسب الخطة ان تقوم ٤٠ فرقة فرنسية بالهجوم على جنوب السوم ، بينما تقوم ٢٥ فرقة انكليزية بالهجوم على شمـاله . اما تكتيك الهجوم نفسه فقد خُطط على ثلاث مراحل :

الأولى : ان يتم قصف ثقيل ومركّز بالمدفعيـة على خنادق الألمان وربااياهم ومواقعهم الأمامية .

والثانية : حين يتم تدمير هذه الخنادق تدميراً تاماً ، يتقـدم المشاة للاشتباك مع عدوهم بالسلاح الأبيض ، فيطردون الألمان .

والثالثة : حين يتقدم المشاة المهاجمون ، يخلّفون وراءهم جيوباً في حاجة الى التطهير . وهذه الجيوب يتكفل بها الخيّالة ، الذين عليهم ان يتعقبوا الألمان المدحورين ، بغية القتل ، لا الأسر ، ولا الاحتلال .

ان على هؤلاء الخيالة مجرد ان يقتلوا.. فليستعملوا سيوفهم الطويلة جيداً .
هذا هو المجرى الوهمي لمسير المعركة كما رسمه جوفر وهايغ ..؟

هل ينجح التخطيط ؟

يقول جوفر « انه سينجح .. لأن الألمـــان المعتدين على عزة فرنسا يستحقون ذلك » * ويقول هايغ « انه قد ينجح.. لأن جوفر يرى امكانية نجاحه . » لكن رأي جوفر وهايغ ليس الا طرفاً واحداً ، فلنرَ مـــا يقول فولكنهاين . فالرجل حين ينطق لا يقول هراء .

انه يقول : « اذا كان الانكليز والفرنسيون يودون الانتظار حتى اواسط العام فإن الجنود الالمان يكرهون التململ دون الحركة . ولهذا فإننا سنتحرك قبلهم ونُفسد عليهم خطتهم بكاملها . »

وهذا ما حدث فعلاً . فقد نطق فولكنهاين .. وصمت جوفر وهايغ.. ولكن اي نوع من النطق يا تُرى ! انه معركة فردون Verdun .

استراتيجية القوى

قبل ان نتحدث عن المعارك الطاحنة التي نشبت حـــول فردون — الالمان يريدون اقتحـــامها وبيتان من داخلها قد صمم على مقالته « لن يمروا » — يجدر بنا ان نعرف شيئاً عن استراتيجية القوة المهاجمة ، والموقع الذي سيقع عليه الهجوم . وسنأتي على الاستراتيجية اولاً :

امامنا الآن فولكنهاين في غرفة القيادة السرية . وامامه خارطة تفصيلية منشورة على عرض الجدار ، وعليها دبابيس وازرار حمراء ، تبيّن المواقع ونسبة القوات . وها هو يشير باصبعه الى فردون قائلاً :

« هنا تتحطم الكبرياء الفرنسية . وهنا تنهار معنوية فرنسا » . ثم يلتفت الى ضابط كبير من اركان القيادة فيقول : « اذن ، سوف نذلّ فرنسا في فردون » .

---

* اي ان الاسباب عاطفية فقط .

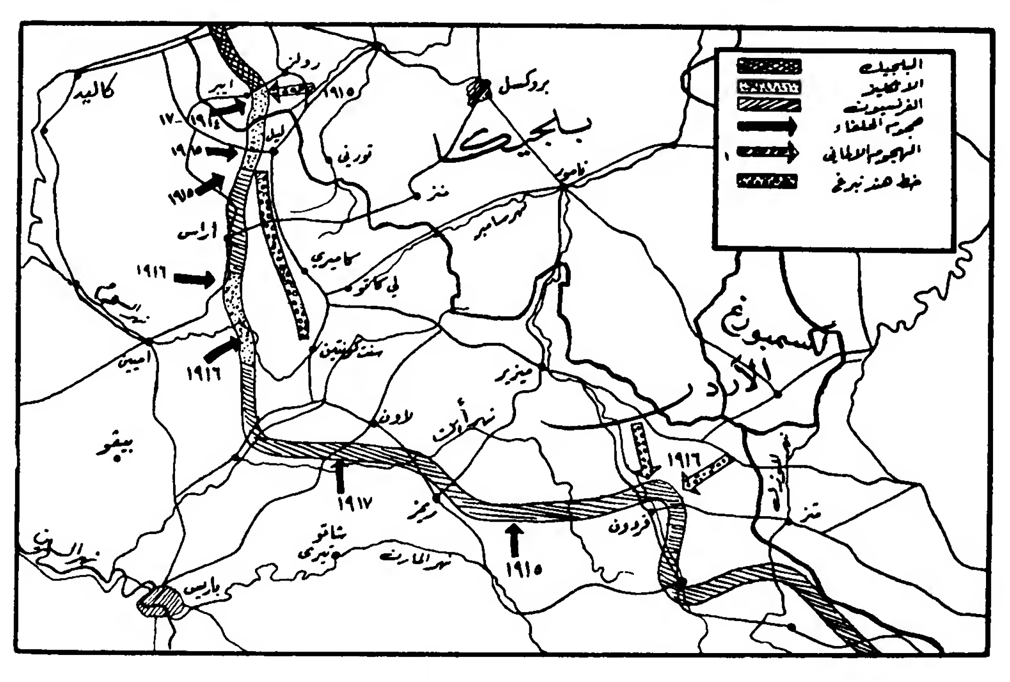
ان هناك سراً . فما هو؟هل هو ارتداد فولكنهاين الى الجبهة الغربية ابتعاداً من منافسة هندنبرغ ولدندورف له في الجبهة الروسية ؟ هل هو الانصراف من غليوم عنه ، فالجنرال يود تذكير مليكه بدوره الفعال ونجاحه الباهر في الحفاظ على النمسا وسحق صربيا ، وتمزيق الروس ؟! لسنا ندري ، ولكنا نعلم ان فولكنهاين الآن يبدو ناشطاً في الجبهة الغربية ، وفي فردون على التحديد ، وبعد ان رسم استراتيجية نود ان نشرحها ..

كان فولكنهاين يفكر على النحو التالي :

« يا سيدي القيصر ، ان عدونا الرئيسي هو بريطانيا ، وهي قوة بحرية اكثر منها برية ، ولذا يجب تدميرها عن طريق البحر . ان سلاحنا لذلك هو الغواصات ، فيجب ان نغرق اسطولها بكامله او قسماً كبيراً منه على الأقل . لكن غواصاتنا ليست كافية الآن من حيث العدد ، كما ان الدول المحايدة ، وبخاصة هذه الـ « اميركا » تظل تزعجنا ، تارة بالاحتجاج ، وثانية بعدم بيعنا ما نطلب . اذن ، فيجب اتخاذ سلاح فعال آخر . انه فرنسا ، فأنتم تعرفون يا سيدي القيصر ان فرنسا — جوفر هذه هي الحليف الاكبر الفعال في القارة (الاوروبية) لبريطانيا ، فلو استطعنا ان نجعلها تجثو مهدّمة منهارة ، لصار في وسعنا فرض شروط الصلح التي نبغي . وبانهيار فرنسا ، تنهار بريطانيا بالتأكيد . ولي بصدد ذلك خطة رسمتها ، هي :

في اي اصطدام حربي وقع بيننا وبين الفرنسيين في جبهتهم ، كانت الخسائر التي كبدناهم اياها فادحة جداً .

انهم الآن يعانون نقصاً في الرجال ، وتدهوراً في المعنوية . وقد اسقطوا وزارتهم لتكرر الخيبة في الميدان .. وهذا يساعدنا كثيراً . فالفرنسيون الآن في اضطراب مرير . ان نفسية شعبهم متوترة تكاد ان تنكسر ، فلو اخترنا موقعاً يعتبرونه رمزاً لعزتهم القومية ، وهاجمناه بعنف حتى نستولي عليه ، لأنتج ذلك فوضى في البلاد ، اكاد احتم معها ان تنهار



خريطة الجبهة الغربية
ما بين اول سنه ١٩١٥ واول سنة ١٩١٧

الحكومة والجيش . وحينئذ نجد امامنا الفرصة السانحة ... فنغتنمها .

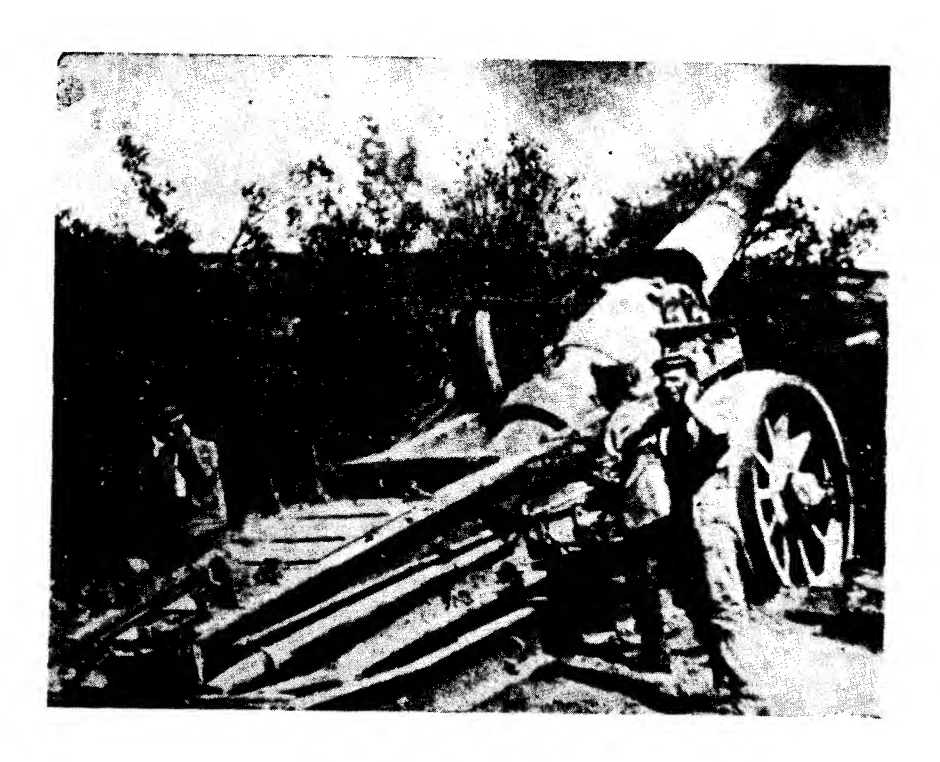
وقد عثرت على الموقع المنشود في فردون . »

ومع ان هذا الكلام موضوع على لسان فولكنهاين ، فالواقع انه الحقيقة مجردة . فهذه هي الاستراتيجية التي انطلق منها القائد الكبير . اما المعلومات التي يتضمنها الكلام ، فهي مستقاة من أدق تقارير الاستخبارات العسكرية الألمانية الناشطة في فرنسا .

* * *

ها قد فرغنا من وجهة نظر فولكنهاين فلننتقل الى وجهة نظرجوفر . لنتصوره يقول لجنرال سأله عن فردون واحتمال هجوم الألمان عليها:

« اسمع يا عزيزي الجنرال .. انت تعلم ان قلاع فردون



مدفع الماني جبار اشترك « طاقمه » من الجنود في قصف « فردون »

عديمة النفع من حيث الأهمية العسكرية في خط الجبهة الحالي نعم ، انها قلعة ضخمة مشرفة على ممر ، ولكن ما هو المجال الذي ينتفع به مهاجموها حتى لو سقطت في ايديهم ؟ انها ليست ذات موقع استراتيجي لا في المنطقة المحيطة بها ، ولا من اجل تحركات جيوشنا حين تهاجم العدو ، فيما بعد .

ولهذا فقد جردتها من المدفعية ، وابقيت فيها حامية اقرب الى الرمز منها الى القوة العسكرية المصادمة . وارجو ان تكون مقتنعاً بهذا الرأي . اما اذا عرضت لي ان الشعب لا يزال يعتبرها قلعة حصينة ، ويتخذها رمزاً لمجد فرنسا العسكري ، فأنا اقول لك : ولهذا تراك جنرالاً ، وتراهم من الرعاع . انهم يستثارون بالعاطفة ، اما انت فتفكيرك العسكري يربأ بك ان تنحو نحوهم . ولو كانوا يفقهون المناقشة في الأصول العسكرية لكفاهم حجة ان قلعتي «لييج ونامور» في بلجيكا ، سقطتا بيد المهاجمين الألمان بعد وقت قصير من القصف ثم الحصار » .

وكل هذا ما كان يعتقد به جوفر بالفعل . حتى انه حين سأله الجنرال غالياني ، الذي كان قد عين وزيراً للدفاع ، عن صدق الرواية في ان فردون مجردة من مدفعيتها ، قال له :

« اعطني اسماء المخبرين كي اعاقبهم ، لأنهم يتدخلون فيما لا يعنيهم من اسرار الجيش العسكرية ، ولغرض خبيث »

بهذا يمكن القول ان تحذيراً كافياً كان لدى جوفر عن قرب هجوم الالمان على فردون . واكثر من ذلك ، يمكن الجزم بأن الألمان هم الذين سعوا الى ايصال هذه الاخبار الى دوائر الاستخبارات الفرنسية . ومع كل هذا لم يهتم جوفر .

حتى اذا كان صباح ٢١ شباط (فبراير) سنة ١٩١٦ انفجرت القنبلة الأولى من مدفع عيار ١٥ إنش في داخل قلعة فردون. وكانت



حالة الجنود الفرنسيين المحصورين في فردون ، البائسة

تلك القنبلة بداية الهجوم ، كما كان القصف الثقيل هذه المرة سمة مميزة للحرب في سنة ١٩١٦ بكاملها .

لقد انصبت على خط الخنادق الفرنسي حمم من القنابل لم يسبق ان رأت اي حرب في العالم مثيلاً لها . وبدأ الخط الفرنسي يتضعضع . ها هم الجنود يغادرون خنادقهم في إعصار من الغبار الذي اثارته القنابل الساقطة امامهم على بعد بضعة امتار . وها هو بعضهم يرتفع في الجو مع الشظايا .. وها هم آخرون وبطونهم مبقورة ، وسوقهم مبتورة والاسعاف عاجز عن الوصول اليهم او يتخطفه الموت .

كل هذه النار المندلعة في فردون ، وجوفر يصر على القول : «ان هذا الهجوم للتغطية والتمويه ، وسيضرب الألمان ضربتهم في مكان آخر

ولهذا لن ارسل الى فردون الا إمداداً قليلاً . »

ثم يضيف :

« وهل اسمح لسقوط قلعة عتيقة ان تتدخل في خطتي الكبرى المرسومة بصدد الهجوم في « السوم ؟ » كلا ، لن افعل » .

برايان .. جوفر
انتم جبناء !!

واذا كان جوفر متين الأعصاب كجنرال كبير ، فان اعصاب برايان وهو السياسي المدني ، سرعان ما خارت . لهذا هرول رئيس الوزارة الى مقر جوفر مستصرخاً . وكان برايان قد حمى جوفر في السابق ضد كل انتقاد وجهه اليه الساسة المدنيون ، فهو والحال هذه ذو فضل وصاحب دالة عليه .

الا انه الآن لا يذهب ليتقاضى اجر فضله وإنما ليوجه الى جوفر انذاراً اخيراً . وقد وجده نائماً ، فأصر على ايقاظه في التو . وفي



الفرنسيون في قلعة فردون

انتظار ذلك راح يسلق بلسانه الجنرالات الذين وجدهم في المقرّ حين بينوا له ان لا أهمية عسكرية لِـ « فردون » ، حتّى ولـو سقطت وصاح في وجههم :

« انكم لن تعتبروا سقوطها هزيمة لفرنسا ، ولكن اي انسان في فرنسا يعتبره كذلك . اعلموا انها لو سقطت لكنتم ، جبناء ، جبناء ، وانذالاً ، وسأعمل بنفسي على وصمكم بالعار . »

وعجب الجنرالات من رئيس الوزراء المعروف برقـة لسانه كيـف يتهجم عليهم ، ولكنهم لم يجيبوا على ذلك بمثله .

لن نتراجع !

وحين افاق جوفر ، فتح عينيه نصف المغمضتين وقال : «ان رئيس الوزراء على حق . وانا اوافقه على رأيه . لن نتراجع في فردون ، بل نحارب حتّى الرمق الأخير » .

وُذهل الجنرالات من هذا الانقلاب الطارىء في عقلية جوفر ، فناقشوه. الا ان برايان تدخل ثانية ، فاتخذ جوفر قراره .. وكان قراراً خاطئاً. وهكذا نصب فولكنهاين للفرنسيين فخاً كبيراً ، وها هم يقعون فيه .

بداية مجد بيتان

ولقد فتش جوفر عن قائد فرنسي خبير بالدفاع يعهد اليه بهذه المهمة في فردون ، فوجده في شخص بيتان . فكـــانت فردون اساس مجد بيتان العسكري الذي رفعه الى رتبة مارشال ، ثم الى رئيس الجمهورية في حكومة فيشي ، اثناء الاحتلال النازي لفرنسا في الحرب العالمية الثانية.

المعركة – استعداد

حين بدأ الاستعداد للمعركة ، ضرب الالمان بجميع الخبرة التي اكتسبوها



المارشال بيتان (على الدرجة) ومعه الجنرالات الفرنسيون في موقعة فردون

من معارك الحرب الكبرى ، عرض الحائط . ففي الاسبوع الأول من شباط (فبراير) ركزوا مدافعهم الثقيلة وراء خطوطهم ، ورصوا المدافع الخفيفة الى جانبها ، بارزة على ظهر الارض دون إخفاء .

وكان هذا بفعل الغرور ، فقد ظنوا ان مدافع « سكودا » النمساوية الثقيلة من عيار « ١٥ انش » لن تبقي من قلاع فردون وخطوط دفاعها شيئاً . وكان لديهم ٤٥٠ مدفعاً ثقيلاً و ١٤٠٠ مدفع خفيف .

كان الهجوم مقرراً ان يحدث في ١٣ من نفس الشهر . ولكن ظروفاً معينة، اهمها سوء الاحوال الجوية، اضطرت القيادة الى تأجيله حتى ٢١ منه . وقد استفاد الفرنسيون من هذا التأجيل بطريقة مثلى .. وهي :

تبعد فردون عن السكك الحديدية الالمانية ١٢ ميـلاً ، ولذلك فمن السهل ايصال الذخائر والجنود الى القوات الالمانية التي تهاجم فيها. ومن السهل توفير المؤن والمواد الطبية ، بل وتأمين الترفيه للجنود . وهـذا بخلاف حال القوات المدافعة ، فليس للفرنسيين الا طريق واحد يصلح لسير العربات ويربط بين فردون وبين الخطوط الفرنسية . وحتى هذا الطريق البري ، الذي يتعطل المرور فيه اذا ما انفجر دولاب سيـارة لوري وتوقفت ، كان واقعاً في مرمى نار الالمان ، بمدفعيتهم وقناصتهم. أضف الى ذلك ان السير على هذا الطريق كان غير منظم البتة . وفي تأخر هجوم الالمان نظمه الفرنسيون ، بحيث جلبوا سيارات شحن كافية لنقل ٩٠ الف رجل و ٥٠ الف طن عتاد كما تبين فيما بعد .

الهجوم .. القصف

في ٢١ شباط (فبراير) انطلقت اول قنبلة كبيرة من مدفع الماني ثقيل ، وانفجرت في ساحة كاتدرائية فردون ، مؤذنة بابتداء الهجوم . ثم عقب ذلك سيل من الحمم الملتهبـة كانت تقع هنا وهناك على خط الدفاع الفرنسي الأول فتنسفه نسفاً . وكانت خطة القصف المدفعي تتلخص في كلمتين : « قصف ثقيل وتدمير شامل » . لهذا نرى مليوني قنبلة تنصب في يوم واحد . اما الهدف من وراء هذه الغزارة والتركيز فهو أخذ الفرنسيين المدافعين بالرهبة وتحطيم معنوياتهم او امكانيةَ صمودهم في الموقع .

وبالفعل صارت الارض امام خط الدفاع الأول وخلفه لا تعدو حفراً عميقة وشبه أخاديد ، حتى يمكن اعتبارها ارضاً محروقة لا تصلح للدفاع عنها . ومن حسن حظ الفرنسيين ان قوات ضئيلة من جنودهم كانت

في ذلك الخط ، فأبيدت تقريباً . ولو كان فيه «قلب دفاعهم» لسقطت فردون في ذلك اليوم

المشاة والمقاومة !
١١٧ من ١٢٠٠

وبعد هذا القصف الشديد ، تقدم المشاة الألمان على شكل دوريات استكشافية تحمل قنابل يدوية للتطهير ، وكان من خلفهم صفوف متراصة من الجنود الألمان للاحتلال . والواقع ان مقاومة الفرنسيين في هذا اليوم كانت باسلة جداً ، بل ومستميتة ، ولكن الالمان استطاعوا التقدم واحتلال الارض الحرام بين مواقع الخطوط العسكرية في السابق ، كما وصلوا حدود الغابة الكثيفة التي كانت المدافع الفرنسية مختفية بين اشجارها.

وكان من نتيجة المعركة ان اخلى الفرنسيون قرية محصنة وانسحبوا منها بقوةٍ قدرها ٧ ضباط و ١١٠ جنود ظلوا احياء من كتيبة كاملة كان عددُ افرادها ١٢٠٠ رجلٍ من قبل .

لا تسلموا شبراً من الارض !

وفي اليوم التالي حاول الفرنسيون القيام بهجوم معاكس ، وأمرت القيادة العامة بذلك ، الا انها ألغت هذا الأمر نتيجة الإعياء الذي كان جنودها يعانونه .

وفي صباح ٢٣ شباط (فبراير) شدّد الالمان هجومهم ، وركزوا نيرانهم المحرقة بشكل عنيف ، وواجههم الفرنسيون في قرية «ساموغنو» بكل ضراوة ، وبالسلاح الأبيض .. الا ان التكتيك الالماني استطاع ان يحرز النصر . ولكن بخسارة في الارواح تكاد لا يتصورها عقل .

لقد كان الفرنسيون يقومون بهجوم معاكس محاولين استخلاص كل شبر من الارض يقع في ايدي عدوهم . وطبيعي ان خسائر الفرنسيين

كانت بالغة جداً . كانت الحصون تقع في يد الألمان كل يوم ، ولكن المقاومة الباسلة والقتال المستميت يردّانهم عما كسبوه في ذلك النهار .

بيتان وتنظيم المواصلات

وفي ٢٦ شباط (فبراير) ولى القيادة في فردون ، الجنرال بيتان. وكان هذا عبقرياً في تطبيق نظرية الدفاع ، فنظم المواصلات الى الحصن، وأمّن توفير المؤن والذخيرة . وقد تم له ذلك بفضل طريق وحيدة كانت بيد الفرنسيين ، وان كانت في مرمى نار المدافع الألمانية .

كانت ثلاثة آلاف سيارة شحن تقطع هذه الطريق ذاهبة آيبة كل يوم . وتنصب عليها حمم المدافع الالمانية كل يوم ايضاً . ومع هذا أبقت فردون صامدة .

والى هذا الاجراء يعزو المعلقون العسكريون صمود فردون من ناحية التكتيك . اما من حيث معنوية جنودها ، فهم يقولون «ان الفضل كل الفضل في ذلك لبيتان » .

وكان من حسن حظ القائد الجديد ان انقطع هجوم العدو ما بين ٢٦ شباط (فبراير) و ٥ آذار (مارس) ، إذ انه في هذه المدة استطاع ان يعزز قواته ويخزن من عتاد مدافعه احتياطياً كبيراً .

صمود رغم الجحيم !

وفي ٦ آذار (مارس) استعادت الجبهة نشاطها واخذت مدافع سكودا الشهيرة تنشط في العمل . لقد حرثت الارض حول كل موقع تقصفه، وألهبت الاشجار المجاورة ، وأدت بالكثير من الالمان والفرنسيين الى الاصابة بالصمم . لم تكن هذه مدافع تقذف قنابل من رصاص ، وانما كانت براكين تتفتح فوهاتها عن سيل من الكبريت الحارق المنصهر . فالجحيم يغدو هو الموقع المسلطة عليه ، والحياة تحكم على نفسها بالفناء في

الخندق الذي تقع فيه القنبلة .

ومع هذا .. صمد الفرنسيون . كانت آلامهم عظيمة ، والغيصص التي تجرعوها لا يكاد يطيقها البشر . ان اطرافاً قد قُطعت بالسكاكين العادية .. وبطوناً شقّت لاخراج الشظايا ، بنصلات الامــواس . اما الأيدي المكسورة ، والعيون المقتلَعة والمنتفخة محاجرها بقطن الألحفة او قطع البطانيات المشدودة بسيور من القماش فقد كانت كثيرة .. واما الجثث فكانت منطرحة هنا وهناك وكأنها قطيع من البقر اصابه العطش في احدى الصحاري . كانت هذه الجثث منتفخة شوهاء بتأثير البرد ، وكانت تبدو كاللطخات الزرقاء على بساط الثلج الابيض : اصابعها معقوفة ، واحذية الأقدام منها مهترئة لكثرة ما غاصت في الوحول .. اما بنادق اصحابها فحطَب منتثر على الثلج دون اهتمام ..

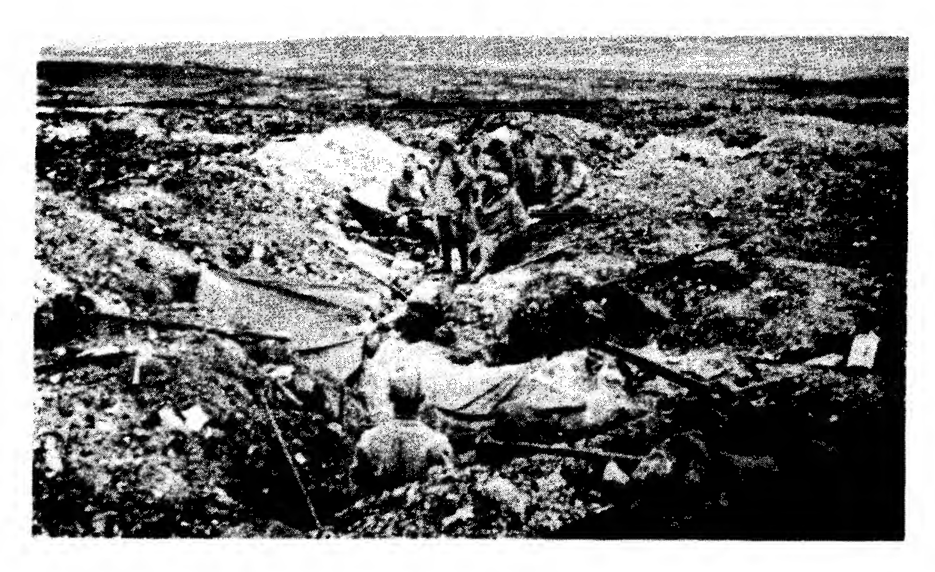
امام حصن « فو » في فردون كانت تبدو نقائض الحياة : الالمان يظنون في موت الفرنسيين حياةً لهم ، والفرنسيون يظنون في موت الالمان لهم كل الحياة .. فما اعجب صراع البقاء والفناء ! واذا كان للانسان ان يضحك في هذا الموقف الرهيب ، فلن تكون ضحكته أقل من انفجار هستيري في اعماق نفسه . ان وحشية الحرب هي وحشيته هو ، فعلى من يضحك ؟!

ورغم هذه الفظائع تقدم الالمان على جثث قتلاهم فاحتلوا قلعة جديدة ، ومن هناك حاولوا التقدم في ٩ آذار (مارس) الى فردون نفسها .. وهنا ايضاً صمد بيتان . وكان مما قاله لجنوده « ان الالمان يودون ان ينالوا عليكم نصراً ، فاحرموهم اياه . » ثم أضاف : « لقــد سبق ورفعت شعار « لن يمروا » وانتم لن تدعوهم يفعلون » .

كان الالمان يقومون بهجوم جديد ، كل يوم على قلعة من قلاع فردون ، فتتقدم صفوفهم بعد ان تكون مدفعيتهم قد دكّت الارض دكاً . وعند تقدمهم تحصد المدافع الفرنسية صفوفهم ، ويظل ضباطهم

يأمرون بالتقدم !! وكان الجندي المتقدم يسحق بحذائه الثقيل رأس رفيقه الجريح الساقط ، وقد يبقر بطنه اذا أعاق ساقه في الحركة .. وبعد ذلك يتقدم .. صفوف مستقيمة متراصة تعوي بصيحة الحرب فيما تهرول وتتعثر هي التي كانت تزحف على القلعة الواحدة . ويستميت الفرنسيون، ولكن التصميم الالماني ينتصر ، فينسحب من تبقى من حامية القلعة .. ولا يكون احدهم سليماً . اما الأسرى وهم الجرحى العاجزون عن الانسحاب ، فكانوا يموتون .. بجراحهم .

على هذا المنوال تمت ما بين ١٠ الى ١٥ من هذا الشهر ٥ محاولات



احد الخنادق التي اكلت لحوم الفرنسيين والالمان ..
لقد تبادلتها الايدي

وسقطت ٥ حصون صغيرة ، استرد الفرنسيون اثنين منها . وبدا ان الالمان في طريقهم الى النصر النهائي . هكذا ظنوا حين قاموا بهجوم عام شامل في ٢٠ آذار (مارس) فاضطر بيتان الى الانسحاب من امامهم . ولكن فردون لم تسقط . وظلت المعركة على هذا التناوب حتى يوم ٩ نيسان (ابريل) حين زحف ٤٠٠,٠٠٠ الماني على قلعة «مورت هوم » الحصينة ، وتصدت لهم المدفعية الفرنسية الثقيلة فكبدتهم بضعة ألوف ، واجبرتهم على الارتداد .. وكان هذا يوماً محدداً في تاريخ فردون ، وبيتان ، ، والحرب العالمية الاولى . ذلك ان الفرنسيين لم يتقهقروا من بعده ، وان كانت قد سقطت من يدهم بعض القلاع الثانوية الأهمية ، وبعد قتال مرير .

وقد ظل القتال دائراً حول فردون حتى شهر تموز (يوليو) ١٩١٦، حين كسر الانكليز الخط الالماني في الشمال ، فاضطرت القيادة الالمانية الى تخفيف الضغط عن الجبهة في فردون .

اما ضحايا فردون هذه فهي ١٨٠ الف قتيل و ٢٨٠ الف جريح و ٣٠ الف أسير فرنسي ، و ٤٧ الف قتيل و ٢٠٠ الف جريح و ٢٥ الف اسير ألماني .

والآن ، وبعد كل هذه الضحايا والويلات .. ماذا كانت النتيجة ؟

فردون هي قطب معنوي !

ذكرنا في السابق ان فولكنهاين كان يود انهيار معنوية فرنسا عن طريق ضربها في نقطة تعتبرها رمزاً لمجدها العسكري . ونحن على يقين من انه كان يدرك تماماً ان فردون ليست الموقع الاستراتيجي الجدير بكل هذه التضحيات في سبيل الاستيلاء عليه . لكنه وقد بدأت المعركة ، وجد نفسه بين نقيضين مستحيلين :

الأول : ان الالمان صاروا يعتبرون إسقاط فردون محكّـاً لقوتهم

العسكرية ، فهم لن يتخلوا عن ذلك مهما كان الثمن .

والثاني : ان الفرنسيين ايضاً غدوا يعتبرون فردون رمز اعتزاز لهم، فسقوطها معناه زوال مجد بلادهم العسكري . ولذلك فقد صمموا على الدفاع مهما كان الثمن .

فما معنى كل ذلك ؟

معناه ان فردون كانت بؤرة استقطب فيها الصراع بين قوتين، ترى الواحدة منها فيها الموت او النصر . فلو سقطت فردون لانهارت فرنسا تلقائياً ، ولو صمدت فردون لكان ذلك ضربة شبه قاضية على معنوية الالمان .

نقد وتعليق !

هذا ما يراه المؤرخون العاديون . اما المؤرخون العسكريون ، وخبراء الجنرالات فلهم رأي آخر . انهم يقولون :

«ان نجاح معركة او خطة ، او فشلها ، يعتمد على وصولها الغرض الذي أُنشئت من اجله او تقصيرها عن بلوغه . وما دام فولكنهاين قد هدف من خطته استنزاف قوة فرنسا ، ونجح في ذلك ، فإن فولكنهاين هو الذي انتصر » . ثم يضيفون : « وليس يهم ان يكون انتصاره قد تم حتى ولو عن طريق فشله في خطة جانبية له هي احتلال فردون في هذه الحال » .

غير ان للمعلقين الحربيين الأكثر اعتدالاً ، رأياً آخر بهذا الصدد . فهم يرون انه :

« لا يمكن اعتبار استنزاف قوى فرنسا هدفاً سليماً في خطة فولكنهاين. ذلك ان هذا الاستنزاف لم يتم الا باستنزاف قوة المانيا بدورها ايضاً .

ومن غير المعقول ان تكون خطةٌ أدت الى استنزاف قوى صاحبها هي الخطة الحكيمة . ومن غير المعقول كذلك ان يُعتبر صاحب تلك الخطة ناجحاً ، قد بلغ هدفه » .

جوفر يستصرخ حلفاءه :

خلال فترة الصراع المرير حول فردون كان جوفر يصرخ طالباً من الجنرال هايغ ، القائد الأعلى للجيوش البريطانية في فرنسا ، ان ينجده . وذلك بأن يقوم بهجوم مباشر على الجيوش الألمانية المقابلة له ، فيخف الضغط على فردون . لكن هايغ كان يصمّ أذنيه على الدوام . وقد بلغ به عدم الاكتراث بمصير الفرنسيين ان الجواب الاوحد الذي تسلّمه منه جوفر هو : « نتيجة للضغط الحالي ، فإنه يمكن القبول بزيادة طول خط الجبهة البريطانية . اما الهجوم الذي تطلبونه فكل ما نستطيعه بصدده هو ان نقدمه فنجعله في اول شهر تموز (يوليو) بدلاً من كونه في اول شهر آب (اغسطس) . »

تساؤل ..

ويتساءل بعض مؤرخي الحرب الفرنسيين عن سبب هذا التلكؤ ، فيقولون : لماذا كان هايغ ، اي بريطانيا ، لا يهتم بألوف الضحايا الفرنسيين ؟ هل كان هذا كما يزعم المؤرخون البريطانيون ، راجعاً الى ان تدريب القوات البريطانية كان لمّا يزل غير كاف ، او ان عتادها لا زال غير مؤمّن بمقدار معقول ، او ان هنالك سبباً آخر !!

ومن هؤلاء الفرنسيين من يجيب على هذا التساؤل بقوله :

« كانت بريطانيا في قرارة نفسها في هذه الفترة تسعى الى تحقيق هدفٍ مزدوج : احد وجهيه إضعاف الفرنسيين انفسهم ، والثاني اضعاف

الألمان . ونحن نستشهد على ذلك من خطة تقليدية ظلت بريطانيا تتبعها في حربها على الدوام . ومفادها : الحليف القوي خطير تماماً كالعدو القوي ، ولذلك يجب اضعاف الاثنين ما امكن ذلك . »

المغيث يستغيث!

وكما كان جوفر يستصرخ البريطانيين كان يفعل ذلك مع الايطاليين. ووعد هؤلاء بالمساعدة ، فقاموا ببعض هجمات في جبهة اسونزو Isonzo . لكن هذه الهجمات كانت شراً ولعنة . فقد اغتنم كونراد ، القائد الاعلى النمساوي لتلك الجبهة ، الفرصة ، فاخترق الجبهة الايطالية بأن هاجمها من جنوب التيرول . وحينذاك اصبح الايطاليون في حاجة الى من ينجدهم .

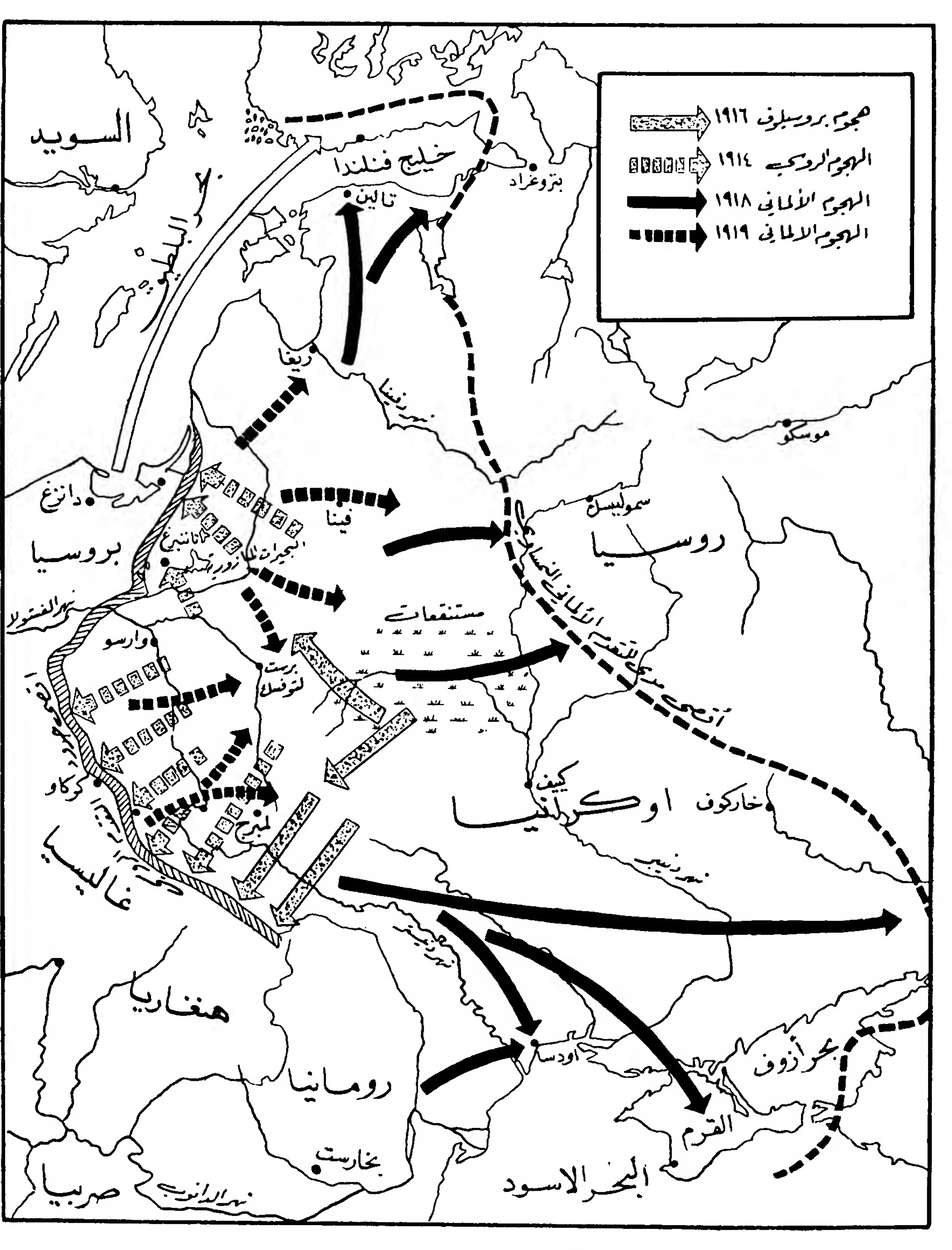
ولو ان كونراد حظي في ١٥ ايار (مايو) ببعض الفرق الالمانية التي كان فولكنهاين يقذف بها في جبهة فردون ، لاستطاع النمساويون ان يسيطروا على سهل نهر البو Poe في شمال ايطاليا ، وهناك يحطمون الجيش الايطالي ، ويمحقونه بحيث يسهل عليهم اخراج ايطاليا من الحرب .

لكنّ من حسن حظ الحلفاء ان ماكينة فردون في تلك الاثناء كانت عجلتها تدور، اذ انه لو خرجت ايطاليا من الحرب (وفي تلك الحال تنقلب على الحلفاء) لسهُل على الجيوش الالمانية ان تفتح للفرنسيين جبهة ثانية من جبال الألب . ولو هبطت تلك الجيوش من هناك ، لما استطاع جنوب فرنسا الصمود امامها على الاطلاق .

ومهما كان الحال ، فانه في الوقت الذي كان جوفر يكاد يختنق من شدة الضغط كان الايطاليون ايضاً يستصرخون المساعدة من الشيطان .

هكذا يرتسم الموقف امامنا :

ان بريطانيا ترفض المساعدة ، وفرنسا تواجه قوة قاهرة ، وايطاليا



خريطة الجبهة الشرقية ١٩١٤ - ١٩١٩

الطرية العود تكاد تهصر خصرها يدا كونراد .. ويبقى روسيا . ان في روسيا المدد الذي تنتظره الجبهة الغربية بكاملها . فلننظر اليها .

من روسيا يأتي المدد ..!

كانت هذه البلاد قد تلقت درساً كافياً سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٥ ، واضطرت جيوشها ، مخذولة تجرجر أذيال خزي القيصر والغراندوق ، الى التقهقر . وكان هذا التقهقر في صالحها كما أسلفنا . فخطوط قتالها الآن أقصر وأقرب الى مناطق التموين ومواقع الاحتياط .

وقد استطاعت (١٩١٦) ان تحوّل الانتاج في بلدها بكامله لصالح المجهود الحربي ، ولديها من الرجال معين لا ينفد . كما ان تسليح جيشها قد تقدم كثيراً عما قبل . وحتى مصانع الذخيرة فيها اصبحت ناشطة تكاد تكفي حاجة جيوشها . لكن فيها ظاهرة عجيبة . فروسيا ، أهراء القمح العالميـــة المعروفة ، تعاني الجوع من قلة القمح . ان الزارعين قد سيقوا الى الميدان بسوط القوزاق .. والشعب ناقم .

وكان للقيادة الروسية خطتها سنة ١٩١٦ ايضاً . فالروس يواجهون عدوّين : النمسا ، وألمانيا ، ولما كان المفهوم الحربي المتفّق عليه آنذاك بصدد الهجوم هو : « اضرب العدو في أقوى النقاط لديه » ، ولمـــا كان الالمان أقوى من النمساويين ، فقد قررت القيـــادة الروسية القيام بهجوم على الجيوش الالمانية .

الخطة

وكان مجمل خطة هذا الهجوم هي : جيش روسي يهاجم القطعات الحربية المعادية في الشمال ، وآخر يهاجمها في الوسط باتجاه وارسو .

وهكذا ، تم تحضير الهجومين حسب معايير الحرب العالمية الأولى ، وبجميع الأخطاء التي يقع فيها جنرالات القيصر . وتتلخص هذه الآن في أمور ثلاثة :

أولها : ان الكَم هو الأهم . ولهذا حشدت القيادة العــامة الروسية جموعاً جرارة من الرجال .

وثانيها : ان القصف المدفعي الثقيل هو الذي يطرد العدو من خنادقه ، ويزحزح المواقع . وهذا ما تم تنفيذه فيما بعد .

وثالثها : (وهو أخطر من الجميع) لن يهمنا العدو .

وانطلاقـاً من هذا المبدأ السخيف وقعت عدة نسخ من تقرير الخطة بكاملها في يد الاستخبارات العسكرية الألمانية .. فاتخذ الالمان الاحتياطات الكافية ، ووضعوا التكتيك الذي يجب تطبيقه لافشال الخطة .

التقدم .. الفشل !

وحين تقدم الجيشان الروسيان في الشمال والوسط ، كان الالمان لهما بالمرصاد . لقد كبدوهما خسائر فادحة في الأرواح ، حتى كانت نسبة القتلى : خمسة من الروس مقابل كل جريح أو قتيل ألماني . ولم يتزحزح الالمان من مواقعهم خطوة واحدة . وبكلمة اخرى : كان الهجوم فاشلاً تماماً ، الا اذا اعتبرنا غرضه ان يتخلص الضباط الروس من جنودهم بفضل رصاص الالمان ! !

ومن جراء ذلك كان جواب الروس حين استغاث بهم الايطاليــون فيما بعد : « اننا لم نسمع استغاثتـكم » ، وان عبروا عن ذلك بطريقة مهذبة ، حين أبلغ وزير الدفاع الايطالي رأي زميله الروسي : « ان جيوشنا غير مستعدة في الوقت الحاضر ، ونحن منهمكون في تحضيرها . »

بروزيلوف

لكن هذا الجواب ما كان ينطبق على قوات الجنرال بروزيلوف في الجنوب . فقد كان هذا الجنرال يشعر بطعنة لكرامته حين لم تعهد له القيادة العامة بالمشاركة في الهجوم الفاشل السابق . ولذلك فهو يود ان يجلب الأنظار اليه . لهذا تحرك الآن في ميدانه .



هجوم بروزيلوف الذي قيل عنه :

قهر النمسا ، وقهرته المانيا ، فانتقم من القيصر وأيد تروتسكي .

والواقع ان خطة هذا الجنرال كانت غريبة ، وغير مقبولة في نظر قادة زمانه . فقد أمر بعدم التركيز في قواته ، وانما طلب الى وحداته ان تتبعثر . وطلب الى قادة تلك الوحدات الصغيرة ان يقوم كل واحد

منهم بهجوم محلّي ، وعلى مواقع العدو المقابلة له . كما امرهم ان لا يستعملوا طريقة « القصف المركّز » قبل المعركة ، وانما يباغتون العدو دون تمهيد ويكون جلّ اعتمادهم على السلاح الابيض .

النجاح

وقد نجحت هذه الخطة تمام النجاح ، ذا هاجمت كتائب بروزيلوف الجيوش النمساوية – الهنغارية في اكثر من (٢٠) موضعاً ، واستولت عليها جميعاً . وكان القائد المنتصر يتعقب عدوه المهزوم عميقاً في عرض الجبهة . وفي أقل من (٣) اسابيع ، وقعت في يد الجيوش الروسية مساحات واسعة من الارض ، وحوالي ربع مليون اسير .

وهناك من ينسبون الى هذا الجنرال انه ادرك التحول في طبيعة الحرب آنذاك ، ووعى ان « الحرب الكلاسيكية » قد غدت في حاجة الى تجديد تكتيكها . لكن هناك ايضاً من يقولون ، ان سلوك بروزيلوف هذا المسلك كان اضطرارياً ، ولم ينبع من مقدرة عسكرية خاصة . ويستشهدون على ذلك بتاريخ هذا الجنرال فيما بعد ..

ومهما كان الحال ، فقد ساعدت الانتصارات الجزئية التي احرزها بروزيلوف على التفات فولكنهاين لمساعدة حلفائه النمساويين . وحين ارسل بعض الفرق الالمانيـــة لمواجهة تقدم الروس ، خفّ الضغط قليلاً عن فردون والجبهة الايطالية معاً .

قوات دون احتياط !

كان عيب موقف بروزيلوف انه لا قوات احتياطية لديه ، وانه لم يفكر في ذلك حين نشر جنوده على جبهة طويلة . ومما ساعد في ابراز هذه النقيصة ان خطوط السكك الحديدية في روسيا تمتد من الشرق الى الغرب ، لا من الشمال الى الجنوب ، ومن شأن هذا ان يجعل محاولات إمداد بروزيلوف بقوات احتياطية ، أمراً يتطلب بعض الوقت .

وقد اغتنم فولكنهاين هذه الفرصة . فوجه الى جبهة بروزيلوف بعض الفرق الالمانية الحسنة التدريب والتسلح . حتّى اذا ما اصطدمت بها جيوش بروزيلوف صمدت القوات الالمانية امامها بثبات . ثم انها سرعان ما أخذت تطوق تلك القوى المتناثرة ، وتتخلص من كل جيب منها على حدة . حتّى لقد بلغت الاصابات التي اوقعتها في الجيوش الروسية حوالي مليون إصابة . هذه هي نتائج الهجوم الروسي في « غاليسيا » .



الجنرال بروزيلوف .. جريح في الفراش ، وتعوده زوجته .

تقييم الهجوم

حين يحاول المرء انعام النظر في هجوم بروزيلوف ، يقع على بعض النقاط المثيرة في الموضوع . فكما عرفنا ، لقد نجح بروزيلوف لأنه حطم القواعد المسلّم بها في الحرب الكلاسيكية آنذاك . كما انه اخفق حين رجع الى تلك القواعد . ولو انه استمر متّبعاً عدم التقدّم من نقطة

واحدة ، لكان هذا القائد الآن صاحبَ نظرية عظيمة في اصول الحرب ، هي التي تم تطبيقها على يد الالمان في الحرب العالمية الثانية ، وفي ميدان روسيا بالذات .

بدعة لم تدرس

ومن الغريب حقاً ، ان جنرالات الحلفاء آنذاك لم يدرسوا « بدعة » بروزيلوف هذه دراسة تقديرٍ ، بل اعتبروا فشله الأخير كافياً للحكم عليه وعلى خطته الاولى . غير ان هذا القول لا ينطبق على الجنرالات الالمان . فالحق ان فولكنهاين كان داهية عسكرية ، يرتفع الكثير الكثير عن مستوى خصومه . فبتأثيره طبق الالمان « رأي » بروزيلوف ، المتقدمَ في هجوماتهم على الفرنسيين ١٩١٨ فيما بعد . لكنهم ، لسوء حظهم ، لم ينتفعوا بالعبرة التي ظهرت من فشله ، فوقعوا في نفس الخطأ الذي قضى عليه ، وهو التقدم من نقطة واحدة في الجبهة .

كشف نقاط الضعف

وكان للهجوم الذي قام به بروزيلوف أثر آخر كبير على الحرب العالمية الاولى . فقد بيّن سهولة تحطيم الجيش النمساوي ، وأثبت ان الهنغاريين لم يكونوا يحاربون بروح معنوية تجعل الانتصار عليهم عسيراً . وبمعنى آخر : لقد كشف بروزيلوف ان التناقضات المستترة في امبراطورية النمسا — المجر ، كفيلة بانهيارها عما قريب .

واذا كان بروزيلوف قد ابرز نقاط الضعف في امبراطورية متعددة القوميات ، اخذة في التفكك هي امبراطورية النمسا .. فقد فعل مثل ذلك تجاه قيصرية بلاده ايضاً . ولهذا يُقال : « ان هجوم بروزيلوف في غاليسيا قد حطم آل هابسبورغ وآل رومانوف معاً . » وهذا صحيح .

وقد بيّنا كيف تم أثر ذلك في آل هابسبورغ ، اما بالنسبة لآل رومانوف ، فإن بروزيلوف لم ينسَ ان القيصر وقيادته هما اللذان سلباه



تروتسكي ، متطرف كان يريد القيام بثورة عالمية
بعد نجاح الانقلاب البلشفي في روسيا ، ومنظم جيوش قدير .

مجده العسكري ، حين أخفقا في امداده بما طلب . ولذلك نراه لا يغفر للقيصر جنايته عليه . فما ان هبّت الثورة البلشفية المعادية للقيصر ١٩١٧ حتّى انضم بروزيلوف مع جيشه الى البلاشفة وغدا يعمل بالتعاون مع تروتسكي بكل سعادة .

الجنرالات الفرنسيون وتقييم حملة بروزيلوف

وينكر الجنرالات الفرنسيون الذين كتبوا عن فردون ، وأخصهم بيتان ،

على بروزيلوف الفضلَ في تخفيف الضغط عن الجبهة الفرنسية . وهم يقولون :

« الواقع ان بُعد نظر فولكنهاين هو صاحب الفضل ، فقد كان ينظر الى قوائم الاصابات التي تقع بين جنـــوده ، ويلاحظ انها آخذة دوماً في الارتفاع . وحينذاك يتألم ويقول : وإلى متى نظل نقذف جنودنا في فردون !! ولهذا كان فولكنهاين قد أوقف توجيه الطوابير الى فردون قبل قيام بروزيلوف بهجومه في غاليسيا بزمن غير قصير » .

بروزيلوف وتقييم الجنرالات الانكليز

لكن دارسي هذه المعارك من العسكريين البريطانيين يخالفون هـــذا الرأي ، وينسبون الى انفسهم والى بروزيلوف فضلاً كبيراً . فهم يقولون :

« ان هجومنا على « السوم » ، ومن قبلُ ، هجوم بروزيلوف في غاليسيا ، هما اللذان مكّنا القوات الفرنسية من الصمود في فردون . ونحن نلاحظ تقدّم الالمان المستمر ، واسقاطهم قلعة او حصناً في كل مرة يقومون فيها بالهجوم تقريباً » .

كل يدعي غير فضله

وهنا يدخل الباحث في باب « النزعات القومية » ، ومحاولات « ادّعاء الفخر » ولو عن طريق مغالطة التاريخ . فالحق ان خفّة الضغط عن فردون قد تمّت قبل ان يقوم البريطانيون بهجومهم على السوم ، ومن قبيل المكابرة ان يدّعوا ما سبق . اما اذا قالوا : ان استعداداتهم لذلك الهجوم قد جعلت الالمان يتحسّبون للموقف ، فيبُقون من قواتهم احتياطياً يكفي — حسب تقديرهم — لصدّ الهجوم المنتظَر ، فهذا صحيح . لكن في صحته مطعناً في القيادة البريطانية . اذ ان معناه ان استخبارات الالمان العسكرية كانت عظيمة الدهاء بحيث نفِذت الى اسرار القيادة الانكليزية . والا ، كيف عرفتْ بالهجوم ، وموعده لمحدّد !!



الجنود البريطانيون يتأهبون للهجوم على تلال « السوم » .

قلنا ان جوفر إبّان معارك فردون كان يلح على هايغ ان يقوم بهجوم عام في مواقعه . وذكرنا ان هايغ وعده بذلك في اول تموز (يوليو) . ولكن ، لا اشتداد القتال في فردون ، ولا وعدُ هايغ لجوفر بالهجوم هو الدافع الحقيقي في الهجوم الجديد . وانما هو اقتناع هايغ بأهمية نقطة يمكن ان تُنهي الحرب اذا تم للحلفاء ان ينتصروا فيها . انها السوم .

لكن هذا الرأي لم يكن يحظى بموافقة السير وليم روبرتسون . وهو كما نعلم ، الرجل الذي اصطفاه اسكويث – ليقلّم اظافر كتشنر عن طريقه ، وجعلَه رئيس هيئة الاركان الامبراطورية . بيد انه ، لما كان هايغ أعلى رتبةً من روبرتسون ، فإن الأخير خضع لنظام الانضباط العسكري ، ولم يشأ ان يقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ الخطة .

وجهة نظر جوفر

اما جوفر ، والذي كان غير مقتنع بسلامة اختيار الموقع ، فقد حبّذ الخطة لغرض واحد . انه : « على البريطانيين ان يدفعوا نصيبهم من القتال كدولة محالفة » . وهو يعني بعبارة « نصيبهم من القتال » ذلك القدر الكبير من الاصابات والخسائر التي تلحق بالجيش المهاجم في العادة ، وبخاصة اذا كان الدفاع من جانب الالمان في خنادقهم المنيعة .

على هذا الاساس تم التخطيط لمعركة السوم ، وبوشر القيام بها في ١ تموز (يوليو) ١٩١٦ . لكننا يجب ان نعرف منطقة القتال وطبيعتها قبل ان نتكلم عن القتال نفسه .

ما هي منطقة السوم ؟

انها مجموعة من التلال والروابي الكثيفة التربة ، يقسمها نهر السوم

الى قسمين ، وبذلك يكون النهر نفسه حاجزاً مائياً يصلح لأن يُتخذ مقدمة لخط دفاع . ومثل ذلك ، قمم التلال التي يجعل منها ارتفاعها نفسه منطقةً يعسُر التقدم فيها على القوة المهاجمة ، كما يجعل المنبسطَ الذي امامها من السهل والوادي ، ارضاً في مرمى نار الخندق المنشأ في القمة . ومُفاد هذا ان منطقةَ السوم تصلح للدفاع اكثر من صلاحيتها للهجوم .

هذا ما كان يعرفه القادة الفرنسيون والبريطانيون . ولكنهم أصروا ، كما اسلفنا ، على خوض المعركة في هذه المنطقة . وكانوا يعتمدون على عوامل ثلاثة تساعدهم :

١ – كثرة العـدد ، فالانكليز لم يدفعوا الجزية اللازمة في مذابح فردون .

٢ – عنصر المباغتة مع التصميم على انتهاز فرصة ارتفاع معنويات المقاتلين الفرنسيين بعد صمود جيوشهم في فردون .

٣ – الاتفاق مع ايطاليا وروسيا بالمساعفة ان امكن .

وكان في ذهن هايغ عامل رابع هو استعمال « الدبابات » كسلاح جديد له فعاليّة ، لا يزال الالمان محرومين من مثيلها .

والآن .. ماذا كان عند الالمان ؟

خنادق عجيبة ! !

كانت الخنادق التي حفروها في السوم عجيبة حقاً ، فهي – والارض كلسيةٌ – عميقة جداً ، ومتصلة ببعضها ، بحيث يسهل نقل المدافع فيها من موقع الى آخر . كما انها بارعة من حيث استعمال « الكاموفلاج » او التمويه ، فقد غُطيت مداخلها بالأشجار ، ونُحتت الأقسام العميقة منها بحيث يسهُل نسفُها وتدميرها ، حتى بعد ان تكون قد سقطت في

يد العدو . كانت الألغام تحيط بمرابض المدافع خوف ان يقترب منها متسللو العدو ، لو تم هجوم الدوريات اثناء الليل . وكانت الاستحكامات مؤلفة احياناً من طابقين ، فيها غرف مريحة ، ومخازن عتاد، ومكاتب للضباط ، وأجنحة لسلاح الاشارات . اما المؤن ، وحتى الكماليات المتعلقة بالترفيه ، فكانت متوفرة في هذه الاستحكامات بقدر كبير . ولو جاز لنا القول ان تلك الاستحكامات كانت « قصوراً حربية الهندسة » ، لقلنا : لقد برع الالمان في السوم في هندسة القصور تحت الارض .

هذا ما كان سيقابل الجنود البريطانيين والفرنسيين الزاحفين على خنادق الالمان في منطقة السوم . اضف الى ذلك براعة التكتيك لدى القيادة الألمانية ، وصلابة الجندي الالماني الغريزية في نفسه حين يرتد الى عرق « قبائل الجرمان » .

في مقر قيادة هايغ

والآن ، لنترك مناعة الخطوط الألمانية ، ولنقطع الأرض الحرام ، فنصل مقر قيادة هايغ. ها نحن الآن في غرفة العمليات السرية في القيادة . غير ان الاوراق كلها مرصوصة على مكتب ، ولا وقت لدينا للاطلاع عليها جميعاً . هذه قصاصة من الورق على الارض .. وها هو عليها خط هايغ الذي نعرفه . وهو يقول :

« يكفينا في اليوم الأول ان نحرز ٤ آلاف ياردة حتى نلتقي بخط الدفاع الالماني الاول . ولدينا الآن ٤٥٠ مدفعاً ثقيلاً سنركز نيرانها عليه . ومن ثم نتقدم. وفي ذات الوقت يكون الفرنسيون قد ضربوا نفس هذا الخط من اليسار . بهذا يتم تطويقه ، فتصدر الاوامر الى الخيالة كي يكتسحوه » .

ومن هنا علينا الآن ان ننتقل الى «شانتلي» ،مقر جوفر ، لنطّلع على رأيه ايضاً . انه يقول :

« في ٢٤ حزيران يبدأ القصف بالمدفعية الثقيلة . ويكون التسديد محكَماً على الجناح الأيسر من خط الدفاع الاول في منطقة السوم . وفي ٢٩ منه يتم الهجوم . ولست اوافق الجنرال هايغ في رأيه، ان يكون الهجوم وقت الفجر ، اذ يكون الالمان وقتذاك قد هيأوا انفسهم لاستقبال يوم آخر كالايام الخمسة السابقة ، وانما ارى ان يتم الهجوم ضحى . وسيكون هذا غير متوقع من قِبل الالمان على الاطلاق . بهذا يتم لجنودنا الاستفادة من عنصر المباغتة وارباك العدو . اما مدفعيتنا فستكون ٨٥٠ مدفعاً ثقيلاً . »

لكن كل هذه التقديرات لم تتحقق في حينها ، فقد اضطر الفرنسيون



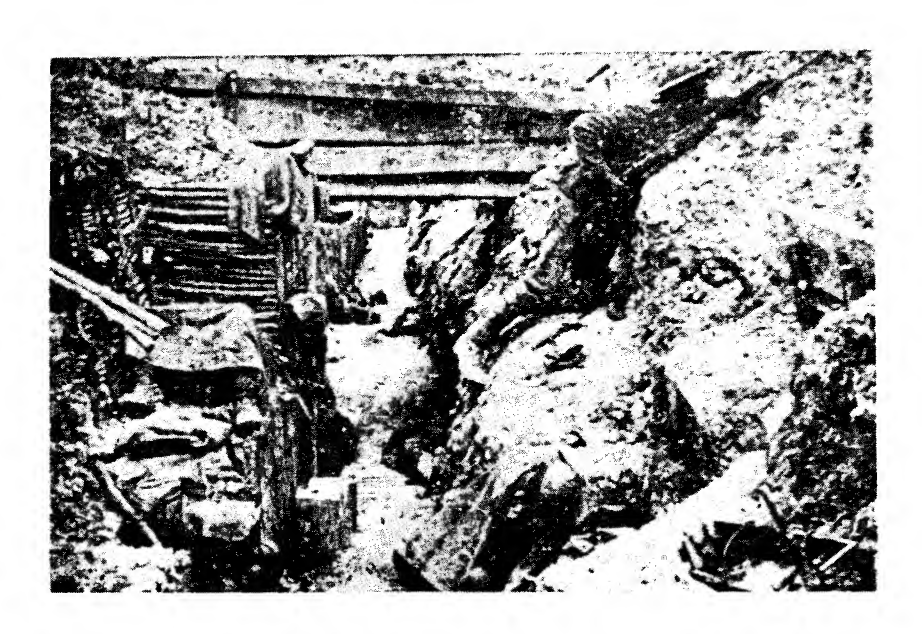
الخيالة البريطانيون ينتظرون ان تفتح المدفعية والمشاة الانكليز ثغرة كي يقوموا بواجبهم في تطهير الجيوب

والانكليز الى تأجيل الهجوم حتى ١ تموز (يوليو) .

معركة السوم

في ١ تموز (يوليو) سنة ١٩١٦ ، ومع عتمة الفجر ، بدأت ٤٥٠ مدفعاً انكليزياً ضخماً ، تهدر ، خالقة زوبعة من النـــار تنصب على خنادق الالمان . لكن هذه لم تتأثر . فقد كان التصويب غير محكم ، والعتاد اقرب الى الفساد . ان كثيراً جداً من القنابل اخطأت الهدف ، والبعض منها انفجر بعد اطلاقه من ماسورة المدفع بقليل . فهل كـــان هناك قضية « اسلحة فاسدة ؟ » .

دعنا من هذا الآن ، وسنعود اليه في المساء . اما في هذه الساعة ،



خندق انكليزي كانت المدفعية الالمانية قد دمرته ..
وها هو الآن خال تقريباً من جنوده بعد تقدمهم مهاجمين الخط الالماني

فلنراقب النار تندلع . ثماني دقائق فقط ظلت تلك المدافع تهدر ، ثم خمدت .

وانقضت الدقائق الثماني .. فخرج الجنود الالمان من الأنفاق ، واتخذوا مراكزهم قدّام مدافعهم ليردّوا تحية الزملاء بمثلها او « بأحسن منها ». لكنهم الآن رأوا شيئاً لم يشهدوه من قبل .. فألوف الخوَذ الفولاذيــة تتحرك في خنادق الاعداء . هناك لغَط ، وهناك حركة . وهي ليست استبدال فرقة بفرقة تتلسم حراسة الخنادق . الأمر اعظم من ذلك بكثير .

ان هناك هجوماً .

اذن ، فليتلقّوا الاوامر من ضباطهم .

وجاء الأمر ، وكان : « على كل مدفعي ان يجهز « طاقم » مدفعه كاملاً . العتاد غير محدود . تبادلوا التلقيم . انتظروا الاوامر . »

وهكذا جُنّ شيطان رجال المدفعية الألمـان .. ووقفـوا مستعدين . وفجأة ، تحركت جموع هائلة من البشر ، تعوي في نشيدها « ليحفظ الله الملك » ، وتتقدم في صفوف متراصة الخطى اولاً ، ثم منسجمة الهرولة ، فيما بعد .

النار.. سريعاً ، إرمِ

وحينذاك صدر امر ضباط الألمان : « النار ، سريعاً ، إرمِ » .

ومع « إرمِ » هذه ، سقط الصف الاول على طول الجبهة ، من المتقدمين . لقد حصدتهم المدفعية ، وصادهم الرماة . وارتفع صراخ من نفذ في صدورهم الرصاص . ومعه ارتفعت اللعنـات تنصبّ على الالمان ، والانكليز ، والدنيا ، والشيطان .. كان الجرحى ينزفون ارواحهم، فلا لوم عليهم حتّى لو جدفوا على الله !

وتقدم الصف الثاني ، ولم يعتبر ، فحصده الرصاص ايضاً ، ووقع.

ثم تبعه ثالث ورابع وعشرة وعشرون .. والالمان يحصدونهم من مواقعهم الحصينة .

ولما كانت منطقة السوم تشمل اكثر من خندق واحد ، او قرية واحدة ، فقد كان هنالك عدة هجومات على مختلف تلك الخنادق والقرى. ومع ان خسائر الانكليز كانت بالغة جداً ، اذ انهم فقدوا ١١,٥٠٠ قتيل في سبيل اسقاط قرية واحدة ، فقد استطاعوا آخر الامر تثبيت اقدامهم في بعض مناطق خط الدفاع الالماني الاول . لكن هذا لا يعني ان خط الدفاع قد سقط .. ذلك ان الالمان كانوا يعوّلون على خطهم الدفاعي الثاني على الدوام .

وهكذا رد الالمان هجوم الانكليز في اليوم الاول . وكان الرد صاعقاً ، اذ ارتفعت نسبة قتلى الانكليز الى (٦٠) الفاً في ١٢ ساعة . فهل هناك ماكينة تحصد مثل هذا العدد من السنابل ، وبمثل هذه السرعة!!

طوبى لوحشية الهون !

ولن نمر بعشية هذا اليوم قبل ان نذكر عملا فظيعاً اقترفه المهندسون الانكليز .. وعملاً ما كان « أتلا » قائد الهون ، يرضى به دون ان يوبخه ضميره . لقد نسفوا قرية فرنسية بكاملها . كانوا قد ظلوا منذ ٧ شهور يحفرون نفقاً تحت قرية فرنسية يساعدهم احتلالها في السيطرة على مجموعة من التلال بيد الالمان . وقد انجزوا ذلك النفق ، ووضعوا فيه شبكة من الالغام جعلوا فيها (٤٠) الف باوند من روح النشادر.. وفي ١ تموز (يوليو) فجروا تلك الالغام . فأبيدت القرية ..

ولن نصف منظر النسف الفظيع ، اذ يكفي ان نقوق : ان الحرب جريمة كبرى ، تتألف من جرائم كبيرة ايضاً .

هذا ما حل بالانكليز في اليوم الاول ، فماذا فعل الفرنسيون ؟

لنرجع الى ما قرأناه في « شانتلي » سابقاً ، فقد اصاب تقدير جوفر . كان الجناح الأيسر من خط الدفاع الالماني هو نقطة الهجوم المزمعة . فأحرقتها الـ ٨٥٠ مدفعاً الفرنسية ، ثم هجم الفرنسيون في وضح النهار ، فاستطاعوا بالمباغتة ، وبعدم الفصل بين اطلاق النار ومباشرة هجوم المشاة ، ان يشلّوا نشاط رجال المدفعية الالمان .. وبذلك تمكنوا من إسقاط المنطقة التي هاجموها بخسائر قليلة جداً . ليس هذا فحسب ، بل انهم اسروا من الالمان ٤٠٠٠ مقاتل . ولا يجوز ان ننسى عاملاً فعّالاً اشرنا اليه من قبل .. لقد كان عتاد المدافع الفرنسية صالحاً تماماً للاستخدام .

* * *

وبهذا تكون حصيلة اليوم الاول من الهجوم .

ا ــ فشل الانكليز مع خسارة ٦٠,٠٠٠ رجل بين قتيل وجريح .

ب ــ نجاح الفرنسيين مع أسر ٤٠٠٠ من الالمان .

ولنعد الآن الى قضية فساد الذخيرة عند هايغ .

ذخيرة فاسدة ولا مفسدون !

حين شكا ضباط المدفعية البريطانيــة من قبلُ ، واحتجوا على ان القنابل التي يجري تزويدهم بها ، قليلة الصلاحية للعمل ، كتب هايغ الى وزير العتاد في لندن ، وهو لويد جورج ، فكان الجواب الذي تلقاه : « ان رجال مدفعيتكم معدومو الخبرة فيودون إلقاء اللوم على نوعيــة العتاد » . لكن الواقع هو ان اضطرار المصانع البريطانية الى تلبية طلبات جيوشها ، والجيش الايطالي ، وارسال بعض الشحنات الى روسيا ــ كل ذلك قد هبط بمستوى التقنيّة فيها . فكان مع الضباط المتذمرين الحق كل الحق في شكاواهم .

وبانقضاء اليوم الاول من شهر تموز (يوليو) وحتى ١٠ منه ، ظل الفرنسيون والانكليز يهاجمون خطوط الدفاع الالمانية كل يوم . وظلوا يحتلون جزءاً جزءاً من تلك الخنادق ، على الرغم من الخسائر البالغة



الجنود البريطانيون يتقدمون الى « السوم » .

التي يعانونها . وزاد الامر شراسة ان فولكنهاين اصدر اوامره لقواته بأن يدافعوا عن مواقعهم شبراً شبراً ، فكانت ضحايا احتلال قرية واحدة تفوق عدد اهل تلك القرية اضعافاً مضاعفة .

تعليق المؤرخين

يرى بعض المؤرخين ان فردون والسوم لم تكونا معركتين بقدر ما كانتا فورة حيوانية دهت العقل البشري بكامله في تلك الايام ، لكنها حطت في اوروبا وحدها . وهم يدللون على ذلك بأن الوحشية التي تمت في كل من المعركتين تنحط بالنوع الانساني بكامله الى درك الحيوان .

ان الوفاً من الأرواح ابتلعها وحل السوم ، والوفاً من الجنود خرجوا

وقد فقدوا قدراتهم العقلية . اما غريزة الاجرام التي يذكر علماء الاجتماع انها اصيلة في تلك المنطقة ، فأساسها تلك المذابح التي يبدو جنكيزخان بالنسبة اليها حـمـلاً وديعاً ، ما اطيبه ! !

كان الخندق الواحد يتبادله الجانبان ، وفي ساعات قليلة ، فترتوي أرضه الكلسية المنخربة بدماء الجرحى والقتلى مرة واحدة . وكان منبسط الأرض الحرام بين موقعي الخنادق قاحلاً في العادة ، اما سنة ١٩١٧ فقد جاءت غلاله وفيرة . ولا عجب في ذلك ، فالرمم التي لم تسمح ظروف القتال بسحبها طوال ١٠ ايام قد تفسخت فصارت سماداً .

* * *



السوم .. بعد المعركة ! !

هايغ وتقاريره ..

ومع كل هذه الفظائع والاستماتة من جانب البريطانيين ظل نجاحهم اقرب الى الفشل .. ظلوا يتكبدون خسائر جسيمة في كل حركة يتحركونها .

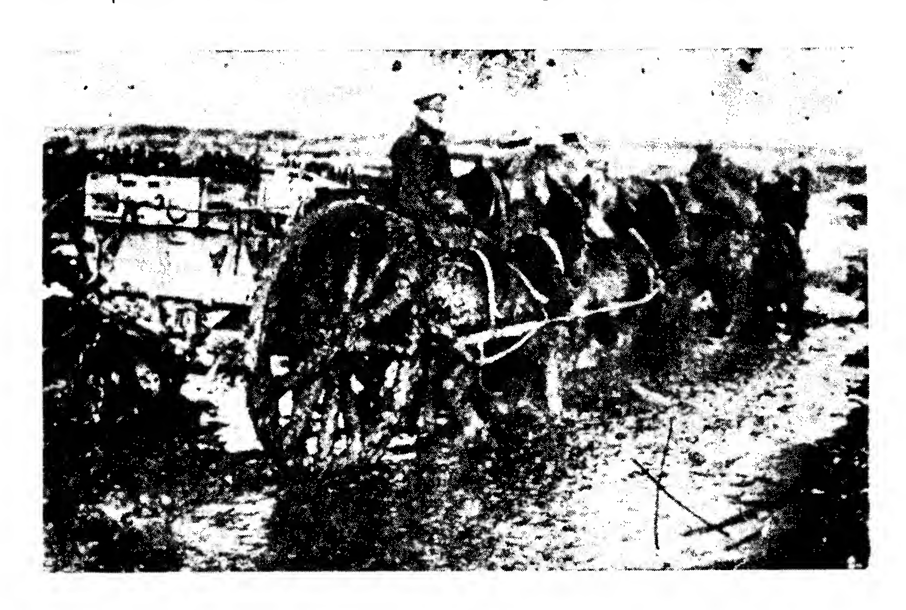
وكان هايغ لا يبعث في تقاريره الى لندن عن عدد الاصابات في جنوده ، بل يموّه ذلك بذكر عدد الأسرى الالمان فقط . وهؤلاء قليلون كل يوم .

هجوم ليلي .. ومباغتة

ويئس من هذه الحال المقيتة روبرتسون ، فاستأذن رئيسه هايغ ان يسمح له بالقيام بهجوم ليلي مباغت ، الا ان هايغ عارض في ذلك أول الأمر ولسان حاله يقول : « قد يقبلون عذري في لندن ، اذا ما عرفوا الحقيقة عن عدد الاصابات في جنودنا ، حين أقول لهم : هاجمنا العدو نهاراً ، ومدفعيتنا ضعيفة وعتادنا غير متّقن الصنع . ولكنهم لن يقبلوه حتماً حين أقول :

« ومع كل هذا فقد قمنا بالهجوم تحت ستر الظلام » .

الا ان الفكرة جذبته على كل حال . لقد يئس من هجوم النهار



كان لوحل منطقة السوم أثر كبير في المعركة .
ان عتاد المدافع البريطانية لا يصل في حينه

الذي ظل يعود بلائحة ضخمة من القتلى والمفقودين .. وهكذا سمح لروبرتسون ان يجرّب خطته .

وفي ليلة ١٤ تموز (يوليو) تحرك من الجبهة البريطانية ٢٠,٠٠٠ جندي في الساعة الرابعة الا ربعاً . وكان قد سبق تحركهم قصفٌ مدفعي لم يستغرق الا ٥ دقائق . وكان الالمان آنذاك نياماً ، فقد ظنوا ان ليلتهم هذه ستكون كالليالي السابقات . وهكذا باغتهم الانكليز ، فاستطاعوا الاستيلاء على ما طوله ٥ أميال من خط الدفاع الالماني .

مهمة الخيالة ..

والآن حانت فرصة استخدام الخيالة البريطانيين . وكانت ٣ فرق منهم معدّة لاختراق الجبهة وتطهير جيوبها . الا ان هؤلاء تأخر وصولهم . فقد كانت المنطقة موحلة جداً ، فاضطرتهم العربات والخيول الى الابطاء في السير .

وفي الساعة السابعة صباحاً لاح لأعين المشاة الانكليز مشهد طالما تمناه جنرالاتهم . ها هم الخيالة قد وصلوا . انهم يمشطون الحقول بأذناب خيولهم . ان صفّهم العرضيّ الطويل يكاد يسدّ الأفق : رؤوسهم مرفوعة ، ورماحهم مُشرَعة ، وقريباً ما يقطفون رؤوس الجنود الألمان وكأنها اكواز الذرة بعد ان لفحتها الشمس .

لهذا المنظر رقص بعض المشاة ، وغنى آخرون .. وحتى في الموقف الخطير الذي كان فيه الجنود ، رمى بعضهم بخوذته في الهواء ، وكأنها « بيريه » عتيقة يقذفها صاحبها بعد خروجه من الحانة . أليس هذا مشهداً رائعاً حقاً !!

فرحة لم تتم

ولم يطُل ذلك السرور المباغت ، اذ ما كادت صفوف الخيالة تتقدم حتى انهمر عليها مطر الرشاشات الالمانية .. فكانت الفاجعة . صار السهل

الضيّق اسطبلاً كبيراً . فمن كل جانب فيه تسمع حمحمة وصهيلاً . أصبحت لا تكاد تلمح الفارس في سرج جواده حتى ترى قوائم الحصان الامامية قد ارتفعت في الهواء وانقلب على ظهره ، فدقّ عنقَ سيده .

هكذا انقلب المشهد الرائع ، مأساة مؤلمة . ثلاث فرق من الخيالة لم تتقدم الا الى الخط الذي قرر لها المدفعيون الالمان ان تفعل . اما حين تجاوزته ياردة واحدة فقد غضبت عليها الأرض والسماء معاً .

الفشل ! فهل تكسب النصر الدبابات ؟

بذلك فشل الهجوم الانكليزي ، وأخفى هايغ عدد الاصابات .. ولم يستطع روبرتسون ان يشرب نخب انتصاره . وبعد هذه المحاولة ، بانت الخيبة على محيا الضباط الانكليز ، وغدا القتال روتينياً لا حماسة فيه .

لكن هذا لم يفتّ في عضد هايغ . نعم ، انه كان متألماً جداً ، ولكنه ايضاً كان عنيداً جداً . لقد قرر آخر الأمر ان يستعمل الدبابات ،



دبابة بريطانية في ورطة .. لقد انقلبت

وكان ذلك في ايلول (سبتمبر) . وقد نصحته القيادة العامة من لندن ان لا يفعل ، وطلبتْ اليه الانتظار حتى يتم تزويده بعدد كافٍ من هذا السلاح الجديد . الا ان إصراره كان إصرار اليائس من وجود وسيلة اخرى .

الدبابة سلاح لا يحتل المواقع

كان هذا السلاح جديداً لم يتم تطويره بعد ، وكانت التجارب التي أجريت على صلاحيته قليلة جداً ، لا تكاد تجزم بالنفي او الايجاب . ومع هذا قرر هايغ استخدامه في جبهة السوم .

وتقدّمت هذه الدبابات الى الخط الالماني .. اما بعضها فقد انقلب بعد ان لحق به خلل ، وعجز الجنود المشاة عن إصلاحه . واما البعض الآخر فقد تقدم حتى حاذى خطوط العدو . ولكن .. وما امرّ هـذه الـ « لكن » في حق هايغ ! انه لم يستطع ان يجعل المشاة يلحقون بالدبابات المتقدمة .. وليس في مقدور الدبابات وحدها ان تحتلّ موقعاً . لذلك فشل الهجوم ، فتراجع العدد الذي ظل صالحاً منها ، واستولى الالمان على بعضها .

وهكذا لم ينتفع هايغ من السلاح الجديد .

نعم ، كان ذلك انذاراً للألمان بأن من الممكن الوصول الى خطوطهم مع البقاء في مأمنٍ من نارهم الكثيفة . ولكن ، حتى هذا الانذار لم يأخذه الالمان بالقدر الكافي من الجدّيّة . وزاد الأمرَ تعقيداً ، ان موسم سقوط الأمطار كان قد حان ، فغدت الأرض قيعاناً موحلة يتعذر على المشاة ، بله الآليات ، ان تتحرك فيها .

لم تفتح ثغرة .. رغم ارتفاع الخسائر

وبهجوم ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) وفشله ، يمكن القول ان معركة السوم غدت خالية من النشاط ، وانما استمرت تجرجر نفسها بين الحين والحين . نعم ، لقد تم هنالك تقدم لمسافة ٥ أميال في بعض المواقع ،

لكن فتح ثغرة ما ، لم يحدث . وبذلك ظل الخط الالماني منيعاً كعادته .

ويمكن تقـدير اهمية هذه المعركة من الخسائر التي لحقت بالطرفين المتحاربين . فالالمان ارتفعت لائحة اصاباتهم الى (٤٥٠,٠٠٠) رجل بين قتيل وجريح ومفقود . والانكليز دفعوا (٤٢٠,٠٠٠) معظمهم قتلى . والفرنسيون كان نصيبهم (٢٠٠,٠٠٠) رجل . وكان معظم اصابات الالمان من الجرحى ، والذين بالوسع تفادي اصاباتهم لولا عناد فولكنهاين ، كرد فعل لعناد هايغ . اذ كانت أوامر القائدين هي : « لا تتراجع خطوة واحدة . واذا اضطررت الى ذلك فاسترجعها بهجوم معاكس » .

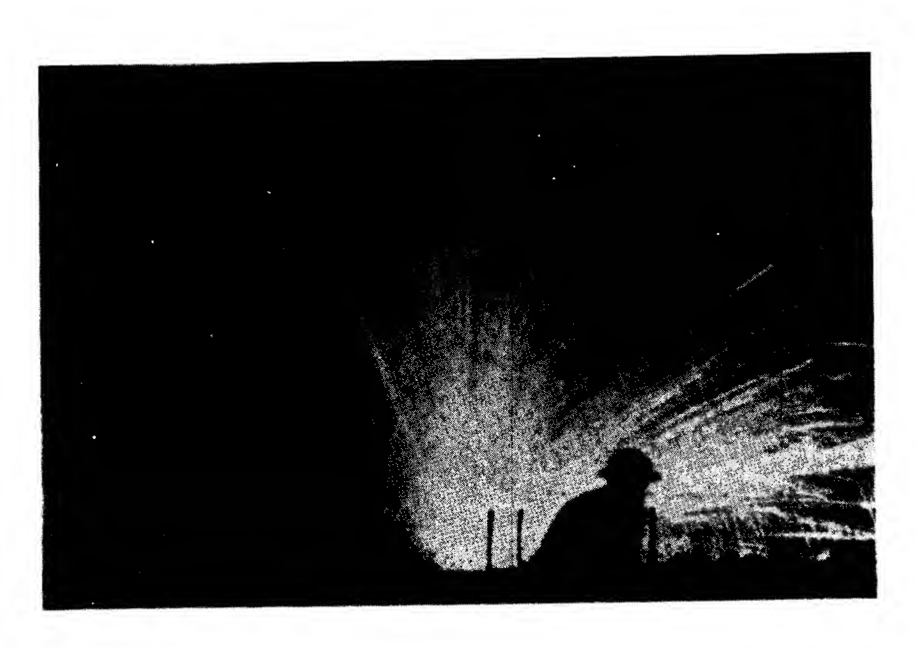
كذبٌ على التاريخ !

ويقول المـؤرخ الانكليزي الرسمي ان خسارة الالمان ارتفعت الى ٦٥٠,٠٠٠ رجل ، ولكن :

أولاً : ان هذا المؤرخ لم يذكر هذا الرقم في وقت المعركة او بعد بضعة شهور منها ، وانما عمد الى رفع رقمه السابق بعد حدوث « السوم » بسنوات . وطبيعي ان هذا يترك مجالاً للشك في ايراد الحقيقة .

ثانياً : كان الالمان هم المدافعين في معركة « السوم » ، وكان البريطانيون والفرنسيون المهاجمين . ولم يسبق في معارك الحرب العـالمية الأولى ان كانت خسارة الدفاع مثل خسارة الهجوم ! وهذا ما يحدث لو قبلنا الرقم ، اذ تغدو خسارة الالمان ٦٥٠٠٠٠ رجل ، بينما يكون مجموع خسارة الحلفاء ٦٢٠,٠٠٠ رجل . وهذا غير طبيعي .

ثالثاً : لقـد ذكرنا من اسباب فشل الحملة الانكليزية الاولى سوء صناعة العتاد ، او عدم التدرب على استعماله (كما احتج لويد جورج) . وذكرنا في نفس الوقت ان الالمان كانوا يتقنون استعمال مدفعيتهم الثقيلة ، فهل من المعقول ان يكون العتاد الصالح في موقف الدفاع ، اقل تأثيراً



الفن في الحرب .. اطلاق النار في الليل باستعمال الاضواء الكاشفة
حتى وسائل الدمار لا تخلو من جمال !

من العتاد الفاسد في موقف الهجوم ؟!

ان كل هذا يجعلنا نستنتج : « ان المؤرخ الرسمي الانكليزي رأى في بقاء نتائج معركة السوم وصمة تلحق بالجيش البريطاني ، فأراد ان يزيل تلك اللطخة لمجرد تبييض السجل ، ورفع المعنويات في السنين القادمة . ولكنه كان مضطراً في سبيل ذلك الى الكذب ، والتزوير في التاريخ » .

واذا كان هذا جائزاً في معرض التأريخ الفردي : ككتاب يؤلفه انكليزي او فرنسي او الماني متعصب لقوميته وبلاده (حتى مع انه لا يمكن الا ان يظهر الزيف) ، فإنه من العيب تماماً ان يفعل ذلك مؤرخ رسمي . ألا يعلم ان التأريخ يمحو بطبيعتــه كل الدعاوى الكاذبة التي تُلصَق به !!

السوم .. هزيمة للطرفين .

ا – الالمان

الواقع ان معركة السوم كانت هزيمة للبريطانيين .. ولكنها هزيمة ليست قليلة الثمن في جانب الالمان . واذا كان هايغ قد هدف من اصراره على الاستمرار فيها ان يحطم معنوية الجيش الالماني ، فقد فشل تماماً في بلوغ هدفه . نعم ، ان معنوية الالمان قد غدت مهزوزة ، والجيش الالماني قد خسر كثيراً .. لكن كل هذا لم يبلغ درجة الانهيار ، لا من حيث القدرة على القتال ، ولا من حيث تعويض الخسائر بجنود جُدد .

ب – البريطانيون

ومن ناحية اخرى ، لم يكن الالمان وحدهم هم الذين اهتزت معنوياتهم . فالبريطانيون ايضاً قد عانوا ذلك ، بل وبصورة ابعد اثراً . فقد عرفنا من قبلُ ان «جيش كتشنر» هو الذي ألقي به في المعركة . وعرفنا ان ذلك الجيش كان في معظمه من « المتطوعين » ، وقلنا انهم كانوا اقوى ابناء الأمة من حيث اللياقة البدنية ، ومن حيث اشتعالهم حماسة لمجد وطنهم .

والآن .. ها هم تحطموا في معركة السوم . ان خسائرهم بالغة ، ووطنهم قدّم لهم عتاد مدفعية فاسداً او شبه فاسد ، وضباطهم كانوا ينحرونهم بإيعاز « الى الامام ، تقدّم » ، وقيادتهم تأمرهم بدوام الهجوم المعاكس – فماذا يُنتظر ان يحدث لنفسياتهم !!

لقد تبخرت حماستهم ، وانقلبوا من « وطنيين » راغبين في «التضحية» الى « مجرد جنود » كل هدفهم « ان يَقتلوا » كيلا « يُقتلوا » .

وبكلمة اخرى صاروا « محترفي قتل » ، و « عصابات اجـــرام » ، ولكن بصورة جماعية .

حرب ولا هدف !

الآن اصبحت الحرب لا « هدف » لها . وبضياع ذلك « الهدف » انقلبت مجرد مجموعة من المذابح المترابط بعضها برقاب بعض ، ودون سبب الا ذلك الترابط نفسه .

هذا ما فطن اليه المؤرخ الرسمي البريطاني ثم زميله الفرنسي بعد ذلك بسنوات . ولكن المرء لا بد وان يتساءل : وحتى في اول امرها ، هل كان للحرب هدف ما ؟ قد يجيب بعضهم ، انه السيطرة ، والاقتتال على مناطق النفوذ ، و .. و .. غير ان كل هذه اهداف آنيـــة ، وضيقة الأفق . ونحن نعني بكلمة « هدف » ان يكون هدفاً للانسانية قاطبة ان لفظة «هدف» في نظرنا لا بد وان يتسع محتواها فتغدو «هدفاً نبيلاً للانسان كإنسان » . ولسنا نرى إمكانية تطبيق هذا المحتوى على واقع أي حرب مسلحة أبداً .

وكما صار « مجدُ » الامبراطورية البريطـــانية بعد الآن ، في يد « مجموعة من محترفي القتل » ، كذلك وقع « مجدُ» المانيا في يد «فئة من الضباط المغامرين » ، الذين لم يكونوا اقل احترافاً للقتل . ومثل هؤلاء ، ولكن بشكل أخف حدة ، حصل في فرنسا . وفي روســـيا والنمسا والدولة العثمانية تُوصّل الى نفس النتيجة ، ولكنْ إثر عمليات عسكرية اخرى .

أثر ذلك في الادب .
الأدب العسكري ..

كل ما مضى يوضح لنا اتصاف الأدب — وفرع الروايـــة على

الخصوص — في البلدان المتحاربة ، والذي تم انتاجه في العقد الذي تلا، بصفة واحدة هي : الكآبة والافلاس . فهذا الادب ينظر الى الانسانية من زاوية قاتمة ، ومن خلال عدسة الضياع التي نشرتها الحرب على رؤى الكتّاب والشعراء والفنانين .

ويمكن تلخيص الأدب العسكري (اذا جاز التعبير) الذي خلّفته الحرب بأنه « صورة مشوهة للمخلوق السوي ، تشوهه في روحه كمجرم غير مسؤول ، وبائس من الحياة لأنه تائه في سراديبها ، وتشوهه في جسده ، كمنحرف في شهواته ، تعويضاً عن عاهات لحقت به في الميادين » .

ان الجندي غدا : « كافراً جميع القيم الأخلاقية ، غير قابل لأن ينضبط ، وغير مخلص الا لشركائه في المأساة ، اي رفاقه في السلاح في الخندق ، او حظيرة المدفعية او فصيلة المشاة » . نعم ، انه شجاع . ولكن شجاعته اقرب الى نقيصة القنوط منها الى فضيلة التحمل .

هذه النفسية المشوهة هي التي بُني عليها عالَم ما بعد الحرب العالمية الأولى . فهل من الطبيعي ان تستقيم امور السياسة الدولية . اذن ؟ كلا .. ولهذا قيل : « في معركة السوم ، ومن قبلها فردون ، بُذرت البذرة الاولى للحرب العالمية الثانية » .

ونحن نعقب على هذا القول ، فنضيف : « ومن تاننبرغ وحملة بروزيلوف ايضاً » .

* * *

اذا وددنا تلخيص السجل الحربي لما تم في سنة ١٩١٦ امكننا القول : انتقلت الحرب من شهامة الفرد وعافية المجتمع الى صناعة قائمة بذاتها تنم عن انحراف ومرض المجتمع .

ولقد غدت المدافع والدبابات وذخيرتها عاملاً يبطىء في سير الحرب،

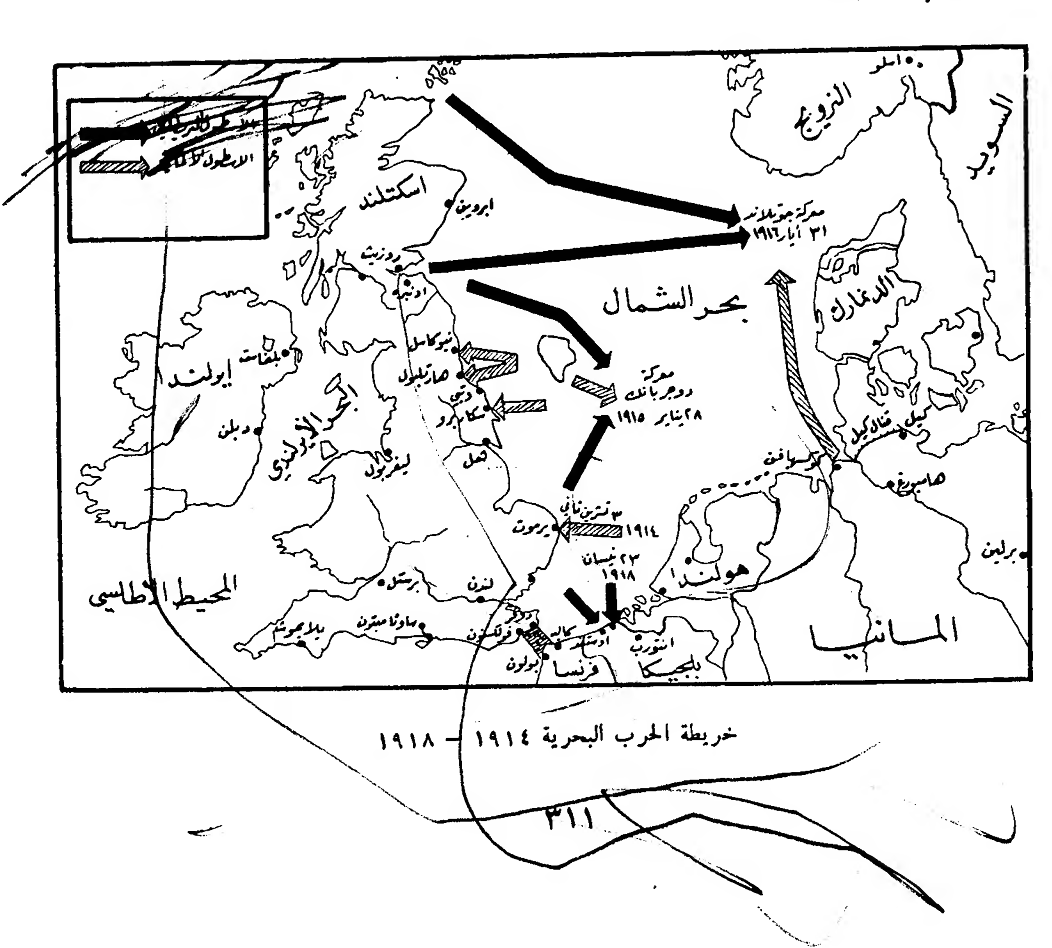
مع انه انشىء في اصله من اجل زيادة السرعة فيها . كما اصبحت الارواح البشرية ضحية للاهدف ، وقرباناً يراق على مذبح الشيطان لا غير .

وشرع العالم الدخول في مفازة من الضيـــاع ، وصحراء تبعث على اليأس والجنون .

فهل ترى ايها القارىء الكريم عاماً اكثر سواداً من عام ١٩١٦ ؟؟

الحرب البحرية

ولما كان إله الحرب يملك البر والبحر ، فقد ود في هذا العام ان يباشر نشاطه على مملكته المائية ايضاً . لهذا ترانا نسمع بالمعارك البحرية في بحر الشمال .



خريطة الحرب البحرية ١٩١٤ — ١٩١٨

المعارك البحرية

تعتمد المعارك البحرية علاوة على رسم القيادة العامة للاستراتيجية ، وتحديد القيادة الموضعية للتكتيك ، على عاملين : اولها – سرعة الحركة ، وثانيهما – الرغبة في القتال . اما من حيث سرعة الحرب فإن الدقيقة الواحدة في المعركة البحرية قد تكفي لترجيح كفة على اخرى . واما من حيث الرغبة في القتال فهي التي تحدد محاولة الوصول الى نصر حاسم ، او الاكتفاء بنصر جزئي ، او الانسحاب المرسوم .

لم تشهد اوروبا منذ سنة ١٥٨٨ ، معركة بحرية فاصلة . و ١٥٨٨ هذه هي يومَ هاجم الملك فيليب الثاني ، ملك اسبانيا والاراضي الواطئة ، شواطىء بريطانيا بأسطوله الضخم الذي اطلق عليه المؤرخون الاسبان اسم « الارمادا » ، اي «العمارة البحرية التي لا تُقهر » . حينذاك تم النصر للبحارة البريطانيين ، وجلّهم من مغامري القراصنة ، الذين كانت الملكة العذراء (!) اليصابات تتخذ منهم عشاقاً وشركاء في الارباح ايضاً.ومنذ ذلك الحين ، رسخ في اذهان البريطانيين انهم اقوى الامم في الماء .

وهم الآن في سنة ١٩١٦ ينطلقون من هذه الفكرة .

فون شير

في اوائل سنة ١٩١٦ حدث تبدل كبير في جهاز الأدميرالية الألمانية ، اذ عهد بالقيادة العامة على اسطول أعالي البحار الى الادميرال شير . وكان هذا يتحرق للعمل . الا انه كان على يقين من ان خصمه (الاسطول البريطاني) ليس صيداً سهلاً . فالادميرال يعرف ان المدفعية البحرية البريطانية أقوى مما يمتلك هو ، وان سرعة القطع البريطانية اعلى مما تستطيع عمارته البحرية ان تنال ، وان « طاقم » الطراد البريطاني مثلاً ،

اكبر عدداً من « طاقم » الطراد الالماني . ومع هذا فهو يود الالتحام، وبكل قواه !! أليس ادميرالاً ؟

*

هذا من ناحية الالمان . اما عند البريطانيين فإليك الموقف آنذاك : الحصار البحري المفروض على المانيا ناجح جداً يضيّق عليها الخِناق ، وبتصفية القطع البحرية الالمانية التي كانت في الشرق الأقصى ، باغراقها — غدت اعالي البحار تحت سيطرة البريطانيين . والاسطول البريطـــاني قد تجمّع من قواعده البحرية النائية وتركزت قواته في بحر الشمال .. اضف الى ذلك نوعاً من الاعتقاد بأن « بريطانيا للبحر ، والبحر لبريطانيا » .

تقييمان ووجهتا نظر

والآن ، ما هي نفسية الادميرالية الالمانية ونفسية مخاصِمتها ؟



الى اليمين « الادميرال فون شير » واسطوله يقاتل

ان الادميرالية الالمانية تقول :

« نعم ، ان الاسطول العدو اكثر عدداً في قطعه ، واسرع ، وذو عدد اكبر من البحارة — ولكنه ، اقل براعة من حيث القيادة ، ومن السهل إيقاعه في فخ لذلك . »

ثم تضيف :

« اذا قدّر لنا النصر في البحر ، كسبنا الحرب ، وجعلنا بريطانيا تعاني حصاراً اشد من هذا الذي تفرضه الآن . كما انه يغدو بوسعنا آنذاك ان نساعد الغواصات النمساوية في بحر الادرياتيك كي تقوم بدورها في البحر المتوسط . ومن ثم ، نساعد حليفتنا تركيا في ميدان آسيا . »

اما الادميرالية البريطانية فترى غير ذلك :

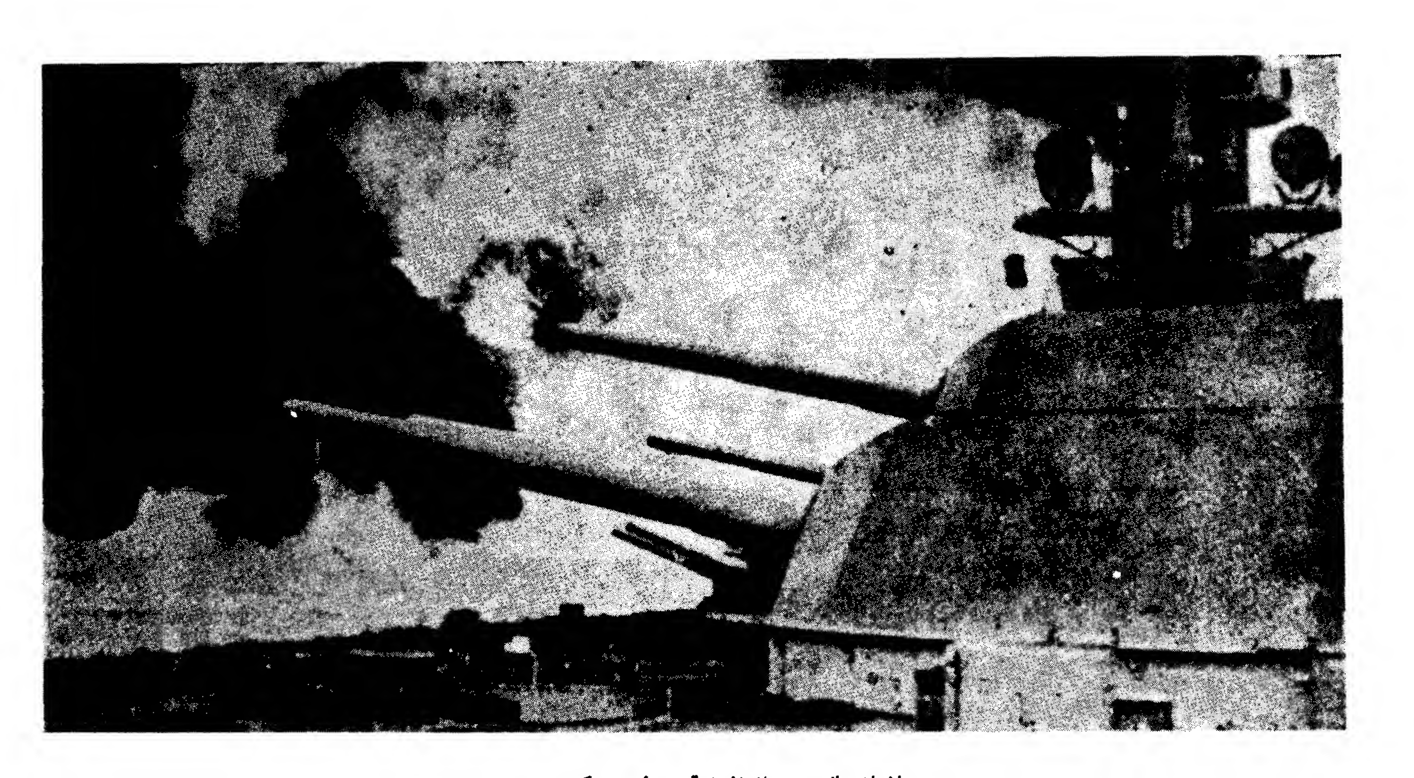
« اننا سننتصر على العدو في البحر . وبعد تحطيم اسطوله ، نزيد من تشديد الحصار ، كما يغدو بوسعنا استخدام جنود بحريتنا في الميادين البرية في آسيا . ولن تزاحمنا فرنسا او روسيا هذا النصر ، حتى اذا ما تم النصر النهائي ، جعلنا مساهمتنا البحرية في الحصول عليه نظيراً مساوياً لمجهودات الفرنسيين والروس ، البرية . »

ونحن استناداً الى مجموعة من آراء الثقات في الحرب البحرية نقول :

« ان كلتا الادميراليتين كانت مصيبة في تقديرها لو تم نجاح ذلك التقدير . » لكن ، دعنا نرى الوقائع .

زعم الشيفرة ! .

منذ اول الحرب في سنة ١٩١٤ كان الروس قد حصلوا على الشيفرة الالمانية المتعلقة بالحركات البحرية ، حين قذف الموج جثة ضابط الماني كان على ظهر مركب تم إغراقه . لقد نسي الضابط ان يتخلص من اهم اسرار رتبته العسكرية ، فكان في ذلك غنيمة ثمينة للعدو . وقد سلّم



المدافع البحرية الالمانية تهدر في معركة جوتلند

الروس هذه الشيفرة للادميرالية البريطانية ، فحلّت رموزها ، وغدت بفضل ذلك على علم تام بجميع حركات الاسطول الالمـــاني . صارت تترقب يوم نزوله الى بحر الشمال ، وتترصد لاغراقه .

الحاجة الى تمحيص

هذه قصة يذكرها المؤرخون الرسميون الروس والبريطانيون . وقد قبلها آخرون غيرهم دون تمحيص . لكننا نحن نقف منها موقف الشك للاسباب التـــالية :

أولاً : لم نسمع ان دولة واحدة مهما بلغ الغباء عند افراد قيادتها العامة ، تضع شيفرة ثابتة طوال اربع او خمس سنوات . ولا حتى لسنة واحدة . فكيف لم تغيّر المانيا شيفرتها هذه من اول الحرب حتى منتصف سنة ١٩١٦ !؟

ثانياً : ان المؤرخين قاطبة ، والعالم اجمع ، يشهد للقيادة الالمانية بالتفوق في جميع النواحي على خصومها ، فهل تُغفل امراً عظيم الخطورة في مجرى الحرب مثل هذا الأمر ؟

ثالثاً : لماذا لم يستفد البريطانيون من هذه الشيفرة في معركة فولكلاند فيقللوا خسائرهم ، مثلاً !؟

وقعت الواقعة ولكن مخففة

ومهما كان الحال فقد وقعت الواقعة في ٣١ ايار (مايو) . ففي هذا اليوم اتجه الادميرال هيبر ، قائد المدرعات الالمانية ، نحو السفن البريطانية التي تحاول اللحاق بالاسطول البريطاني في مركز تجمّعه في عرض البحر . وكان مقرراً ان يكون ذلك خديعة ، يتم بواسطتها سحب الاسطـــول البريطاني لمقاتلة الاسطول الالماني المتهيأ للقتال . وطبيعي ان جليكو ،

قائد الاسطول البريطاني أُبلغ عن حركة الأدميرال هيبر ، فود بدوره ان يجعل الفخ لصالحه هو . ولذلك اتّجه بالقوة الرئيسية نحو الجنوب ، بعد ان كان في (سكابا فلو) .

هكذا شهد بحر الشمال أقوى عمارتين بحريتين تتقدم الواحدة منهما تجاه الأخرى في ذلك اليوم . وقد علّق على ذلك أحد الظرفاء بقوله : « يبدو ان السمك كان جائعاً » .

احصاء للقوات

كان الاسطول البريطاني يتألف من ٣٨ مدرعة و ٩ طرادات كبيرة . وكان الاسطول الالماني عبارة عن ١٦ مدرعة و٥ طرادات كبيرة . اما السفن الصغيرة من الجانبين فقد كانت ترفع عدد المنشآت البحرية في ذلك اليوم الى ٢٥٠ قطعة و ٢٥ ادميرالاً .

وفي اول الأمر ، سارت الخطة حسب ما يشتهي هيبر . فقد هاجمه «بيتي» قائد الطرادات الانكليزية بعد الظهر بقليل، فكان جزاء المهاجم ان خسر طرادين اغرقتها مدفعية الالمان المركزة والدقيقة التسديد . وهناك صورة نشرتّها البحرية الالمانية يبدو فيها مئات البحارة الانكليز يتواثبون الى الماء — بعد ان انشطر هيكل الطراد الذي كانوا فيه — في وجوههم يلوح الذعر ، ويرتسم الموت فاغراً شدقيه كي يلتهمهم . وقد التهمهم البحر ، هذه المقبرة الهائلة التي لا ترد منها احداً ولا شيئاً ، والتي حين يقارنها الناس لا يجدون شيئاً أصدق عليها من قولهم : « ان جبّانة البحر كبطن التاريخ » .

بيتي المتهوّر

كان المفروض ان يرتد «بيتي» بعد هذه الخسارة العظيمة. لكنه كان

متهوراً . يشهد بذلك ، هذه العبارة التي كانت الأمرَ الوحيد الذي اصدره الى قادة طراداته آنذاك . لقد قال : « اصبح العدو يفوقنا قوة. فلنتقدم » . وكان مثل هذا الطيش هو ما يبغيه الادميرال الالماني سير . لقد رأى فيه الفرصة المواتية للقضاء على عدوه . وبخاصة انه كان يهدف من وراء مناوشة هيبر للاسطول البريطاني ان يعزل قطعه على شكل مجموعات صغيرة ، يغرقها على التتالي .

لكن بيتي فطن للعبة ، كما يبدو . فتظاهر بالانسحاب مهزوماً . وحينئذ تعقبه شير طوال ساعتين . غير انه عجز عن اللحاق به لسبب بسيط : فأقصى سرعة الطرادات الالمانية كانت ١٦ عقدة بحرية في الساعة، في حين ان اقصى سرعة الطرادات الانكليزية هي ٢١ عقدة .

وفي الساعة ١٥ : ٦ من مساء ذلك اليوم ظهر الاسطول البريطاني في الأفق . واتخذ في سيره « وضع الدفاع » . فأدرك شير ان هناك خطة ترمي الى تطويقه من الخلف . ولهذا غادر الموقع في الساعة ٣٠ : ٦ مولياً الأدبار . ولم يحاول جليكو ان يتعقبه ، بل تركه ينجو .

تقييم وتعليقات

هنالك الكثير من المعلقين البحريين يقولون : « لقد جبُن جليكو، او انه لم يتمتع بالحذق الحربي الكافي في هذه المعركة . فلو طارد «شير» لاستطاع بفضل اسطوله الاكبر والاسرع والاحسن مدفعيةً ، ان يقضي على خصمه . »

ولكن معلّقين آخرين يقولون : « وهل كان جليكو يأمن الغواصات الالمانية او إمكانية ان يجره شير الى مياه تنتشر فيها الالغام البحرية !؟ لو طارد جليكو خصمَه ، واستعمل الأخيرُ أحد هذين السلاحين ، لكان الاسطول البريطاني نفسه قد سجّل النصر في الحرب بكاملها للألمان . »

ولنترك هذه التعليقات لنرى رأي جليكو نفسه . انه يقول :

« ان المحافظة على بقاء مدرعة او طراد في عمارتي البحرية ، فوق الماء ، لهي أهم بكثير من ارسال مدرعة او طراد الماني الى قعر البحر .»

شير يظهر ثانية ثم ينسحب الخصمان

ولم تمض نصف ساعة بعد الانسحاب حتى ظهر شير ثانية في وسط الاسطول البريطاني ، ولم يدرِ أحد من أين طلع . وحينـــذاك بدأت



السير جون جليكو
كان على وشك ان يخسر الحرب

المدفعية البحرية نشاطها ، فدام القصف ربع ساعة ، ثم انسحب شير ، سالماً . وقرر جليكو هذه المرة ان يتعقبه . لكنه لم يدرِ الطريق الذي سلكته القطع الالمانية على وجه التحقيق ، فخمّنه من عنده . وكان ذلك التخمين خاطئاً تماماً .

اما الموقف في تلك اللحظة فكان كما يلي :

الالمان يسيرون منسحبين تجاه بلادهم ، والاسطول البريطاني بينهم وبين هدفهم لكنه لا يعلم بذلك .

وقد اتصلت الادميرالية في لندن عن طريق اللاسلكي بـ « جليكو » وارشدته الى الطريق الذي يسلكه شير ، الا ان الادميرال كان يحتقر اللاسلكي ، فقرر ان يعود ادراجه الى بريطانيا . ومثل ذلك فعل شير.. وبهذا انتهت معركة جوتلند .

الخسائر .. ومن الذي انتصر ؟

لقد بدأت المعركة في الثالثة والنصف بعد الظهر ، وانتهت ٣١ . ٦ من مساء اليوم نفسه بهذا يكون القتال لم يدم اكثر من ٣ ساعات فما هي النتيجة ؟

كانت خسارة الانكليز ٣ طرادات و ٣ مدرعات و ٨ نسافات .

وكانت خسارة الالمان طراداً ومدرعة و ٥ نسافات و ٤ طرادات صغيرة .

هذا من حيث القطع البحرية . اما من حيث الرجال ، فكانت خسارة الانكليز ٦١٠٠ بحار ، وخسارة الالمان ٢٥٠٠ فقط .

لكن ، من الذي انتصر ؟

يقول جليكو : « لقد هرب الالمان من امامنا ، فنحن المنتصرون . هذا معيار المعارك البحرية » . ويقول شير : « لقد كانت خسائر العدو اكبر من خسارتنا بكثير ، كما اننا وضعنا ايدينا على نقاط الضعف



الادميرال بيتي
ظن انه كسب الحرب في اعلى البحار.

عندهم ، وهو المدفعية غير المحكمة التسديد . ولهذا فنحن المنتصرون » .
لكن الواقع ان الذي انتصر هو حيتان بحر الشمال .

اقصاء جليكو

بيد انه : هل يُقنع حكمنا السابق ، المواطنين الانكليز في بريطانيا؟ كلا ، طبعاً . ولهذا نرى الوزارة تغيّر اوضاع الادميرالية فيستعاض عن جليكو بالادميرال بيتي الاكثر حيوية وانقياداً . الا ان هذا يرى الحكمة في بقاء الاسطول البريطاني في قواعده ما لم يخرج الاسطول الالماني الى عرض البحر .. وقد حدث ذلك مرتين خلال هذا العـــام ، وكانت المناوشات البحرية فيهما غير ناجعة ولا حاسمة . وبهذا تم انهـــاء الحرب

البحرية لهذا العام دون غالب او مغلوب .

*

واذا كان الالمان والانكليز لم يتوصلوا الى نتيجة ترضيهم من حيث العمليات الحربية ، فقد توصلوا الى ذلك في افكارهم . فبعد جوتلند وتوابعها اصبح الموقف الاستراتيجي عند الادميرالية الالمانيــة على النحو التـــالي :

« ان انتصارنا في جوتلند لم يكن كلياً ، ومنه عرفنا انه يستحيل علينا احراز النصر المنشود عن طريق مواجهة الاسطول العدو في معركة نهائية . اذن ، علينا ان نستغل سلاحاً جديداً للقضاء عليه، وهذا السلاح هو الغواصات . انه يقتضي ان نحوّل جميع احواض السفن في بلادنا لبناء الغواصات ، وان يتلقى بحارتنا التدريب الكافي على العمل تحت الماء. بهذا نستطيع تحطيم القوة البحرية المعادية ورجالُنا في مأمن . كما ان العدو سيظل عاجزاً عن اللحاق بنا في هذا المضمار . وقد كان بمقدورنا ان نفعل ذلك منذ سنة ١٩١٥ لو كان لدينا العدد الكافي من الغواصـــات آنذاك . اما الآن فيجب توفير هذا العدد . »

الاستراتيجية البريطانية

اما الاستراتيجية البريطانية فإليك ما تم رسمها بتأثيره :

« ليس من السهل احراز نصر على الاسطول الالماني في عرض البحر. فقد أثبتت معركة جوتلند انه خصم قويّ استطاع التغلب على اسطولنا ذاته . ولهذا فإنه ينبغي الاستمرار في تطبيق الحصار البحري المفروض مع تشديده الى درجة كبيرة ، وفي نفس الوقت ينبغي ابقاء اسطولنا في قواعده ما لم يضطره الاسطول الالماني الى الالتحام . »

في كلتا النظرتين تصديق لما قلنا سابقاً من ان المنتصر في معركة جوتلند كان الحيتان في بحر الشمال . فها هم الانكليز يعتبرون انفسهم مهزومين ، كما ان الالمان يقرّون بعدم احراز النصر .

وفي هذا المجال ، نود الرجوع الى قضية العثور على « الشيفرة » فنقول : هل يتخذ الموقف الذي سبق اسطول لدى ادميراليته الشيفرة الخاصة باسطول عدو !! ليس هذا مما يتفق والمنطق .

ولنترك الآن الاساطيل ورجال الحرب ، ولنلق نظرة على احـوال المدنيين في سنة ١٩١٦ .

* * *

« شتاء اللفت » وامثاله

في المانيا ظهر « شتاء اللفت » ، وفي بريطانيا « التوقيت الصيفي » ، وفي روسيا « نريد الكف عن اطلاق النار » ، وفي سويسرا « لا حرب استعمارية بعد اليوم » وفي الامبراطورية النمساوية « التشيك شعب يطلب الاستقلال بشؤونه » وفي ايرلندا « الحريـة لايرلندا ، فهرّبوا السلاح الألماني » . هذه قائمة من شعارات .. فما معناها ؟

اذا شرحنا كلاً من هذه الشعارات بصورة إجمالية نكون قد أعطينا صورة مقتضبة لمجتمع سنة ١٩١٦ في اوروبا . فلنبدأ بـ «شتاء اللفت» .

١ – المانيا

المانيا بلد يكاد يكون مكتفياً زراعياً ، فقلّما يستورد المواد الغذائية في حال السلم . لكن الالمان في عام ١٩١٦ كانوا جائعين الى درجـة ان غدا اللفت هو الغذاء الرئيسي على موائدهم . وكانت القيادة الالمانيـة

تعمد على الدوام الى نشر الفكرة القائلة : ان الحصار البحري البريطاني هو السبب في الجوع ، وهدفها من ذلك واضح تماماً ، فهي تريد خفض كل صوت قد يرتفع منادياً بأن الحربَ شر على الشعب فيجب ان توضع لها نهاية ما . كما تود في نفس الوقت إثارة مشاعر المواطنين الجوعى وتسهيل دفعهم ، بعامل الحميّة والانتقام ، الى تحمّل وضعهم الحالي في سبيل قهر هذه الـ « بريطانيا المجرمة » .

ولكن .. لماذا جاع الالمان ؟

كانت حكومتهم هي السبب في جوعهم . فقد غدت تنفق كل «مارك» تحصل عليه من اجل الاستمرار في الحرب . انها هي التي سحبت الفلاحين من حقولهم ليلتحقوا بالمقاتلين في فردون وغاليسيا والسوم . ولهذا



نساء برلين يفتشن القمامة بحثاً عن الطعام ! !

تدنّي الانتاج الزراعي . كما انها ، بطرْحها كميات ضخمة من النقد في السوق، خلقت التضخم المالي. فالأسعار اخذت ترتفع دون اية رقابة، وهذا أغرى المزارعين ببيع خنازيرهم وابقارهم ومحـــاصيلهم في اسواق المدن .

وقد صدف ان جاء موسم سنة ١٩١٦ رديئاً لشدة البرد الذي اتلف المحاصيل ، فنتج من كل ما تقدم ان سيطر على المانيا «شتاء اللفت» .

٢ – بريطانيا

اما في بريطانيا ، فقد ظلت الاحوال شبه عادية ؛ لم يجر توزيع الخبز بالبطاقات ولم يقلّ استهلاك السكر الا قليـــلاً . نعم ان بعض الكماليات قد فُقد او كاد ، لكن المواد الضرورية ظلت متوفرة الى حد ما . ظل الناس يجدون طحين القمح فلما زادت الحاجة الى المجهـــود العسكري ، صار الطحين يُخلط بدقيق الجودار ثم الذرة الصفراء، واخيراً بمسحوق البطاطا . وكان هذا ما خلق اشمئزازاً فظيعاً في نفوس الناس من ايام الحرب .

اما الاسعار فقد ارتفعت ، لكن ليس الى الحد الذي يخلق ازمـــة التضخم المالي . فقد كان هنالك شيء من الرقابة تقوم به الحكومة . وساعدها في ذلك ان النقابات واتحادات العمل لم تشدد في مطالبها ، بل قبلت حلاً وسطاً من الحكومة ؛ وظلت تعمل بتؤدة في سبيل رفع اجور افرادها .

سرقة العمال .. تقديم الساعة !

لكن هنالك ظاهرة جديدة تتعلق بعمال بريطانيـــا في الحرب . اذ استطاعت الحكومة ان تسرقهم ، وبطريقة لبقة لا غبار على نُبلها ! لقد خلقت التوقيت الصيفي والآخر الشتوي . وبهـذا أمر لويد جورج

الشمسَ ان تسرع في سيرها مرةً وأن تبطىء أخرى . ان تقديم الوقت ساعة ، معناه ان تأخذ المصانع فرقاً في جهد العامل . ويكون هذا الفرق غير مدفوع الأجر . وحين يُعكس ذلك في الصيف تتم العملية بصورة اخرى . ويكون العامل هو المغبون طول العام .

واذا كان « اليشعَ » قد عد هذا معجزة امام شعبه في غابر الزمان، فإن لويد جورج اعتبره الآن تدبيراً ضرورياً لزيادة الانتاج الحربي .



ما بين ١٠ الى ١٥ مليوناً من الروس
نزحوا من اراضيهم التي احتلها الالمان

وهكذا ، يتطور العالم فتغدو معجزات الانبياء ، مجرد مراسيم وقوانين .. أفليس هذا مضحكاً !!

٣ – روسيا

وفي روسيا يختلف الوضع . فسهول « المسكوب » شاسعة ، غنية التربة ، وافرة الغلال . لكن تنظيم المجتمع ، والتأخر الذريع في طرائق الاستغلال – حتى ليمكن القول ان الاساليب كانت اقرب الى البدائية – وصقيع سنة ١٩١٦ .. كل ذلك أبرز مشكلة الحاجة الى الطعام .

ولم يكتفِ القدَر بذلك لروسيا ، بل خلق لها متاعب اخرى . فالانهزامات المتوالية من تاننبرج الى البحيرات المازورية الى حملة بروزيلوف في غاليسيا ، وفقدان ملايين الرجال في هذه المعارك – ومعظمهم من فلاحي الأراضي – خفض الانتاج الزراعي في البلاد . اضف الى هذا ، اولئك النازحين الروس من الاراضي الواقعة بيد الألمان ، وكونَ هؤلاء النازحين يستهلكون ولا ينتجون . وكذلك فقدان انتاج الاراضي المحتلة ، وتحويل الانتاج بكامله الى مجهود حربي .

كل هذه العوامل تضافرت لتصفع حكومة القيصر صارخة « نريد الخبـز » .

وقد يتساءل البعض : ان هذا قد يقع في حال حدوث مجاعة طبيعية مثلاً ، فلماذا نجد الروس وحدهم يطالبون بالخبز ؟ وما علاقـة الخبز بإنهاء الحرب ؟

والجواب عن ذلك قول فلاسفة الثورة الفرنسية من قبلُ : « ليس الجوع هو الذي يثير ، وانما الوعي به » . وهذا ما كـان يقوم به البلاشفة في روسيا . فقد كان هؤلاء يرون واقع بلادهم ومأساة شعبهم ، ويفتشون عن طريق يرفعون أمتهم بها الى مصاف الدول الاوروبيـة

الاخرى .. وكان طريقهم هو « نسف علاقات الانتاج في المجتمع بعد ان ثبت افلاسها » والاتيان بـ « علاقات انتاج » جديدة من عندهم .
عن هذه الطريق كانوا يمهدون لثورتهم في العام القادم .

٤ – امبراطورية النمسا – المجر

قلنا ان امبراطورية آل هابسبورغ كانت تضم شعوباً مختلفة القوميات. والتشيك واحد من هذه الشعوب . وهم اقرب الى العرق السلافي منهم الى الالمان . وقد آنسوا الآن ان الامبراطورية العجوز تترنح آيلة الى السقوط . وكانوا منذ شهر شباط (فبراير) من هذا العام ، قد شكلوا « مجلساً وطنياً » لهم في باريس ، ضم بعض المثقفين المنفيين من فيينا . غير ان الحلفاء لم يهتموا بذلك المجلس ، كما أغفلته سلطات الامبراطورية النمساوية ايضاً .

اما الآن ، فقد رأى اسكويث ان ينادي بـ « للشعوب الصغيرة ان تقرر مصيرها » . ومن هنا انطلق « مازاريك » يطلب الحرية للتشيك. غير ان نشاط هذه البادرة الوطنية لم يسلك طريقاً ايجابياً ، كالثورة او العصيان الواسع النطاق . وانما اكتفى التشيكيون بأن يهربوا من الجيش النمساوي في أحرج ساعات المعركة ، مسلّمين انفسهم للروس . وحتى هذا العمل ، كان بدافع التقزز من الحرب لا بفضل الشعور الوطني والميل الى العرق السلافي .

٥ – ايرلندا

واذا لم يكن التشيك قد احسنوا استغلال صيحة اسكويث وتطبيقها ضد امبراطوريتهم ، فقد جاء الايرلنديون الآن يفعلون ذلك . لقد اثبتوا



نساء ايرلندا يهربن الاسلحة الالمانية الى وطنهن لطرد الانكليز

ان اسكويث لم يكن جاداً فيما قال ، واعتبروا صيحته : « كلمة حق أريدَ بها باطل » . فهم مثلاً أحد هذه الشعوب الصغيرة ، ولهم الحق في تقرير مصيرهم . لكن لماذا تصر بريطانيا على استعمارهم !!

كانت ثورة ايرلندا هي الحادث الوحيد المطبوع بالوطنية الشريفة في مساق الحرب الكبرى . فقد كانت ايرلندا منقسمة الى فئتين : الأولى تطالب بالحكم الذاتي ، والثانية تود البقاء خاضعة لبريطانيا ، حتى لو قاتلت مواطنيها في سبيل ذلك .

وكانت الفئتان قد تطوع افرادهما للحرب دفاعاً عن حياد بلجيكا ،

كباقي المتطوعين من جزيرة انكلترا نفسها . لكن هؤلاء الافراد وجدوا انهم يُعاملون باحترام أقل من زملائهم الانكليز ، فامتعضوا من ذلك ، وهنا دخلت المشاعر الوطنية . فأخذ بعض ضباط القبائل من بينهم ينفخون في الجنــود روح الثورة والتمرد . وأخذ هؤلاء يفرّون من الجيش او يقومون بأعمال التخريب في داخله .

منظمة اليد الحمراء

وفي هذا الوقت تألفت في ايرلندا منظمة أطلقت على نفسها اسم « اليد الحمراء » . وكان همها جلب الأسلحة للشباب الايرلنديين ، وتدريبهم عليها ، والفتك بكل من يدعو لبقاء النفوذ الأجنبي في الجزيرة . كانت هذه المنظمة سرية بطبيعة الحال ، وكان الضباط الايرلنديون هم الذين يرسمون خططها ويموّنونها بالسلاح والمدربين . أما كادر الأعضاء فيتألف



متراس نصبه الجمهوريون في دبلن .. ايرلندا

من كل ايرلندي أو ايرلندية يتعشق الحرية . لهذا نجد الفتيات هنّ اللواتي يقمن بتهريب السلاح .. اما مصدره فهو الألمان .

الاتصال بالألمان

كان رئيس هذه المنظمة مجهولاً ، لكن الناطق باسمها في الخارج هو « كاسمنت » ، الذي سبق ان كان قنصلاً لبريطانيا في امريكا . وقد ذهب كاسمنت الى المانيا يطلب المساعدة من أجل القيام بثورة حدّدها في عيد الفصح سنة ١٩١٦ . غير ان القيادة الالمانية لم تتقبل الفكرة ، فماطلته ، اذ كانت تعتقد ان غزو ايرلندا امرٌ غير عملي بالنسبة اليها ، فترفعت عنه . لكنها قبيل « عيد الفصح » انزلت كاسمنت من غواصة اقتربت من شاطىء بلاده .

وفي هذا الحين اعلنت « اليد الحمراء » الثورة . وحين عجزت عن احتلال قلعة الحكومة في دبلن ، اتخذت من مركز البريد مقراً لها .

تصرف اسكويث !

وجُن جنون اسكويث والقيادة البريطانية ، فأُرسل الى الثوار جيش استطاع قهرهم ، بعد ان دمّر اسواق دبلن بشكل مأساوي . وقد دام القتال ٥ أيام . وانه لمن المخزي ان يتصرف الانكليز على النحو الذي صدر منهم تجاه ثوار ايرلندا الوطنيين . ولكن الاستعمار هو الاستعمار ، في كل مكان ، وكل زمان .

وحشية الاستعمار

لقد أعدم الانكليز قادة الثورة رمياً بالرصاص ، وجيء بأحد هؤلاء القادة مريضاً عاجزاً عن المشي فأُطلق عليه الرصاص وهو في كرسي مرضه . اما الضباط الهاربون ، حين تم القاء القبض عليهم ، فقد عوملوا معاملة المجرمين .. لقد عُذبوا بوحشية وسيقوا الى الاشغال الشاقة المؤبدة .

واما الافراد ، حتّى المدنيون ، فقد طوتهم جدران معسكرات التعذيب والاعتقال الرهيبة .

وبعد كل ذلك ثبت للعالم وفي بطن التاريخ ان مفهوم « حق تقرير المصير للشعوب الصغيرة » في نظر بريطانيا (التي أعلنت الحرب دفاعاً عن حياد الشعب البلجيكي الصغير !) هو مجرد هُراء ، حين يصطدم بمصالح الاستعمار البريطاني ..

غريب .. ومناضل

كان واحد من اولئك الزعمـــاء لا يحمل الجنسية البريطانية . انه ديفالبرا .. فتمكن هذا العامل الايطالي المقيم في ايرلندا من القيام بثورة لاهبة فيما بعد ، أحرقت اصابع الاستعمار البريطاني وكانت زيت الايقونة المباركة في نظر الايرلنديين .. وعند ذلك تظاهر البريطانيون انهم اقتنعوا بأن بذور الحرية لا تموت ، حتّى ولو لم تخرج اوراقها في نفس الشتاء الذي بُذرت فيه .

* * *

والآن ، نكون قد ألمحنا بصورة موجزة عن مجمل الاحوال الاجتماعية في دول أوروبا المتحاربة لـ سنة ١٩١٦ . فعلينا ان ننتقل الى الاوساط العسكرية لندري ما هناك .

نحن نذكر ان الجنرالات كانوا يَعِدون ساسة بلادهم ، وبالتالي ، شعوب تلك البلاد ، منذ بداية الحرب ، بأنهم سيحققـــون لهم نصراً مكللاً بالفَخار ..

ونذكر ان الكثير جداً من المواطنين قد خدعتهم الوعود ، ودفعتهم الحماسة الوطنية المنفوخة الى طاعة اولئك الجنرالات دون السؤال عن سبب الحرب . كما نذكر ان الاحزاب ، وهي الهيئات السياسية التي يُفتَرض فيها ان تكون أوعى من الجمهور ، قد اجمعت ، بصورة او اخرى ،

على تأييد الحرب والمباشرة فيها .

وأعلِنت الحرب ...

والتهم الرصاص والقنابل وحيتان البحر عشرات ِ الالوف من الجنود . وعاد الألوف الآخرون الى ديارهم مشوّهين . وانقضت اعوام ١٩١٤ ، ١٩١٥ ، ١٩١٦ والحربُ لا زالت رحاها تدور ..

اين النصر ايها الجنرالات ؟

هذا ما أخذ يطرق اذهان المواطنين في كل دولة مشتركة في الحرب .

وهـــذا ما دعا القادة السياسيين اخيراً لأن يتحركوا . ولكن حركة هؤلاء ظلت كتبريرات « الزوج المخدوع » . انها لم تكن جذرية تنسف الحرب من اساسها ، بل جاءت سطحيّة تستبدل العشيق الشيخ بعشيق يتمتع بالشباب . وكان الجنرالات الكبار انفسهم يتململون نازعين الى التغيير في مراكزهم . ومهما كان الحـــال ، فقد تم استبدال كتشنر بـ « روبرتسون » وهايغ . وتم استبدال جوفر بـ « نيفل » . كما جيء بـ « هندنبرغ » ودماغه « لدندورف » عوضاً عن فولكنهاين . أما في روسيا فقد غُضب على بروزيلوف بعد اندحاره .

هذه هي الدول الأربع ذات النشاط الاكبر في الحرب . اما الاتراك وجنود النمسا وايطاليا فشأنهم ثانويّ بحيث لا يؤثر تبديل القادة عندهم في ماجريات الأمور .

ولندرس الآن ظروف تغيير كل من هؤلاء الجبابرة .

كتشنر

لا نود العـــودة الى تفصيل تعيين كتشنر وزيراً للحرب في وزارة اسكويث . ولا نود ان نذكر أمجاده في السودان ، ثم عمله في الهند . وكل ما يعنينا الآن ان هذا الرجل ظل مطلق السيطرة في توجيه استراتيجية الحرب في بريطانيا طوال ١٩١٤ و١٩١٥ ، والى ان ارسله اسكويث

ليفتش الموقف في حملة الدردنيل ، وجاء بـ « روبرتسون » في غيابه .

ونحن نذكر حين سردنا ذلك في فصول سابقة ان روبرتسون أصبح المسؤول عن استراتيجية الحرب وتحركات الجيوش الأنكليزية في شتى الميادين ، بوصفه مستشاراً للوزارة البريطانية المدنية . لكن هذا سريعاً ما غدا دكتاتوراً مثله مثل كتشنر في السابق .

ونحن نعرف ان السير جون فرنش قد تم الاستغناء عن خدماته بعد فشله في فرنسا ، وأن هايغ قد حلّ محله هناك .

وهكذا كان اسكويث قد استبدل « الجنرال العجوز » بـ « جنرال شاب » ، بل باثنين . اذن ، فهو لم يتخلص من قبضة الجنرالات ، وانما استبدل سيداً له بسيدين جديدين ..

والآن .. ظل شبح كتشنر ، حتى وهو منزوع الصلاحية ، مزعجاً لـ « اسكويث » . انه يود التخلص النهائي منه ولكنه عاجز عن ذلك . لهذا طلب اليه ان يقوم بزيارة الجبهة الروسية علّ « عبقريته ! » تنجح في الميدان الشرقي . وفي طريق كتشنر الى روسيا غرقت المدرعة التي كانت تقلّه عند اصطدامها بلغم الماني بعيد عن الشاطىء في ٥ حزيران (يوليو) سنة ١٩١٦ . ولم تحترم كلاب البحر رتبة كتشنر على الاطلاق . ان أياً منها لم يفكر البتة وهو ينهش وجنتي اللورد والجنرال ومجد الامبراطورية ، او حين نتف شاربيه . حقاً ، ان كلاب البحر لعينة جداً .

جوفر

اذا كان كتشنر قد مات جسداً وروحاً ، فإن جوفر مات روحاً فقط . ذلك انه مات وهو حي . وتفصيل ذلك ان بريان ، رئيس الوزارة الفرنسية كان يلاحظ ارتفاع ارقام الاصابات في الجيوش الفرنسية شهراً بعد آخر . وقد سأل في ذلك جوفر ، فأبدى عدم اكتراث بالأمر

كله . نعم ، لقد اورد القائد لرئيس الوزراء معاذير كثيرة وطمأنه الى عدم الخشية من فقدان الرجال ، ومنّاه بنصر قريب يخلد اسمه على مرّ العصور ، ولكن كل هذا لم يقنع برايّان . كان هذا يقول : « وما هي إجابتي على اسئلة ممثلي الشعب ؟ هل أشبعهم كلاماً ومواعيـــداً ؟ أأقول لهم ان اعتمادنا « نظرية الهجوم » سيقضي على الشباب الفرنسي



الجنرال نيفيل

ان لدينا سر النصر .. هكذا كان يظن !

يوماً ما ؟ أأعلن لهم ان قائدنا قد أخفق حتى في كل مناوشة جابه فيها العدو ؟ أأحيلهم الى لوائح الخسائر في فردون وفي كل معركة قبلها ؟ »

وحين يجيبه جوفر « انتظر النصر القريب » ، يقول برايان : « أكاد اجزم ان النصر الكامل لنا او لهم قد غدا مستحيلاً » .

الجنرال نيفيل وسر النصر !

وصدف ان قام الجنرال نيفيل بهجوم مباغت في منطقة فردون فاستعاد معظم المواقع التي كان الالمان قد استولوا عليها في هجوماتهم السابقة .. وبهذا غدا نيفيل البطل الآني في فرنسا ، اذ أثار في الشعب نوعاً من التنفيس عن جرح عميق طال عليه الزمن . فساعد الموقفُ الشعبي برايان في ان يتخلص من جوفر بسهولة عظيمة . لقد أبقى له شرفه وكفّ يده . والفرنسيون بطبعهم ذوو لباقة وحسن تخلّص . لهذا نرى الحكومة الفرنسية تخترع لـ « جوفر » لقب « مارشال فرنسا » وتحيله الى الاستيداع .

وكانت هذه نهاية غير مشرّفة على كل حال ، مهما طلا وجههـا برايان بأصباغ التزويق .

وبظهور نيفيل وادعائه انه قد عثر على ما سماه « سر النصر » (وان لم يشهد بذلك الاكتشاف احد غير صاحبه) ، أُهيل التراب على سمعة جوفر ، وطواه عالم النسيان . وحين تذكره الفرنسيون بعـد الحرب ، كانوا يقولون : « هنا كبّدنا غرور جوفر وعنادة الأحمق كذا وكذا من الجنود » . اما تلاميذ الكليات العسكرية فيسخرون قائلين : « كان جوفر غبياً الى درجة انه لم يفطن الى تغيّر طبيعة الحرب ، حتى وهو المسؤول الأول في جيش ذاق مرارتها » .

فولكنهاين

هذا هو الرجل العسكري الوحيد الذي كانت خططه وتحركات جيوشه تثبت انه من غير طينة اقرانه . وهو الجنرال الوحيد الذي حدّد ما كان ينشده من حربه ، وسار حتى آخر لحظة من تولّيه القيادة ، في طريق

ذلك الهدف . انه قهر الروس ، لكنه عارض في تعقّبهم . وسحق بروزيلوف ، لكنه أمر بعدم التوغّل في الأراضي الروسية . واجتاح صربيا ، فضمن انحياز بلغاريا ، وأمّن صمود الدولة العثمانية ، واحتجز ٤٠٠,٠٠٠ جندي من الحلفاء في سلانيك .

كل هذه تشهد له .. لكنه اخطأ في عناده في فردون والسوم . ومع انه لم ينكسر في أيّ منها فهو ايضاً لم يحظ برضا غليوم حين جابهه القائد بأن « النصر النهائي في البرّ غدا مستحيلاً . »

غليوم يتحرك !

أضف الى ذلك ان لدندورف عن طريق رئيسه هندنبرغ ظلّ يوغر صدر غليوم على فولكنهاين .. وجاءت فردون والسوم في جانب لدندورف . ثم عقبَ ذلك اعلانُ رومانيا الحرب على المانيا في ٢٧ آب (اغسطس) . فحمّل غليومُ قائده الأعلى مسؤولية ذلك . ومع انه من غير العدل ان يتحمل فولنكهاين مسؤولية قبول حكومة رومانيا الرشوة من الانكليز ، فإن غليوم قرر التخلص منه كقائد عام في المانيا . لهذا نراه يعمد الى استدعائه الى برلين . وقد شعر فولكنهاين بما يعتمل في صدر مليكه ، فقدم استقالته .

وبعد ذلك تم تعيين هندنبرغ كقائد عام ، وان كان لدندورف هو الذي كان يمارس القيادة الفعلية مستتراً وراءه . ولم ير غليوم ان فولكنهاين قد استنفد مقدرته العسكرية ، فعهد اليه حملة رومانيا .

فما هي قضية رومانيا ؟

حتى ٢٧ آب (اغسطس) من سنة ١٩١٦ ظلت رومانيا على الحياد وظل الجانبان المتحاربان يقومان بالدسائس كي تنضم تلك البلاد اليهما . ولكن هذه المملكة ، شأنها شأن بلغاريا وايطاليا ، كانت تود ثمن انحيازها الى اي من المعسكرين . فما هو الثمن ؟

كانت . رومانيا تشكو من ان المجر (وهي احد طرفي الامبراطورية النمساوية) تستولي على مقاطعة منها ، فرومانيا تريد تلك الرقعة من الارض . ولكنها طوال سنة ١٩١٤ ، ١٩١٥ والنصف الأول من سنة ١٩١٦ ظلت تشهد انتصار دول الوسط (بزعامة المانيا) في شتّى الميادين. اذن ، فهي لا تجرؤ على الانضمام الى الحلفاء خشية ان يتم النصر النهائي للألمان ، فتلقى رومانيا عقابها .

مشجعات رومانيا على الحرب !

اما في سنة ١٩١٦ ، وبعد صمود الفرنسيين في فردون ، ونجاح الحلفاء في هجوم السوم ، وانتصار بروزيلوف على الجيوش النمساوية (قبل قدوم الألمان) في الجبهة الشرقية — فقد تهيأ لملك رومانيا ان كفة



فولكنهاين (الرابع الى اليمين) ينتصر في رومانيا

الحلفاء ستكون الراجحة في الحرب . لهذا ودّ التقرب اليهم ومفاوضتهم سراً . وطبيعي ان يلاقي ذلك المسعى هوى في نفوس ساسة الحلفـاء ، فوعده هؤلاء باقتطاع الأراضي التي يطالب بهـا من المجر . هذا كما إستطاع سفراؤهم رشوة الوزارة الرومانية وبعض القادة العسكريين في البـلاد .

وعلى اساس تقدير الملك وبتأثير الرشوة ، اعلنت رومانيا الحرب على المانيا في ٢٧ آب (اغسطس) ، كما ذكرنا .

* * *

كان هذا الوقت في شدة الحراجة بالنسبة لالمانيا . فحملة الروس على غاليسيا لم تزل في عنفوانها ، وفردون لا تزال صامدة ، وهجوم السوم في أوج شدته .. لهذا وجدنا هندنبرغ الذي اصبح قائداً أعلى للقوات الألمانية يغيّر خطةَ سلفه فولكنهاين في الغرب والشرق .

هندنبرغ في خطط جديدة !

١ – الغرب

اما في الغرب فقد ألغى أمرَ فولكنهاين بضرورة الدفاع عن كـل شبر يستولي عليه العدو ، كما عمد الى التقليل من كثافة المواقع الأمامية الألمانية في الجبهة ، وتحول الى خطة بناء خط شديد المناعة وعسير على القوات المهاجمة ان تتخطاه . ذلك هو خط هندنبرغ ، الذي ركّزه الألمان تبعاً لضرورات الاستراتيجية لا خضوعاً لحدود الأراضي المحتلة من فرنسا . ولهذا نجدهم يُخلون بعض القرى وحتى المدن الفرنسية الصغيرة ، بعد مقاومة طفيفة للغاية . كانوا لا يهتمون الا بالحقائق الصلبة في «أين يجب ان يكون خط الدفاع » ، بخلاف الفرنسيين الذين يهمهم «تحرير»

كل فدان من ارض بلادهم ، بحكم المشاعر الوطنية .

٢ - في الشرق

واما في الشرق ، فقد قرر هندنبرغ ان يضرب ضربته . لهذا توجهت الجيوش الألمانية الى غاليسيا فصدّت تقدم الروس اول الأمر ، ثم سحقت جيوشهم فيما بعد . كل ذلك لمساعدة النمسا التي أثبتت عجزهـا عن الوقوف على قدميهـا ، بعد ان هاجمها الروس والايطاليون في نفس الوقت . واذا كان بروزيلوف قد انتصر فإن الايطاليين قد خسروا ٣٠٠ كيلومتر من ارض بلدهم . كما ان حوالي ٣٠,٠٠٠ منهم قد استسلموا بكل جبن ، للقائد النمساوي . وهذا شأن الطليان .

فيالق الالمان عبر رومانيا

وحين انتهزت رومانيا هذه الظروف واعلنت الحرب ، صار لزاماً



خط هندنبرغ في الجبهة الغربية

على الألمان ان يؤدبوا ملكها ، فجاء فولكنهاين حيث اصطدم بالجيوش الرومانية في ترانسلفانيا . وقد ساعدت الرومانيين طبيعة الأرض ، فتمكنوا من الصمود فترة امام فولكنهاين . لكن جيشاً آخر بقيادة المارشال «مكنزن» كان قد زحف في هذه الأثناء على رومانيا ، واستطاع ، بمساعدة البلغار ان يحتل (دوبرجا) ويأسر قوة رومانية كبيرة هناك .

وحينئذ حاول الجيش الروماني الدفاع عن داخل البلاد ، اذ ان مكنزن قرر التوجه الى بخارست نفسها ، وكان قد غدا على بعد ٤٠ ميلاً بعد سقوط «كونستانزا» في يديه في ١٨ تشرين الأول (اكتوبر) . فاغتنم فولكنهاين الفرصة ، واجتاز ترانسلفانيا بعد ان سحق الجيش الروماني المقاوم وسار باتجاه بخارست . وحين سقطت بخارست في يد فولكنهاين ومكنزن ، تم النصر للالمان في جميع المملكة الرومانية . وكـان ذلك نجاحاً كبيراً لفولكنهاين .

اسباب السقوط

لكن ، لماذا سقطت رومانيا ذات الجيش الذي يبلغ (٥٩٠) الف جندي في فترة لا تتجاوز ٤ أشهر ؟

لذلك أسباب كثيرة أهمها ما يلي :

١ — كان ملك رومانيا قد اتفق مع الحلفاء على ان تقـوم قواتهم المرابطة في سلانيك بالهجوم (عبر اليونان) على بلغاريا في نفس الوقت الذي يهاجم فيه الرومانيون النمسا . لكن قيادة الحلفاء في سلانيك اعتذرت عن تنفيذ الاتفاق ، خشيةَ ان يفشل هجومها . فوقف الرومانيون وحدهم في الميدان .

٢ — ان الجيش الروماني كان فاسد الادارة ، ضعيف التسليح ، ذا قادة أغبياء من حيث اصول التعبئة العسكريـة ، فهم لم يُبقوا له احتياطاً أكثر من ٥٠ الف رجل .



الفيلد مارشال مكنزن يخرج من
الكنيسة بعد قداس في بخارست

٣ — كانت الرشوة تنخر جسد القيادة العامة الرومانية الى درجة ان الألمان كانوا يعرفون الخطوات التي سيقوم بها ذلك الجيش .

٤ — كان الألمان والبلغار أقوى بما لا يقاس من الجيش الروماني وحده .

* * *

البترول .. والتخريب !

وهناك مسألة يجدر بنا ألا نُغفلها في حرب رومانيا ، هي البترول . ان «كونستانزا» بلد شهير باستخراج البترول ومعامل تكريره . ومن

شأن سقوط تلك المدينة في يد الألمان ان يقوي الانتاج الحربي لديهم ، فيما لو تسلموا معامل التكرير صالحة للعمل . وهذا ما يخشاه الحلفـاء . وبخاصة وهم يعلمون ان الانتاج الحربي في كل من فرنسا وبريطانيا كان يتحمل فوق طاقته في ذلك الحين .

اذن ، ما العمل ؟

على هذا التساؤل أجابت الاستخبارات الانكليزية : « في وسعنا أن نخرّب منشآت البترول » . ان ساسة بريطانيا لم يفكروا آنذاك في انهم يدمرون ثروة الشعب الروماني .. كان كل ما يهمهم ان لا يستولي العدو على وقود لماكينة حربه .

وحين تتكلم الاستخبارات في دولة من الدول ، وعن قضية في ارض دولة اخرى ، فاعلمْ ان عمل الجواسيس والعملاء سيظهر عما قريب. كان الحلفاء يفرشون لأغراضهم بالذهب . والقابلون للاستئجار كثيرون دوماً في أي بلدٍ متأخر مثل رومانيا ، ومرافقون دوماً لوجود النظـام الملكي .

وهكذا أشعل جواسيس الانكليز النار في نفط كونستانزا ، وظلت النار تلتهمه مدة طويلة .. وبهذا لم يستفد الألمان من ذلك النفط الا قليلاً .

هندنبرغ يواجه الواقع في القيادة :

لم يخطىء قادة الحلفاء ، السياسيون منهم والعسكريون ، حين قدّروا ان تغييراً في خطط الألمان سيتم بعد ان تغيرت القيادة العليا في برلين ، اذ تسلمها هندنبرغ . وكانوا يوقنون ان لدندورف هو الذي سيكون القائد الفعلي ، وانْ لبس هندنبرغ فروة الأسد . وبالفعل ، وكما ذكرنا آنفاً ، حصل ذلك التغير في الميدان الشرقي والغربي على السواء . ولكنه

كان لصالح الالمان ايضاً . فخاب فأل روبرتسون ونيفل، واسكويث وبرايان .

لكن، أهمُّ من تغيّر وجه المانيا الخارجي، كان ذلك التغير الداخلي فيها . ففي برلين ادرك هندنبرغ الآن صواب نظرة فولكنهاين في ان النصر الكامل اصبح مستحيلاً على اي من الطرفين المتحاربين . كما ارتد ايضاً الى رأي سلفه في ان « حرب الغواصات الواسعة النطاق جداً ، هي التي قد تؤثر في سير الحرب » . واهم من ذلك ، ان لدندورف غدا مستعداً لأن يخطو خطوة ايجابية في سبيل الحصول على « سلم تتم فيه المصالحة ببعض الشروط الموافقة لألمانيا » .

من الذي دفعه الى ذلك ؟
المستشار بتمان .

ربما كان من الانصاف القول : ان مستشار المانيا في الحرب العالمية الأولى ، وهو « بتمان » ، كان اوعى سياسيي اوروبا في تلك الفترة . فهو لم يكن يؤمن بأن الحرب ستنتهي الى هزيمة نهائية ، لا لألمانيا ولا لأعدائها . ولهذا أبقى في رأسه كلمة « الصلح » .

ولما كان وضعه كمستشار لدولة كبرى منغمسة في الحرب ، لا يسمح له بالافصاح عن آرائه او العمل لها بصورة علنية ، فقد سارّ بها بعض خلصائه ، وكان ينتظر من الجنرالات والادميرات ان يتوصلوا الى تلك الآراء بأنفسهم آخر الأمر .

وحين وجد من فولكنهاين عناداً ، عندما اصدر اوامره بمحاولة استرجاع كل شبر في السوم وفردون ، عمل بتمان على ابعاده . وكان يأمل من المجيء بهندنبرغ ولدندورف ان يجدهما اكثر تعاونـاً معه ، واقرب الى الاقتناع بوجهة نظره .

حياد الولايات المتحدة

لكن تقدير بتمان خاب تماماً . فبعد جوتلند (كما اسلفنا) تحولت



النفط الملتهب في كونستانزا ..
والدخان يبدو خلف المئذنة والمسجد

استراتيجية الحرب في نظر المانيا الى سلاح الغواصات ، واستعماله في حرب واسعة النطاق . وكان هذا مما يخشاه بتمان . فهو يبذل كل جهد يستطيعه لابقاء الولايات المتحدة على الحياد . ويرى ان ذلك سيغدو غير ممكن ، اذا أغرقت الغواصات الألمانية سفناً امريكية .

وهكذا تبدى التناقض في سياسة المانيا إبان الحرب .

فالقيادة العامة تمنّي القيصر بإماتة بريطانيا جوعاً ، بعد ان تقضي

الغواصات على اسطولها .. اما المستشار فيخوّفه من انضمام الولايات المتحدة الى الحلفاء ، اذا ما نشط سلاح الغواصات وتجاوز حدوده .

وحين يصطدم السياسيون بالعسكريين ، ينتصر العسكريون في الغالب ، وبخاصة اذا كانت الظروف آنذاك ظروف حرب .

وطبيعي ان ينعكس هذا الموقف الألماني المتناقض على الحرب بكاملها . اذ ان هذا التناقض سيبرز مثله في كل دولة مشتركة في الحرب . لنأخذ بريطانيا مثلاً :

الحل الوحيد هو المصالحة

١ - بريطانيا

كان في بريطانيا سياسيون يدركون تمام الادراك ان احراز نصر نهائي في الحرب قد غدا مستحيلاً . وكان هنالك بعض القادة العسكريين ايضاً من هذا القبيل . وكانت الفئتان تقولان : « كما اننا لا نستطيع النصر على العدو كذلك فإن العدو لا يستطيع الانتصار علينا . اذن ، فالحل الوحيد هو قبول المصالحة . لكن أية مصالحة ؟ ان الألمان يريدون ان يتم ذلك على أساس « الوضع الراهن » . فما هو « الوضع الراهن » الذي يعنونه ؟ نحن نقبل بأن تعني كلمة « الوضع الراهن ». الحدودَ الدولية التي كانت يوم اعلان الحرب سنة ١٩١٤ . اما الالمان فيجعلونها حدود مواقع الخنادق الحالية في خريف سنة ١٩١٦ . وما اعظم الفرق بين التحديدين ! » .

المصالحة ايضاً
٢ - الالمان

ولننتقل الآن الى افكار طائفة « المصالحة » من الالمان .

يقول هؤلاء :

« نعم ، لن ينتصر الحلفاء . ولكننا لن ننال نصراً نهائياً عليهم ايضاً . اذن ، تبقى المصالحة . ونحن نقبل هذه على أساس الحدود الحالية . فالارض

التي استولى عليها جنودنا يجب ان تبقى في حوزتنا لأننا اخذناها « بحق الفتح » . وهذه الأرض من شأنها ان تحمي ظهورنا ضد حرب انتقامية يشنها الحلفاء فيما بعد . نعم ، اننا قد نتنازل عن بعض المناطق المحتلة ، ولكننا لن نتنازل مطلقاً عنها جميعاً . فبولندا ، مثلاً ، ضرورية لنا كدولة واقية بيننا وبين روسيا . ونفوذنا في بلجيكا يجب ان يُحتفظ به توسيعاً لتجارتنا البحرية » .

ومن مجمل ما تقدم نستطيع ان نفهم ان العقلاء من الجانبين في الدول المتحاربة ، كانوا ، حتى حين يحاولون الخلاص من ورطة الحرب ، يرتطمون بصخرة المستحيل . فكيف يرى المتطرفون يا ترى ؟

ماذا يرى روبرتسون ولويد جورج !

يرى روبرتسون وهايغ ، ثم لويد جورج ، ان المواطنين البريطانيين لن يرضوا بأقل من احراز نصر نهائي على المانيا . فقد دخلوا الحرب على هذا الأمل . اما اذا فشل العسكريون والسياسيون في تقديم هذا النصر ، فإن مراكزهم تغدو في خطر . وهم يغلفون « الخوف من ضياع مراكزهم » ، بدعاوى « الخوف على هيبة بريطانيا » .

ومثل ذلك يرى نيفيل ولدندورف وقيصر روسيا .

ماذا كانت النتيجة من هذا الموقف ؟

لقد استمرت الحرب ..

ومع استمرارها استمر التناقض الجذري يفعل فعله . فغدت المانيا ، برأي بتمان ، لا تنشد نصراً نهائياً ، وانما اقصاء روسيا من الميدان ، سواء تم ذلك عن طريق المفاوضات او التحطيم العسكري . ولما كان التحطيم العسكري في حال بلاد شاسعة كروسيا ، يغدو مستحيلاً ، فقد ظلت المفاوضات هي السبيل الوحيد لذلك الغرض .

اليك تصويراً لرأي بتمان بهذا الخصوص :

« ليست روسيا شديدة الاهتمام بأن ينتصر حلفاؤها في الغرب ، كما انها توقن انها عاجزة عن الحصول على نصر في الميدان الشرقي . ان كل ما تأمل فيه حكومة القيصر هو « حفظ شرفها » امام شعبها . ولما كان الالمان لا يطمعون في ضم اراضٍ زراعية في الشرق بقدر حرصهم على ابقاء المناجم والمناطق التعدينية التي احتلوها من فرنسا ، في ايديهم ، فإنه يمكن ارضاء حكومة القيصر فيما لو عرضوا التخلي عن الممتلكات الروسية المحتلة » .

على هذا الأساس تقدّم بتمان بعملية « جس نبض » لحكومة روسيا . لقد عرض ان يرجع الالمان في الشرق الى حدود سنة ١٩١٤ . وكان القيصر على وشك الاستجابة لهذا العرض السخي من عدوٍ منتصر ، لكن ظروفاً جديدة في المانيا سدّت عليه الطريق .

ماذا يرى غليوم !

اما تفكير القيصر الالماني حينذاك فقد لخصه تقرير نشره البلاشفة فيما بعد . ومجمله :

« ان انتصار روسيا في ميدانها يكاد يكون مستحيلاً ، والشعبُ ناقم قد تستغل نقمته عناصر مشاغبة من المثقفين والعسكريين المشتركين في الحرب ، ولا يهم البلاط القيصري ان تنتصر بريطانيا وفرنسا ونظرياتهما في ان يحكم الشعب نفسه . وما دامت الروسيا ستستعيد كامل أراضيها .. فلا مانع من مفاوضة الالمان في مسألة عقد الصلح » .

رأي لدندورف

كانت الظروف الجديدة في المانيا هي ازدياد نفوذ لدندورف في القيادة العامة ، حيث رفض هذا القائد فكرة الانسحاب من اراضٍ احتلها هو ورئيسه هندنبرغ . اذ ما الذي يبقى من مجده العسكري في تلك الحال ؟!

هذا علاوة على ان فكرة الحصول على مصدر لمجنّدين جدد . كانت مستحوذة عليه آنذاك . وكان يقدّر ان بولندا يمكن ان تكون ذلك المصدر .

اغراء البولونيين بالخدمة !!

لكن ، ما الذي سيغري الوف البولونيين بالخدمة في جيوش المانيا ؟ هكذا سأل لدندورف نفسه . وفي كلمة واحدة ظن انه عثر على «الطُعم» . انه ، « وعدٌ باستقلال بولندا » .

وأعطي ذلك الوعد في ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٦ .. فلا البولنديون آمنوا بجدّية الالمان فيه ، ولا روسيا آمنت بأنه مجرد لُعبة . اما البولنديون فلم يتجنّد منهم الا ١٤٠٠ رجل ، بينما كان لدندورف يأمل ان يحصل على نصف مليون . وأما الروس ، فقد رفضوا اية فكرة في مفاوضات الصلح بعد وعد الاستقلال المذكور . وذلك لانهم كانوا يعتبرون بولندا ارضاً روسية لا يجوز فصلها .

وهكذا اصبح موقف لدندورف في الميدان الشرقي مضحكاً . فالجنود (الالمان) هناك غدوا يحاربون (روسيا) من اجل تنفيذ الوعد باستقلال (بولندا) ، التي يرفض اهلها المشاركة في الدفاع عن استقلالهم !!

بتمان ومفاوضة الحلفاء

بعد ان افشل بروز لدندورف خطةَ بتمان في عرض المصالحـــة مع روسيا ، التفت المستشار صوب بريطانيا وفرنسا . اما ما دفعه الى محاولة عرض التفاوض معها فهو ، كما اسلفنا ، ما كان يراه من انحراف القيادة العامة في بلاده نحو تطبيق مبدأ « حرب الغواصات الشاملة » ، وخشيته من ان يؤدي ذلك الى انضمام الولايات المتحدة الى جانب الحلفاء .

وفي ١٢ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩١٦ ، اصدرت الحكومة الالمانية « مذكرة سلم » تورد فيها عرضاً غامضاً لانهاء الحرب ضد الحلفاء .

لم تأتِ المذكرة على شروط معينة ، مهما كانت فقد كان المستشار بتمان يعني من غموضها اشياء كثيرة اهمها :

١ — احتفاظ المانيا بمناطق الفحم والتعدين الفرنسية .

٢ — ابقاء بلجيكا خاضعة للنفوذ الالماني ، وان كانت مملكةً مستقلة في الظاهر .

٣ — الحصول على الكونغو البلجيكية في افريقيا .

٤ — جعل بولندا درعاً لالمانيا ضد هجومٍ روسيٍّ محتمَل ، وابقاءها منطقة نفوذ المانية .

وقد رفضت بريطانيا وفرنسا تلك المذكرة رفضاً باتاً .

* * *

واذا كانت معضلة « العجز عن احراز النصر » قد خلقت تناقضاً ظاهراً في سياسة المانيا ، ومحاولات جدية للخلاص من تلك المعضلة ، فهي ايضاً قد انتجت مثل ذلك في بريطانيا وفرنسا . ففي فرنسا برز «نيفل» و « سر النصر !! » الذي ادّعاه ، كما برز بريايّان وسعيه للخلاص من ورطة الحرب بثمن يحفظ له رئاسة الوزارة في بلادة . وفي بريطانيا برز التناقض بين اسكويث المتردد ، ولويد جورج المتطرف . وأهم من ذلك كله : تدخّل الولايات المتحدة كوسيطة في الصلح .

ما هو تطرف لويد جورج ؟

في أواخر كانون الأول (نوفمبر) سنة ١٩١٦ صرّح الناطق بلسان حزب الاحرار في مجلس العموم البريطاني ، اثناء انعقاد الجلسة قائلاً : « اننا سنخسر الحرب » . فردّ عليه لويد جورج : « كلا . لن يتم ذلك . ان علينا ان نضرب العدو حتى يستسلم » . وأيد زعيم حزب المحافظين

كلام لويد جورج . فشجّع الموقفُ لويد جورج على ان يطلب من رئيس الوزراء (اسكويث) ان يجعله مسؤولاً أول عن شؤون الحرب

وبدا ان اسكويث قد وافق على ذلك . لكنه عاد فغيّر رأيه وقرر التخلص من لويد جورج . ولما كان اسكويث يعتقد بأنه حجر الزاوية في اية وزارة جديدة ، فقد قدّم استقالته الى الملك . كل ذلك ليطرد لويد جورج من الوزارة . الا ان الملك حين تشاور مع رؤساء الأحزاب في البرلمان ، وجدهم اميَل الى قبول تكليف لويد جورج بتشكيل الوزارة ، فعهد اليه بذلك .



عجوزا استعمار .. لكن النصر حلو ..
لويد جورج .. وتشرشل

وفي ٥ كانون الأول (ديسمبر) شكّل لويد جورج الوزارة ونال ثقة البرلمان ، حيث ضمن تصويت اكثرية حزبي الاحرار والمحافظين الى جانبه .

وفي اليوم ذاته اعلن بأنه سيجلب النصر ، مع ان الأوساط السياسية العليا كانت آنذاك تتحدث عن « مفاوضات الصلح » . وبذلك فرض لويد جورج على نفسه الالتزام بنظرة : ان الحرب يمكن ان تُكسب . فلما اصدرت الحكومة الالمانيـــة « مذكرة السلم » في ١٢ كانون الأول (ديسمبر) ، اي بعد اسبوع واحد من رئاسة لويد جورج — وجد الرئيس نفسه في موقف لا يسمح له بالنظر في تلك المذكرة . لهذا نجده يواجه مجلس العموم في ذلك اليوم بخطاب كله شتم وسباب وبذاءة لـ « بتمان » ، ودون ان يخوض في بحث المذكرة . وبذلك انطبعت صورة عامة في اذهان الناس تعتبر ان وزارة لويد جورج انما جاءت للرد على سياسة بتمان .

الولايات المتحدة والتفاوض

كان الحال خلاف ذلك في الولايات المتحدة ، اذ وجد الرئيس ويلسن في « مذكرة سلم » المانيا ، فرصة سانحة لتدخله كوسيط . ونحن نعرف من قبل ، ان الولايات المتحدة ظلت حريصة على حيادها على الرغم من شعورها بالمضايقة من الحصار البحري البريطاني ، ومن اغراق الغواصات الالمانية سفينة (لوزيتانيا) الامريكية .

وانطلاقاً من « الفرصة السانحة لتخليص العالم من ويلات الحرب » (كما قال الرئيس ويلسن) ، وجهت حكومة الولايات المتحدة الى المانيا والحلفاء في ١٨ كانون الأول (ديسمبر) دعوة للتفاوض من أجل الصلح .

وحينذاك فقط فكّر لويد جورج وبرايـّـان عن ردٍّ يقدمانه للرئيس ويلسن ، ويكون مقبولاً لدى شعبيهما وجنرالات الحرب في الميدان .

وفي ١٠ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٧ كان الجواب الذي تسلمه الرئيس ويلسن يضم المطالب التالية :



تلامذة كلية ايتون الارستقراطية .. يشتغلون ايضاً للمجهود الحربي .. هكذا شاء لويد جورج

شروط .. فيها مجاملات

١ ــ ان يتم انسحاب الجيوش الألمانية من جميع الأراضي التي احتلتها إبان الحرب منذ سنة ١٩١٤ .

٢ ــ ان يجري التعويض على بلجيكا وعلى حساب المانيا .

٣ ــ ان تضمن المانيا احترام الاتفاقيات الدولية بشأن الحدود في البر والبحر بحيث يتعذر عليها القيام بهجوم غير عادل على أية دولة اخرى.

لم يستطع اصحاب الرد ان يذكروا استقلال بولندا ووعد الألمان بذلك ، خوفاً من ازعاج الحكومة الروسية بهذا الصدد . وحين تسلّم الأمريكيون ذلك الرد ، لم يقتنعوا به . اذ كان الرئيس ويلسن ينزع الى المثالية في افكاره . لهذا نراه يقترح « حق الشعوب الصغيرة في تقرير مصيرها » كمبدأ اساسي يجب ان يُنظر اليه في عالم ما بعد مفاوضات الصلح . وطبيعي ان المانيا لن تخسر شيئاً ، حتى لو قبلت ذاك المبدأ .

الامبراطوريات العتيقة هي الخاسرة
وموقف عجيب !!

لكن ، ما الذي يحدث لامبراطورية النمسا ــ المجر ؟ انها تتفكك، بل ربما زالت من اساسها .

وكذلك روسيا . هل تظل بولندة خاضعة لها في تلك الحال ؟

ومثلُها الدولة العثمانية . ألا تتحول الى انقاض متبقية من امبراطورية خربة وعتيقة !!

والحق ، ان هذا الاقتراح لم يكن يروقُ لبريطانيا وفرنسا . فقد دخلت الدولتان الحرب ضد المانيا اولاً واخيراً . انهما تحاربان الامبراطورية النمساوية والدولة العثمانية لأن هاتين الدولتين حليفتان لألمانيا ، لا لسبب غيره . والآن ، ومع حق تقرير المصير ، المقترَح ، تجد الحليفتان الغربيتان نفسهما تعملان لتحطيم النمسا وتركيا ، لا المانيا . فيا لها من

نتيجة عجيبة !! وهل يرضى الشعب البريطاني والآخر الفرنسي ان يدفعا الثمن الباهظ الذي كلفتهما إياه الحرب — من اجل تحرير صربيا ، والتشيك ، والسلاف ، والعرب ، من حكم آل هابسبورغ وسلاطين الاتراك!!

ان هذا ما لم يطرق خلد لويد جورج او اي سياسي او عسكري سنة ١٩١٤ . حينذاك كان الهدف ينحصر في « النصر على المانيا » . لكن ، ها هو الآن ينقلب الى « اقصاء النمسا وتركيا من الحرب » ، فيا لـ « ويلسن » من محوّر للأهداف !!

* * *

ماذا يطلبون ؟

لو تم اجراء المفاوضات في ذلك الحين ، لتغيّر وجه التاريخ الذي تلا . ولربما كانت الحرب العالمية الثانية لم تقم سنة ١٩٣٩ . و .. و .

لكن ، ليس من مهمة دارس التاريخ ان يقدّر ما كان من المحتمل ان يحدث ، فدعنا نرجع الى الوقائع لنرى الموقف من زوايا مختلفة :

الجنود في الجبهة يطلبون انهاء الحرب على أية صورة .

والمواطنون في كل بلد متضايقون جداً من اوضاعهم الآنيّة

والعسكريون قسمان : فئة أدركت استحالة النصر لها او عليها ، فهي تحاول الحفاظ على شرفها العسكري والتحايل من اجل عقد مفاوضات الصلح . وفئه اخرى بليدة الادراك ، لا تزال تحلم بامكانية سحق عدوها ، مثل نيفل و « سرّه » وهايغ و « خطة حملة الفلاندرز » لديه .

السياسيون هم الذين يعقدون الأمر

فلويد جورج مثلاً ، ورّط نفسه في التزامه بـ «جلب النصر» . وبرايان يخشى مجابهة الفرنسيين بالحديث عن الصلح ، بينما « الالزاس واللورين» و « شمال شرق فرنسا » لا تزال خاضعة للالمان . و « بيتان » يطمع في الحصول على « توسع » لألمانيا على حساب بلجيكا وبولندا ..

واخيراً ، وليس آخراً ، يأتي ويلسن من امريكا فيقترح مبدأ «تقرير المصير» ، مبقياً بذلك لألمانيا قوتها ، ومحطماً النمسا وتركيا . وهما الحليفتان الأضعف للمعتدين الألمان .

فهل يُعقل بعد ذلك ان تنجح النوايا الحسنة ؟!

واذا كنا قد اغفلنا ، حتى الآن ، واقعَ من يطلب الصلح ، فمن الواجب ان نقول : ان شروط المانيا كانت مرفوضة في نظر الحلفاء ، ومطامح الحلفاء ترفضها المانيا .. ولن يقبل اي من الطرفين بشروط الآخر الا حين يكون القابل في وضع هو اقرب الى الانهزام الكلي . لكن ، حينذاك لن يقبل من يكون في وضع هو أقرب الى الانتصار .

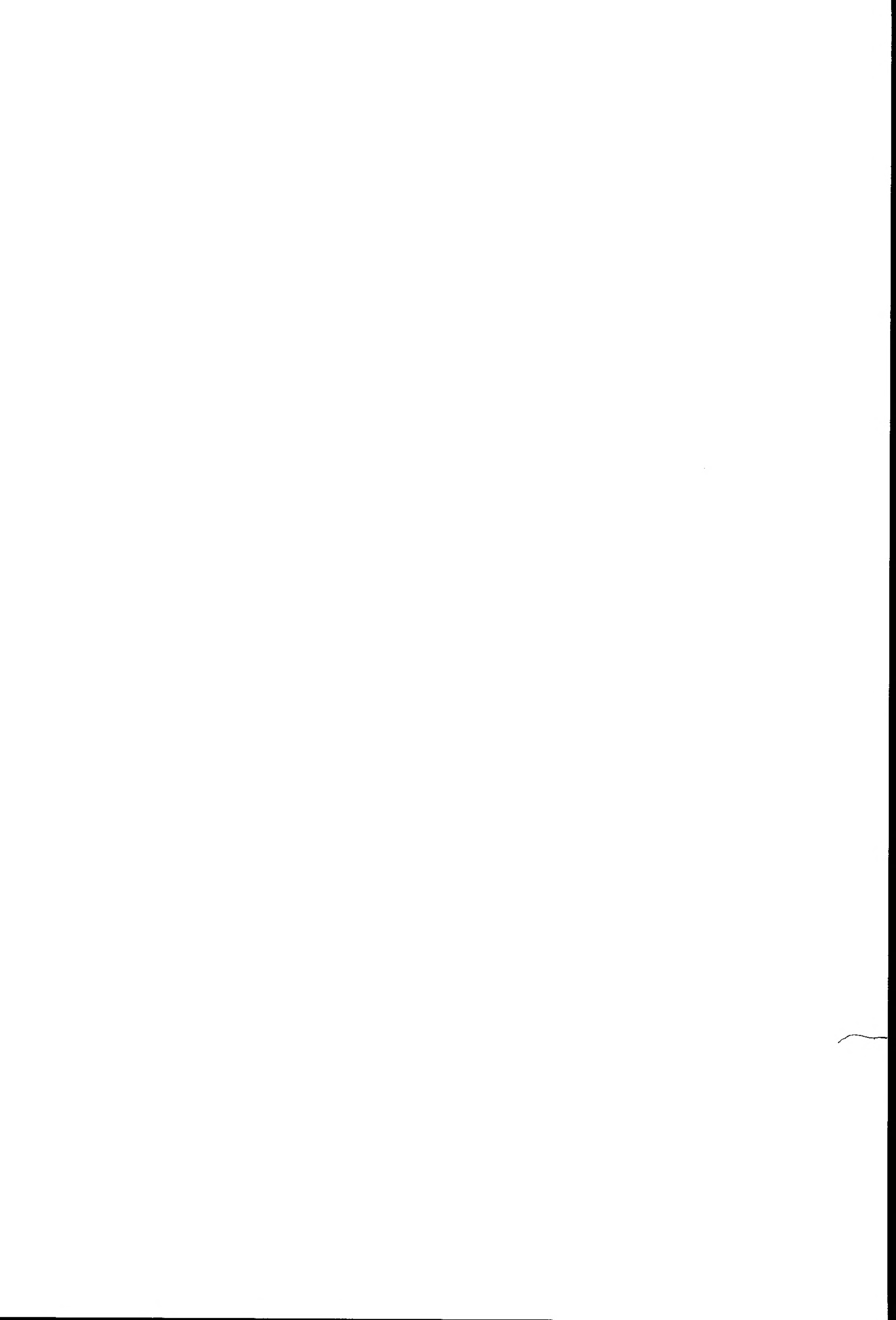
وهذا ما يزيد تعقيد المشكلة ..

فماذا يفعل الساسة للتخلص منها ؟

لقد غدا الاستمرار في الحرب اقل تعقيداً من إنهائها . فاستمر الساسة في الحرب ، كما اسلفنا . وهذا ما يطلق عليه المؤرخون « معضلة ١٩١٧» .

الفَصْلُ الرّابع

١٩١٧



السنة الحاسمة

لا نكاد نتجنّى على الحقيقة اذا قلنا : ان ١٩١٧ هي السنة الحاسمة في الحرب العالمية الأولى ، آخذين بعين الاعتبار ان معــارك ١٩١٤ ، ١٩١٥ ، ١٩١٦ مع ضخامة الخسائر فيها -، لم تكن قد غيّرت نوع الحــرب عن سابقاتها في العصور السالفات . اما ما يدفعنا الى ذلك القول فهو ، حدثان اثنان وقعا في سنة ١٩١٧ ، فغيّرا مجرى الحرب بكامله، بل مجرى تاريخ البشرية اللاحق لتلك السنة . وهذا الحدثان هما :

١ — قيام الثورة البلشفية في روسيا ، وتحوّل الامبراطورية الاقطاعية هناك الى « اتحاد جمهوريات اشتراكية سوفياتية » وطفرة التصنيع فيها.

٢ — دخول الولايات المتحدة ساحة الحرب ، بعد ان ظلت منعزلة عن التدخل في السياسة الاوروبية والعالمية من قبل .

ومن غير هذين الحدثين تصدق حكاية « لو عاد نابليون » .

لو عاد نابليون !

« لو عاد نابليون الى ساحة القتال في فرنسا في الحرب العالمية الأولى، لوجد ان طريقته في رسم الخطط هي التي يجري عليها الجنرالات القادة،

وان كانوا قد ضخموا محتوياتها من حيث السلاح والجنود * . امـــا لو تطلع الى خارطة اوووبا ونوعية حكم الدول فيها، لأبصر قيصراً في روسيا وامبراطوراً في النمسا وملكاً في بريطانيا ، وآخر في البلجيك وثالثاً في ايطاليا ، وسلطاناً في الاستانة . ولما راعه انْ تحوّلَ أحد مماليك مصر الذين كانوا ايام حملته ، فغدا حفيداً لقائد ارناؤوطي جاء من البانيا ، وهو الآن يتلقب بـ « خديوي » .

فهل يفعل نابليون في زيارته شيئاً ؟

لا شك انه سيضحك ملء شدقيه ، ثم يضع كفه في جيب صدارته كما كان يفعل في حياته ، ويلتفت الى سائق عربته ويقول :

« لقد تقدمنا في العالم الآخر ** كثيراً طوال هذا القرن الذي غبتُ فيه عن هذه الدنيا ، لكن أنظر الى هؤلاء (ويشير الى سكان اوروبا) انهم لا يزالون حيث كانوا .. » .

وبعد ذلك يأمر السائق بالرجوع الى العالم الآخر ، احتقاراً لعقليـــة القادة العسكريين الذين رآهم نابليون في الميدان .

نحن نرد على هذا القول :

« قد يصح ان يفعل نابليون ما افترض له المؤرخ اذا كانت الزيارة في مطلع سنة ١٩١٧ ، اما ان كانت بعد ذلك بشهور ، فلا شك ان نابليون سيقف ذاهلاً من التغير الذي طرأ . انه سيتطلع الى روسيا فيجد حكومة للبلاشفة . وهذه اول حكومة من نوعها في التاريخ ، ومبادىء لا يمكن ان يتعرف عليها نابليون . واذا كان عام ١٩١٦ قد تقبّـــل

---

* اشارة الى اعتماد مبدأ « الكم » في الجيوش .

** لا شك انه يعني التقدم في مجال سلمي .. اذا كان هنالك تقدم ما ، والا ، أترى نابليون يقود جيشاً من الملائكة ام الهالكين !



ان صولجان البلشفية يهز اوروبا ويرعبها .. سنة ١٩١٧ (لينين)

حبس برتراند رسل في بريطانيا وكارل ليبكنخت في المانيا ، لأن الرجلين اعلنا وقوفهما ضد الحرب وقاما يدعوان لذلك في ساحات لندن وبرلين، فإن عام ١٩١٧ لن يفعل ذلك . انه سيأتي بلينين ليوقف الحرب كرئيس دولة مشتركة فيها ، لا كخطيب في الميادين .

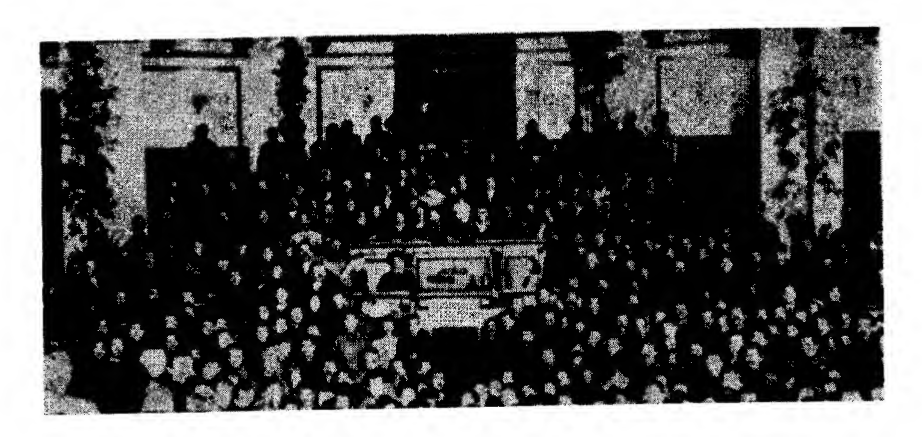
وسيتطلع نابليون الى اميركا، فيجد الولايات المتحدة دولة جبارة قد مدت إصبعها الى السياسة الاوروبية ، ولسبب جديد .

وفي المانيا سيجد حرباً جديدة ايضاً هي حرب الغواصات .

اما اذا ادار وجهه الى مصر ، تلك البلد التي غزاها فقاومه الانكليز والسلطنة العثمانية هناك ، فإنه سيجد ان المصريين لا يساعدون السلطنة ،



هذا صوت يرتفع ضد الحرب ومجازها
وحتى في وسط برلين . انه كارل ليبكنخت



مجلس « سوفييت جميع روسيا » ..
انه يعلن انهاء الحرب

وانهم لم يثوروا كما قدّر جمال باشا، ايام حملة الاتراك على قناة السويس.

وحتّى في فرنسا ، سيرى نابليون ان روح الاندفاع الهجوميـة التي عهدها في ايامه ، قد فارقت الفرنسيين الى غير رجعة . وها هو بيتان يرتكز في مجمل خطته الحربية على الدفاع » .

ومهما كان الحال ، فنحن نعلم ان نابليون لن يعود ، فما بالنا نقلق بتقديراته ! لقد طوته « سنت هيلانه » في سنة ١٨٢٠ ، ونحن الآن في ١٩١٧ .. فعلينا ان نرى ١٩١٧ لا غيرها .

وما دمنا قد ذكرنا الحدثين البارزين في تلك السنة ، فانه ينبغي ان نتكلم عن طبيعتهما باختصار ، استباقاً لتفصيل ذلك فيما بعد .

لينين .. ويلسن
مثاليان

يرى الكثير من المعلّقين على احداث سنة ١٩١٧ ان لينين ، رجلَ الثورة الروسية ، وويلسن ، رئيسَ الولايات المتحدة آنذاك .. كـانا

ينطلقان من نزعة مثالية ، وان اختلفت نظرة الواحد منهما عن نظرة الآخر . ويقولون : « كان لينين يَعِد بخلق جنّة في الارض ، غافلاً عن ان الكمال الذي يسعى الى بلوغه مستحيل ، وكان ويلسُن يَعد بعالم يقوم على اساس « القوة للحق » ، غافلاً ايضاً عن ان هذا كمال وان هذا الكمال الذي يتصوّر بلوغه مستحيل . »

ثم يعطفون على ذلك :

«ولهذا نجد ان مثالية ويلسن قد فشلت تماماً حين اصطدمت مع ألاعيب « سياسة الواقع » كما فهمها لويد جورج وكليمنصو ، وان مثاليّة لينين قد فشلت ايضاً حين برز التناحر بينه وبين زملائه * ، وحتى شعبِه الذي جاء لينين ليخدمه . »

قول مردود

١- الفلسفة

والواقع ان الكثير من قول هؤلاء مردودٌ .

فاذا كانت المثالية بمعناها العام تصح نسبتها الى ويلسن ، فهي متعذرة في حال لينين . ذلك ان المثالية مذهب فلسفي ، تنطلق منه تصرفات معتنقه جميعها . وهذا صحيح بالنسبة الى ويلسن . اما لينين ، فقد سار في درب مذهب فلسفي آخر ، يناقض فكرة المذهب الأول . بل انه جاء ليثبت فشل ذلك المذهب .

فلينين يعتمد على « المادية » ، خالقاً بذلك تطبيقاً جديداً لفلسفة

---

* قد يصح هذا عن ستالين لا لينين

ماركس وانجلز اللذين يقولان عن هيجل «لقد جعل الفلسفة المادية تمشي على رأسها بدلاً من سيرها على قدميها » .

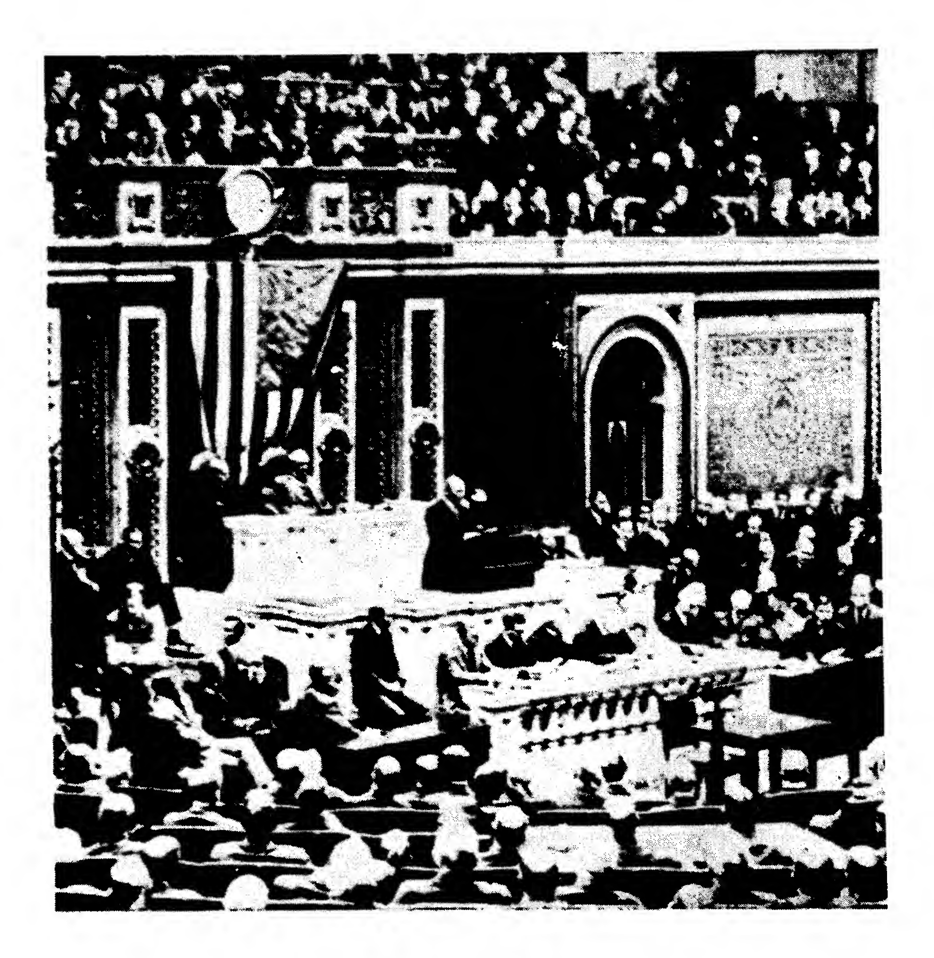
٢ – فشل الاثنين
ويلسن واسباب دخول امريكا الحرب

هذا من ناحية . اما من ناحية فشل الاثنين ، فهو غير صحيح . فويلسن قد دخل الحرب لأن رؤوس الأموال الامريكية الكبيرة التي كانت بريطانيا وفرنسا قد أخذتاها من الرأسماليين الامريكيين أضحت في سنة ١٩١٧ مهددة بالخطر .. اذ كانت كفة المانيا هي الراجحة . وفي انتصارها المحتمَل تضيع رؤوس الأموال الأمريكية المقرَضة . أضف الى ذلك ، ان الصناعة الامريكية والتجارة الأمريكية ازدهرت في سنوات ١٩١٤ ، ١٩١٥ ، ١٩١٦ ، وكان ازدهارها نتيجة لطلبيات الحلفاء من الأجهزة الحربية والمواد الاستراتيجية . فلو لم تعلن امريكا الحرب ، وانتصر الألمان من جراء ذلك ، لواجهت الرأسمالية الأمريكية ازمة خطيرة .

ومجمل القول : ان طبيعة اقتصاد امريكا وعلاقاتها مع الدول المتحالفة هي التي دفعت ويلسن الى اعلان الحرب على المانيا ودول الوسط . وليس يؤثر في ذلك ان ويلسن قد جاء بمبادئه الـ (١٤) فيما بعد ، فما اسهل الوعد الذي يعرف المرء عُسْر تنفيذه !! وبخاصة ان ويلسن يعجز عن تغيير طبيعة الاقتصاد في بلاده ، بينما ان تلك الطبيعة لا تعجز عن تغيير ويلسن بإزاحته من منصبه ، مثلاً .

٣ – لينين واعلانه حرباً

اما لينين ، فقد اعلن الحرب أيضاً ، ولكنه اعلنها على الحرب نفسها. لقد انسحب من الحرب العالمية الاولى ليواجه حرباً على الجهل والفقر والنظم الاقطاعية ، ورجاةَ التقدم عن طريق التصنيع ، وتغيير علاقات



وودرو ويلسن يعلن امام الكونغرس
قطع العلاقات مع المانيا

الانتاج في مجتمع جديد . وقد كان من العسير ان يحكم المرء في نجاح لينين او عدمه في العقد الأول الذي تلا قيام الرجل ونظامه في بلد القيصرة . اذ ان ذلك الحكم سيكون غير منصف اولاً ، ومتأثراً بعوامل كثيرة ، داخلية وخارجية ، ثانياً . فأوروبا لم تترك لينين وشأنه

في بلده ، بل تدخلت محاولة إثبات فشل الرجل فيما يسعى اليه .

ومهما كان الحال ، فإننا نرى ان ويلسن قد فشل ، على الرغم من نيّاته الطيبة ، لأنه طلب من بريطانيا وفرنسا ان تحطّما نفسيهما ، لمجرد اتّباع الحق ونشر العدالة (بمفهومه) في العالم . اما لينين فقد تأخر نجاحه — ولم يفشل — لأسباب كثيرة خارجة عن ارادته ، ولم يكن له بها طاقة آنذاك .

ولنعد الآن الى مساق الحرب .

* * *

لويد جورج .. ولدندورف
حتى الضربة القاضية

لاح في مطلع سنة ١٩١٧ ان العام عامُ تغير شامل . وقد مر معنا في السابق تغيير القادة العسكريين في الدول المتحاربة في اواخر سنة ١٩١٦ . ثم جاء لويد جورج وبرايان بتغيير في اسلوب الحرب بعد ذلك بشهور . كان المأمول ان يغدو لويد جورج في بريطانيا . ولدندورف في المانيا الشخصيتين اللتين ستطبعان ماجريات الحرب في ذلك العام . وكان كلاهما يرفع شعار « اضرب العدو حتى سحقه » ، او كما وضعها لويد جورج « حتى الضربة القاضية »

وكانت الحرب بأكملها قد غدت الآن : « مبارزة ثنائية » بين المانيا وبريطانيا . اما فرنسا وحليفاتها ، والنمسا وحليفاتها ، فكانت مجرد دول على الهامش ، كل وظيفتها ان لا تعيق الجانب الذي هي فيه عن احراز النصر .

هذا ما كان يدركه لويد جورج ولدندورف . وهو ذاته ما كان يغفل عنه الجنود في الخنادق وربات البيوت الألمانيات وهن يفتشن عن

جذور اللفت ، ونظيراتهن الانكليزيات وهن يقفن في صف طويل تحت المطر لتسلم مخصصات عائلاتهن من السكّر .

احتراف الحرب ..

اذن ، كان التغيير في الجبهة هو الارتداد من الاندفاع الحماسي ، بحجة صيانة الوطن والحفاظ على عزة علمه ، الى احتراف القتال لمجرد السأم من البقاء في الخنادق . وكان التغيير في احوال المدنيين في البلاد المتحاربة ، هو : الانكفـاء من فوضى الاقتصاد الى نظم التخطيط والتقنين .

كان لويد جورج ولدندورف يدركان ذلك : فعمد كل منهما الى « اخضاع كل مرافق بلده لحاجات المجهود الحربي » . فالعمال، حُولوا الى مصانع الذخيرة ، والمواصلات (مهما كانت سبلُها) أُخضعت لتنقلات الجيوش ، والانتاج الزراعي صار تحت اشراف لجانٍ شُكّلت لهذا الغرض .

ضرورة التنسيق

كان لويد جورج يعتقد جازماً ان الحرب لا يمكن كسبها ما لم يتم التنسيق بينه وبين حلفائه لضمان توفير جميع الموارد الممكنة لخدمة الحرب. وبما انه لم يكن يثق بامكانية احراز ذلك النصر في الميدان الفرنسي فقد حول وجهه شطر جبهة اخرى .

ولهذا دعا رئيسُ الوزارة البريطانية حلفاءه لعقد مؤتمر في روما .

وكان الهدف الذي يسعى اليه من ذلك المؤتمر ينطوي على شقّين

١ ــ تنسيق المجهود الحربي بين الدول المتحالفة .

٢ ــ اقناع القيادة الايطالية العامة بهجوم عام على النمسا .

وانعقد المؤتمر .

ماذا كانت النتيجة ؟

١ – الشق الاول – التنسيق

اليك ما حصل : حين طلب لويد جورج تنسيق اقتصاد كل بلد وتوجيهه لخدمة الحرب ، اظهر المؤتمرون كل حماسة واندفاع . وكانت خُطبهم تبدي ان هذه الفكرة « العبقرية » هي التي راودتهم منذ شهور ، لكنهم ودوا ان يتريثوا خشية ان تعتبر الدول الأقوى ، منهم ، ذلك التنسيق محاولةً لالقاء العبء على كاهلها ، (وهم يعنون بذلك بريطانيا ، لأنها تمدهم بالفحم والسلاح .) اما من حيث اخراج هذه الحماسة الى حيّز التنفيذ ، فلم يتفق المؤتمرون على أية طريق .

اذن ، قبض لويد جورج مجرد كلام في الهواء . هذه نتيجة الشق الأول .

٢ – الشق الثاني .. اقتراح مرفوض

حين طلب لويد جورج من الجنرال كادورنا ، القائد الأعلى الايطالي ، فتح جبهة جديدة بجنود بريطانيين وفرنسيين وايطاليين ، وتحت قيادة كادورنا نفسه ، رفض الجنرال الفكرة من اساسها . وفي تحليل اقتراح لويد جورج ورفضِ كادورنا لذلك الاقتراح ، يرى المرء كثيراً من التناقضات . وهي :

منطلق لويد جورج

لم يكن لويد جورج يرى في أي هجوم للحلفاء ، يتم في الجبهة الفرنسية ، الا فرصةً للألمان للقضاء على المهاجمين . وهو لا يثق بالجنرالات البريطانيين في فرنسا ، وبخاصة في هايغ . لهذا فهو يود جعل الجبهة الفرنسية ثانوية ، بأي ثمن . حينذاك يتيسر له الخلاص من هايغ . لكن هايغ يتمتع بعطف الملك جورج الخامس ، وها هو جلالته يمنحه لقب



الجنرال كادورنا ، القائد الايطالي العام في عربة مكشوفة من قطار جبلي

« فيلد مارشال » كتحد لرئيس الوزراء ! !

ولويد جورج لا يثق ايضاً بالجنود الفرنسيين ، وان كان عظيم الثقة بجنرالاتهم . لهذا يسعى الى جعل هايغ والجنود الفرنسيين يخضعون في قيادتهم الى جنرال ايطالي .

هذا هو تفكير لويد جورج .

منطلق كادورنا

اما تفكير كادورنا فهو على النحو التالي : لقد فشل الفرنسيون والبريطانيون في طرد الألمان من المناطق الفرنسية التي احتلوها ، على الرغم

من ضخامة التضحيات المادية والبشريه التي قدمتها كـل من بريطانيـا وفرنسا . وحين يهاجم الايطاليون وحلفاؤهم النمسا ، سينتصرون حتماً . لكن المانيا ستخف الى مساعدة حليفتها . وحينذاك يصيب القوات الايطالية ما اصاب الروس في غاليسيا . وقد لا يفي الانكليز والفرنسيون بوعودهم بالمساعدة ، نظراً لهجوم الماني في فرنسا ، مثلاً .. فيبقى الميدان الايطالي المقترَح قبالة جيوش النمسا والجيوش الألمانية المسعفة . بهذا تخرب اراضي ايطاليا ، او شمالها على الأقل .

وهكذا نرى ان كادورنا كان غير واثق من حلفائه ، كما انه يعترف بفشل منتظر للخطة بكاملها .

عودة خائبة

اذن ، ها هو لويد جورج يعود الى بريطانيا من مؤتمره خائباً . فإلى اين تتجه افكاره الآن ؟ طبعاً ، الى الميدان الغربي .

ونحن نعرف ان هايغ ونيفيل كانا يـودان التحضير لهجوم عـام في ذلك الميدان . لكن خطط كلٍ منهما كانت منفصلة عن الآخر . امـا الآن ، وبفعل كراهية لويد جورج لـ « هايغ » وعدم ثقته في مقدرته العسكرية .. فقد اوعز الى نيفيل ان يسير قُدماً في تحضير خطته . واكثر من ذلك ، افهمه ان هايغ سيكون تحت قيادته .

وطبيعي ان روبرتسون لم يكن يوافق على ذلك . ومثلُه ايضاً هايغ ، الذي كان نيفيل أدنى منه رتبة عسكرية .

لويد جورج .. ونيفيل

وفي ٢٦ شباط (فبراير) سنة ١٩١٧ انعقد مؤتمر انكليزي ــ فرنسي في « كاليه » للبحث في تنسيق خدمات الخطوط الحديدية في البلدين

لصالح المجهود الحربي . فاغتنم لويد جورج الفرصة ، وألح على نيفيل في ضرورة الاسراع بتقديم الخطوط العريضة لمشروع هجومه .

وحين اعترض روبرتسون وهايغ ، ميّع لويد جورج اعتراضهما ، بأن قال :

« ان هذه القيادة ستقتصر على العملية الحربية القادمة وحدها » ، كما خيّر هايغ في ان يتصل بالقيادة العامة في لندن اذا رأى ان جيشه قد اصبح في خطر غير عادي . وهكذا ، توصل لويد جورج عن طريق المراوغة الى نقطتين :

١ ـ اقصاء هايغ عن قيادة الهجوم الجديد .

٢ ـ ابعاد ثورة البرلمان البريطاني فيما لو قرر رئيس الوزراء اعفاءه من منصب القيادة .

والآن .. ما هي خطة نيفيل ؟

كان هذا الجنرال واهماً في قوة الحلفاء وضعف الألمان على السواء . فمن حيث قوة الحلفاء ، كان يرى ان الجيش الفرنسي يستطيع دحر الألمان في أراس (هذا مع ان معنوية الجيش الفرنسي كانت منهارة تماماً) ، وان الجيش الانكليزي بمقدوره الاستفادة من الثغرة التي ستُفتح ، ومطاردة الألمان حتى يُخلوا رقعة كبيرة من شمال شرق فرنسا ، ان لم يُخلوا المنطقة كلها . وحين تحرّى الحقائق عن جيشه ، قرر ان يقوم الانكليز بالهجوم . وذلك سيراً على نظرية جوفر «على حلفائنا البريطانيين ان يقوموا بالقتال الحامي » .

صورة مسبقة للميدان !

ومما سبق نستطيع القول : لقد رسم نيفيل لنفسه صورة عن الوضع

في الجبهة ، وهو الآن يريد اثبات وجود تلك الصورة بالفعل . وهذا خطأ كثيراً ما نبّه الى ضرورة اجتنابه نابليون ، وان كان هو نفسه قد وقع فيه أحياناً . لقد قال نابليون : « على القائد أن يُبعد من ذهنه كل صورة مسبقة عما سيحدث، وان يضع في تقديره كثيراً من الاحتمالات ، حتى المتناقضة منها ، حين يباشر رسم خطته العامة . » لكن نيفيل لم يأخذ بهذه النصيحة . ولهذا لزمه ان يدفع الثمن .

مختصر الخطة !

كان من رأيه : « إسقاط لاون Laon في ٢٤ ساعة ، ثم مطاردة الالمان على عرض الجبهة » .

غير ان الالمان لم يحققوا امل نيفيل . كان خطهم الجديد قد تكامل الآن ، فلم يفعلوا اكثر من ان ينسحبوا اليه . وقد تركوا في انسحابهم ارضاً حراماً ، خرّبوها الى درجة ان غدت ارضاً ميتة . لقد قطعوا الاشجار فيها ، ونسفوا منازل القرى ، ودمروا جسور الطرق ، واقتلعوا عوارض سكة الحديد ... و... و..

ومحمل القول ، كانت هذه الارض الحرام عبئاً جديداً على جيوش الحلفاء ان تواجهه . فالتقدم فيها محفوف بخطر تفجُّر الالغام المبثوثة في كل شبر من الارض ، وخطرِ التسمم من استعمال مياه الآبار ، وكذلك خطر احتمال مباغتة الالمان للقوات المتقدمة .

فشل خطة نيفيل ومحاولة اقصائه

وبانسحاب الالمان الى خط هندنبرغ الحصين ، غدَوا في مركز أقوى مما كانوا قبل الانسحاب ، وأصبح الهجوم عليهم في خنادقهم ، بل قلاعهم الجديدة ، لا يعدو كونه انتحاراً مرسوماً .

وهكذا فشلت تقديرات نيفيل،ومعها خابت آمال لويد جورج . وبدا أن الالمان يُحسنون فهم عقليات اعدائهم.وفي هذه الاثناء تغيرت الوزارة

الفرنسية ، فأُبعد برايـان ، سندُ نيفيل ، وجيء بـ « ريبو » رئيساً للوزارة . واختار « ريبو » كوزير للحرب في وزارته عالماً رياضياً اسمه المسيو « بينليف » . وكان وزير الحرب الجديد قليل الثقة في نيفيل ، فود استبداله ، الا ان وضعاً حرجاً ظهر من ذلك .

قائد ذو منصبين

لقد غفل الحلفاء ان نيفيل كان ذا منصبين متداخلين .

أولهما : منصب القائد العام الفرنسي .

وثانيهما : منصب القائد العام للحلفاء في الميدان الغربي .

فإذا كان يحق للوزارة الفرنسية ان تنزعه من المنصب الاول ، فليس يحق لها وحدها ان تتصرف بصدد المنصب الثاني . ولهذا نرى نيفيل يهدد وزارة بلاده بتقديم استقالته فلا تجرؤ حينذاك على إحراجه . وفي تقديم استقالة نيفيل كان لسان حاله يخاطب ريبو قائلاً :

« ان فشل الهجوم الاخير لن يزيد الى اخفاقات الحلفاء السابقة شيئاً كثيراً . اما قبـول استقالتي فمعناه ثورة الرأي العام في فرنسا أولاً ، وخروج القوات الانكليزية من كونها تحت القيادة الفرنسية ثانياً . والوزارة الفرنسية حريصة جداً على ألا يحدث ذلك » .

وانطلاقاً من صحة ما عرضناه ، رضخ ريبو وبقي نيفيل . اما لويد جورج فقد كانت خيبته عظيمة ، حين وجد ان عدم ثقته بجنرالاته قد أورثه ورطة كبيرة ، وانه كان يراهن على جواد خاسر .

على هذه الحال نترك لويد جورج وخيبته لننتقل الى ادميرالات المانيا فنرى مخططاتهم سنة ١٩١٧ .

في المانيا .. ١٩١٧

عودة الى رأي فولكنهاين

سبق ان قدّمنا ان لدندورف ، وبالتالي رئيسه هندنبرغ ، قد عاد

الى رأي فولكنهاين المعزول ، في ضرورة اطلاق يد ادميرالات البحرية للقيام بحرب غواصات شاملة . وسبق ان اشرنا الى تخوّف المستشار بتمان من ذلك ، ومحاولته التوصل الى حل "صلحي" للحرب قبل مباشرة العسكريين الالمان في مخططهم الاخير .

أما الآن .. فقد ثبت فشل بتمان (كما بيّنّا) ، وصارت الكلمة العليا والاخيرة لسلاح الغواصات .

الغواصات لا تحترم علماً !

وفي ٣١ كانون الثاني (يناير) اقدم الالمان على خطوة نهائية وحاسمة . لقد اعلنوا ان غواصاتهم ستتعقب جميع السفن التي تبصرها في شرق المحيط الأطلسي ، دون النظر الى العلم الذي ترفعه تلك السفن ، وسواء كانت الدول التابعة لها حيادية او مشتركة في الحرب ضد المانيا .

وكان لهذا الاعلان وقعُ الصاعقة على رؤوس شركات الملاحة والحكومة الامريكيتين . فأولاً وأخيراً ما هي الحكومة الامريكية الا نائباً عن الشركات الكبرى في بلادها لحفظ الامن ، وابقاء اصحاب رؤوس الاموال في وضع مريح . وها هي المانيا تهددهم الآن .

ويلسن يقطع العلاقات الدبلوماسية !

لهذا نجد ويلسن في ٢ شباط (فبراير) ، مضطراً الى قطع علاقات بلاده الدبلوماسية مع المانيا ، وبضغط من مجموعة الرأسماليين الامريكيين . الا انه مع هذا ، لم يُعلن الحرب على الالمان ، اذ كان ، والحق يقال ، يتمنّع في ذلك ، ناظراً الى الحرب كوسيلة وحشية لاثبات الدعوى في الحق ، ومترفعاً عن غمس بلاده في عفن السياسة الاوروبية .

قضية في المكسيك

لكن قباطنة الغواصات الألمانية لم يسمحوا له بالبقاء في ترفّعه . فقد

أغرقوا السفن الامريكية التي صدفوها . وزاد الطين بلة ان « زيمرمان » وزير الدولة في حكومة المانيا ، عمد الى محاولة الاستفادة من فكرة جهنمية . لقد اتصل بحكومة المكسيك ، وعرض عليها ان تتولى المانيا مدّها بالسلاح والمساعدات الحربية الاخرى ، اذا قام المكسيكيون بمحاربة الولايات المتحدة ، بحجة استرداد كاليفورنيا والمقاطعات الاخرى التي كان الامريكيون قد اقتطعوها من اراضي المكسيك .

وهذه فكرة حمقاء ، ولن يتدنى الى هذا المستوى الا ما يسمونه « المكتب الثاني » او « وكالة الاستخبارات » في دولة من الدول .

ومن سوء حظ الالمان ان الانكليز التقطوا رسالة الشيفرة الموجهة من برلين الى السفير الالماني في مكسيكو . وحين فكوا رموزها عرفوا محتواها ، فنقلوه الى الحكومة الامريكية .

يهودي خائن

كان ويلسن عديم الثقة في سياسة بريطانيا ، ولهذا ، اقنع الانكليز الحكومة الأمريكية ان تشتري لها عميلاً في البعثة الدبلوماسية الألمانية في المكسيك . وقد تم ذلك حين باع كاتب يهودي نسخة من تلك البرقية الى الأمريكيين ، ثم عملت الصحافة الأمريكية على نشر الوثيقة والتعليق مشدّدة على مدى خطورتها،حتى انها صوّرت البرّ الأمريكي في خطر .

ونحن نعرف الآن ان العناصر اليهودية هي التي كانت وما زالت مسيطرة على الوسط الصحفي في امريكا . كما نعرف ان إدخال الولايات المتحدة الحرب كان صفقة بين اليهود في بريطانيا وبين الحلفاء ، وان دفع ثمن تلك الصفقة قد جاء في سنة ١٩١٧ على شكل وعد اللورد بلفور .. وسيأتي ذلك في حينه .

ويلسن يتحرك

وقد تزايد الضغط على ويلسن طالباً اعلان الحرب . فاتخذ الرئيس



الجيش الامريكي يتمرن على القتال،
وتمرينه في لحوم جيرانه « المكسيكيين »

خطوتين : اولاهما الاستعداد لدحر المكسيك فيما اذا نجحت المانيـــا في اقناعها بمحاولة استرداد اراضيها المغصوبة ، وثانيتهما اعلان الحرب على المانيا في ٦ نيسان (ابريل) . والواقع ان ويلسن كان حزيناً لاضطراره الى « الرجوع الى البربرية ، والتخلي عن الموقف الذي يسمح لنا بتمييز الحق من الباطل » ، كما قال في خطبته امام اعضاء الكونغرس في ذلك اليوم .

ويلاحظ النقّاد ان الأمريكيين الذين كانوا يكرهون فعلاً الانغماس في الحرب أول الأمر ، قد انقلبوا متعصبين للحرب عندما انغمسوا فيها . وتفسير ذلك بسيط . انهم اعتبروها حملةً صليبية ، لأنهم كانوا مقتنعين أن الحق في جانبهم . ألا يؤيد ذلك ان الغواصات الألمانية هي المعتدية

على ارواح بحّارتهم وأموال تجّارهم !! وانّ « زيمرمان » يود خلق المشاكل لهم على ترابهم نفسه !!

لماذا دخلت الولايات المتحدة الحرب ؟

١ - نقاد امريكيون

لقد كُتب الكثير عن ذلك ، لكن قلّة من الكتّاب هم الذين تحرّوا الحقيقة المجردة ، واستطـاعوا الوصول اليها بعد ان نفضوا عنها غبار العاطفة ، او الملّق ، او التشويه المقصود . وقد قال بعضهم ، وأكثر هؤلاء من المؤرخين الأمريكيين أنفسهم : ان امريكا دخلت الحرب نصراً للديمقراطية على طغيان الألمان ، وعلى أمل جعل تلك الحرب هي آخر الشرور ، وكمقدمة للحياة في عالم تعمّه العدالة والسلام .

وفي هـذا التعليل مثاليّة مضحكة ، وتزييف ظاهر . اذ ، لماذا لم تحاول امريكا ان تنصر « الديمقراطية » المعنية ، طوال سنوات ١٩١٤ ، ١٩١٥ ، ١٩١٦ ؟ ألم يكن « الطغيان الألماني » ظاهراً بارز المعالم آنذاك ؟ و ، ألم يكن دخولها الحرب في سنة ١٩١٤ أقدر على انقاص عدد ضحايا ذلك الطغيان ، ودعم « الديمقراطة » ؟

اما أملُ جعل تلك الحرب حرباً اخيرة في العالم ، فقبولُ رأي زاعميه ليس أفضل من القول « اقتُل المرض بالمرض » و « أصلح الخطأ باقتراف خطأ جديد » . وفي ذلك الزعم انسانية حقاً ، لكنها من النوع الشديد الغباء . فهل اقتطعت امريكا أراضي المكسيك بعد دحر جيشها — وفي حرب ايضاً — لتجعل تلك الحرب هي الحرب الأخيرة ، أيضاً ؟ وهل لم تجدّ امريكا ميداناً تجود فيه بالفائض من « انسانيتها » فاضطرت الى التفتيش عن ذلك الميدان في اوروبا ؟؟ اين كان زنوج الولايات الجنوبية ؟ ألم يكن من الانسانية ان تفكر فيهم حكومةٌ يدفعون لها الضرائب ولا تعترف انهم من البشر ؟

حقاً ان هذه « الانسانية » التي تعشق الغريب ، وتهجر القريب ، لعجيبة !!

٢ – مع النقاد ايضا ..

اما نقاد آخرون فيرون ان شعور الولايات المتحدة بالخطر هو الذي دفعها الى دخول الحرب ، ويقولون : « ان الولايات المتحدة تكره قيام حرب بينها وبين المكسيك ، مع انها واثقة من النصر في تلك الحرب . كما انها لا يسعها ان تسمح بإغراق سفنها والمواطنين الأمريكيين البحّارة . ولو لم تعلن الحرب ، لكان ذلك طعنة لعزتها القومية ، وانتقاصاً علنياً من كرامتها » .

وهذا ايضاً تعليل سخيف . فحين اغرقت غواصة المانية سفينة لوزيتانيا الأمريكية بركابها الأمريكيين ، لم تفعل حكومة الولايات المتحده اكثر من ان ضرب احد موظفي مكتب الرئيس ويلسن ، نسختين من احتجاج ، على الآلة الكاتبة . لقد سُمعت قرقعة الآلة الكاتبة حينذاك ، لا قصف مدافع الأسطول .

واما احتمال قيام المكسيك بحربٍ ما ، فاحتمال لا يأخذه بعين الاعتبار الا المأفونون . اذ ان المكسيك ابلغت الولايات المتحدة انها لن تفعل مثل ذلك . هذا ، علاوة عن ان الولايات المتحدة كانت تعلم حق العلم ان جارتها اعجز من اتخاذ هذه الخطوة آنذاك ، لانشغالها بمجموعة من المشاكل الداخلية التي خلقتها الشركات الأمريكية العاملة فيها .

وحتى ، دون النظر الى كل ما سبق ، ألم تفتضح الخطة بكاملها وتنشرها الصحف ؟ فهل من المعقول ان يباشر المكسيكيون تطبيق خطة حربٍ تم كشفها من قِبل الخصم !!

٣ – نقاد المان

ويبقى رأي آخر جاء به المؤرخون الألمان ، ونظنه اقرب الى الصواب .

لقد قالوا : « ان الولايات المتحدة دخلت الحرب لتحفظ ثرواتها ، وتزيد اثراءً فيما بعد » . ثم فصّلوا ذلك بصورة ، مفادها ما يلي :

منذ ما قبل سنة ١٩١٧ كانت الولايات المتحدة منحازة بصورة عملية الى جانب الحلفاء . وقد حاولت الحكومة ان تحافظ على الحياد المطلق اول الأمر ، فمُنعت البنوكُ من فتح اعتمادات لحساب الدول المتحاربة جميعاً . لكن تلك المحاولة لم تنجح . اذ سرعان ما احتج رجال الأعمال على اجراء حكومتهم ، وافهموها بشكل صريح انها بعملها هذا تفوّت على الاقتصاد الأمريكي فرصةً ثمينة للازدهار ، قد لا تعود . ولما كانت الحكومة الأمريكية في مجملها مؤلفة من رجال الأعمال واصحاب المصالح هؤلاء ، ويهمها جداً ان تزيد ارباحهم — فقد تراجعت عن تفكيرها وخطوتها السابقة .

ومن ثم اخذ سيل من القطن والنحاس والقمح والقروض المالية يعبُر المحيط الأطلسي الى الدول المتحالفة . واخذت المصانع الأمريكية تشتغل ليل نهار لتوريد الطلبيات التي يوصي عليها الحلفاء . ومن شأن ذلك ان ينشّط الاقتصاد، فازدهرت الحركة التجارية والصناعية ، الداخلية والخارجية بتأثير ذلك . وكانت القروض تُعطى بفائدة عالية ، وعلى اساس ان يتم استردادها بعد الحرب . لكن ، من الذي يقدّم هذه القروض ؟ انها طبقة الرأسماليين الأمريكيين ، اي المسيطرين على الكونغرس نفسه .

والآن ، ونحن في ربيع سنة ١٩١٧ ، بدت كفة المانيا هي الراجحة بتأثير حرب الغواصات . فإذا استطاعت الغواصات ايقاف التدفق التجاري بين الولايات المتحدة والحلفاء ، كان معنى ذلك نكبة الولايات المتحدة في اكثر من ناحية . ان ازدهار صناعتها وتجارتها سينقلب أزمة بطالة وبؤس في تلك الحال . وبريطانيا وفرنسا ستغدوان اقرب الى الهزيمة او الاستسلام لألمانيا ، وعندئذ : من يدفع القروض الضخمة التي استدانتاها من الرأسماليين الأمريكيين ؟ طبيعي ان المانيا المنتصرة لن تفعل ذلك .



الجنود الامريكيون يصلون ..
نحن هنا يا « لافايت »

وطبيعي ان الحلفاء المهزومين لن يكونوا في وضع يمكنّهم من الدفع . اذن ، ستذهب تلك القروض مع الريح . وهل في هـــذا ما تعمل له حكومةٌ تخدم اصحاب المصالح في بلدها !!

رأي أخير

وزبدة القول ، لقد دخلت الولايات المتحدة الحرب ، لأن طبيعة نظامها الاقتصادي أجبرتها على ذلك . وتتمثل تلك الطبيعة في الانتعاش الموقت الذي يخشى الأزمة ، والقروض التي توجب ضمان سدادها ، هي وارباحها العالية النسبة .

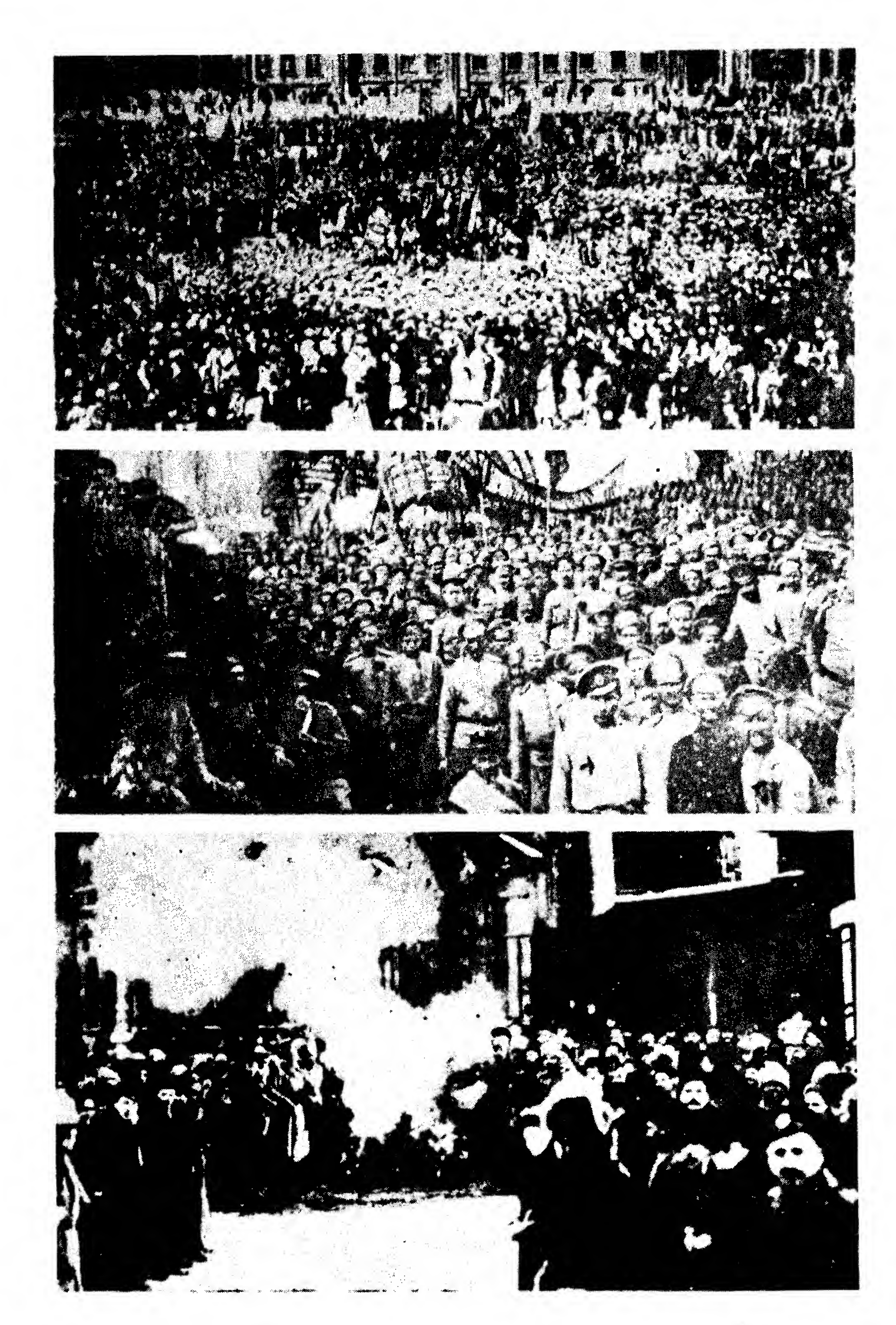
لم يستبشر الفرنسيون والبريطانيون بانضمام حليف جديد الى حكومتيهم. اما ساسة البلدين وبعض العسكريين فيهما فقد فعلوا ذلك . والواقع ، ان الولايات المتحدة كانت عامل إعاقة ، لا تسريـــع في الحرب ، أول الأمر . نعم ، كان اسطولها ضخماً ، ولكنها لم تكن تمتلك جيشاً برياً حربياً بمعنى الكلمة . وحين توجّب على القيادة العامة الأمريكية ان تجنّد من شبابها جيشاً جديداً ، واجهتها عقبة التدريب والتجهيز بالسلاح الخفيف المطلوب . وكانت مصانع الذخيرة في الولايات المتحدة قليلـــة العدد ، وضعيفة طاقة الانتاج ، اذ لم يسبق لها ان موّنت حرباً شاملة كهذه التي تشهدها في ربيع سنة ١٩١٧ . فتوجّب عليها الآن ان تكبُر . وحتى البنـــادق جرى تسليمها أول الأمر ، من البريطـــانيين والفرنسيين الى الامير كيين ، لا العكس . اما الدبابات والطائرات ، فلم تشترك في الحرب أيٌّ منها امريكية . وحتى القروض التي كان الحلفاء ينالونها غدت الآن صعبة المنال ، فالأمريكيون يودون استخدام مواردهم لنفسهم . لقـــد احتاجوها الآن .

وهكذا نرى ان امريكا بدخولها الحرب انما قدمت ورقة رابحة للحلفاء، ولكنها سند غير مستحق الأداء . فكان على الحلفاء ان يصمدوا حتى يحين موعد قبض ذلك السند ، وعندئذ يغتنون فعلاً .

* * *

روسيا وربيع ١٩١٧

وفي نيسان (ابريل) من سنة ١٩١٧ بدا ان الحلفاء لن يتمكنوا من الصمود . فقد كانت دولة حليفة كبيرة على وشك الخروج من الحرب. انها روسيا . ففي شتاء سنة ١٩١٦ — ١٩١٧ ساءت الاحوال الاقتصادية



الثورة الروسية .. ها هم البحارة ، والجنود ، والشعب .. الذين فجروها

الى درجة كبيرة من امبراطورية القيصر . وكان اهم مظاهر هذا التردي نقصان الأغذية ان لم نقل فقدانها في المدن . ففي بطرسبرج (بترو غراد) العاصمة ، مثلاً ، قامت اكثر من مظاهرة صاخبة من الجائعين . كانوا يطلبون الخبز ، والخبز فقط . ولكن الجواب الذي كثيراً ما تلقوه في السابق ، وهو الرصاص ، لم ينفع الآن . ذلك ان الجنود ايضاً اشتركوا في الشغب . اما ، لماذا اشتركوا ، فلأسباب كثيرة جداً لا محل لتفصيلها الآن ، وانما نورد اهمها تلميحاً . وهي :

١ ـ الانكسارات المتكررة في الجبهة .
٢ ـ فساد الادارة الحكومية والقيادة العسكرية .
٣ ـ المبادىء الجديدة التي بثها البلاشفة فيما بينهم .
٤ ـ الخشية من ارسالهم الى جبهة يواجهون فيها مذابح الالمان .

وقد رفض القوزاق هذه المرة ان يساندوا السلطة الرسمية ، فقام الثائرون بالسيطرة على المدينة . وكان للجنود البحارة فضل كبير في ذلك.
وقد حاول القيصر نيقولا الثاني العودة من مقر اقامته الى بطرسبرج فألقي عليه القبض في الطريق . واعاده موظفو السكة الحديدية الى مقر الأركان . وهناك تشاور مع القادة فنصحه هؤلاء ان يتنازل عن العرش . فاضطر الى تنفيذ تلك النصيحة ، وانتهت بتنازله اسرة رومانوف .

لكن ، من الذي يتولى السلطة ؟

لقد تسلمها مجلس مؤلف من مفوضي الجنود والعمال ، وسموا أنفسهم « السوفييت » . وقد عهد ذلك المجلس الى حكومة ليبرالية بزعامة كيرنسكي بتصريف شؤون البلاد . ولم يدُر اي حديث عن الانسحاب من الحرب اول الأمر ، لا بين اعضاء الحكومة الجديدة ، ولا في مجلس السوفييت ، وهذا ما دعا البريطانيين والفرنسيين الى التهليل لتلك الثورة.

اذ ظن هؤلاء ان نسخة جديده من الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ هي التي يقدمها التاريخ في روسيا سنة ١٩١٧ .

هل من نابليون جديد !

ولما كان الحلفاء يعلمون ان ثورة ١٧٨٩ نقلت فرنسا من دولة ذات جيش ممزق واقتصاد منهار ، الى اعظم قوة حربية في اوروبا ، فقد استبشروا بقرب سحق المانيا في الجبهة الشرقية . لكن استنتاجاتهم هذه كانت خاطئة تماماً . لقد حاولوا تفسير التاريخ ، لكن الناس كما هي العادة ، دائماً يفسرونه اصالحهم هم ، فيأتي التفسير خاطئاً . كان الحلفاء يقولون : « الآن زالت عنا صفة مساندة النظم الرجعية والاقطاعية في روسيا ، وهذه ثورة ليبرالية . وستكون طاقتها الحربية ، بمجرد ان تتفرغ للتنظيم ، عظيمة جداً . ألا نذكر نابليون من ثورة فرنسا ! ان نابليوناً جديداً سيبرز الآن ، لكنه سيكون الى جانبنا هذه المرة ، وضد غليوم » .

اين طبيعة التغير اذن ؟

بهذا فشل الحلفاء ، بما فيهم ساستهم الكبار ، في ادراك طبيعة التغير . لقد غفلوا عن ان التاريخ لا يثبت مكانه ولا يتقهقر ، وانما يسير قدماً . وتغافلوا عمداً عن ان طبيعة المبادىء التي قامت عليها ثورة البلاشفة تختلف كل الاختلاف من حيث اهدافها ، عن طبيعة المبادىء التي قامت عليها ثورة سنة ١٧٨٩ . « فقد جاءت ثورة ١٧٨٩ ، (كما يقول لينين) لتنقل الحكم من طبقة الى طبقة ويظل الكادحون مستغَلّين ، اما ثورة سنة ١٩١٧ فقد جاءت لتجعل الكادحين أسياد أنفسهم .. وتدفن نظام الطبقات في مجتمعها الى الأبد » . او كما يقول ستالين : « ان الثورة

الفرنسية ثورة بورجوازية ، ولذلك سرعان ما انحرفت عن خدمة الشعب » .

تغاير المسالك

وطبيعي ما دامت اهداف الثورتين متغايرة ، ان تتغاير مسالكهما . فإذا كانت ثورة سنة ١٧٨٩ قد خلقت الحروب الهجومية ، فإن ثورة سنة ١٩١٧ جاءت لتقبُر تلك الحروب .



الحرس الاحمر
رجال الثورة البلشفية الجديدة

هذا ما تمخضت عنه ثورة سنة ١٩١٧ فيما بعد . اما في ربيع سنة ١٩١٧ فقد كان الأمر لا يزال غامضاً . فالحكومة الروسية الجديدة لا تزال تائهة .. وأكثرية أعضاء مجلس السوفييت لا يزالون طوباويين .. ان طريق ثورتهم لما تتضح معالمها بعد .

حدث شخصي وعالمي ايضاً

في هذه الأثناء تم حدث شخصيّ ، الا انه عالمي ايضاً ، كما ثبت ذلك بعد بضعة شهور . فما هو ذلك الحدث ؟

لقد وصل لينين الى بطرسبرج ، تلك المدينة التي ستحمل اسمه من الآن فصاعداً ، فتغدو « لينينغراد » .

فمن هو لينين هذا ؟

١ – رأي اشياعه

يرى اشياعه انه بطل ملهَم ، يتصف بالعبقرية في الادراك كما في

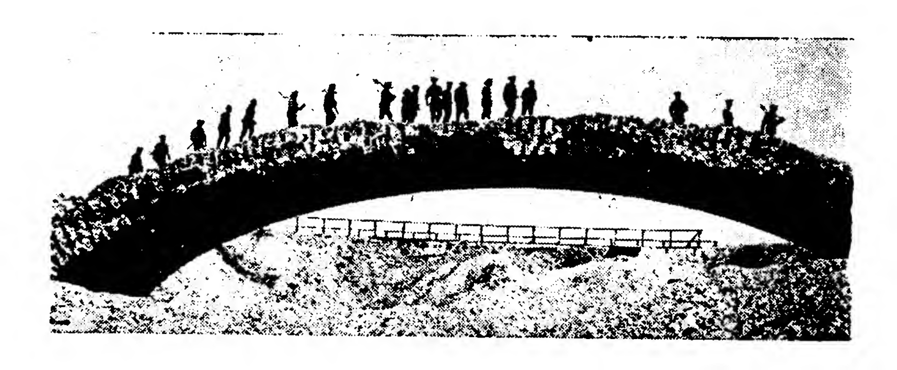


يوم وصول لينين الى بطرسبرج . (وهو الذي يحمل المظلة)

التنظيم ، ويقولون : هاكم انجيله في تفسير كتاب « راس المـــال » لـ « كارل ماركس » .. وانظروا تطبيقه للفلسفة المادية في سياسة الاتحاد السوفياتي . ألا ترون انه فكّر في كهربة سُدس الكرة الأرضية في وقت كان العالم ينظر فيه الى الاتحاد السوفياتي عبر منظار النظام القيصري ؟ ألم يبلغكم ان منشور القوميات ، والآخر المتعلق بالسلام ، والثالث الذي فضح الاتفاقيات السرية بين بريطانيا وفرنسا بصدد اقتسام تركة الدولة العثمانية .. كل هذه من اعماله المجيدة ! انظروا الى الشعب كيف رحّب به ، وادرسوا كيف استطاع ذلك الشعب ان يتنظم فيردّ اوروبا بكاملها حين حاولت التدخل في بلاده الى جانب الروس البيض من عفونـــات القياصرة .. و .. و .. الخ .

٢ – رأي مبغضيه

ويرى مبغضوه من اصحاب المصالح التي هددها نظامه الجديد غير ذلك في لينين . ويقولون :



الجنود البريطانيون يعبرون الجسر فوق قناة السوم ،
في المرحلة الاخيرة من معركة السوم (راجع سابقاً)

زيوريخ من سويسرا . وقامت الثورة في بطرسبرج* ، وتسلمت السلطة حكومة ليبراليه أعلنت انها ستزيد الحرب ضراوة ضد الألمان وفكرت القيادة الألمانية في ذلك . ثم تساءلت :

« ان لينين قد ينجح في إشغال روسيا بأحداثهـا الداخلية فتضعف قوتها في الميدان الشرقي مما يسهّل على قادتنا التوصل الى صلح في تلك الجبهة ، وبالشروط التي نرضاها . فلماذا لا نعرض عليه السفر الى هناك ! فحتى لو لم ينجح في ابعاد روسيا من الحرب فان فوضى الاقتتال بينه وبين مناوئيه في بلاده سوف تخفف عن كاهلنا الكثير من جديّة الحرب».

على هذا الأساس اتصلت القيادة الألمانية بلينين وعرضت عليه تسفيره الى بطرسبرج . الا انه كان رعيّة لدولة معادية لألمانيا ، فلا يحق له السفر بحرية عبر الأراضي الألمانية . لذا وُضع تحت تصرفه قطار مغلق سريع اجتاز به وسط المانيا ثم بولندا حتى الحدود الروسية ، ومن ثم الى بطرسبرج .

الحرب للاصلاح !

وهناك ، وجد حكومة روسيا الجديدة تتخبط في طريقها .. وجدها تصرّ على المضي في الحرب . وكان من رأيه هو ، ان الحرب يجب ان تكون لاصلاح الأحوال الاجتماعية في روسيا . فمن أجل هذا الهدف يجب ان تقوم الثورة ، لا من أجل التخلص من القيصر ثم ابقاء النظامين ، الاقتصادي والاجتماعي ، اللذين عايشاه . كان يرى ان نظام الطبقات القائم على استغلال مالكي وسائل الانتاج ، للفلاحين والعمال ، هو أساس كل داهية . لهذا يجب القضاء عليه ، ودفنه في « مزبلة التاريخ ** » .

الجيش الاحمر والممثل تروتسكي

لكن هذا الدفن يحتاج الى قوة منفذة ، ويجب ان تكون عسكرية .

---

* لينينغراد حالياً

** هذا تعبير لينين .

لهذا بدأ لينين في انشاء « الجيش الأحمر » ، وسيطر عليه .

وقد ساعده في ذلك حليف قوي هو تروتسكي ، أخطبُ أهل عصره على الاطلاق . فقد عاد تروتسكي من الولايات المتحدة . حيث كان قد ذهب الى نيويورك ليتقاضى عمولة عن فيلم اشترك في تمثيله . والحق ، ان الرجل كان ممثلاً من الدرجة الثانية . اما حين اعتلى مسرح الحياة الحقيقي ، فقد أثبت انه منظم عسكري قدير .

وبفعل لينين وتروتسكي بـدا ان مسرح الحرب العالمية الأولى قـد انعكست عليه ظـلال جديدة . وكانت تلك الظـلال قادمة من انوار مسرحية ساطعة قدرت ان تكسف الممثلين جميعاً. ان ثورة روسيا سنة ١٩١٧ هي أهم في التاريخ البشري من الحرب العالمية الأولى بكاملها . ذلك ان الحرب اشتعلت ثم خمدت نارها بعد بضع سنوات . اما ثورة



الجنود الانكليز يزحفون في تشكيلة
« رتل – منفرد » الى القمة .. حيث حصدهم الالمان في « اراس »

سنة ١٩١٧ فقد اشتعلت فتغيّر معها وجه التاريخ ، والى الآبد ، كما يلوح .

* * *

ولننظر الآن الى الجبهة الغربية .

في هذه الآونة كان القليل من الناس في الدول المتحالفة من ينظرون بعين الاهتمام الى الثورة الروسية الثانية . كانوا يقولون : « دعوا روسيا تنظم نفسها قليلاً ، ثم ترون ما يفعل الروس في جبهتهم » . وبعد ذلك يضيفون : « اما الآن ، فلينصب اهتمامنا الى الجبهة الفرنسية » .

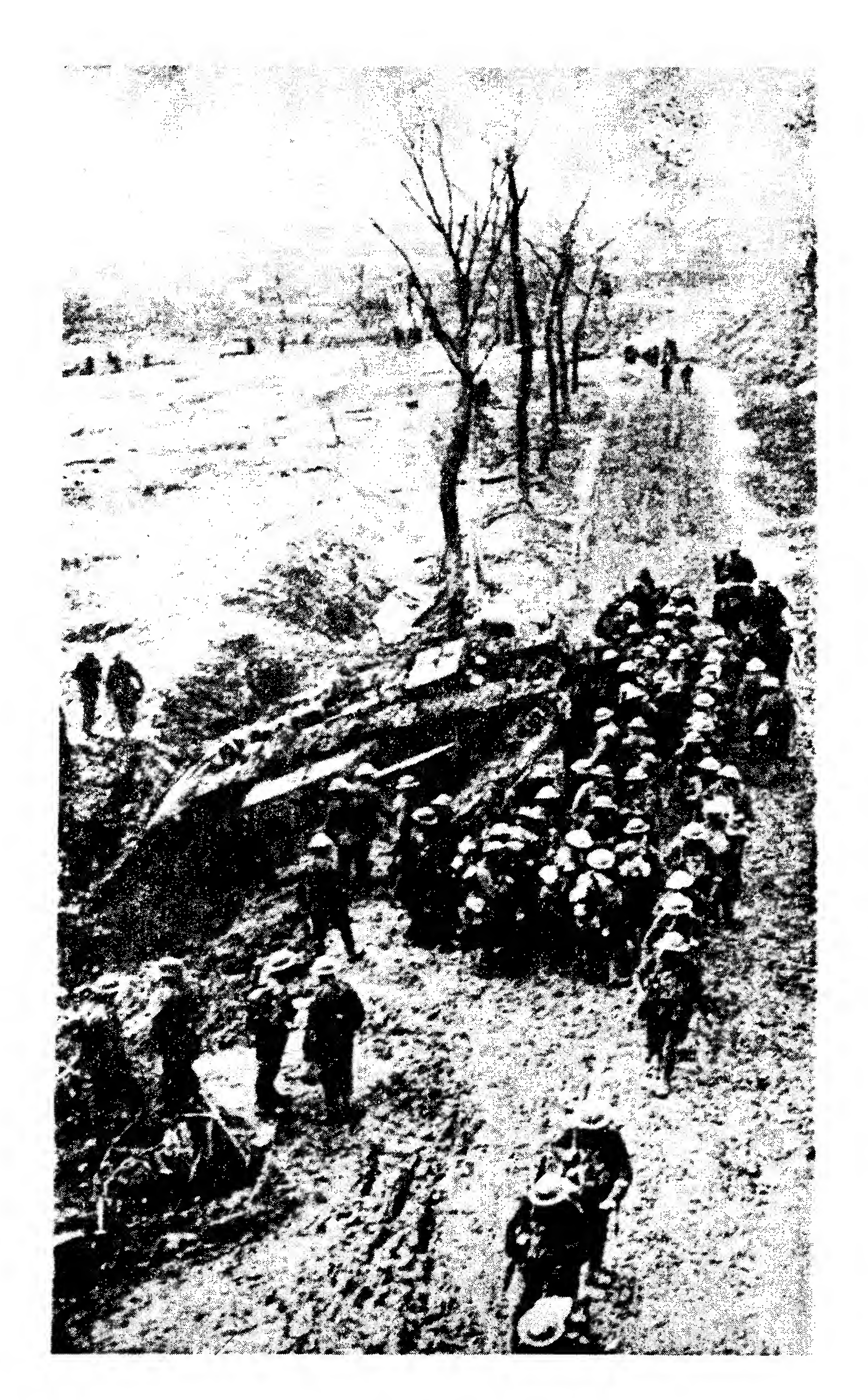
الهجوم في اراس

والحق ان هذا كان ما ينبغي . ففي غضون نيسان (ابريل) سنة ١٩١٧ كان نيفيل على وشك ان يباشر هجومه المرتقب . وفي ٩ نيسان (ابريل) بدأ الانكليز الهجوم على اراس Arras . وكان المقصود من هذا الهجوم مجرد التمويه على الألمان كي لا يفطنوا الى الاستعدادات الضخمة في المناطق الأخرى ، فيتهيأوا للدفاع . وكان الهجوم أول الأمر ناجحاً ، اذ استطاع الجنود الكنديون احتلال « فيمي ردج » Vimy Ridge ، وهي واحدة من التلال القليلة القائمة في سهل الأراضي الواطئة .

فردون جديدة

لكن ما شهدناه في فردون تكرر الآن . اذ سرعان ما جلب الألمان امدادات كافية لمواقعهم فتعزّز خط الدفاع لديهم ، وتعذّر على المهاجمين اقتحامه .

نعم ، لقد أخلى الألمان رقعة ضيقة من الأرض ، لكن هذه كانت نتيجة بخسة للمعركة . اذ تحولت تلك المعركة الى مذبحة فعلية . فقد كانت خسائر البريطانيين (١٥٠) الفاً ، ما بين قتيل وجريح ومفقود ،



دبابة منقلبة في معركة اراس

بينا كانت خسائر الألمان (١٠٠) الف فقط ، ومعظمهم جرحى بجراح طفيفة .

التمويه للمباغتة !

كل هذا كان لمجرد التمويه على الألمان ، عن موقع الهجوم الكبير المزمّع في « أين Aisne » . وكل هـــذا الثمن دفعه الحلفاء في سبيل الحصول على عنصر المباغتة . فهل تم لهم ذلك ؟

كان الألمان في موقع « أين » ، على علم بكامل خطة الهجوم الفرنسي المنتظر . اذ انهم أسروا « رئيس عرفاء » فرنسياً كان يحمل معه كامل تفصيلات خطة نيفيل على شكل خريطةٍ حربية خاصة .

وان المرء ليتساءل : وهل من المعقول ان يحمل « شاويش » نسخة من خطة القائد العام لجيشه !! كثيرٌ من المؤرخين يرون ان بعض كبارِ الضباط في هيئـــة قيادة نيفيل ، ومن خصومه ، هم الذين عملوا على ايصال الخطـــة الى الألمان ، وعن طريق الأسير المذكور . وقد يصح هذا التفسير .

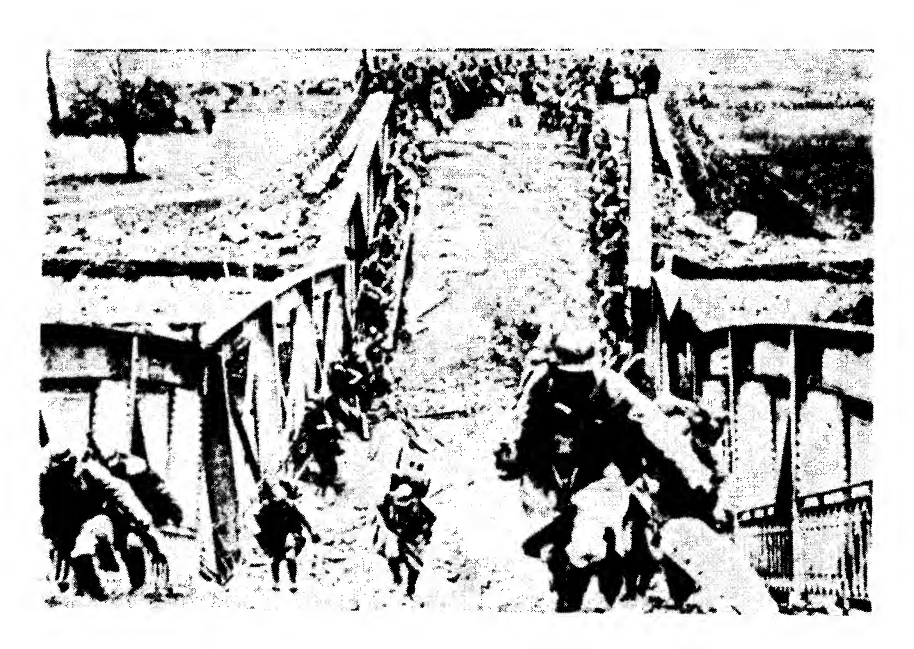
واستفادةً من معلومات تلك الخريطة ، جعل الألمان مراكز مدافعهم ورشاشاتهم في نقاط محددة . بل انهم جلبوا تعزيزات كبيرة لقواتهم في الموقع المعين . حتى اذا ما اطلّ ١٦ نيسان (أبريل) كان عدد الفرق الألمانية يناظر عدد الفرق الفرنسية المهاجِمة .

القصف .. بداية الهجوم

وشرعت مدفعية نيفيل في قصف خطوط العدو . لكن ذلك القصف لم ينجح حتى في اخماد مدافع « الماشين غن » الألمانية . فقد ظلت هذه تلعلع حاصدة طوابـــير الفرنسيين المتقدمين . وكان من جراء ذلك ان الـ «٦» أميال التي كان نيفيل يقدّر انه سيخترقها في الخط الألماني ، قد انمسخت فغدت (٦٠٠) متر . وحتى هذه الـ (٦٠٠) متر أرهقت

كاهل الفرنسيين لكثرة ما كبّدتهم من قتلى ومشوّهين .

هكذا ، اذن ، فشل نيفيل و « سرّه » الذي لم يشأ في السابق ان يُطلع عليه احداً . لقد ثبت الآن ان سرّه هو « لا سرّ » ، وانما اتبّاع لنظرية جوفر في إحداث المذابح الجماعية في رقاب جيشه .



هجوم فاشل
الجنود الفرنسيون يطبقون خطة الجنرال نيفيل

* * *

الفشل .. ومجيء بيتان « نظرية فابيوس الروماني »

ومع ان هجوم نيفيل استمر فيما بعد « ١٤ » يوماً ، الا ان فشله ظهر منذ البداية . لقد صمد الألمان . وبصمود الألمان دقّت ساعة التخلص من نيفيل و « سرّه » . ففي آخر نيسان (ابريل) نفسه جيء بـ « بيتان » ليحل محله في القيادة . وكان من رأي القائد الجديد اتّباع خطة « فابيوس الروماني » . وتقوم هذه الخطة آنذاك على انسحاب الجيش الرومانى امام

فيالق هنيبال القرطاجي ، كي يتوغل الافريقيون في التقدم ، ثم يناوشهم الرومان من كل جهة . هذا في الزمن القديم . أما في حال بيتان ، فتقوم الخطة على : « علينا الانتظار حتى يقدّم الأمريكيون والدبابات » . هذا هو للشعار الذي رفعه بيتان .

نيفيل مظلوم !

والحق ان نيفيل عومل معاملة سيئة . نعم ، انه فشل ، ولكن فشله لم يكن بالقدر الذي كانت اخفاقات جوفر ، او هايغ في أراس . وهو قد خلّص من العدو رقعة اكبر مما فعل كل منهما ، وبإصابات أقل نسبياً .. اذن لماذا خسر شرفه على هذه الصورة ؟ ذلك لأنه وعَد بالحصول على اكثر مما وعَد جوفر او هايغ . وبعد ذلك بانَ عجزه فلم يتسامح معه الناس .

والواقع ان نيفيل قد جعل الجيش الفرنسي يتحمل فوق طاقته . كان الجيش منهاراً تماماً ، ومع ذلك استخدمه نيفيل وأبعد الانهيار .

ثغاء الغنم في ميدان المعركة !

وما كاد يشيع خبر إقصاء هذا القائد ، حتى عمّت الفوضى وانتشر التمرد . ان كتيبة فرنسية تقدمت الى القتال وجنودها يثغون كالأغنام المسوقة الى مسلخ , كما رفضت ٥٤ فرقة اطاعة الأوامر بعد هذا بقليل ، وعدةُ الوف هجروا مواقعهم في الجبهة ، وفرّوا . واميال كثيرة من خط القتال كانت خالية من اية نقطة للحراسة فيما لو تقدم الألمان . لكن هؤلاء ، ويا للغرابة ، لم يحسّوا بشيء مما كان يقع في جبهة عدوّهم . ولهذا لم يفكروا في الاستفادة من الفرصة المواتية .

هذا هو الموقف الذي طالع بيتان اول تسلُّمه المنصب الجديد .. فماذا يعمل ؟

لقد شمّر عن ساعد الجد ، واتخذ الصرامة له دليـــلاً : مئة الف جندي دخلوا المحاكم العسكرية فحاكمتهم . و٢٣ الف جندي أدانتهم المحكمة ، لكنها حكمت على ٤٣٢ منهم فقط بالاعدام . الا ان التنفيذ الرسمي لم يتم إلا في ٥٥ فرداً منهم ، وان كان عدد اكبـــر من هذا بكثير تم إعدامه بصورة غير رسمية . ويذكر « هنري باربوس » ان ٢٥٠ جندياً قتلتهم المدفعية غير المسؤولة .

لكن كل هذه الشدة في المعاملة ما كان لها ان تؤتي ثمـــراً ، لولا مساعفة عامل نفساني واحد . لقد ايقن الجنود انه لن تكون مذبحـــة جديدة . كما ان بيتان ضاعف لهم فترة الاجازة ورفع مستوى التموين والاعاشة .

وتدريجياً ، عاد الجيش الفرنسي ليكون قوةً دفاعية ناجحة ، من جديد . اما روحه الهجومية السابقة فقد فارقته الآن الى الابد .

* * *

لم يكن ظل أحداث روسيا وحده هو المَعلَم الخطير الذي يهدد بقاء الحلفاء في ربيع سنة ١٩١٧ . بل كان هنالك ظل آخر يبعث على الرعب بصورة أشد . انه شبح الغواصات الألمانية .

الغواصات

لقد بدا في ذلك الفصل من السنة ذاتها ان بريطانيـــا على وشك ان تركع ، اذ روّعتها الغواصات المعادية حتى صارت الأمهات في لندن يخوّفن ابناءهن بـ « الألمان الذين يقتلون من قاع البحر » . والحق ، ان الغواصات فعلت ما كان ينتظره الأدميرالات الألمان وزيـــادة . ففي

شهر نيسان (ابريل) وحده أغرقت تلك الغواصات ما حمولته «مليون» طن من السفن البريطانية والأخرى المحايدة . كانت سفينة واحدة من كل « اربع » تغادر المرافىء الانكليزية لا تعود ، بل يبتلعها جوف المحيط . ورفضت السفن الأمريكية والأخرى المحايدة ان تنقل السلع الى الموانىء البريطانية . وبدا انه من المستحيل تعويض السفن المغرّقة ببنـــاء سفن جديدة بدلاً منها .

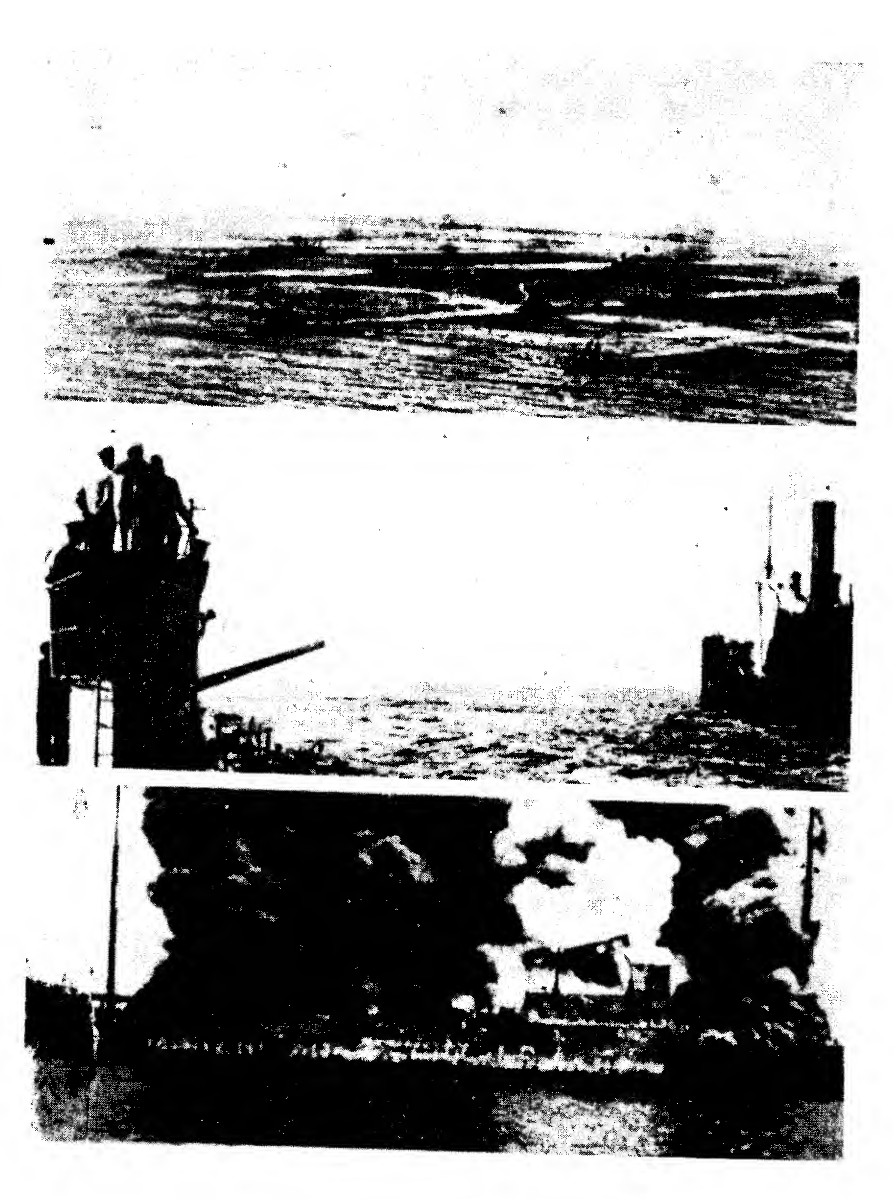
ما رأي الادميرالية البريطانية ؟

كان جليكـــو الآن قد غدا المسؤول الأول عن الاسطول في مقر الأدميرالية . وكان الرجل متشائماً للغاية ، حتى انه في حديث له مع الادميرال سمس Sims الأمريكي صرح قائلاً :



رصاص الالمان ينتظر المتقدمين الفرنسيين

« من المستحيل علينا ان نستمر في الحرب إن ظلت الخسائر تسير على هذه الوتيرة » . وحينذاك سأله الادميرال «سمس» عما يرى كحلّ للمشكلة فقال : « لا يبدو هنالك حل على الاطلاق » .



الى الأعلى صورة قافلة بحرية انكليزية ، دونها غواصة المانية
تستعد للعمل ، ثم عملية الاحراق والغرق .

فهل يرضى لويد جورج بالتسليم ؟ كلا . ان لديه حلاً ، وهو « القوافل البحرية » .

القوافل !!

أثارت هذه الفكرةُ الادميراليةَ ، إذ كانت الاخيرة ترى استحالة تنفيذها . وقد احتج الادميرالات بأن المدرعات المتوفرة غير كافية لحراسة قوافل السفن التجارية بحكم ان هذه المدرعات مضطرة للبقاء في حراسة الاسطول نفسه في «سكابافلو» . هذا ، علاوة عن ان السفن التجارية ، وهي غير مسلحة ، لا تلتزم خط سير ثابت . وودوا ان يدعّموا حججهم هذه فجمعوا قباطنة السفن التجارية في مبنى الادميرالية وانتزعوا منهم الموافقة على رأيهم في استحالة نجاح فكرة لويد جورج .

لقد قدّروا ان ٢٥٠٠ سفينة تغادر المرافىء البريطانية في الاسبوع الواحد . وانطلاقاً من هذا التقدير المبالَغ فيه ، قرر الأدميرالات ان حراسة هذا العدد الضخم مستحيلة .

لويد جورج يتحدى !

لكن ، هل يثني ذلك لويد جورج عن تصميمه في كسب الحرب؟ هل يقف تشاؤم جليكو حاجزاً يتكسّر عليه مجد لويد جورج المنتظَر !!

سارع لويد جورج الى الاتصال بإدارة الشحن العامة ، طالباً اليها تحديد الرقم فيما يتعلق بالسفن الكبيرة التي تغادر بريطانيا كل اسبوع . وحين كان الجواب المحدد هو ١٤٠ سفينة — اما الباقي فهو عبارة عن سفن ساحلية تنتقل بين موانىء بريطانيا نفسها او الى موانىء فرنسا الشمالية — تسلّح لويد جورج بذلك . فهرع الى مبنى الادميرالية حيث اتصل بصغار الضباط واستقى منهم المعلومات التي تنفعه في مشروع فكرته .

وفي ٢٦ نيسان (ابريل) قصد لويد جورج غرفة اجتماع الادميرالات حيث اصدر أمرة باتخاذ الترتيبات اللازمة لتسيير القوافل التجارية بحراسة مدرعات الاسطول . ولم يستطع الادميرالات الاعتراض ، اذ كان لويد جورج مسلحاً بمنصبه كرئيس للوزراء ، وبتأييد وزارة الحرب بكاملها لهذا رضخت الادميرالية ، بل وجد القادة البحريون انفسهم ميالين الى تنفيذ الفكرة التي طالما رفضوها .

وفي ١٠ ايار (مايو) سارت القافلة الأولى ، ثم والى لويد جورج اصدار اوامره حتى تم تطبيق هذا الاجراء على جميع النقل البحري في المحيط الأطلسي .

صوابية الفكرة ..

والحق ان هذه الفكرة أثبتت روعتها لأسباب كثيرة .

فمن حيث ضمان السلامة، ليست السفينة المنفردة بأعسر في العثور عليها من قافلة ذات مئة سفينة . ومن حيث سهولة الاغراق فإن القافلة المحروسة جيداً تشكل هدفاً خطيراً على الغواصات المهاجمة اكثر مما تفعل السفينة الواخدة او السفن المتفرقة .

لهذا نجد ان نسبة الخسائر البريطانية تناقصت بعد تسيير القوافل من ٢٥ ٪ الى ١ ٪ . ولم يكد يحل شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٧ حتى كانت الأحواض البريطانية والامريكية قادرة على بناء سفن جديدة على وتيرة أعلى مما تغرقه الغواصات الالمانية منها . وفي اول سنة ١٩١٨ كان قد اصبح في مقدور السفن الامريكية والبريطانية ان تغرق عـــدداً من الغواصات الالمانية نفسها ، وبأكثر مما تستطيع الاحواض الالمانية تعويضه.

مشكلة البحر المتوسط

بهذا تكون فكرة « تسيير القوافل البحرية » وتطبيق تلك الفكرة قد

نجحتا . لكن هذا القول لا ينطبق على البحر المتوسط . فهناك استطاعت الغواصات الالمانية والنمساوية ان تحصد حصاداً جيداً . ولذلك أسباب :

فبريطانيا مضطرة الى تموين جيوشها في سلانيك وفلسطين . كما انها مضطرة ايضاً لامداد كل من فرنسا وايطاليا بحاجتها من الفحم والمواد الاستراتيجية الاخرى . وليس في مقدور بريطانيا ان تحرس كل هذه السفن . لذلك دفعت الادميرالية البريطانية الثمن غالياً . وقد يعترض أحدهم قائلاً :

« كان على بريطانيا ان تستغني عن البحر المتوسط بكامله، كما فعلت في الحرب العالمية الثانية » . لكن هذا القول ما كان لينطبق على الحرب العالمية الاولى ، اذ ان هامش حياة بريطانيا نفسها آنذاك يغدو ضيقاً للغاية . فقد وقع في سنة ١٩١٧ انه لم يكن في بريطانيا من القمح ما يكفيها لاكثر من شهر واحد . وكان اغراق سفينة واحدة موسوقة بالسكر معناه منع تحضير المربيّات على ربات البيوت الانكليزيات .

لكن هذا اخيراً زال عن طريق تسيير القوافل البحرية . والفضل في ذلك يعود الى لويد جورج شخصياً . وبفضل هذا الاجراء تسنى لبريطانيا ان تستمر في تحمل مضايقات الحرب ، ثم ان تخرج منها كدولة كبرى ايضاً .

* * *

في الصيف ضيعت اللبن ..

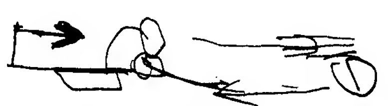
وحل صيف سنة ١٩١٧ ، وبحلوله ظهر للعيان ان الالمان والحلفاء قد فشلا في استراتيجيتيهما الاخيرتين . فالغواصات لم تضطر بريطانيا الى الركوع ، وهجوم نيفيل من طرف الحلفاء لم يؤد الى تقهقر فوضوي عام في الجبهة الالمانية . ان نصراً حاسماً لم يحرزه اي من الجانبين . وبذلك بدا الموقف المربك الذي واجهه المتحاربون في اواخر سنة ١٩١٦ يعود

الى الظهور من جديد .

والآن ايضاً جرت محاولات لعقد مفاوضات تتم بسلاح صلحي . لكنها الآن كانت محاولات مختلفة . ففي خريف سنة ١٩١٦ كان الداعون الى تلك المفاوضات نفراً قليلاً من الساسة الكبار الذين يسارّون خلصاءهم بأفكارهم خلف ابواب موصدة . اما الآن ، فأبناء الشعب العاديون الذين لم يعلموا بالمحاولات السابقة ، ولم يطلب رأيهم احد — هم الذين يقولون رأيهم هذه المرة .

ولنعد الى محاولة الصلح هذه من اولها ..

عودة الى محاولات الصلح



١ — في النمسا

في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٦ توفي امبراطور النمسا فرانسيس جوزيف . فخلفه على العرش الامبراطور شارل الشاب . ورأى هذا حالَ بلاده ، وكان يائساً من امكانية انتصار حليفته المانيا ، كما انه شديد المضايقة من هيمنة لدندورف على الشؤون العسكرية في الامبراطورية ، ففكر في الخلاص من كل ذلك . لهذا نجده في آذار (مارس) سنة ١٩١٧ يقوم بمحاولة جس نبض للحكومتين الفرنسية والبريطانية ، بصدد عقد صلح منفرد معهما . لكن ذلك لم يأتِ بنتيجة ما .

كان الحلفاء يودون من الامبراطورية النمساوية ان تقف ضد المانيا بعد انفصالها عنها . وكان الامبراطور شارل يعجز عن الوعد بذلك . لأنه ، على الرغم من لقبه الامبراطوري كان واقعاً تحت النفوذ العسكري الالماني . أليس لدندورف هو الذي يضع الخطط لجيش الامبراطورية ! ان له في الجيش اعواناً كثيرين من الضباط ، صغارهم وكبارهم. فالامبراطور لا يجرؤ على عدم أخذ هؤلاء بعين الحسبان ..

اضفْ الى ذلك ان الايطاليين وحدهم هم الذين يباشرون الحرب الفعلية ضد النمسا . وهؤلاء قد ظلوا عاجزين تماماً عن الحاق خسارة كبرى بقوات الامبراطورية العسكرية . كما ان الساسة والجنرالات الايطاليين لن يوافقوا على ان ينهي الحلفاء الحرب مع النمسا ، دون ان يغامروا بمناصبهم في بلدهم . أليس هؤلاء الساسة هم الذين لجـأوا الى الشغب على البرلمان الايطالي فاضطروه لاعلان الحرب ؟ أليست فرنسا قد استأجرت موسوليني وعصابته لأجل ذلك ؟! ان هؤلاء الساسة قد أثاروا احـلام الايطاليين في انتزاع التيرول ، ورد « مجد روما » الى سابق عنفوانه في البحر المتوسط .. فهل يرضى الشعب الآن ان يتقبل صلحاً مائعاً ، بعد ان دفع ضحايا باهظة جداً ؟

لهذا أصر الايطاليون على تنفيذ بنود « اتفاقية لندن » التي بموجبها تم اعلان الحرب .

والواقع ان عرْضَ الامبراطور شارل الصلحَ الانفرادي لم يكن في حقيقته يتعدى « توبة » رجل على فراش الموت ، فهو يعترف بخطاياه للكاهن ، راجياً اليه ان يسأل له الغفران . ذلك ان استقلال الامبراطورية كان قد اختفى منذ عهد بعيد .

ويحضرنا بهذه المناسبة ، وفي سياق التعليق على واقع الحال النمساوي عبارة مشهورة عن نابليون لا مانع من ايرادها . لقد قال : « هؤلاء آل هابسبورغ يسبقهم الزمن على الدوام ، سواء في سداد الديون التي بذمتهم أو تعبئة جيوشهم وتحريكها ، او رسم سياساتهم التي تأتي متأخرة كل مرة » .

ويبدو الآن ان آل هابسبورغ كانوا يسيرون مصداقاً لتلك العبارة .

٢ – في روسيا والدول الاخرى

ذكرنا في السابق ان محاولات التوصل الى صلح قد جاءت الآن من

الشعب لا من دهاليز قصور الساسة الكبار . فقد تحرك في سنة ١٩١٧ رؤساء احزاب المعارضة في الدول المتحاربة بتأثير ضغط المواطنين على أحزابهم ، كما تحرك القادة الاشتراكيون وفقاً لمنهاج تفكيرهم ومبادئهم، وأفرادُ الطبقة الوسطى من اصحاب الحوانيت ووكلاء المصانع . ومع ان فكرة « مقاومة الحرب » ظهرت اول ما ظهرت على يد القادة الثوريين الجدد في روسيا ، الا انها سرعان ما انتشرت انتشاراً واسعاً في اوساط شعوب الدول الحليفة .

لقد شعر القادة الروس انهم لن يكون بوسعهم الاستمرار في الحرب الا اذا وجدوا لذلك مسوّغاً مقبولاً . فما هو هذا المسوّغ ؟ انه قيَم عليا يطلبونها من الدول المتحاربة . وما هي هذه القيَم ؟ انها أهداف الحرب . وحين تساءلوا ما يجب ان يحدِّد هذه الأهداف ، اجابوا : « لا ينبغي ان يكون هنالك مطامع اقليمية لأي من الطرفين المتحاربين، ولا يجوز ان يتقاضى طرف من آخر أية تعويضات للحرب » . واعلنوا ذلك .

بريطانيا وفرنسا في حرج

الآن اصبح موقف فرنسا وبريطانيا حرجاً للغاية . لكن هذا لم يخلّف أثراً فعّالاً في شعبي البلدين . اما حين نشر الروس وثائق المعاهدات السرية التي وجدوها في ارشيفات حكومتهم ، فقد افتضحت نوايا بريطانيا وفرنسا الحقيقية ، وبانت الأهداف غير الشريفة التي كانتا تسعيان اليها . حينذاك زالت القشرة الرقيقة من دهان « مقاومة العدوان الالماني على حياد البلجيك » و « الدفاع عن الديمقراطية والعدالة » ، التي تسترت بها بريطانيا امام شعبها حين ساقته الى الحرب . ومثلها زال ايضاً في حال فرنسا .

لو أنهم مخلصون !

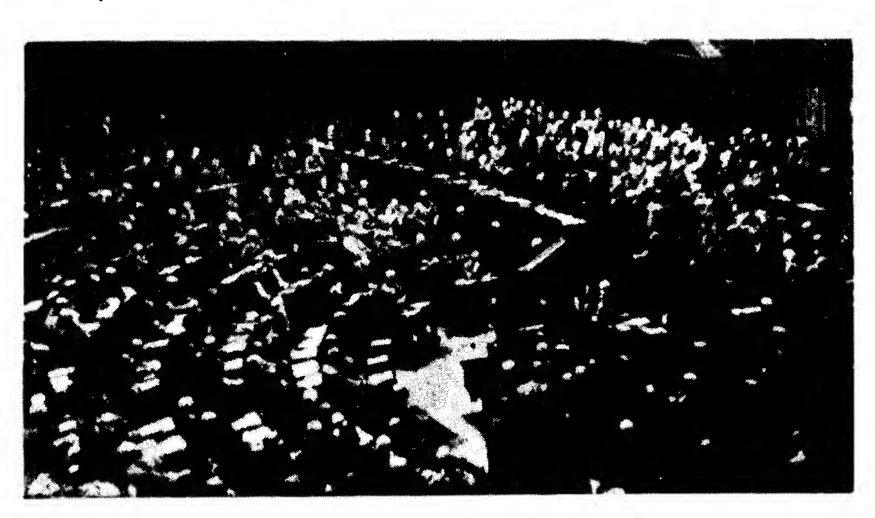
لقد افتضح أمر معاهـــدة سايكس – بيكو المتعلقة بتقسيم ممتلكات العثمانيين في آسيا . كما افتضح أمر التعويضات التي كانت بريطانيا وفرنسا تودان ان تتقاضياها من ألمانيا اذا انهزمت في الحرب .

ودون النظر الى أثر هذا الافتضاح عند البريطانيين والفرنسيين ، فاننا نحن العرب ، كان يجب أن نعي لكل ذلك . لقد نشر البلاشفة أسرار بريطانيا وفرنسا ، وكان من واجب زعمائنا ، لو انهم مخلصون ، ان يحتاطوا لما يترتب على افتضاح تلك الأسرار .. لكن !!

* * *

لا غالب ولا مغلوب ..!!

كان المعنى الحقيقي للشعار الذي رفعه الروس، وهو «خرب» دون



المستشار ميخائيل يقبل قرار الصلح من الريخستاغ كما « يفهمه هو »

مطامع توسعية اقليمية » أنه « لا نصر لأيّ من الطرفين المتحاربين على الآخر » .

ومن شأن الأخذ بذلك ان يُسقِط الحكومات التي قامت على أساس « جلب النصر » كحكومة لويد جورج مثلاً . فماذا تفعل ؟

لقد بدا ان استعمال العنف الصارم هو السبيـــل الوحيد لاخماد صوت السلام . فاعتُبر كل داعٍ الى السلم ، حتى ولو كان معتدلاً في دعوته ، انهزامياً ، ومستسلماً للعدو ، بل خائناً . هذا في بريطانيا .

أما في فرنسا ، فقد كانت تمردات الجيش تسيطر عـلى الحكومـــة الفرنسية وتضطرها الى سلوك سبيل معين . فلو أُعلنتْ اية اشارة الى « مفاوضات صلح » ، حتى ولو كان ذلك من قبيل الشائعة لا أكثر ، لانفرط عقد الجيش الفرنسي وانحلّ من نفسه .

لكن كل هذه المحاذير لم توقف افكار الناس عن الانشغال بنشدان السلام.. فقد تزايدت الأوساط التي باتت مقتنعة بأن احراز النصر مستحيل على اي من الجانبين المتحاربين . وبرزت اوساط اخرى تشك في صوابية الحرب من اساسها . والنتيجة التي يمكن الخروج بها من جمع ذينك الرأيين هي : « أسرِعوا ايها الساسة الى التفاوض لنشر السلام » .

السلام .. وظروف المانيا

مثل هذه الأفكار برز في المانيا ايضاً . لكن ظروف المانيا المحلّيـــة طبعتها بسِمة مغايرة . ذلك ان شتاء سنة ١٩١٧ كان شديد الوطأة ، فزاد تذمر الشعب من الضائقة الاقتصادية الخانقة ، وانتشرت الاضرابات الواسعة في البلاد ، وتمرّد البحارة في « كييل Kiel » . وكان ضحية كل ذلك هو المستشار بتمان .

كان هوفمان هو القائد الذي خلّف لدندورف وهندنبرغ في الاشراف على الجبهة الشرقية . وكان يرى ان النصر مستحيل ، ويصرّح بذلك



المستشار ميخائيل يتلقى تعليماته الفعلية من هندنبرغ ولدندورف ، مع انه أعلى منهما مركزاً

للساسة الذين يزورونه في قيادته . وحين جاء الى برلين اعلن رأيه الأخير ، وشنّ هجوماً على بتمان ، معتبراً اياه هو القابع وراء سياسة العناد والاستمرار في الحرب . لكن هوفمان وجد لدندورف وهندنبرغ يساعدانه في هجومه على بتمان . فما تفسير هذه الظاهرة ؟

كيف غدا بتمان هو الضحية ؟

ذلك بسيط واضح ، فـ« هوفمان » يهاجم « بتمان » لاعتقاده ان مفاوضات الصلح لن تتم ما دام « بتمان » مستشاراً ، بينما لدندورف يساعد في ذلك الهجوم لاعتقاده أن مفاوضات الصلح قد تتم اذا ظل بتمان هو المستشار . اما بتمان ، فلم يجد من غليوم ما يسنده . لذلك اضطر الى تقديم استقالته في تموز (يوليو) سنة ١٩١٧ .

وبتجريد الرايخستاغ من شخصية سياسية بارعة مثل بتمان ، خسرت المانيا الرجل المدنيّ المفكّر على رأس حكومتها .

وحين طلب غليوم الى هندنبرغ ان يرشح له اسم مستشار جديد ، تقدم القائد باسم ميكال (ميخائيل) Michaelis . وكان هذا منظماً قديراً في شؤون التموين، لكنه غير كفؤ لمواجهة موقف دقيق، كموقف المانيا آنذاك ، من الناحية السياسية . ولهذا سرعان ما غدا العوبة بيد هندنبرغ ولدندورف .

وكان عزاء الرايخستاغ عن فقدان الصفة المدنية فعلاً في منصب المستشارية ، انْ سُمح له باتخاذ قرار يؤيد الصلح دون مطامع اقليمية او تعويضات .

لكن ذلك القرار كان عديم الأثر في البلدان الأخرى ، إذ فُسّر بأن الدافع الوحيد الى اتخاذه هو اعتقاد الألمان في ان النصر غدا مشكوكاً فيه من طرفهم .

* * *

الروس وكره الحرب .
كيرنسكي

ومثل هذا الشك وجد تربة خصبة في روسيا . فقد نمت مشاعر الشعب نحو كره الحرب ، وانحلّ الانضباط في الجيش ، وتفشّت النقمة والتذمر بين الناس . وفي هذا الوقت اصبح « كيرنسكي » وهو الاشتراكي اليميني اللامع رئيساً للحكومة . فتصوّر ان بمقدوره سوْق الروس الى الحرب عن طريق خطبه البليغة واستثارة الهمم . لكن هذ التصور كان خاطئاً . فبعد هجوم قصير لبضعة ايام ، قام به الجنود الروس على الخطـوط الالمانية ولاقوا نجاحاً معقولا — استطاع الالمان القيام بهجوم معاكس شديد العنف كاد يبلّغهم ابواب « ريغا » . وعند ذلك فقدَ الجنود الروس كل حماسة فيهم للقتال . فأخذوا يفرون من الجيش ويعودون الى اهليهم

دون اي انتظار لنتيجة الحرب . وبهذا اخفق كيرنسكي . فقد كان يحاول اعادة الروح الحربية الى نفوس الروس ، لكنه الآن قد حطّم الجيش الروسي !! *

وهذا ما مكّن الألمان من نقل فرق كثيرة من الجبهة الروسية لاستعمالها في ميادين اخرى .

مؤتمر استوكهلم

والآن ، ادرك كيرنسكي ان الفرصة الوحيدة التي بقيت له هي عقد صلح منفرد. فعرض على بريطانيا وفرنسا ان تسمحا له بذلك كحليفتين. غير انهما رفضتا خوفاً من ان يتخذ شعباهما ذلك مثالاً يطالبان به . وبرفضهما صلحاً منفرداً ، دفعتا روسيا في احضان ثورة جديدة . وكحلّ وسط للموقف الأخير ، دعا الاشتراكيون الروس الى عقد مؤتمر عام للاحزاب الاشتراكية في اوروبا ، في مدينة استوكهلم بالدانمرك . وكان مقرراً ان يلتقي هناك الاشتراكيون الروس والألمان والفرنسيون والبريطانيون وغيرهم . لكن هذا لم يحدث . اذ ان الروس والألمان هم الذين وفدوا. اما الاشتراكيون الفرنسيون ، فقد رفضت حكومتهم صرف جوازات سفر لهم . واما الاشتراكيون الانكليز ، فقد مُنحوا جوازات سفر ، غير ان تعليمات سرية صدرت لاصحاب السفن بعدم نقلهم . وهكذا فشل المؤتمر .

لماذا خيف الاشتراكيون ؟

ولنا ان نتساءل الآن: لماذا تصرفت بريطانيا وفرنسا على هذه الصورة

---

* تجد خير وصف لذلك في ملحمة الكاتب السوفياتي شولوخوف الموسومة «الدون الهادىء». تعريب عمر الديراوي – دار العلم للملايين ١٩٦٦



كيرنسكي يحمس الجنود الروس في الميدان

الشائنة ؟ لقد فعلنا ذلك خوفاً من انتصار المبادىء الاشتراكية المتعلقة بـ
اولاً : إنهاء الحرب على اساس عدم الاستحواذ على اراض جديدة.
ثانياً : الانصراف للصراع الطبقي في الداخل .
فالبند الأول يناقض على خط مستقيم المعاهدات السرية . والبند الثاني يقضي قضاء مبرماً على الطبقة الحاكمة في البلدين .

ادركت الشعوب حقيقة الحرب

وبعد انعقاد المؤتمر وفشله زادت شكوك روسيا في نوايا الحلفاء الخبيثة . ومثل هذا نفثته صدور ذوي الافكار اليسارية في كل من بريطانيا وفرنسا . ومن هذه اللحظة ثبت للشعوب قاطبة ان الحرب كانت

حرباً استعمارية بين طرفين يتنازعان الغنائم ، وان مصلحة الشعب العادي من بسطاء الناس ليست هي التي تأخذها الطبقات الحاكمة بعين الاعتبار. كما تحقق العمال على الخصوص من ان سوْقهم الى مجازر الحرب لم يكن يهدف الى رفع مستواهم بقدر ما يهدف الى إبقاء الطبقة الحاكمـة في بلادهم في مناصبها ، واستمرار الرأسماليين في تكديس ثرواتهم على حساب انتاج العمال . وحينذاك انقسم كل شعب ، من حيث التفكير في الاستمرار في الحرب أو عدمه ، إلى فريقين :

ا – فريق القبعات العالية ، وهم الارستقراطيون ، ورجال السياسة ، وأصحاب رؤوس الأموال .. وهؤلاء يرون ضرورة متابعة الحرب خوفاً من عواقب الصلح .

ب – فريق قبعات الحاكي ، وهم العمال ، وزارعـو الارض ، وصغار اصحاب الحرف ، وذوو الرتب الصغيرة في الجيش .. وهؤلاء يرون مصلحتهم تقضي بوضع حدٍ للحرب ، والتفرغ لمحاسبة الفريق الأول .

ومع ان هذا التصنيف بدا واضحاً في جميع الدول المتحاربة ، الا انه لم يثمر الا في روسيا . ذلك ان لينين كان يرتدي قبعة متواضعة ، وهو الآن يود استثمار قبعته هذه . وقد فعل .

وليس من مجانبة الصواب القول : ان بريطانيا وفرنسا في خوفهما من نجاح مؤتمر ستوكهلم ، وتصرفهما الغبي آنذاك – قد ساعدتـا لينين في الوصول الى هدفه المنشود .

* * *

الحرب وحش مشوه السمعة

لم تكن الحرب في حاجة الى من يشوه سمعتها في بريطانيا . فقد تكفّل

الجنرالات بهذه المهمة ، وقاموا بها خير قيام . ففي صيف عام ١٩١٧ كانت الاستراتيجية البريطانية — اذا امكن تسميتها « استراتيجية » اصلاً — في أحط مستوى شهدته في تاريخها . كان هايغ ، الذي تولى القيادة الفعلية للحرب في الجبهة الغربية ثلاث سنوات ، لما يزل عاجزاً عن ادراك التغير في طبيعة تلك الحرب . لقد ظلت خبرته محدودة تماماً.

وكان جوفر قد زال . ولحق به نيفيل . إن لدندورف أدرك ان اساليب حربية جديدة يجب ان تُستخدم . اما هايغ ، وهو الأعلى رتبة من لدندورف ، فقد ظل يتشبث برأيه السخيف ، في ان هجوماً جباهياً هو الذي سيحرز النصر .

كان هايغ قد ذاق مرارة الفشل في معركة « السوم » ، ودفع الثمن غالياً ، لكنه مع ذلك لم يعتبر . وقد علّل فشله ذاك بقوله : « ان اصرار جوفر على تحديد نقطة الهجوم هو الذي سبب الفاجعة في السوم ، لا مبدأ الهجوم الجباهي » . ثم اضاف الى ذلك تبريراً آخر ، هو : « لقد كانت الجيوش البريطانية غير مرنة في حركتها آنذاك ، كما كانت تنقصها الممارسة الكافية للحرب » .

والآن ، لم يكن هايغ يشعر بالحسرة على تدهور الجيوش الفرنسية . كلا ، ربما انه كا مغتبطاً لذلك . فهو يود الاستئثار بفخر النصر لجيوشه هو . ولهذا نجده لا يتشاور مع الفرنسيين إلا بعد ان حزم أمره وقرّر التحضير لهجوم رئيسي جديد .

اين سيكون الهجوم؟

منذ مدة طويلة وهايغ يلح في ضرورة مهاجمة الألمان من جناحهم الشمالي الغربي . وهو الآن ينظر الى « ايبر Ypres » حيث ظل الجنود البريطانيون يواجههم الموت من جبهتين .

في « ايبر » هذه ، تصوّر هايغ انه يستطيع ان يضع الحجر الأساسي في النصر كاملاً . فبعد الاستيلاء على قلعة ايبر ، قدّر الجنرال ان جيوشه الهابطة على الالمان من الشمال سيكون بوسعها اختراق الخط الالماني بكامله وانهاء الحرب .

والواقع ان ايبر هذه بدت نقطة هجوم رائعة من حيث موقعها على الخريطة الحربية التي نشرها هايغ في غرفة قيادته . لكن الخرائط في العادة لا ترسم الصعوبات العسكرية المحتمل مواجهتها . فمن حيث الرسم الجغرافي لم يكن على هايغ الا ان يستولي على ٣٠ ميلاً ، كي يغدو في « اوستند » في بلجيكا . ومن هناك يقفز قفزة اخرى فتكون مفاتيح الخطوط الحديدية البلجيكية في يده . وهو يعرف ان تلك الخطوط هي الشريان الأول الذي يعتمد عليه الالمان في إمدادهم بالرجال والتموين في الجبهة الغربية . فلو تم للحلفاء الاستيلاء عليها لاضطر الألمان ، اما الى الاستسلام ، او الانكفاء الى داخل حدود المانيا نفسها .

هذا من حيث الرسم الجغرافي .

ومن حيث الواقع العسكري .

اما من حيث الواقع العسكري، فالأمر مغاير لذلك . فإلى الشمال من مواقع هايغ الحالية كان البلجيكيون قد دمّروا السدود المائية في بلادهم فغدت المنطقة اما مستنقعات ضحلة ، او قيعاناً كثيفة الوحل تتعذر الحركة فيها . اذن ، هنا كان الجناح الالماني في مأمن ضد اي هجوم.

اما الجناح الآخر المقابل للجيوش الفرنسية ، فقد كان مطمئناً الى عجز هؤلاء عن القيام بأي هجوم . حتى لقد بلغ استخفاف الالمان بالفرنسيين حداً جعلهم يحوّلون الفرق التي تم الاستغناء عن خدماتها في ميدان روسيا ، الى الجبهة الايطالية ، لا ضد الجيوش الفرنسية .

حين طُلب الى هايغ من لندن ان يقدّم حججه التي تؤيد ضرورة القيام بهجومه المزمَع ، اخذ الجنرال يخترع تبريرات كثيرة ، اهمهــا ثلاثة :



« وايبرز » ايبر سنة ١٩١٧ ..

١ ـ ان بيتان يطلب قيام الجيش الانكليزي بهجوم يصرف الالمان



جاسوس الماني اسر في معركة الوحل

عن انتهاز الفرصة وسحق الجيش الفرنسي المتمرد والمنهار .

٢ — ان جليكو ، الادميرال الأول في البحرية البريطانية ، يلح في ضرورة احتلال اوستند لتسهيل تحطيم مراكز الغواصات الالمانية القريبة .

٣ — ان الجيش الانكليزي يقف وحده في الميـــدان ، فيجب ان يحصل على اكليل النصر قبل قدوم الامريكيين لمقاسمته ذلك الفخار .

لنناقش هذه الدعاوى كلا على حدة :

أ — اما من حيث الارتكاز على طلب بيتان ، فكـــان ذلك القائد الفرنسي اوضح في تقاريره اكثر من مرة ، انه يطلب من الجيوش الانكليزية مجرد القيام بمناوشات صغيرة ، يهدف بيتان من ورائها مجرد

كسب الوقت ، ليعيد تنظيم جيوشه ثم يقوم بالمساهمة الجدية في الحرب بعد ذلك .

ب – ومن حيث الاستناد الى رأي جليكو ، فإن هايـغ هو الذي اقنعه باتخاذ هذا الرأي ، ان لم نقُل لقّنه إياه . وعن طريق التغرير ايضاً . اذ انه قدم للادميرال حقائق مزيفة عن الموقف ، واخفى عنه تقارير دوائر الاستخبارات العسكرية الخاصة بتلك المنطقة .

جـ – واما من حيث الرغبة في الاستئثار بمجد النصر دون الامريكيين فـ:

أولاً : ان القائد حين يرسم خطة ما لا يجزم بنجاحها . اذن ، كان النصر من اساسه غير مضمون .

ثانياً : كيف يجوز لقائد في مركز هايغ ان يبدي هذه النزعة تجاه دولة حليفة ؛ تزعم حكومته انها تقاتل الى جانبها في سبيـل نفس الأهداف والمثل العليا ! !

ومهما كان الحال ، فهكذا تصرف هايغ .. كان مقتنعاً بأن الهجوم هو السبيل الوحيد لكسب الحرب ، وان الهجوم الذي يزمعه هو الوحيد القادر على ذلك . لقد خدعته خريطته الحربية ! !

ما هي آراء جنرالات الحلفاء الآخرين ؟

كان روبرتسون يرى ان « قتل بضعة ألوف من الالمان هو الناتج الوحيد المحتمل من ذلك الهجوم » . وكان بيتان يقول : « من المستحيل ان نقاتل الالمان والوحل في نفس الوقت ، وان ننتصر على اي منهما. » اما فوش ، فله في ذلك رأي طريف . انه يقول : ان هذا الهجـوم لن يكون اكثر من « زحف البط » .

لكن كل هذه الانتقادات ما كانت تزيد هايغ الا عناداً .

اين لويد جورج ؟

وهنا قد يتساءل القارىء : اين لويد جورج الذي يرى جميع هذه الانتقادات ؟ ألا يستطيع إلغاء الفكرة بكاملها ، وهو من نعرفه حين فرض سير القوافل البحرية قسراً عن ارادة الادميرالية البريطانية بكاملها؟ وهذا تساؤل حق . لكن لويد جورج الآن ، هو غيره يــوم فرّض ارادته على الادميرالية . انه الآن يعاني متاعب كثيرة اهمها :

١ — ليس له حزب قوي يسنده في البرلمان . واعضاء حرب المحافظين شديدو الايمان بالجنرالات ، بطبيعتهم . لهذا ، فانهم قد يخذلونه فتنفرط وزارته ، إذا ما جابهم بتصرف يخالفونه الرأي فيه .

٢ — ان الفشل الذي لاقاه نيفيل ، وعكَسه عليه — كمؤيد له في الحكومة البريطانية — لا يزال يمحق نفوذه الأدبي في البرلمــان والشعب على السواء .

٣ — ان الملك يسند هايغ .

٤ — ان وزارة الحرب البريطانية منشقة على نفسها ، فليس هناك من يسند لويد جورج فيما لو أقدم على خطوة صارمة تجاه هايغ ومشروعه.

٥ — لقد جاء لويد جورج أساساً ، ليجلب النصر ، وها هو هايغ يصرّح بأنه سيفعل له ذلك ، فما هو موقف لويد جورج ان عارض في الحصول على ما جاء من اجل الحصول عليه ! !

كل هذه الاسباب مجتمعة اضطرت لويد جورج الى الرضوخ والقبول بفكرة كان واثقاً من خطأها .

بداية الحملة ونسف اجرامي !

في اوائل حزيران (يونيو) ١٩١٧ احرز هايغ نجاحاً لحملته ، لكنه

لم يكن من صنعه هو . ذلك النجاح هو نسف مسّين Messines . وهي حاشية صخرية مشرفة كان يحتلها الالمان وتشرف على جميع تحركات الجيوش الانكليزية في المنطقة . والفضل في نجاح عملية النسف هذه يعود الى السير « هربرت بلومر » . اذ ان هذا المهندس الحربي قد ظـل عامين جاهداً في تنفيذ خطة رسمها لتخليص ذلك الموقع من ايدي الالمان عن طريق نسفه . وقد كان نقر الصخر عميقاً بلغ ١٠٠ قـدم تحت الارض في بعض الانفاق . وكثيراً ما كان الجنود الألمان في خنادقهم العميقة كذلك ، يُسمَعون وهم يتكلمون ، من قِبل مهندسي الالغام الانكليز الذين يعملون تحتهم مباشرة . ومع هذا لم تنكشف عملية التلغيم.

الانفجار سمعته لندن !

وقد وُضع في الانفاق ما زنته مليون رطل انكليزي من المتفجرات. حتّى اذا ما كان يوم ٧ حزيران (يوليو) تم تفجير هذه الالغـام الجهنمية ، فدُمّرت الخنادق الالمانية بكاملها في ذلك الموقع . وكـان صوت الانفجار زهيباً ، حتّى ان لويد جورج سمعه من غرفته في رئاسة الوزارة في لندن .

وبعد ذلك التفجير تقدم الجنود الانكليز فاحتلوا تلك الحاشية الصخرية المشرفة ، ولم يعملوا حتّى على انتشال جثث الالمان من بين ركام الصخور وحطام اسمنت الخنادق . هذه هي الحرب ، لا انسانية فيها

الا ان هذه العملية لم تكن شهادة حسنة لهايغ . فإذا كان احتلال ربوة واحدة يحتاج الى جهد عامين كاملين ومليون رطل من المتفجرات، فمتى يتم الوصول الى برلين !! ان معنى ذلك حرباً تستغرق عدة قرون لا سنوات !!

عملية مباغتة وحاسمة ومضمونة .

ومع هذا ، ومع ان هايغ لا فضل له فاننا نراه يلمّح في تقاريره

بعد « مسّين » ، الى ان الحرب يجب ان تتم بهذه الصورة : « عملية مباغتة وحاسمة ومضمونة النجاح» ، فهل يستطيع هو او اي قائد غيره ، السير على هذا المنوال في اي حرب ؟ سنرى .

مسلحاً بهذا النجاح الصوري شدد هايغ على الحكومة البريطانية والقيادة داعياً الى ضروره الموافقة على حملة ايبر . وضماناً للنجاح في التشديد ، أخفى عن الحكومة البريطانية حقيقة قوة الالمان التي يريد مهاجمتها ، وحقيقة الوحل الكثيف في المنطقة . ولما كانت الوزارة منشغلة بأمور وتنظيم القوافل البحرية .. فقد رأت من الصواب ان تبلّغ هايغ ان يقوم بالاستعدادات الضرورية لحملته ، بينما تدرس الموضوع لتُنهي اليه قرارها بشأنه .

وعندئذ انتهز هايغ الفرصة ، فأبلغ الوزارة ان الاستعدادات قد كملت في ٢٥ تموز (يوليو) ، فبعثت اليه الوزارة بتمنياتها بنجاحه . لكن الواقع ان هايغ تسرع في خطواته خشية ان تعيد الوزارة النظر فتُقرر الغاء الحملة من اساسها. ولهذا كان عليه ان يدفع ثمن هذا التسرّع.

مباشرة الهجوم

كانت الاستعدادات التي اتخذها هايغ من جانبه هي الاستعدادات الكلاسيكية في مواقعه السابقة : حشدُ مدفعية ثقيلة ، وجلب اعداد هائلة من الجنود . ولم يكن الالمان من جانبهم غافلين عما يُضمَر لهم . كانت دوائر استخباراتهم العسكرية قد حذّرت قيادتها وشرحت لها نسخة مطابقة للأصل عن كامل الخطة المعادية المراد تنفيذها . فحشدت القيادة مليون جندي ، جواباً على ذلك . وكان البريطانيون مليوناً ايضاً ، فتعادلت القوتان من حيث العدد . فما الذي ظل يغري هايغ في هذه الحال ؟!

انه يقول : « من الواجب ان نستفيد من ٣ نقاط :

١ — ارتفاع معنويات جنودنا مقابل انهيار معنويات الالمان

٢ — وجود عنصر الدبابات لدينا كــاحتياط ، وفقدان ذلك عند الالمــان .

٣ — براعة القيادة التي نأمل التفوق فيها عليهم . »

تقييم وحقائق

والواقع ان تقديرات هايغ بهذا الخصوص كانت تصورات خاطئة : فمن حيث المعنويات كان الالمان آنذاك ، كما ظلوا طوال الحرب ، اعلى معنويات من الجنود البريطانيين والفرنسيين والروس ، حتى وقت انتصار هؤلاء . والجندي الالماني كما قال لدندورف « لا معنوية تهبط له . إنه دائماً عالي المعنوية » . ومع ان هذا قول مبالغ فيه ، الا ان فيه بعض الحقيقة .

واما من حيث عنصر الدبابات ، فقد سبق ان ثبت فشلها في «السوم» كما ان فقدان الالمان لهذا السلاح لم يؤثر على الاطلاق . اضف الى هذا ان عدداً فعالاً من الدبابات لم يكن متوفراً بعد ، وان الدبابات تعجز عن الافادة في الارض العميقة الوحل .

واخيراً ، من جهة « براعة القيادة » . فالحق ان هايغ كان مغروراً — ان لم نقل احمق — حين زعم انه يرقى الى مستوى لدندورف في الاستراتيجية او التكتيك .

وخير رد على زعمه ان يتذكر نتائج معارك الحلفاء السابقة ، سواء في الجبهة الغربية او الميدان الشرقي . وسيكون هذا الرد مفحماً .

احتمال النجاح
ما الذي يؤيد ؟

في ١٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٧ عقدت كامل هيئة وزارة الحرب في بريطانيا اجتماعات مطوّلة للبحث في حملة هايغ ، واستدعي القائد من فرنسا ليكون حاضراً اثناء مناقشة اقتراحاته . وعند ذاك ايضاً، أبدت الوزارة شكّها في نجاح الحملة . وكانت الأسئلة التي وجهت الى هايغ هي :

١ — ما الذي يجعله يعتقد بالنجاح مع ان جميع الحملات السابقة قد فشلت ؟

٢ — اذا كان الالمان « منهاري المعنوية » كما يزعم ، فهل لا يكون من الحكمة انتظار الامريكيين ليقدُموا بدماء نشيطة ، بينما يجري نقل الفرق البريطانية الى الميدان الايطالي ، فتواجه عدواً أقل خطورة من الألمان ؟

٣ — الا يرى ان اوستند هدفٌ يكاد يكون مستحيلاً ؟

وقد اجاب هايغ بما يؤيد آراءه ، واخفى تقارير دوائر استخباراته العسكرية التي كانت تكاد تصرخ في وجهه « انت حر في ان تكذب، لكنك لست حراً ان تكذب الآن » . كما اخفى عن الوزارة ان القيادة الفرنسية متحفظة تماماً تجاه حملته المقترحة .

«معركة الوحل»

بعد ان تمت الاستعدادات المتطلبة ، اصدر هايغ امره بالهجوم في ٣١ تموز (يوليو) ، وهكذا بدأت معركة ايبر ، او معركة الوحل، كما اطلق عليها لويد جورج . وقد بان منذ اول يوم ان هايغ فاشل تماماً في خطته ، إلا لدى هايغ نفسه ونفرٍ من ضباطه الذين نالوا رتبهم

بفضل الرياء والملق . فقد كان اعظم تقدم احرزه المهاجمون لا يتجاوز نصف ميل . اما خط الدفاع الالماني المقصود بالهجوم، فلم يصله الجنود البريطانيون ابداً.وقد هطل المطر بغزارة، وحفّرت قنابل المدفعية الارض ما بين خطي القتال ، فتحولت هذه الى وحل يبلغ عمقه خصر الرجل. وكان الجنود يحاولون التقدم فلا يكادون يقطعون بضع عشرات من الاقدام حتى يغوصوا في الوحل ، إما بفعل رشاشات الالمان، او ينهكهم التعب فيفضلون ان يدفنهم الوحل .

وحين لجأ هايغ الى سلاح الدبابات ، تولى الوحل جعلها هدفاً ثابتاً لرماة الالمان ، اذ غرّزت هذه ، فاصطاد القناصة الالمان رجالها واحداً واحداً .. هناك غدا الوحل مزروعاً بنادق ، وانقلبت جثث المدفونين بُصيلات كبيرة وإن لم تخرج منها زنابق جميلة ، بل روائح نتنة جداً . اما الاعتدة العسكرية المتلفة، فكانت مصدر ربح وفير لأصحاب المصانع في بريطانيا وامريكا .

وقد استمر الهجوم طوال اسبوعين ، لكن نتيجته كانت سخيفة للغاية : التدمير بالمدفعية من بعد ، وقتل عدة الوف من الالمان . لهذا نجد هايغ نفسه يأمر بالتراخي في القتال . لكن هذا لم يجد قبولاً لدى لويد جورج ، فقرر ان يزور الجبهة بنفسه ليطلع على الاوضاع فيها . وقبيل اليوم المحدد لتلك الزيارة جمّع هايغ اسرى الحرب الألمان في هذه المعركة والمعارك السابقة ، وعرضهم على لويد جورج ، مصوّراً له ان الالمان لن يلبثوا حتى ينهاروا ويستسلموا . وعلى الرغم من هذه الخديعة ظل لويد جورج يشك في حكمة هايغ ، حتى لقد قال عنه : « آه ، انني اراهن على جواد خاسر » .

لا هدف .. هو الهدف

عاد لويد جورج الى لندن ، فاستشار السير جون فرنش ، القائد

السابق في فرنسا ، فنصحه بضرورة انهاء الحملة بكاملها لأنها خاسرة . ولكن لويد مع هـذا لم يود ان يثير هايغ والملك عليه . فقام هايـغ بهجوم من طراز « زحف البط » في تشرين الاول (اكتوبر) ، ثم بهجوم آخر في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) .. كل هذا لاسقاط موقع كانت المدفعية قد جعلته أنقاضاً .

وبعد ذلك توقفت حملة هايغ .. لقد نجحت في أهدافها . اما ما هي تلك الأهداف ، فقد أجاب لويد جورج عن ذلك السـؤال بقوله : « ان « لا – هدف » هو « هدفٌ » ايضاً . ويبـدو لي ان السير هايغ مولع بكلمة « لا شيء » . » .

التنيجة

والواقع ان مع لويد جورج كل الحق في هذه السخرية اللاذعة من هايغ . فقد غدت مواقع البريطانيين بعد المعركة اشد حرَجاً مما كانت عليه قبلها . والدليل على ذلك ان البريطانيين انسحبوا سنة ١٩١٨ ممـا كسبوه من ارض في هذه المعركة ، دون قتال ، عندما آثروا تقصير خطوطهم احتياطاً لهجوم ألماني مرتقَب .

لكن ، اذا كان هايغ قد فشل في اثبات مقدرته الحربية ، فهو لم يفشل في إزهاق ارواح عدد كبير من جنوده ان ٣٠٠ الف رجل بين جريح وقتيل هم حصيلة « عبقرية » هايغ هذه المرة . اما خسارة الألمان فقد كانت بدورها كبيرة ايضاً . فهي ١٥٠ الف رجل .

تعليق .. ونقد

ومن عادة المعلقين العسكريين ان يهتموا بنسبة الخسائر في الطرفـين المتحاربين فهل ترى ايها القارىء هذه النسبة في صالح هايغ ؟!

يقول السير جون فرنش عن هذه المعركة : « انها اكثر معركة عمى ، واكثر عمى ايذاء » . وهذا صحيح من جانب هايغ . فهل يقتنع بذلك هايغ نفسه ؟! سنحاول ان نعرف ذلك .

طلب رئيس هيئة اركان حرب الجنرال هايغ ان يزور ارض الميدان في يوم ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ، فرافقته دورية الى هناك . وحين غرّزت سيارته في الوحل صاح وهو يبكي : « يا إلهي .. وهل بعثنا جنودنا ليقاتلوا في هذه الارض !! » فأجابه الضابط المرافق : «قدّامك وحلٌ اعمق يا سيدي » . فانفجر اركان الحرب « وحق الجحيم ، انها مقبرة رائعة للجنرال ! »



كمبري .. المدينة التي افرحت معركتها البريطانيين ثم احزنتهم

وُنقلت هذه القصة الى هايغ ، فقال : « سنعيد الكرة في الربيع

القادم » . ولم يكن الجنرال يمزح في قوله هذا ، بل أعد خطة فعلية لذلك . وكان من حسن حظ الجنود انها تنفّذ .

* * *

كانت « معركة الوحل » هي المعركة الاخيرة التي تمت محاربتها على الاسلوب القديم . اذ ثبت بعدها للألمان والحلفاء — ما عدا هايغ — ان اسلوباً جديداً في الحرب يجب ان يتّبع .

وكان ظاهراً ان هذا الاسلوب يجب ان يعتمد في اساسه على سلاح الدبابات . لكن هذا السلاح قد فشل تماماً في معركة الوحل . اذن ، كان ينبغي استعماله في ارض صلبة لا يغوص فيها .

الدبابات و « كمبري »

وفتشت قيادة سلاح الدبابات عن موقع له هذه الميزة ، فاختارت كمبري Cambrai ، على ٤٥ ميلاً الى الجنوب من ميدان معركة الوحل. وحين عرض القائد المختص هذه الفكرة على هايغ ، رفضها الأخير محتجاً بأنه ليس لديه قوات مشاة احتياطية كافية .

وفي ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) بعد اسبوعين من نهاية معركة الوحل قامت الدبابات بهجوم جديد .

فرحة .. وخيبة

على شكل كردوس كثيف ومجمّع النار ، زحفت ٣٨١ دبابة في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ على مدينة كمبري التي كانت في يد الألمان . وكان الهجوم فجأة ودون اي تمهيد بالقصف المدفعي . وذُهل الالمان .. واجتازت الدبابات خطوطهم الدفاعية الثلاثة واحداً بعد الآخر .. وتوغلت في مواقعهم ٥ اميال . واستطاعت ان تأسر ١٠ آلاف

الماني ، وتستولي على ٢٠٠ مدفع . كل هذا مقابل ١٥٠٠ قتيـل من رجالها . فكانت هذه المعركة نصراً كبيراً للانكليز .

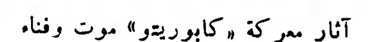
ولما كان الانكليز قد فشلوا طوال سنة ١٩١٧ في كل عملية عسكرية تقريباً .. فقد عمت الفرحة بريطانيا الآن . اخذت اجراس الكنائس في لندن ترقص بوحشية ، شاكرة الرب على مساعدتـه لبريطانيـا في قتـل اعدائها . واخذ لويد جورج يرسم خطته لتضخيم مصانع الدبابات وكذلك مغالطة مهندسيها في اجورهم .. و .. و .

كل هذا في اليومين الأول والثاني من المعركـة . اما في يوم ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ، فقد صدرت الأوامر الى سلاح الخيّالـة البريطاني ليقوم بتطهير المواقع التي تم الاستيلاء عليها .. لكن الرشاشات الالمانية المختبئة استطاعت ان تمحو أي شي اسمه « سلاح الخيّالــة



جيوش ايطالية هاربة بعد انسحابها





آثار معركة «كابوريتو» موت وفناء

البريطاني » هذا .

فغُصّ لويد جورج في فرحته . وندب هايغ حظه كثيراً . لقد كان يود ان يقع اي شيء يردّ له اعتباره في نظر الشعب البريطاني .

استعداد لهجوم جديد

وبينما اخذ الانكليز يعدّون العدّة لهجوم جديد بالدبابات .. كان الالمان يجلبون لقواتهم امدادات جديدة .. وانقضى اسبوع كامل، والجانبان يتربص الواحد منهما بالآخر ويستعد .

وفي ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) قام الالمان بهجوم عنيف ، استطاعوا به ان يستردوا كامل المنطقة ، ويعطّلوا كثيراً من الدبابات ، ويكسبوا نصف ميل من مواقع اعدائهم قبل الهجوم الأخير . وحينذاك اصاب الخرس اجراس الكنائس ، وجدّف الناس على الرب كثيراً ، لأنه ساعد الأعداء في قتلهم هم هذه المرة ..

وكان ذلك خيبة امل للجميع . فمن هو الملوم يا ترُى ؟ سرعان ما أصدر الجنرالات حكمهم في ذلك . لقد قالوا : « انهم الجنود وصفّ الضباط . فقد كان عليهم ان يزحفوا خلف الدبابات ويثبتوا اقدامهم في الموقع » .

الجبهة الايطالية

حقنة من ٦ فرق !

اذا نحّينا انتصار الدبابات الموقت ، في كمبري ، فإنه يمكن القول ان الالمان هم الذين سيطروا على عام ١٩١٧ في الحرب . وآخر مكاسبهم في هذا العام ما تم في الجبهة الايطالية . ونحن نعرف ان الموقف الحربي بين ايطاليا والنمسا ظل لصالح النمسا منذ اول الحرب . لكن اي انتصار

حاسم لم يُحرز في تلك الجبهة ، فالايطاليون يهاجمون ، فيفشلــون ، وينكفئون بخزيهم وحسراتهم .

ومع هذا ، فإن لدندورف ود الآن ان يحقن حلفــاءه النمساويين ببعض المقوّيات . لهذا نجده يرسل الى الميدان الايطالي ٦ فرق المانية ، سحبها من ميدان روسيا ، كما اسلفنا .

كاربوريتو وانهيار الطليان !

وفي ٢٤ تشرين الاول (اكتوبر) قامت هذه الفرق الست، بالاشتراك مع ٩ فرق نمساوية ، بالهجوم في كاربوريتو Caporetto من الجبهة الايطالية، فماذا كانت النتيجة ؟ انهارت الجيوش الايطالية وتلاشت جبهتها تماماً ، وجدّ الجيش الايطالي في التقهقر والهرب حتّى غدا على بُعد ٧٠ ميلاً من نقطة الهجوم .

وكانت هذه الحركة مفاجأة للألمان . فها هي الحرب تغدو حربَ حركة من جديد . ها هي معركة « المارن » تتكرر .. اذ ليس عند الألمان والنمساويين من وسائل النقل ما يمكّنهم من اللحاق بالعدو الذي أسلم ساقيه للريح . فخيولهم هي الواسطة الوحيدة في منطقة جبلية وعرة قبل ان يهبطوا الى السهل . وليست هذه الخيول قـادرة على قطـع ٧٠ ميلاً في يوم واحد .

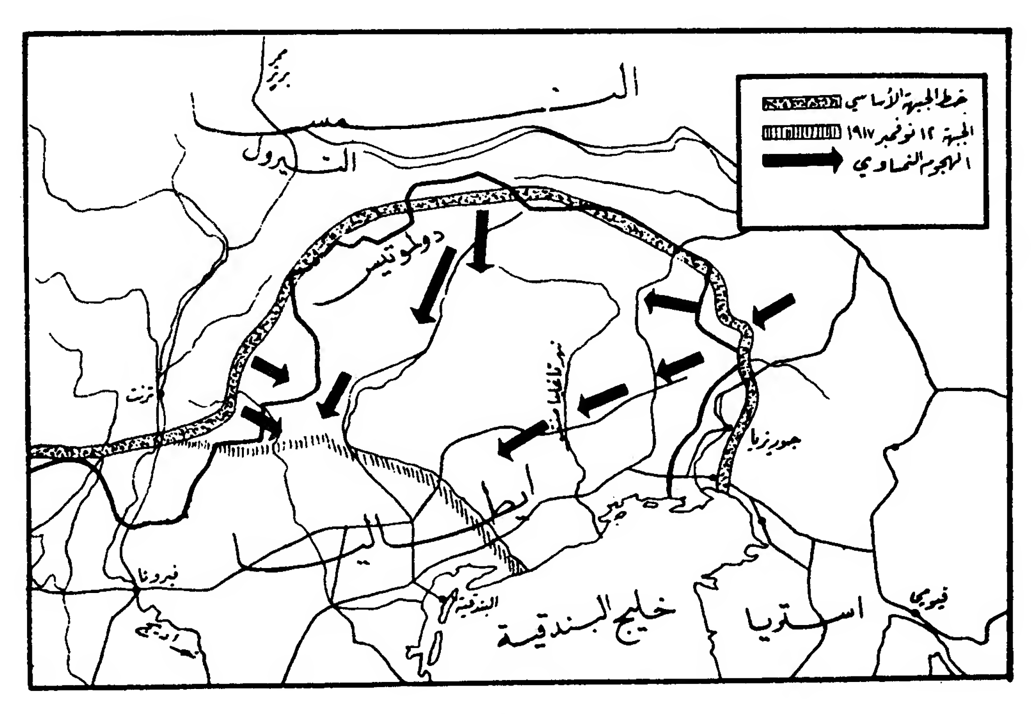
اما النتيجة من حيث الخسائر ، فقد تكبد الايطاليون ٢٠٠ الف قتيل، كما فر من جيشهم ٤٠٠ الف رجل . وكان من قبيل الطعنة الى هايغ، انه كان قد نُقل الى الجبهة الايطالية ٥ فرق انكليزية و٦ فرق فرنسية. فذاقت هذه وتلك نفس الكارثة .

الهزيمة وما عقبها !

وبعد هذا التقهقر المفجع، توقف الايطاليون عند نهر بييف Piave .

وكان مما اذهل الحلفاء – الساسة والعسكريين قاطبة – ان الجيش الايطالي استرد معنوبته سريعاً ، وتماسكت الجبهة من جديد . لكن الجنرال كادورنا ، القائد الايطالي الأعلى ، لقي جزاءه ، إذ طُرد من منصبه شر طردة ، ثم عُيّن «دياز» بدلاً منه . ولم يكن هذا اكثر «نبوغاً !» من صاحبه ، لكن كرشه كانت أقل اندلاقاً .

ومهما كان الحال ، فقد تميزت هزيمة الايطاليين بشيء عجيب . فبدلاً



خريطة الجبهة الايطالية حتى اول سنة ١٩١٨
لاحظ التقهقر الفظيع في جانب كادورنا

من انهيار معنويات المدنيين الطليان ، ارتفعت تلك المعنويات ووجدت فكرة القتال صدى لها في نفوسهم .

وهناك شيء آخر ولّدته تلك الهزيمة . فقد تداعى رؤساء وزارات الدول الحليفة على أثرها الى اجتماع شخصي عقدوه في رابللو Rapallo في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ .

وفي هذا الاجتماع استعاد لويد جورج انتقاده القديم الذي اثاره في مؤتمر روما . لقد أعلن : « ان الحلفاء سيخفقون في الحرب طالما ان التنسيق بينهم معدوم » ، ووافقه المجتمعون دون مناقشة هذه المرة . ولهذا ، اتخذ المؤتمر قراراً بضرورة اجتماع رؤساء وزارات بريطانيا وفرنسا وايطاليا كل ٣ اشهر في فرسايل ، على ان يمثل الكولونيل هاوس الامريكي الرئيس ويلسن معهم . ومن هؤلاء الأربعة كان يتألف ما أسموه « المجلس الأعلى للحرب » .

لا تنسيق وانما سياسة عامة

والواقع ، ان اجتماعات هذا المجلس لم تكن لأكثر من بحث السياسة العامة للحرب ، لا لتنسيق الجهود او التحركات الحربية بين الجيوش . ففي ايطاليا مثلاً ، ظلت القيادة الايطالية منفردة ، هي التي تسيّر جبهتها ، مع بعض المساعدات الانكليزية والفرنسية . وفي فرنسا ظل هنالك قيادتان مستقلتان احداهما عن الأخرى ، الأولى بإمرة بيتان ، والثانية بإشراف هايغ .

نعم ، لقد تم بين الحلفاء بعض التنسيق في الاقتصاد ، ولكن هذا لم يكن فعّالا في توجيه سير الحرب . حتى ان لويد جورج ، وهو الداعية الى التنسيق ، لم يهتم به قدر اهتمامه بإذلال هايغ والتحايل على منصبه .

وقد تم له ذلك بفضل مؤتمر Rapallo . اذ ان « المجلس الأعلى للحرب » قد عيّن لنفسه بطبيعة الحال « مجلس مستشارين عسكريين ». وكان فوش هو رئيس هذا المجلس . وكان لويد جورج يستقي معلوماته عن الموقف العسكري من المندوب البريطاني في مجلس المستشارين . وبذلك تخلص من كل من روبرتسون وهايغ . والى هذا النجاح اشار مرة فقال: « طيلة حياتي ظللت اكره الهجوم الجباهي ، سواء في الحرب او في السياسة . ان المداورة هي الانجح والأقل تعرضاً للخسارة » . وفي هذا تعريض ظاهر بـ « هايغ » وهجوماته الجباهية ثم فشلها .

• • •

قد يتساءل القارىء عن السبب الذي جعلنا نحذف اسم روسيا من دول



الجيش الروسي يتراجع بعد اندحاره في منطقة ريغا

الحلفاء حين اجتماع المندوبين في راباللو . وايضاح ذلك بسيط .. كانت «روسيا الجديدة» ، قد خرجت من الحرب . فبعد هزيمة الروس الكبرى في تموز (يوليو) سنة ١٩١٧ ، حاول كيرنسكي ان يعيد الأمـــور الى نصابها . ولما كان هذا الحاكم ضد الافكار الجديدة ، فقد ألقي القبض على عدد كبير من الاشتراكيين . وحتى لينين نفسه اضطُر الى الاختفاء في فنلندا .

لكن محاولة كيرنسكي لم تنجح في المجال العسكـري ، اذ استمـر الجيش الروسي في فوضاه ، بل انه اخذ يضمحل بفعل الفرار وكثْرة التمردات . وهذا ما اغرى الالمان بالقيام بهجوم جديد في مطلـع شهر ايلول (سبتمبر) استطاعوا فيه اسقاط مدينة « ريغا » ، وتكملة حلقـة اتصال جيوشهم ببعضها . وكان هذا الاشتباك هو الأخير بين الألمـان وبين حكومة روسيا ذات النظام القديم .

وقد كان لنجاح الألمان هذه المرة معقّبات كثيرة . ها هو كورنيلوف،* القائد العام للجيوش الروسيــة يتحول في تفكيره من واجب صدّ العدو الغازي الى مهمة خنق الثورة الشعبية الداخلية . لقد ادار ظهره للألمان واعلن عداءه للثورة ورجالها . لهذا رسم خطة كاملة للزحف على بطرسبرج.

كيرنسكي.. الثعلبان

ولقد شجعه كيرنسكي على ذلك اول الامر . وكان كيرنسكي يهدف من تشجيعه الى الاستفادة من عناصر انتهازية كانت لا تزال في الحكومة . اذ ظن ان كورنيلوف سيقضي على رجال الثورة ، ثم يسلّم الحكم له، هو وطبقته . وكان كيرنسكي من الطبقـة البورجـوازية الكبيرة ، التي

* كان يتواطأ معه جنرالات ما سمي فيا بعد بالروس البيض واتمانات القوزاق..ثم ساعدته اوروبا في «حروب التدخل » ضد الثورة .

تهادن * الرجعية اذا تأملت ان تعود عليها تلك المهـــادنة بالتخلص من الاشتراكيين او الشيوعيين .

لكن كيرنسكي سرعان ما تأكد من ان كورنيلوف لن يقضي على البلاشفة وحدهم ، بل على النسمة الليبرالية ، والمظاهر الديمقراطيـــة المستحدثة في روسيا ، أصلاً . وحينـــذاك اعلن الانذار ودق ناقوس الخطر .

تسليح العمال

وبناء على تعليمات كيرنسكي نفسه جرى تسليح عمال المصانع ، وأطلق سراح تروتسكي وغيره من القادة البلاشفة ، من سجونهم . وقد استعد العمال المسلّحون للاصطدام بجنود فصائل كورنيلوف الزاحفين ، لولا ان هؤلاء الجنود رفضوا مهاجمة المدينة ، ثم انضم قسم كبير منهم الى العمال المقاومين وفرّ قسم آخر الى قراهم ومدنهم في البلاد .

وحيال خيانة كورنيلوف ، تم طرده من منصبه ** ثم ألقي عليه القبض وطُرح في السجن . وهكذا غدت قوة العمال المسلحين الخاضعين لتوجيهات القادة البلاشفة هي القوة الوحيدة في المدينـــة ، وإن ظلت حكومة كيرنسكي موجودة بشكل صوري .

الثورة الاخيرة – ثورة العمال في التاريخ .

انقضت ٦ اسابيع في بطرسبرج ، والقوة الفعلية بيد البلاشفة بينـــا حكومة كيرنسكي الصورية تمثل الوجه الرسمي للبلاد . وخلال هذه المدة عاد لينين متخفياً من فنلندا ، وأصدر تعليماته الخطية الى اعضاء حزبه

---

* وهذا الخطأ كثيراً ما وقعت فيه « الثورات القومية » في نضالها للتحرر من الاستعمار .

** تحسن قراءة « الدون الهادیء » – ميخائيل شولوخوف .

لوحة الايام الاولى لثورة اكتوبر للرسام غ . سافيتسكي

بضرورة الاستيلاء على الحكم . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، اذ ان المسؤولين العسكريين في الحزب كانوا لا يودون التعجيل بذلك . وحتى تروتسكي نفسه ، ظل قانعاً بإلقاء الخطب او « توعية الكادحين » ، كما كان يطلق على خطبه

لكن كيرنسكي كان متضايقاً جداً من الموقف الراهن ، ولهذا نجده يتسرع في قدح زناد الثورة ضده . كان قد سبق ان انعقد اجتماع للجنة المركزية لحزب لينين * ، وتم فيه بحث قضية الاستيلاء على الحكم . وحين التصويت فاز اقتراح ضرورة الاستيلاء بعشرة اصوات ضد صوتين . وكان كامنيف وزينوفييف هما العضوين اللذين عارضا في ذلك : فاحتجا على القرار في الصحف .

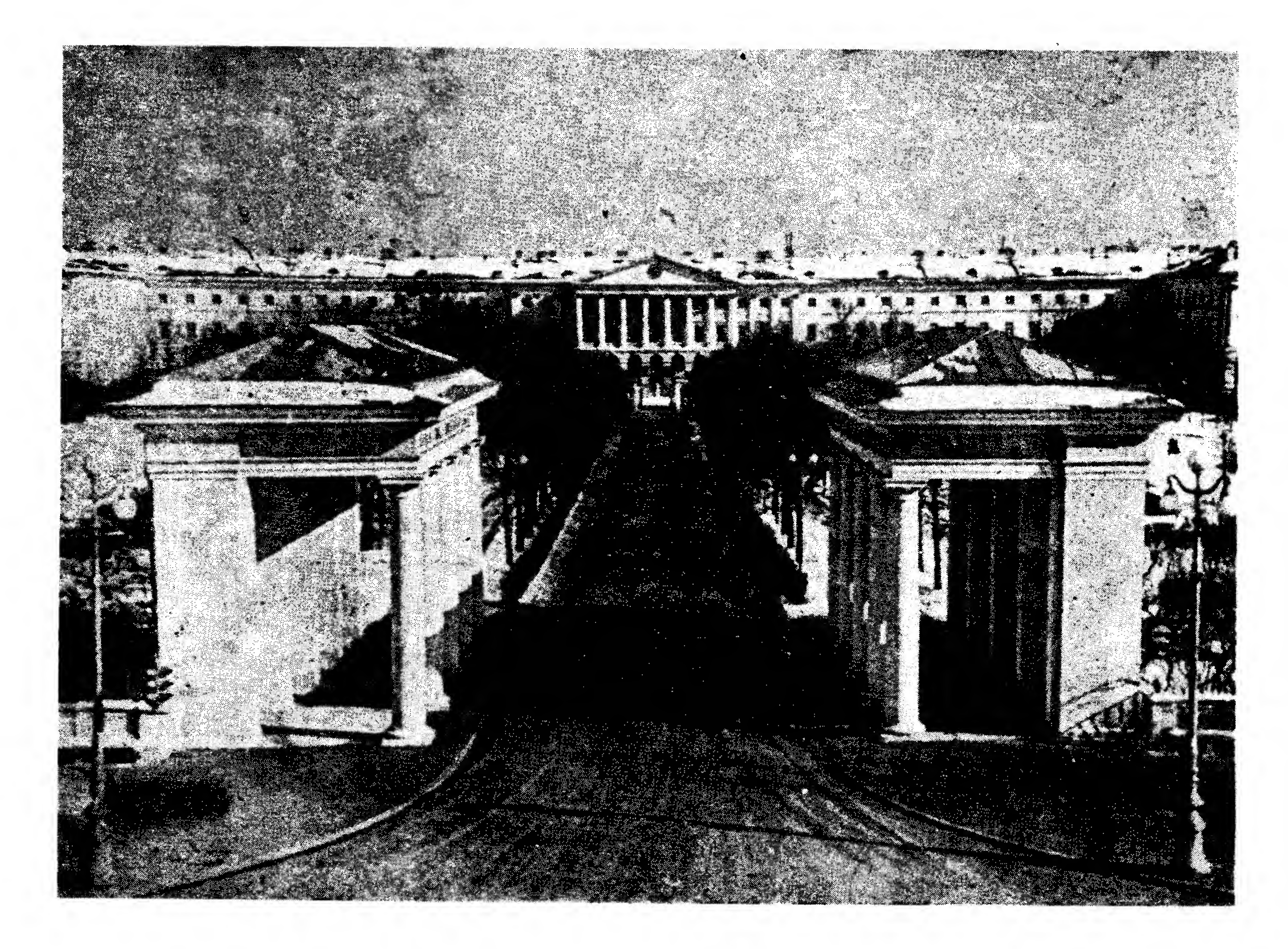
عند ذاك تصوّر كيرنسكي ان العاصفة على وشك الهبوب ، فقرر ان يبادىء بالمهاجمة . وهكذا اصدر أمره بإغلاق جريدة « برافدا » صحيفة البلاشفة ، في ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) . وبهذا وضع لنفسه حداً . اذ ان تروتسكي أصدر امره الى «الحرس الاحمر» بانقاذ مكاتب الجريدة وحراستها . وتم الاصطدام الرسمي حينذاك .

أنت خائن ..

وفي تلك الليلة وُضعت خطة الاستيلاء على الحكم ، والتي كانت معدة من قبل ، موضعَ التنفيذ . إذ تسلم البلاشفة دائرة البريد ، ومحوّل التلغراف ، ومحطات السكة الحديدية في المدينة . وغـادر كيرنسكي بطرسبرج ، وهو يرفع على سيارته علَماً امريكياً ، قاصداً الأقاليم لإثارة الجيش فيها ضد السلطة الجديدة في العاصمة . لكن قطعات الجيش في

---

* كان اسمه الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي .



« قصر سمولني » حيث اجتمع « سوفييت جميع روسيا »

الأقاليم طردته حين رأت العلم الأجنبي فوق سيارته . لقد صاحت في وجهه « انت خائن » .

وهكذا ضاع كيرنسكي في « مزبلة التاريخ » . كما قال تروتسكي مستعيراً عبارة لينين آنذاك .

وفي ٧ تشرين الثاني احتل الحرس الأحمر وبحّارة الدارعة «اورور» * « قصر الشتاء » ** والقي القبض على اعضاء حكومة كيرنسكي بشكل سلمي . ان احداً من اعضاء الحكومة لم يلحقه أذى .. اما افراد الحرس الأحمر فلم يُقتل منهم الا ٦ اشخاص ، اثنان منهم قتلهم رفاقهم دون قصد .

هكذا تمت ثورة البلاشفة في مرحلتها الأخيرة في روسيا . فكانت اول ثورة من نوعها في التاريخ ، ولربما اعظم ثورة أثراً في تحويل مجراه فيما بعد .

كانوا عمالا وفلاحين..ويصنعون تاريخاً ! !

وفي مساء اليوم نفسه اجتمع مجلس سوفييت « جنود وعمال وفلاحي جميع روسيا » في (سمولني) وأقروا الاستيلاء على الحكم وتشكيل وزارة يرشح اسماءها لينين . وفي هذه الوزارة كان لينين رئيساً وتروتسكي وزيراً للخارجية . لكن الموظفين المدنيين رفضوا اطاعة اوامر تروتسكي حين صدرت اليهم ، فاضطر الحرس الأحمر الى فتح خزائن البنك القيصري ، وهو بنك روسيا ، ثم السيطرة على دوائر وزارة الخارجية وتنفيذ الأوامر .

والآن جاء دور لينين ليكسب مؤازرة الشعب ، فأعلن في اول اجتماع

---

* ومعناها «الفجر»

** حيث كانت حكومة كيرنسكي الموقتة مستقرة بعد خلع القيصر .



الروس يمدون ايديهم لتناول جريدة « برافدا »

له بمجلس السوفييت قائلاً « الآن علينا ان نشرع في بناء الاشتراكية». ولما كان العمال قد تم كسبهم لصالح الثورة من قبل ، فقد جاء دور الفلاحين . وتختلف قضية هؤلاء عن قضية العمال ، فطبيعة الفلاح متعلقة بالأرض ، وهو في عقليته مستقر يكره التجديد ، شأنه شأن ارضه الثابتة في محلها ومواسمها . فكيف يضمن لينين تأييد هؤلاء ؟

الارض لزارعيها

لقد أصدر « مرسوم الأرض » ، وفيه يقول : « الارض لزارعيها » .

وكان معنى ذلك في روسيا آنذك ، ان على الفلاحين العاملين في أراضي الاقطاعيين وكبار الملاّك ان يستولوا على اراضيهم ويوزعوها فيما بينهم. وطبيعي ان يستجيب الفلاحون الروس لهذه النعمة الهابطة عليهم . لذلك نجدهم يسندون الثورة بكل قواهم في الحرب الأهلية التي تلت .

تصنيع وكهربة .. ومنشور السلام

ولما كان لينين يتصور الاشتراكية على انها «تصنيع وكهربة البلاد» ، فهو بطبيعة الحال ينشد فترة من السلام الطويل كي ينصرف لهذه المهمة الجبارة .

بيدَ ان الحرب كانت قائمة آنذاك ، وروسيا مشتركة فيها . اذن فإن « تصنيع البلاد وكهربتها » تتعارض مع الموقف الراهن . فالحرب إرهاق للاقتصاد اولاً ، وحجر عثرة ان لم نقل صخرة ، في طريق الاصلاح الداخلي ، ثانياً .

لهذا نجد لينين في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) يقرأ في مجلس السوفييت « منشورَ السلام » . ومجمل هذا المنشور ان يوقَف اطلاق النار فوراً في جميع الجبهات ، ثم يعقب ذلك مفاوضات بين ممثلي الدول المتحاربة. اما اهداف تلك المفاوضات فيجب ان تنحصر ضمن نقطتين اساسيتين :

اولاهما : عدم القيام بأي توسع اقليمي من دولة على حساب اخرى.

وثانيتهما : لا تعويضات في الحرب .

ما معنى « عدم التوسع » ؟

وكان من المعقول ان تقبل فرنسا وبريطانيا بهذا المنشور لو اقتصر تطبيقه على القارة الاوروبية وحدها . لكن لينين أراد من نقطته الاولى اوسع مما تُبدي العبارة المذكورة آنفاً . فقد ضمّن عبارة «عدم التوسع» ان تتنازل الدول الاوروبية عن مستعمراتها في القارات الأخرى ايضاً .

وأصرّ على ان هذا التنازل هو الاساس الذي سيرسّخ السلام المنشود .
فهل تقبل بذلك فرنسا وبريطانيا وايطاليا ؟

كلا ، طبعاً . فالرخاء الاقتصادي في كل من الدول الثلاث لا يمكن توفيره بدون الجحيم الاجتماعي المعروض على مستعمراتها . كما ان هذه المستعمرات اذا قُدّر لها ان تتحرر من مستعبديها ، لن تفكر في إعطائهم ثرواتها او السماح لهم بالتحكم في مواردها الاقتصادية

هذا من ناحية . اما من الناحية الاخرى ، فان الاتفاقيات السرية التي كانت بريطانيا وفرنسا قد عقدتاها بشأن تقسيم ممتلكات العثمانيين في



تروتسكي قائد الجيش الاحمر ، المنتصر
يتجاهل خطر ستالين (الأول من اليمين)

آسيا ستغدو حبراً على ورق ، اذا ما قدّر لمقترحات لينـين ان ترى النجاح .

ومن نافلة القول ان نشير الى ان لينين قد فطن الى هذه الحقائق وأيقن ان الدول الاستعمارية هي التي ستعارض في تطبيق منشوره ، لكنه كان يأمل ، (وهذا خطأ في تقديره) ، ان عمال هذه الدول وفلاحيها سيهبّون ثائرين ضد حكوماتهم ويطيحون بها . لذلك نراه يناشد «حمَلَة افكار الثورة الفرنسية » في فرنسا ، و « مقاومي بسمارك » في المانيا ، و « اللوائحيين » في بريطانيا .

وعلى اساس إشعال هذه الثورة الطبقية المتصوّرة ، أخذ تروتسكي بعد ذلك بأيام يفضح المعاهدات السرية بين دول الحلفاء من راديو بطرسبرج .

مواقف الدول المتحاربة من ثورة اكتوبر !

١ - المانيا

والآن . ماذا كان موقف كلٍ من الدول المتحاربة ؟
لنأخذ المانيا .

نحن نذكر ان الخشية من فتح جبهتين ، في الشرق ضد روسيا وفي الغرب ضد فرنسا ، هو أخشى ما كانت تخشاه المانيا منذ مطلع الحرب . ونحن نذكر ان عاملاً مهماً في اعلان المانيا الحرب من اساسها هو هذا التخوّف . وها هو الآن لينين يعرض على القادة الالمان ان يتخلصوا من الجبهة الشرقية . فهلاّ يستقبلون عرضه بكل ترحاب ! انطلاقاً من هذا الاعتبار نقول : كانت المانيا اول من استجاب لعرض لينين . لقد وافقت على الهدنة . لكنها ، لم تأخذ قضية اخلاء الأراضي التي

احتلتها جيوشها اثناء الحرب ، مأخذ الجدّية والاهتمام . ولا قضية عدم دفع التعويضات كذلك .

٢ – الحلفاء

اذا كانت المانيا قد وجدت في العرض تخليصاً لها من ورطتها ، فالأمر مغاير لذلك في بريطانيا وفرنسا . فهاتان الدولتان واجهتا امراً مربكاً . ها هو لينين يعرض نفس المُثل والقيَم التي ادّعتا صراحة انهما تحاربان من اجلها . لذلك فإن رفض العرض معناه اثارة الشعب في البلدين . اما القبول به فمعناه بدء زحف الافكار الاشتراكية بشكل محتوم على البلدين ايضاً . ولما كانت الحرب قد غدت مكروهة منذ زمن بعيد ، ولما كانت المكاسب المنتظرة منها ستزول فيما لو نجح لينين في « سلمه » ، فإننا نجد حكومتي البلدين تتخبطان . فهما لم تكونا تعتقدان ان المانيا ستقبل بمبادىء السلم الجديدة دون ان تقهراها ، كما انهما لا تنويان تطبيق هذه المبادىء على حقيقتها حتى لو قبلتا بها في الظاهر .

وزاد الامرَ تعقيداً ، ان الاشتراكيين البريطانيين والفرنسيين هتفوا مؤيدين انتصار البلاشفة في روسيا ، وان كانوا لم تعجبهم طريقة الوصول الى ذلك الانتصار . كما ان التقزز من الاستمرار في الحرب لم يكن مطلباً يحظى بتأييد الطبقة العاملة في البلدين ، وحدها . فها هو اللورد لانسدون ، وهو عضو في مجلس اللوردات البريطاني ووزير خارجية أسبق ، ينشر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) مقالاً في جريدة « الديلي تلغراف » يقول فيه :

« ان الاستمرار في هذه الحرب جريمة في حق الفرد والانسانية ، فليس من الممكن ان يتم النصر فيها لأحد الفريقين الا على حساب تدمير الحضارة العالمية . ولا اظن عاقلاً يسمح بذلك . لهذا فان المفاوضات بين الطرفين المتنازعين هي الوسيلة الوحيدة لانهاء هذه الحرب . »

ومع ان صاحب المقال لم يبيّن مرامي المفاوضات التي يحبذها ، فان ما نشره لقي صدى عظيماً في نفوس الانكليز والفرنسيين ، مما حدا بالأفكار السوداء المعششة في رؤوس دهاة الانكليز ان تخرج من مكامنها . فهـا هو وزير في وزارة الحرب البريطانية هو اللورد ملز ، يقترح رسمياً ان : تتنازل المانيا عن الاراضي التي احتلتها في الجبهة الغربية ، لقاء موافقة الحلفاء على الصلح الذي يضمن لها حرية التصرف تجاه البلاشفة الروس .

وهكذا منذ ذلك التاريخ ، اثبت الانكليز والفرنسيون * بعدهم، ان عداء الاشتراكيين ومبادئهم ومحاولة القضاء عليهم هو همهم الاكبر ، والهدف الذي يتسامحون بكل شيء في سبيل الوصول اليه . وسيكون لهذا أثره الكبير في « حرب التدخل » ضد روسيا ، ثم سير الحرب العالمية الثانية ، بعد عقدين من السنين .

* * *

ومثل هذا التخبط ظهر في فرنسا ، وان كان بصورة اكثر حدّة . كان الاشتراكيون الفرنسيون اصلب عوداً واعمق جذوراً في الاوساط الشعبية الفرنسية . وكانوا يزدادون ترسخاً كلما اقترب عام ١٩١٧ من نهايته . وفي شهر ايلول (سبتمبر) من ذلك العام خرج وزراؤهم من الحكومة . وبهذا انفرط عقد « وحدة الأمة الفرنسية ، المقدسة » اثناء الحرب . وكان هؤلاء الاشتراكيون يدعون حكومتهم الى قبول عرض لينين . بل انهم بالغوا في مثاليتهم حين اعلنوا ان استفتاء عاماً يجب أن يُجرى في الالزاس واللورين قبل ضمها الى فرنسا .

---

* وذلك بحكم ان الدولتين كانتا تمثلان زعيمتي الاستعمار في العالم آنذاك .

ولما كانت هاتان المقاطعتان قد ظلتا عنواناً لمذلّة فرنسا منذ « حرب السبعين » فقد هاج الرأي العام ضد الاشتراكيين هؤلاء . وفي ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) نفسه ، خذل مجلس الأمة الفرنسي رئيسَ وزرائـــه بينليف ، فاستقال . وعند ذاك كان امام رئيس الجمهورية « بونكاريه» الخيار بين اتجاهين :

الاول : تكليف كايلو Caillaux بتشكيل الوزارة ، وهو أميَل الى سلم صُلحي .

والثاني : تكليف كليمنصو بتلك المهمة . وهو داعية متطرف الى الاستمرار في الحرب .

وهنا تدخلت الظروف الشخصية في سياسة الدولة . اذ ان بونكاريه نفسه كان من اللورين ، وهو متعصب لتلك المقاطعة . ولهذا ، وعلى الرغم من شدة كرهه لـ كليمنصو ، نراه يعهد اليه بشؤون الحكم .

دكتاتورية : « انا اعلن الحرب »

كان معنى ذلك « خلق دكتاتورية حربيـــة » . اذ ان رئيس الوزارة الجديد حين واجه ممثلي الشعب يوم ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ كان خطابه قصيراً جداً وحاسماً جداً .

لقد قال : « تسألونني عن السياسة التي ستتبعها حكومتي ، وها انا اوجزها لكم في عبارة واحدة ، انها « انا اعلن الحرب » . سياستي الداخلية هي « انا اعلن الحرب » ، وسياستي الخارجيـــة « انا اعلن الحرب » ، وطوال بقائي في هذا المنصب ، وفي كل مجال يخضع لصلاحيتي اقول لكم : « انا اعلن الحرب » . »

والحق ان هذا العجوز كان دموياً . فبدلاً من النظر بعين التقدير الى كبار الشخصيات من الساسة الفرنسيين وممثلي الشعب ، نجده يحتقرهم.



كليمنصو ، النمر الفرنسي العجوز
« انني اعلن الحرب ، انني احارب » ..

ها هو يؤلف وزارته من اذناب مخلصين له كالسلوقيّـــات . وها هو يتهم « كاياو » وامثاله من دعاة السلم والمصالحة ، بالخيــانة العظمى والاتصال بالعدو لخدمته على أرض فرنسا ، ثم يلقي بهم في السجن ، ويقدّمهم الى محاكمة علنية قاصداً من ذلك التشهيرَ بهم ، وإثارة العواطف الرخيصة لدى الشعب كي يؤازره في دكتاتوريته .

* * *

في هذه الفترة ، وبعد الاجراءات السابقة ، غدا من المستحيل ان

تنظر الحكومة البريطانية او الفرنسية بصورة جدية في عروض الصلح ولهذا رُفض بحث الموضوع من اساسه حين اجتمـــع « المجلس الاعلى للحرب » في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) نفسه . وبدلاً من تقدير موقف لينين واعضاء حكومته ، انصبّت علـهم التُهم بأنهم خانوا قضية الحلفاء وغدروا بالجيوش في الجبهة الغربية وجبهة ايطاليا .

لويد جورج .. وكليمنصو

والواقع ان لويد جورج كان يشارك كليمنصو في آرائه ، لكنه لم يكن صادراً في تلك المشاركة عن وطنية متطرفة مثل كليمنصو . وانما عن تقديره لاحتمال خسرانه رئاسة الوزارة اولاً ، وامكانية تحطيم سمعته السياسية التي قامت على اساس « سأجلب النصر للبريطانيين » ثانياً .

وهناك عامل آخر يجمع بين الشخصيتين ، فكلاهما كان يعشق السلطة ، ويكره الاشتراكيين في بلاده . وكانا يقدّران انهما سيستطيعان القضـــاء على هؤلاء في بلديهما إذا استمرا في الحرب ونجحا فيها . اما اذا لحق بهما الفشل فمعنى ذلك ان انتقادات الاشتراكيين لهما ستكون مصيبة جداً.

وانطلاقاً من موقف رئيسي الوزراء ، تم اتخاذ قرار سريع حاسم في الاجتماع ، مفاده : «نحن نرفض عرض السلم الذي تقدم به البلاشفة» . هذا مع ان أي بحثٍ لتفاصيل ذلك العرض ، لم يجرِ أبداً .

الدول الاخرى وعرض لينين

وربما تساءل القارىء عن موقف الدول الاخرى المشاركة في الحرب من عرض لينين . وحينذاك نقول : كانت ايطاليا « لا في العير ولا في النفير » في نظر الحلفاء . ومثلها كانت النمسا والدولة العثمانية وبلغاريا في نظر المانيا .

* * *



كليمنصو .. يتمشى في خطوط الميدان (الثالث من الامام)

عرض لينين وثمراته
الصلح !

الآن ، وقد رفض الحلفاء الغربيون عرض نظام الحكم الجديد في روسيا ، اضطُر هذا الحكم الى المضيّ قُدماً في التفاوض مع المانيا لعقد صلح منفرد . وبعد مساومات كثيرة من جانب الألمان،ومساومات مقابلة بالتهديد بالانكفاء الى الحرب من جديد ، من جـانب الروس — تم التوصل الى عقد اتفاقية لوقف الحرب بين الطرفين . وكان ذلك في ١٥ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩١٧ .

وما أن نُفّذت بنود هذه الهدنة الموقتة حتّى شُرع في مفاوضات تهدف الى السلام تمت في مدينة برست ليتوفسك Brest Litovsk . وكـانت شروط الصلح ماسّة بكرامة الروس في نظر بعض اعوان لينين ، لكن هذا استطاع السيطرة على الموقف حينذاك . وقد أثبت التاريخ فيما بعد

ان موقفه كان اكثر حكمة وأبعد نظراً .

ويقتضينا الانصاف للمفاوضين الروس ان نقول : لقد اشترطوا على الالمان ان لا يقوموا بنقل أية قوات من الجبهة الروسية الى الجبهة الغربية في فرنسا . وكأن العسكريين الروس بذلك ، كانوا يبيّنون انهم لا يزالون يعطفون على حلفائهم السابقين ، فهم لا يقبلون بزيادة المصاعب في وجوههم . وعلى هذا الشرط وافق القائد الألماني هوفمان . لكنه خرقه بطريقة اقرب الى المخادعة . اذ انه نقل ما شاء من تلك القوات الى حيث طلبت القيادة العامة في برلين ، قبل توقيع عقد الصلح . وبهذا لم يخلّ بالشروط لفظاً ، وان كان قد حطّمها واقعاً .

الصلح في نظر بريطانيا وفرنسا

الواقع ان بريطانيا وفرنسا لم تنظرا الى اشتراك روسيا في الحرب ، ومنذ البداية ، بعين التقدير الذي يتطلبه حليف من حليف . كانتا تريدان منها ان تُشغل المانيا لتخفيف الضغط عنهما في الميدان الغربي . وكانتا تؤمّلان ان تُنهك المانيا قبل الانتصار على روسيا ، فيسهل عليهما اذ ذاك قهرُ المانيا ، وإبعاد روسيا عن مركزها كشريك وندّ لكل منهما . والحق ان الدولتين لم تكونا تكرهان المانيا قدر كراهيتهما لإمكانية انتصار روسيا ، ثم تقدّم ملايينها الكثيرة للأخذ بنظم الحياة الحديثة وتهديد مصالحهما من جراء ذلك . كانتا تودّانها مرتعاً للتأخر وللديون وللاستثمارات الكبيرة التي كانت لرعاياهما في الاراضي الروسية .

اذن ، هذه جذور كراهية قديمة . ومع ان الحرب قد خفّفت من بروزها ، الا انها ظلّت خامدة لم تنطفىء نارها على كل حال .

لكن .. ها هي روسيا في شتاء ١٩١٧ تطعن الحلفاء ، (في نظرهم) طعنة نجلاء ، فهل من المعقول ان تتسامح بريطانيا وفرنسا في ذلك ؟ علينا ان نرى ..



الألمان يفرضون شروطهم على روسيا

* * *

حين اعلن لينين الروسي عرضَ السلام ، توجّس البريطانيون والفرنسيون خيفة من افكاره لكنهم لم يعملوا بشكل صريح على استنكارها. نعم ، لقد أحبطت الحكومتان مؤتمر ستوكهلم ، ولكنهما فعلتا ذلك بصورة لم تثر عليهما شعبيهما . ومهما كان الحال ، فقد انقضت الزوبعة.

اما حين جاء كليمنصو ذو النزعة الهجومية ، فقد اختلف الأمر ، كما رأينا . ومع هذا لم يكن العداء مستحكماً تجاه الروس و «سلميهم». لكن .. الآن تم عقد الصلح ، وكفّت الجيوش الروسية عن القتال ، بل تحولت القوات الألمانية التي كانت تشغلها تلك الجيوش ، الى الجبهة الغربية نفسها ، فماذا يفعل لويد جورج وكليمنصو ؟

لقد احنقهما تصرّف حكومة لينين والسوفييت ، وعدّا ذلك خيانة وغدراً لهما كرفيق في السلاح . وعملا جهدهما في نشر نوع من النقمة والشعور بالكراهية في نفوس المواطنين الانكليز والفرنسيين تجاه نظام

روسيا الجديد . لكن كل هذا عبارة عن بضاعة «عواطف» لا تفيد في ساحة القتال .

اذن، ماذا يفعلان ؟

عمدت بريطانيا وفرنسا الى تقسيم روسيا الى مناطق نفوذ ، فخُصّصت اوكرانيا لفرنسا ، وجُعلت منطقة القوقاز من نصيب بريطانيا . اما الهدف من هذا التقسيم فهو اضطلاع كل دولة منهما بالقيام بأعمال التخريب والتجسس واثارة المشاعر المعادية في المنطقة المخصصة لها تجاه حكومة السوفييت .

ما معنى ذلك ؟

معناه ان بريطانيا وفرنسا اللتين كانتا حليفتين لروسيا ضد المانيا قد غدتا الآن عدوّتين لروسيا ذاتها . انهما تودّان تدمير نظامها الجديد بأي ثمن . وبما انهما كانتا مرهقتين بالحرب ضد المانيا ، فلا أظن اي عاقل يرى تصرفهما هذا قريباً من الصواب . أليس يزيد الى عبئهما الذي يكاد يقصم الظّهر ، عبئاً جديداً لا يقل خطورة وإعناتاً !!

مرامي بعيدة

ومما تجدر الاشارة اليه انه كان في تقسيم المناطق بين الحليفتين بعض المرامي البعيدة . فبريطانيا اختارت القوقاز لسببين :

١ ـ وجود النفط ، واملها في حرمان روسيا من ذهبها الأسود الذي بفضله وحده تستطيع حكومة لينين ان تصنّع البلاد وترفع مستوى الحياة فيها .

٢ ـ يقين لويد جورج من سهولة قهر تركيا واقتطاع الأراضي الّتي يختارها من ممتلكاتها الآسيوية . وكان قد اختار العراق وولاية الموصل القريبة من ذلك الموقع .



الالمان يعدون جثث قتلاهم من قبل ، في روسيا

بهذا كانت بريطانيا تود إبعاد روسيا مهما كان الحال عن طريقها الاستراتيجي الى ايران والهند .

اما اختيار فرنسا لاوكرانيا فبدافع من خصب الأخيرة وكونها منطقةً زراعية كان للفرنسيين كثير من الاستثمارات المالية فيها والعلاقات التجارية الواسعة معها .

* * *

كان هذا التقسيم الخيالي هو اللبنة الأولى في « حرب التدخل » ضد النظام الجديد في روسيا، الحربِ التي تطاولت حتى ١٩٢١ ، والى ان غدت حرباً أهلية ، نُكبت فيها روسيا بالانقسام على نفسهـا ، وبخسران المجهودات العظيمة التي كان يمكن توجيهها نحو ترقية البلاد .

ولما كانت « حرب التدخل » هذه ليست من مساق الحرب العالمية الأولى ، الآن ، فإننا نحيل من يود التوسع في هذا البحث الى المصادر الروسية التي عالجت موضوعها بإسهاب . ولكنّا نود تنبيهه الى ضرورة الاطلاع على المصادر المعادية ايضاً ، كي يستطيع ان يكوّن لنفسه رأياً أقرب الى الانصاف بعد تحرّي الحقائق .

* * *

اسباب حنق كليمنصو وزميله

والآن ، ما هي الاسباب الحقيقية لحنق كليمنصو ولويد جورج ؟

ان كلاً من الرجلين يمثل الطبقة الحاكمة في بـــلاده . وهي في الحالين ، الطبقة الرأسمالية الكبيرة ، وبقايا الاقطاعية العسكرية هناك . اذن ، فمن الطبيعي ان يقاوما باستماتة كل نظام جديد . فكيف اذا كان هذا النظام يدعو الى تحطيم طبقتهما على اعتبار انها طفيليّـــة تسمن من هزال الطبقات الأخرى !!

أضف الى ذلك ان روسيا نفسها كانت لقمة سائغـــة للاستثمارات الفرنسية والبريطانية والالمانية،وها هو النظام الجديد مصمم على استرجاع تلك اللقمة وتحويلها لأفواه اصحابها الحقيقيين .

وهذا علاوة على ان ظرف الحرب هو اسوأ الظروف في نظر بريطانيا وفرنسا ، للقيام بالثورة على القيصرية الحليفة في روسيا .

كما ان فضح المعاهدات السريـــة ، والذي قام به تروتسكي ، ثم الشروط المقترحة لايقاف الحرب ، مثلَ « عدم التوسع الاقليمي وعدم دفع تعويضات » — ليس من شأنها ان يتفقا مع مطامح بريطانيا وفرنسا الاستعماريتين .

كل هذه الأسباب مجتمعة ، دفعت بريطانيـــا وفرنسا الى تصرفهما الأحمق ، ومحاولتهما إجهاض الثورة الروسية الجديدة .

ومن الغريب ان تقدير الدولتين للظروف الحربية في الجبهة الروسية كان خطأ صرفاً . فقد انطلق تفكير كليمنصو ولويد جورج وجنرالاتهما من فرضية خاطئة ، مفادها ان الجيش الروسي كان قادراً على الصمود في وجه الالمان لو لم يأت لينين وحكومته . والواقع ان هذا غير صحيح. فالجيش الروسي كان قد اضمحل ، ان لم نقل ، تلاشى . لم يكن لدى تروتسكي ، وهو القائد الجديد ، أية قوة فعلية بمقدورها حتى ان تعيق تقدم الالمان . ولهذا كان انسحاب الحكومة السوفييتية الجديدة من الحرب ، لا يقدّم ولا يؤخر ، من حيث تأثيره على الجيوش الالمانية، او الجبهة الغربية . كان الشعب الروسي قد كره الحرب ، وانهارت معنوية مقاتليه ، وما كان ليطاوع حكومته لو شاءت الاستمرار في القتال . وعلى هذا الاساس كان ما فعله لينين ، ليس الا تقريراً للواقع ، لا غدراً بحلفائه .

اذن ، كان مجرد الحقد هو الذي أعمى الزعيمين الغربيّين عن تقدير خطوة لينين والنظر اليها بعين الانصاف والتقبّل .

ما هي نظرة ويلسن الى ثورة اكتوبر ؟

كان ويلسن حانقاً ايضاً على لينين ، ولكن لسبب أنبل من زميليه. لقد وجد الامريكيون في « عرض لينين السلمي » نفسَ ما كان ويلسن سيقترحه لو لم يُسبق اليه . وكان الرئيس الامريكي يرى ان روسيا وحكومتها الجديدة قد تستأنف الحرب ضد المانيا لو كانت القيَم التي يدعو اليها الحلفاء أرفع مما هي . ولهذا نجده يعلن نقاطه الأربع عشرة في ٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨ . ونجدها اقرب الى افكار لينين حول السلام مما هي الى نصوص المعاهدات السرية بين بريطانيا وفرنسا. غير ان كل هذه المثالية الطوباوية عند ويلسن لم تمنعه ان يتضايق

من لينين ونظامه الجديد ، لأنه يتعارض اصلاً مع نظام امريكا ويدعو الى قلب حياتها رأساً على عقب .

للرب عشر وصايا فقط

وكما ان لينين الثوري لم يحظَ برضا الاوساط الحاكمة في بريطانيا وفرنسا ، كذلك كانت نقاط ويلسن الـ ١٤ خيبة أملٍ في نظرهما . فعند إبلاغ كليمنصو بتلك النقاط قال : « ان الربّ له عشر وصايا لا اكثر » . وفي هذا نوع من السخرية المبطّنة والاستهزاء المبيّت .

اما لويد جورج ، فقد آثر عدم التعليق العلني ، وتحول الى رفع شعار (ان الحق سيهزم القوة) . لكن ، ما هو الحق الذي كان يعنيه لويد جورج ؟ هذا امر يخص الملفات السرية في (داوننغ ستريت) ، وتراه شعوب المستعمرات البريطانية حين تحاول التحرر !

* * *

الموقف اواخر ١٩١٧

علينا الآن ان نلقي نظرة سريعة على الموقف الراهن في الحرب في اواخر سنة ١٩١٧ ، فنقول :

نحن نواجه الوضع التالي : لقد خرجت روسيا من الحرب . وايطاليا تسرع مهرولة نحو الاندحار على يدي الجيوش النمساوية والفرق الالمانية المؤازرة . والخيبة تسيطر على الحلفاء في الجبهة الغربية ، لأن الالمـــان خرجوا من العام وهم أقوى مما دخلوه — وبخــاصة بعد فشل هجومي نيفيل وهايغ ، الرئيسيّين . وحملة سلانيك في مواقعها ، محصورة ، لم تتقدم خطوة واحدة . ورومانيا قد سقطت في يد الالمـــان بضربة من

مكتزن وفولكنهاين . والامريكيون لم يقدُموا بعد .

اذن فالرجحان في كفة الالمان على كل حال .

لكن خبراً جاء من فلسطين ، جبَر قلب لويد جورج الكسير .ففي كانون الاول (ديسمبر) ، دخل الجنرال «اللنبي» مدينة القدس، بعد ان اخلاها الاتراك مهزومين .



«الجنرال اللنبي يدخل مدينةالقدس ، يسلمها له رئيس بلديتها »

وقبل ذلك بأسابيع كانت الحكومة البريطانية قد أصدرت تصريحاً لليهود بتسهيل « جعل فلسطين وطناً قومياً لهم » على يد وزير خارجيتها اللورد بلفور . وهذا هو وعد بلفور المشؤوم الذي سنعرض له في فصل لاحق .

وهكذا انتهى عام ١٩١٧ في الجبهات الأوروبية ، وروسيا وامريكا تكادان تتفقان في نظرتها الى الحرب ، وان لم تحاولا الاتفاق فعلاً . كما ان بريطانيا وفرنسا والمانيا ينظرن الى روسيا في الشرق وامريكا في الغرب بعين غير مطمئنة .

وما دمنا قد فرغنا من سير الحرب لهذا العام في جبهات اوروبا ، فإنه يغدو علينا ان نلتفت الى سيرها في جبهات آسيا ، اي ضد الدولة العثمانية .

الجبهة في البلاد العربية

ثلاث جبهات

لقد خلّفنا سير الحرب العالمية الأولى في الجبهة الآسيوية عند نقطتين ، أولاهما ارتداد الاتراك بقيادة جمال باشا عن قناة السويس بعد فشل الحملة ، وثانيتهما انتصار الأتراك في سلمان باك على الانكليز وارتداد هؤلاء نحو كوت العمارة التي كانوا قد احتلوها كآخر مرحلة من مراحل تقدمهم صُعُداً في شط العرب . وسنحاول الآن ان نصل ما انقطع من اخبار الجبهتين . لكن جبهة ثالثة ستصادفنا في عام ١٩١٧ ، هي جبهة الحجاز او الثورة العربية هناك . وسنبدأ اولاً بالعراق :

العراق : صمود .. استسلام

في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٥ اضطر تاونسند قائدُ

الحملة الانكليزية ـ الهندية على العراق الى التراجع صوب كوت العمارة، نتيجة للضغط التركي الذي كان آخذاً في التزايد . وفي ٧ كانون الأول (ديسمبر) كان الاتراك قد تمكنوا من تطويق القوات الانكليزية في الكوت . ولما كانت الكوت موقعاً غير كامل التحصين ، كما انه غير كفؤ للصمود في وجه المدفعية التركية بقيادة الضباط الألمان ، ولما كان الجنرال « نكسون » ، القائد العام للحملة قد سمح لستة آلاف من الجنود العرب الذين انخرطوا في جيشه لقاء الأجر * ، ان يبقوا مع المحاصرين في الكوت ـ فقد ضاقت الحال بأهل المدينة ، ونفدت المؤن ، وانتشر الشغب بفعل الجوع .

ومع هذا ظل تاونسند صامداً على امل ان تتقدم امدادات جديدة عبر النهر فتستطيع انقاذ موقفه المتدهور . لكن الاتراك في هذه الاثنـــاء لم يكونوا غافلين عن تقوية مراكزهم . لقد أخذوا يحصّنون الجسور المهمة على نهر دجلة ، او ينسفون بعضها تحسباً للطوارىء . كما انهم ركّزوا مدفعيتهم واستمالوا العراقيين الى جانبهم ، فأمنوا الانتفاض ضدهم .

واغتناماً للفرصة ، قام « نور الدين بك » القائد التركي ، بالهجوم على قوات تاونسند يوم ٩ ، ١٢ ، ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٥ ، قاصداً من ذلك تحطيم معنويتهم . وقد توصل الى هدفه بالفعل. فاستنجد تاونسند بقيادته مصرحاً ان المؤن التي في حوزته لن تكفيـــه طويلاً ، فهو يطلب القيام بهجوم بحري وبري ، يستطيع بفضله الانسحاب او الفكاك .

وأجيب القائد المحصور الى طلبه ، اذ شرع الجيش الأنكليزي في التقدم في ٤ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٦ . لكن اصطداماً واحداً مع الأتراك في موقع « الشيخ سعد » أقنع الانكليز بعجزهم عن انقاذ

* وهم من البدو الذين لا مفهوم للوطنية عندهم .

المحصورين منهم . وحين فشلت المحاولة – وكان الاتـراك قد دمروا سور الكوت من الجهة الشمالية الغربية ، وبحيث اصبح يتعذر ترميمه او الدفاع عنه – بعث تاونسند الى قيادته يقول : « ان المؤن تكفي لـ ٥٥ يوماً فقط » .

وطوال هذه المدة ظل الانكليز يحاولون القيام بهجومات صغيرة ، لكنها تفشل كل مرة . واجرأ هذه المحـــاولات ذلك الهجوم المفاجىء الذي باشره غورينغ في ٢٢ شبـــاط (فبراير) ، واستولى فيه على « الصانعية » . لكنه عجز في ٧ آذار (مارس) عن الاستيلاء على موقع « السِن » الحصين ، مع ان قواته ارتفعت الى ٣٠ الفاً من جنيش حكومة الهند .

وفي ٩ نيسان (أبريل) قام الانكليز بمحاولتهم الأخيرة لاختراق خطوط الاتراك ، لكن هؤلاء صبّوا نيرانهم الكثيفة بإحكام ، كما ان فيضان النهر في ذلك الوقت من السنة غمر الأرض ، فخلق للانكليز عقبة كبيرة اثناء الزحف . ولهذين السببين ارتدت القوة الانكليزية المهاجمة بعد ان خلّفت في الميدان ٤٠٠٠ قتيل ، وفي فترة من الوقت لم تتجاوز ٥ ساعات .

بعد ذلك ايقن الانكليز ان اية محاولة جديدة لانقاذ الكوت او مباشرة الزحف من جديد على بغداد ، ستكون دون جدوى . وفي هذه الاثناء كان الاتراك يضيّقون الخناق على تاونسند . حتى اذا ما رأى نور الدين بك ان النصر قد تم ضمانه ، بعث الى تاونسند يعرض عليه الاستسلام.

وهكذا استسلم تاونسند في ٢٩ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٦ دون قيد او شرط ، وبعد ان كان قد عرض على القائد التركي مليون ليرة ذهبية يدفعها له كفدية ، اذا سمح له ولجنوده بالانسحـــاب بعد تسليم مدافعهم والتعهد بعدم الاشتراك في حرب ضد الاتراك الى الأبد . لكن القائد التركي رفض ذلك .

وباستسلام تاونسند نقلت القوات التركية حوالي (١٣,٠٠٠) أسير الى الاناضول ، منهم ٥ آلاف من الانكليز ، فكان في ذلك اكبر مذلّة واجهتها بريطانيا في تاريخها العسكري . مما أثار الرأي العام بصورة عنيفة في لندن ، واضطر الحكومة الى انتداب لجان تحقيق على مستوى رفيع لتحديد القصور الذي وقع ، والاشخاص المسؤولين عنه .. لكن كل هذا ما كان لينفي المذلّة والهوان .

جبهة القناة

كانت الغارة الفاشلة التي قام بها الاتراك على القناة سنة ١٩١٥ بمثابة إشعار للانكليز كي يأخذوا حيطتهم . فقد ظل الاتراك مـا بعد ذلك وحتى شهر نيسان من سنة ١٩١٦ يقومون باستعدادات ضخمة تمهيداً لمعاودة الكرّة في الهجوم على القناة وطرد الانكليز من مصر اذا استطاعوا ذلك .

ولم يكن الانكليز غافلين عن هذا الأمر بطبيعة الحال ، فقد ورد في تقارير قيادتهم السرية : « ان الاتراك قد يعاودون الهجوم على القناة من جديد ، ولهذا فان جبهة فلسطين يجب ان يتم تعزيزها بالطائرات والمشاة والخيالة . والقيادة تقدّر عدد القوات الواجب توفيرها لهذه الجبهة بـ ١٠٠ ألف رجل ، مع ضمان ابعاد أية انتفاضات داخلية لصالح الاتراك ، في مصر » .

اما تقدير قوة الاتراك المحتملة ، فقد وردت في تقرير انكليزي آخر يقول : « من المؤكد لدى القيادة في مصر ان الاتراك قد نشروا قواتهم في فلسطين وصحراء سيناء ، وان هذه القوات ترتفع الى حوالي ١٥٠ ألف رجل . هذا علاوة على ان اهل البلاد يؤيدونهم على الرغم من فساد الادارة التركية ، وكثرة الفارّين من الجيش من الجنود العرب. »

ثم يستطرد ذلك التقرير قائلاً : « ومن المؤكد ان الفصائل الالمانية —

النمسوية التي جُلبت الى هذه الجبهة ليست كبيرة العدد ، لكن تدريبها وكوادر الضباط فيها من مستوى رفيع » .

في هذا الوقت كانت دائرة الهندسة العسكرية في الجيش البريطاني الموجود في مصر منهمكه في مد خط حديدي يوصل قواتها بفلسطين . وكان الانكليز يقدّرون ان تمديد هذا الخط سيساعدهم بصورة فعّالة في التقدم عبر فلسطين اذا ما تطورت الحرب واستدعت ذلك .

وفي ٢٣ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٦ هاجمت قوة تركية كبيرة قوةً انكليزية في موقع « اوغراتينا » ، وأحاطت بها من كل جانب ، فاضطر الانكليز الى التسليم . واعتبر الأتراك هذا نصراً جديـــداً ملحقاً بانتصاراتهم في سليمان باك وحصارهم الناجح لكوت العمارة في العراق . وبتأثير ذلك ارتفعت معنوياتهم ، فتقدمت قوة تركية أخرى الى «القطية» وتمكنت من أسر الحامية الانكليزية هناك . أما القطية هذه فكانت نهاية الخط الحديدي الذي كان الانكليز يمدونه من « القنطرة » .

وقد أفزع سقوط « القطيّة » في يد الأتراك ، القيادةَ الانكليزية في مصر ، فصدر الأمر بتعزيز موقع « روماني » في سيناء ، وكان هو نهاية الخط الحديدي آنذاك . وإليــه انتقلت القوات الاسترالية الشديدة الشراسة . لكن الأتراك لم يهاجموا « روماني » بل اكتفوا بارسالهـم طائراتهم فوق القناة لاسقاط « المناشير » التي تحاول استثارة همم المصريين وتحرضهم على الثورة في سبيل « الخليفة السلطان ، رافع راية الديـن والملّة » . وعلى هذا كانت الطائرات الانكليزية تجيب بالظهور في سماء العريش وقصف السكان المدنيين فيها .

على هذه الصورة ظلت الجبهة هادئة حتى ٥ آب (اغسطس) من ذلك العام . وكانت هناك أحداث اخرى تشغل بال الاتراك في هــذه الفترة . فقد أعلن شريف مكة الثورة عليهم في الحجــاز .. وهم لا

يريدون القتال على جبهتين ، ما لم يُضطروا الى ذلك .

الزحف على روماني

بعد سقوط القطية ، رسم « فون كرس » الألماني ، وكان قائدَ الحملة ، خطته للتقدم على روماني وتجريد الانكليز من امكانية الاستفادة من سكة حديدهم فيها . ولهذا أمر في ٥ آب (اغسطس) بالهجوم على ذلك الموقع بعد ان مهد لهجومه بتركيز نيران المدفعية الثقيلة عليه . وقد استطاع فعلاً ان يضطر الاستراليين الى التقهقر ، لكن الامدادات الغزيرة والسريعة التي وفرتها القُطر الحديدية مكّنت الاستراليين من استعادة مواقعهم، ثم الصمود قبالة هجوم جديد . وبفضل تلك التعزيزات اضطُرت القوات التركية الى التراجع آخر الأمر . لكن تراجعها كان منظّماً لم تخسر فيه الا بضعة مدافع . ونحن نعلم ان المدفعية الثقيلة هي السلاح الفعّال في مثل هذه المعارك ، فإبقاؤها بمنجاة من العدو معناه نصرٌ .. حتى ولو كان ذلك مرافقاً لانسحاب اضطراري .

الزحف على العريش

بعد معركة روماني أخذ الانكليز يستعدون للزحف على العريش . ففي أواخر صيف سنة ١٩١٦ كان هنالك حوالي ٧٠ الف جندي بريطاني في مصر ، أكثرهم من الهند واستراليا ونيوزيلندا . هذا علاوة عن حوالي ٢٠ الف جندي هم حامية الجانب الغربي من القناة . وقد بسط القائد الانكليزي « مورّي » وجهة نظره بخصوص ذلك قائلاً :

« ان بقاء جيوش الامبراطورية في مصر ملتزمةً جانب الدفاع عن القناة لن يفيد الا العدو . فهو يستطيع الاستفادة من الوقت ، وتجميع القوات الكبيرة في فلسطين . كما انه يستطيع بهذه القوات ان يغير المرة تلو المرة على شاطىء القناة ، إما عبر صحراء سيناء ، أو عن طريق

الساحل الفلسطيني ، مستفيداً من سهولة المواصلات في فلسطين . أما خير طريقة لتجريده من الاستفادة المحتملة ، فهــي ان تأخذ الجيوش الامبراطورية جانب الهجوم ، سالكة الطريق الساحلي . بذلك تحرمه من امكانيــة الهجوم في سيناء لأنه يتعرض إذ ذاك لخطـر الالتفـاف والتطويق من جهة الشمال ثم الشرق ، كما تضطره الى توزيـع قواته على جبهتين » .

ولهذا رأى «موري» ضرورة الاستيلاء على العريش علّه يستطيع اتخاذها نقطة تجمّع وانطلاق في هجومه المقترح .

وحين اطّلعت القيادة في لندن على وجهة النظر هذه علّقت على ذلك:

« لقد اصبحت مبادأة العدو بالهجوم في الاتجــاه المقترح ضرورية الآن . اذ انها بالاضافة الى الميزات التي ينوّه بها الجنرال يمكن أن تغدو عاملاً مساعداً لتشتيت قوات العدو بعــد أن أعلن شريف مكة الثورة في الحجاز » .

وهكذا وافقت القيادة البريطانية على القيام بالحملة . وحينذاك أخذ الاستراليون الذين صمدوا في روماني يناوشون الأتراك المتراجعين ويزحفون وراءهم ، حتى اضطر الاتراك الى اللجوء الى العريش في ١٢ آب (اغسطس) سنة ١٩١٦ . وكانت القوات التركية التي وصلت العريش لا تتجاوز ١٠ آلاف من أصل ٢٠ ألفاً كانوا في بداية الحملة . أما القوات الانكليزية فقد بلغت الآن ٤٠ ألفاً .

احتلال العريش

ومع هذا التفوق في العدد ، فقد تهيّب الانكليز القيام بهجوم على فلسطين نفسها ، وانما هدفوا الى حماية خطهم الحديدي ومداه الى العريش ورفح . لهذا نجدهم يتقدمون بحذر ، وبعد شهرين تقريباً من معركة روماني .

ففي ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٦ صدرت الأوامر الانكليزية باحتلال العريش . وتقدم صوبها الاستراليون ، فوجدوا المدينة خالية من الأتراك . لقد انسحب هؤلاء .

كان الانسحاب خديعة .. لو نجحت لقضت على معظم القوة الانكليزية المهاجمة . فالى الشمال الشرقي من العريش واد فيه الماء الذي تحتاجه أية قوة تود التقدم من هناك . وكان الاتراك قد أقاموا مواقعهم في ذلك الوادي . وحين زحف الانكليز اليه ، حصرهم الاتراك في مسيل الوادي وأبقوهم دون ماء طوال يومين . وبهذه الوسيلة استطاعوا تكبيدهم خسارة كبرى ، لم يعوّضها الا الإمدادات الجديدة التي استطاعت طرد الاتراك من مواقعهم ، وأسرت ١٢٠٠ مقاتل .

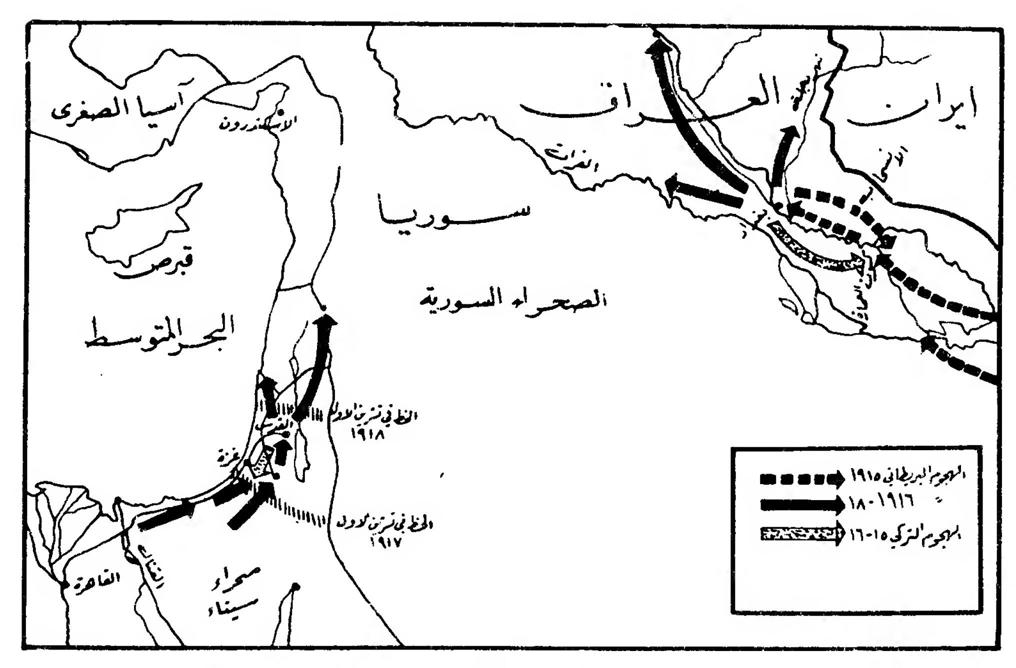
لا اتراك في سيناء

وبالاستيلاء على العريش ، اضطر الاتراك الى سحب جميع مواقعهم في سيناء فاحتلها الانكليز . بهذا غدت شبه جزيرة سيناء خالية من الاتراك لأول مرة منذ بداية الحرب . ومعنى هذا القول ان كل خطر على قناة السويس قد زال . ومن شأن زوال هذا الخطر ان يحرر القوات البريطانية المختزَنة في مصر ، ويجعلها قادرة على المشاركة في القتال .

وهذا ما حدث فعلاً .. فمن العريش ، تقدم الانكليز فاحتلوا رفح، في ١٠ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٧ . ومن ثم مدوا اليها سكة الحديد ، وتقدموا من بعدُ في العمل الى خان يونس التي بلغتها السكة في اواخر آذار (مارس) . وباحتلال خان يونس اصبح الانكليز على مقربة من غزة التي تعتبر نقطة حربية من الدرجة الاولى في جنوب فلسطين .

معركة غزة

بعد الانسحاب من سيناء وخان يونس ، جعل الاتراك خط قتالهم



الانكليز يتقدمون في العراق حتى كوت العمارة ، ويستسلم « تاونسند » ..
وفي سيناء يحتلون العريش ورفح وخان يونس وغزة سنة ١٩١٦ – ١٩١٧

يمتد ما بين غزة وبئر السبع . ولكن ثغرات كثيرة كانت تُضعف هذا الخط ، ففي غزة مثلاً لم يكن هنالك اكثر من ٤ آلاف جندي بقيادة فون كرس . وكانت هذه القوة معسكرة في رابية « المنطار » وموقع « التيه » المشرفين على غزة . وعلى طول الخط الى بئر السبع كانت القوات الانكليزية المتقدمة من سيناء قادرة على اجتياز النقب وإسقاط بئر السبع ، فيما اذا تمكن جناحها الايسر من احتلال غزة .

على اساس هذا الموقف رسم « دوبل » ، قائد القوات البريطانية العاملة شرقي القناة ، خطته الحربية . وبحكم سلامتها وافق عليها «موري» ، رئيسه الاعلى ، في ٢٠ آذار (مارس) سنة ١٩١٧ .

وقد تقرر للهجوم يوم ٢٥ آذار (مارس) ، على ان يتم الهجوم

في مرحلتين : الأولى تنجح في احتلال وادي غزة ، والثانية بتقوم بتطويق المدينة وعزل حاميتها عن امكانية تلقّي الامدادات من الشرق . أما القوة المهاجِمة ، فلم تكن تقل عن ٢٠ ألف جندي .

ولقد خدم الحظ وحده الأتراك هذه المرة ، اذ ان غلطة وقع فيها دوبل هي التي اضطرت جنوده الى التراجع عن المناطق التي احتلوهـا فعلاً من وادي غزة . ذلك ان كتيبة الصحراء ، وهي احدى كتائبه المهاجِمة ، تأخرت بضع ساعات قبل ان تنجز مهمتها ، فظن دوبل ان امدادات تركية قد حطمتها .

ولما كان جنوده متضايقين من شدة الحر والعطش ، ولما كان المدفعيون الألمان والرماة الاتراك قد استبسلوا في مراكزهم في الوادي — فقد قرر دوبل ان يسحب قواته ويتراجع .

فاغتنم الاتراك هذه الفرصة ، وعززوا قواتهم في ذلك الموقع . وبهذا انتهت المرحلة الأولى من الهجوم بتقهقر الانكليز الى المواقع التي بدأوا منها . أما خسائر المعركـة فكانت ٤٠٠٠ من الانكليز و٢٥٠٠ من الأتراك .

هذا من حيث احتلال الوادي . اما من حيث الاستيلاء على رابيـة المنطار ، فقد استطاعت كتيبة نيوزيلندية ان تقتحم التحصينات الطبيعية التركية هناك . لكن خبر سقوط الرابية لم يبلّغ الى دوبل الا عن طريق القيادة في القاهرة ، ولذلك جاء متأخراً ، وبعد ان كان قد أصدر أوامره بتراجع قواته .

وهكذا كانت الحملة فشلاً ذريعاً للانكليز ، مع ان مورّي أبرق الى لندن بالنجاح ، وتسلّم تهاني الملك ولويد جورج على انتصاره !

ليس هذا فحسب ، بل ان القيادة في لندن طلبت اليه ان يحوّر خطته ، بحيث تتضمن الاستمرار في الزحف على جنوب فلسطين واحتلال مدينة القدس . وكانت القيادة في ذلك متأثرة برغبات لويد جورج الشخصية

أكثر من تأثرها بحقيقة الموقف الحربي لجيوشها .

غزة .. ثانيةً

بعد هذا الفشل قرر موري ان يطلب امدادات جديدة من القيادة ، فسارعت هذه الى توفير ما طلب . وكانت تأمل ان ينال القائد نصراً في الشرق يخفّف به من الألم الذي سببّته اندحارات جيوشها في فرنسا .

وفي ١٧ نيسان (ابريل) أعاد موري الكرة على غزة والوادي . وكان ينوي اسقاط الموقعين في ثلاثة ايام ، وعن طريق القيـــام بكماشة صاعقة . ففي اليوم الأول تفاجىء قواته مواقعَ الأتراك في الوادي وتخندق هناك . وفي اليوم الثاني تقوم قوات تأتي عن طريق الساحل بتركيز القصف بالمدفعية على المنطار ومواقع الوادي معاً . اما في اليوم الثالث ، فتندفع كتائبه لاحتلال غزة بالسلاح الأبيض .

وقد وفرت له البحرية البريطانية والفرنسية بارجتين تقصفان المدينة من عرض البحر ، كما كان يعتمد على ذخيرة كبيرة من قنابل الغاز قرر ان يستعملها عند الحاجة .

لكن كل هذه التقديرات كانت سليمة في مخيّلته فحسب .

أما الذي حدث ، فهو أن الانكليز وصلوا أطراف الوادي فعلاً في ١٨ نيسان (أبريل) وهو اليوم الأول ، وخندقوا هناك . لكنهم كانوا الآن : غير مزودين بالماء ، وفي مدى نار المدفعية التركية ، وضمن حدود منطقة الرمي بالبنادق . الا أن الأتراك لم يحركوا ساكناً . انهم لم يقاوموا تقدم العدو . وفي ١٩ منه ، صبّت المدفعية الانكليزية الثقيلة قذائفها على المنطار المشرف على غزة ، وعلى جانبي الوادي حيث يقبع الأتراك .

لكن موري حين حـــاول الهجوم في ذلك المساء علم ان مدفعيته لم تنجح الا في إلحاق أضرار طفيفة بالتحصينات التركية ، سواء في المنطار او مواقع الوادي . ومع هذا أصدر أمره بالهجوم .

وحينذاك فتكت المدفعية الألمانية بقواته ، واصطادهم الرماة الأتراك من كل ناحية . هذا علاوة عن ان العطش شارك في انهاكهم وتبديد طاقاتهم .

وقد أطل صباح ٢٠ نيسان (ابريل) ، وفي الجبهة ٦٤٠٠ قتيل وجريح انكليزي مقابل ٢٥٠٠ من الأتراك ، ودون استيلاء الانكليز الا على رابية شمشون القريبة من غزة .

وعند ذاك تأكد موري من فشل هجومه الثاني ، فأصدر أوامره الى قواته بالبقاء في مواقعها والدفاع عنها دون ان تحاول التقدم باردة واحدة . ولما أبلغت القيادة في لندن بهذه النتيجة ، تغيّرت لهجتها ، فطلبت من موري مجرد المقاومة فيما اذا هاجمه العدو ، لا الاستمرار في الزحف على أمل اسقاط جنوبي فلسطين ثم الوصول الى المدينة المقدسة .

وعلينا الآن ان ننتقل الى الحجاز ، قبل ان نتابع سرد أحداث حملة فلسطين والعراق من جديد . فإلى هناك .

جبهة الحجاز

كنا نودّ ان يقتصر تأريخنا للثورة العربية في الحجاز على الناحية العسكرية منها ، وما ذلك الا اجلالاً لتلك الثورة عن اعتصارها في حيز ضيق من الصفحات ، واعتبارها حدثاً ثانوياً في مساق الحرب العالمية الأولى . غير ان تقييدها بالنظرة العسكرية سيكون تشويهاً لها . وهذا ما يدفعنا الى الاقتضاب في بسط مراحلها وأسبابها وتحركاتها ، ناصحين من يود التوسع في الاطلاع ان يرجع الى كتاب « يقظة العرب » لجورج انطونيوس . والكتاب معروف للجميع . وهو الذي سنعتمد عليه الى حد ما حين نجد بغيتنا فيه .

الثورة

« كان من قبيل المصادفة ان نشبت الثورة العربية في اليوم نفسه الذي



جمال باشا ، قائد الجيش الرابع في سوريا ..
شنق أحرار العرب ١٩١٤ ، ١٩١٦ ثم سلم القدس

توفي فيه كتشنر ، وهو يوم الاثنين ١٥ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٦ .
وقد بدأت في نطاق أضيق جداً مما رسم الشريف (حسين)في البداية .
فقد كانت خطته الأولى أن يثير الاضطرابات في وقت واحد في بلاد
الشام والحجاز معاً ، وان يحدث ذلك في آن واحد مع نزول جيوش
الحلفاء الى البر في موقع ما قرب « الاسكندرونة » ، وبذلك يحصر
الأتراك « بين نارين » مما يشلّ حركة قواتهم بين حلب ومكة ، ثم
ينشر الثورة شرقاً ، ويسدّد اليهم الضربات في العراق . غير انه « اضطر »
الى التخلي عن هذه الخطة بسبب « رفض » الحلفاء لها ، « واكتفى »

بإعلان الثورة في الحجاز تمهيداً للهجوم على المواقـــع التّركية في بلاد الشام » .

ما هي اسباب الثورة وظروفها ؟

ا – الفساد

كانت الدولة العثمانية عامةً ينخرُ فيها الفساد منذ زمن طويل ، وكانت الادارة في الولايات العربيـــة أشد ما تكون سوءاً . وحين هبّت نسمة الثقافة على شمال الجزيرة العربية ما بين تركيا وسيناء ، تحسس الشباب العرب واقعهم المرير ، ووعوا ان قوميّتهم يجب ان تغدو أرفع من الحال الراهن . وكان من نتيجـــة هذا الاستشعار الذي تفتّح ما بين ١٨٧٥ و١٩٠٨ ان تأسست في الولايات العربية جمعيات سياسية سريّة اخذت تبثّ روح الوطنيّة بين افراد الشعب . ولما كانت الحريات في بلادهم نفسها مكبوتة ، فقد انتقل نشاط تلك الجمعيات بصورة علنية الى اوساط الشباب الذين يتلقون علومهم في أوروبا وبين الضباط العرب في الجيش العثماني .

وأهم هذه الجمعيات « اللامركزية » و « العربية الفتاة » و « العهد » . لكن هذه الجمعيات كانت تهدف الى شبه استقلال ذاتي للولايات العربية ضمن السلطنة العثمانية ومع الخضوع للخلافة .

وفي هذه الأثناء كانت هناك أحزاب تركية . منها ما يعطف على أماني العرب وأفكار مثقفيهم ، ومنها ما يناصبهم أشدّ العِداء . وأهم هذه الأخيرة « جمعية الاتحاد والترقي » التي انقلبت آخر الأمر لحمل فكرة « الطورانية » ، تلك النزعة القومية المتطرفة التي حاولت ، جنوناً منها ، الأخذ بـ « تتريك العرب » . والتي لو تأخرت من حيث تأريخها الزمني قليلاً ، لأمكن اعتبارها أمّاً غير شريفة للنازيّة ، مع الفارق .

وبالتناقض المحتوم بين الطورانية ، وإبراز الكيان العربي في الدولة



الشريف .. شريف مكة
أعلن الثورة . وصار ملكاً في أواخر سنة ١٩١٦
ثم خليفة لم يبايعه احد ١٩٢٣

العثمانية ، غدا الاصطدام بين دعاة الفكرتين أمراً لا مناص منه .

ب – المطامع الشخصية :

كان هناك ٥ زعماء عرب في الجزيرة ، وكل من هؤلاء يطمع في

توسيع ملكه على حساب الآخرين ودون نظر لليد التي يمكن ان تساعده في ذلك . أما هؤلاء الخمسة فهم :

١ — الادريسي في عسير ، وكان اميل الى القبول بالدالّة ثم التعاون الانكليزي المتسلل إليه عن طريق عدن . وهي تتبع في نشاطها تعليمات حكومة الهند ، وترمي من مساعدتها للادريسي الى انهاك القوات التركية المحاربة في عسير والأخرى الموجودة في اليمن . ولهــذا نجد الادريسي يرفض اعلان « الجهاد » الذي طلبه خليفة الآستانة حين أعلنت الحرب ، كما نجد موقع بلاده يحرم الاتراك من الاستفادة من البحر الاحمر .

٢ — ابن سعود في نجد والمنطقة الشرقية من الجزيرة : وهو ايضاً أميل الى جانب الانكليز ، فحكومة الهند هي حليفته الأولى التي أمدّته بالمال وبعض السلاح ومكّنته من استرجاع مُلك آبائه المسلوب في الرياض ومقاطعة الأحساء . وهو الآن يتخوف من ناحيتين : الأولى ابن الرشيد في « حايل » ، والثانية الشريف حسين في مكة . كما انه يود توسيــع رقعة « سلطنة نجد » على حساب الشريف في الحجاز . ولقد كان هذا الموقف المربك هو الذي منعه من قبول فكرة « الجهاد » المذكورة آنفاً ، ايضاً . بل لقد شكر الشريفَ حُسين حين رفض الأخير فكرة الجهاد ، وبذلك أراحه من الوقوع في التناقض ، بين الوهابيّة المتعصبة للإسلام ، وبالتالي (أدبياً) لخليفة المسلمين — وبين مقتضيات السياسة الآنيّة في سلطنته .

٣ — ابن الرشيد في حايل : وهو لا يجد قبولاً لدى حكومة الهند ، ولا إسناداً من شيوخ الكويت الذين هم تحت حماية الانكليز . كما أنه ينقم على ابن سعود انتصاره على أسرته ، ويودّ استرجاع مجد آبائه . وانطلاقاً من هذا نراه يؤازر الأتراك ويقبل « جهادهم » ، على أمل زحزحة ابن سعود من مواقعه ، ثم يتفرغ لتوسيع إمارته على حساب الحجاز .

٤ ـ الشريف حسين في مكة : وهو رجل أعادته الدولة العثمانية من الآستانة بعد ضيافة اجبارية فرضوها عليه هناك . فهو عليم بدسائس البلاط التركي ونوايا رجال عهده المتصارعين . كما أن مركزه الديني في « الحرمين الشريفين » وكرجلٍ من « العترة النبوية الشريفة » يميزانه عن بقية الزعماء العرب فيما لو استطاع ان يوحّد الولايات العربية من الدولة العثمانية ، تحت قيادته . انه بذلك يبني لنفسه مُلكاً وأمته مجداً ، كما يغدو بمقدوره أن يقضي على منافسيه في نجد والرياض وعسير . وقد رفض « الجهاد » ايضاً .

٥ ـ الإمام يحيى في اليمن : والحق ان مطامعه الشخصية تنحصر في طرد الأتراك من اليمن ، واقامة دولة « الزيود » في تلك المنطقة .

ولو أردنا المقارنة بين هذه الشخصيات لوجدنا الانصاف يقتضينا القول إن شريف مكة كان أكثرهم دهاء وتطلّعاً الى أماني العرب القومية ، حتى مع اصطباغ تلك الأماني في نظره بالمطامح العائلية .

جـ ـ نفوذ وتدخل الدول الأجنبية :

كان حاكم عدن التابع لحكومة الهند على اتصال دائم بالإدريسي ، يعمل على ابقاء النفور بينه وبين الأتراك ، ولا يدع الجو يصفو بينه وبين شريف مكة .

وكان السير ريجنالد ونجت، المندوب السامي في السودان، يحاول عن طريق علي الميرغني * « زعيم الختمية » ان يجتذب شريف مكة الى جانب الانكليز ، وان يقطع كل جسر يمكن أن يصل الأخير بالأتراك .

وكان كتشنر قبل وفاته ، منذ سنة ١٩١٣ يحاول إثارة النقمة في نفس الشريف حسين على إذلال الاتراك للعرب ، وحين أعلنت الحرب وكان كتشنر في لندن حينذاك فبقي هناك (كما أسلفنا) ، عهد بالمهمة

* كان هذا في خدمة الانكليز بفعل الذهب .

الى « ماكماهون » و « ستورز » .

وكان الفرنسيون على اتصال دائم بلبنان وسوريا يعملون جاهدين ، عن طريق « الامتيازات الاجنبية » التي يتمتعون بها في اراضي الدولة العثمانية ، على إثارة نفوس المثقفين العرب ضد دولة الخلافة .

كل هذه التدخلات ، خلقت ، مع غيرها من العوامل ، جوّاً مواتياً لأفكار الثورة على الاتراك ، ولم يبق الا تحديد ساعة المباشرة .

د – تصرفات جمال باشا في سوريا ، وخيانته

كان جمال باشا وزيراً للبحرية في الآستانة ، وكان من اعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، التي تدّعي العطف على الاماني العربية . وفي اوائل الحرب عُيّن والياً مطلق الصلاحية على ولاية سوريا بحدود التقسيمات الادارية العثمانية .

وكان المأمول أن يعمل جمال على اكتساب قلوب العرب لحاجة الدولة اليهم في الحرب . وقد حاول ذلك فعلاً أول الأمر . بيدَ انه أبى الا ان يعكّر الجو بين الطرفين . فبالاضافة الى المظالم الكثيرة التي كان العرب يشكونها من إدارة الدولة قبل الحرب ، جاء جمال بنفسيّة الطورانيّ الحقود ، فأعلن خضوع متصرفية لبنان للأحكام العسكرية ، وشنق القافلة الأولى من احرار العرب سنة ١٩١٤ دون ما يستوجب ذلك . وفرض على ولايته نظاماً تعسّفياً بحجة ظروف الحرب ، كما اخذ يكيد لعزل شريف مكة وقتله .

وبعد ان خسر حملته الأولى على قناة السويس في شباط (فبراير) سنة ١٩١٥ عَمَد الى اعتقال وشنق خيرة الشباب العرب في بيروت ودمشق والقدس وغزة والموصل في ايار (مايو) سنة ١٩١٦ . وكان قبل هذا قد أبعد الضباط العرب في الجيش التركي عن الولايات العربية ، وجلب مكانهم ضباطاً اتراكاً من أشرس ما ضمّ جيش السلطنة .



جمال باشا قائد الجيش الرابع في ولايـــة سوريا .. شنق أحرار العرب . وتآمر مع الانكليز لتدمير الدولة العثمانية.

لقد أعدم جمال أولئك المتنوّرين العرب بكل وحشية ، ورغمـــاً من توسط الشريف حسين وأبنـــائه اكثر من مرة ، في محادثات شفهية والتماسات تحريرية من الآستانة . وهنا تتكشّف خيانته ...

فحين نشر البلاشفة الروس سنة ١٩١٨ ما وجدوه في حوزة حكومتهم من وثائق سرية ، أعلنوا ان جمال باشا كان على اتصال بالحلفاء . وانه كان يعرض عليهم القيام بانقلاب ضد الدولة وتدمير حكومتها ، لقاء الاعتراف به ملكاً على العثمانيين . ولما كان جمال يعرف ان الساسة العرب

لن يقبلوا بذلك وانما يودون الاستقلال لبلادهم في تلك الحال ، فإنه ودّ ان يستبق الحوادث فأعدم من ظن انه يخشى على خطته من معارضتهم . هؤلاء هم شهداء سنة ١٩١٦ في بيروت ودمشق والقدس . وهؤلاء هم الذين أطلقوا الرصاصة الأولى في الثورة العربية من على اعواد مشانقهم ، ودون ان يكون بينهم حجازي واحد .

هذه العوامل مجتمعة ، مضافةً الى الأوضاع العامة في دولة بني عثمان التي كانت في دور الاحتضار ، هي التي دفعت العرب لأن يثوروا طالبين حقهم في ان يكون لهم مركز تحت الشمس .

* * *

والآن : ما هي مراحل الثورة ؟

لما كانت الحجاز هي نقطة الانطلاق المسلّح في الثورة ، فمن الواجب ان نوليها بعض الاهتمام المتزايد فيما يتعلق بمراحلها .

منذ سنة ١٩١٣ كانت الحيرة تداعب الامير عبد الله ، الابن الثاني للشريف حسين بصدد اعادة المجد العربي ، بعيداً عن تحكّم الاتراك . وفي الاسبوع الاول من شهر شباط (فبراير) سنة ١٩١٤ ، قابل الاميرُ اللورد كتشنر – وكان معتمداً بريطانياً في مصر – في القاهرة ، في طريقه (الامير) من مكة الى القسطنطينية . ولننقل الآن من « يقظة العرب » لجورج انطونيوس – ط ١ ، ١٩٦٢ (فرنكلين ودار العلم للملايين) ص ٢٠٦ ما يقول :

« اتصل الامير عبد الله بكتشنر متظاهراً * بأنه يرد زيارة مجاملة . وحضر اجتماعهما المستر (الآن السير) رونالد ستورز ، وكان آنئذ السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني . فسرد عبد الله لكتشنر تفصيلات عن العلاقات المتوترة بين السلطات التركية والشريف . وكان يعرف ان الاتحاديين

---

* اذن كان الأمير هو الذي ابتدأ الاتصال بالانكليز لا انهم اقنعوه بذلك .



التقسيمات الادارية لمنطقة نفوذ جمال باشا ، مضافاً اليها الحجاز
لاحظ انه لم يكن هنالك شيء اسمه فلسطين ولا شرق الاردن

قرروا ، سراً ، ان يعزلوا والده ، فأتاح لكتشنر ان يفهم من حديثه انه يحتمـــل نشوب ثورة في الحجاز اذا نفذ الاتراك عزمهم . وحاول بأسلوب حذرٍ ان يعرف من كتشنر موقف الحكومة البريطانية اذا ما نشب صراع سافر بين الاتراك والعرب . ومع ان كتشنر لم يتقيد معه بشيء في جوابه ، الا ان جوابه كان مثبّطاً . وقد ألقى جوابه على انه رأيه الشخصي قائلاً انه من غير المحتمل ان تتدخل بريطانيا ما دامت سياستها التقليدية هي الصداقة مع تركيا . ورجّح ، في الوقت نفسه ، ان لدى زائره من الحديث اكثر مما يمكنه ان يبوح به في مقابلة رسمية ، ولذلك أوعز الى ستورز ن يرد الزيارة لعبد الله بعد يومين وأن يتيح له فرصة الاعراب عما في نفسه اعراباً كاملاً .

وكان عبد الله في حديثه مع ستورز اكثر وضوحاً . اذ كان ستورز يعرف اللغة العربية بعض المعرفة ، وكانت له القدرة على التحدث في الموضوعات الصغيرة زمناً طويلاً ، وكان يشارك عبد الله في هواية واحدة على الأقل ، وهي الشغف بالشطرنج . فتصادق الرجلان فوراً ، وعلى هذا الأساس من الألفة — وهو أمر يندر حدوثه بين الانكليز والعرب . . شعر عبد الله بالطمأنينة والحرية وأفاض في الحديث عن الحجاز ، وأخبر زائره بأكثر مما أفضى به لكتشنر عن خطورة الحالة هناك . وحدّثه عن الاعدادات التي يتخذها والده لمواجهة ما لا مفرّ من حدوثه من قطيعة نهائية بينه وبين الاتراك . كما حدثه باسهاب عن اهداف الحركة العربيـــة وأماني قـــادتها وازدياد دواعي يأسهم . ثم سأله — بصراحة يتميز بها عبد الله — عن احتمال مساعدة كتشنر للشريف في الحصول على مدافع رشاشة . وكان جواب ستورز ، بطبيعة الحال ، مثبّطاً كجواب رئيسه ، فانتهى بذلك حديثهما .

وفي نهاية نيسان (ابريل) مر عبد الله بالقاهرة مرة أخرى ، ولم يقابل كتشنر ، ولكنه اجتمع اجتماعاً آخر بستورز ، أوضح فيه ستورز

اكثر من ذي قبل انه لا يمكن توقّع أي تشجيـــع من قبل الحكومة البريطانية ، ثم عاد عبد الله الى الحجاز . ومع ان هذه المحادثات لم تنته الى نتيجة عملية ، غير انها كانت ذات أثر فعّال في سير الحوادث . فقد نبهت كتشنر الى ما في العداء بين الأتراك والعرب من قوة وعمق ، والى ان رغبة العرب في الاستقلال رغبة صادقة . فحفزه كل ذلك الى ان يبدأ – بعد بضعة شهور – بالخطوة الأولى من سلسلة خطوات انتهت اخيراً باشتراك العرب في الحرب حلفاء لانجلترة على الاتراك . »

هذه هي المرحلة التمهيدية الاولى من مراحل الثورة . ثم عقبها سيل من المراسلات بين الشريف حسين ومكماهون ، (خَلَف كتشنر) . ومجمل هذه الرسائل (التي لا مجال لتفصيلها هنا) ان الشريف حسين يود من الحلفاء ان يساعدوه حين يعلن الثورة ، وأن « يضمنوا له المُلك على الولايات العربية ، التي كانت خاضعة للعثمانيين آنذاك » ، بعد نهاية الحرب . أما مكماهون ، فيراوغ في الاعتراف للشريف بـ « مَلِك العرب » ، ويجعل « حدود » الولايات المقترحة غامضةً جداً ، وقابلة لكل تفسير . وبخاصة فيما يتعلق « بالولايات التي الى غربي حلب ودمشق والتي لا يمكن القول انها عربية محضة » ، كما جاء في احدى رسائل مكماهون . ومن هنا نبعتْ مشكلة الانتداب ثم « وعد بلفور » .

وقد استمرت تلك المراسلات طوال سنة ١٩١٤ – ١٩١٥ والى ان بوشر بالثورة نفسها .

واذا كانت المرحلة الاولى قد تمت مع الانكليز في مصر ، فإن المرحلة الثانية قد نبعت ما بين مكة ودمشق .

* * *

وفي ١٥ كانون الثـــاني (يناير) سنة ١٩١٥ كان الأمير علي نجل شريف مكة خارجاً من مكة على رأس متطوعين من العرب للاشتراك مع والي الحجاز في حملة جمال باشا الأولى على قناة السويس (تمت الحملة

في شباط (فبراير) سنة ١٩١٥ . الا انه عثر بطريق الصدفة على حقيبة تضم الاوراق السرية الخاصة بالوالي التركي . وكان ضمن هذه الوثائق واحدة تتحدث عن ضرورة « نصب كمين سياسي للشريف حسين ثم عزله والتخلص جسدياً منه ومن انجاله ان امكن » . فهال الأمر الأمير علياً ، وقفل ، محتجاً بالمرض ، من المدينة المنـورة الى مكة . وهناك أطلع والده جلية الخبر . فبعث هذا ولده « فيصل » الى الآستانة ليعمل على استيضاح الحقيقة وعزل والي الحجاز ، وإبقاء « خيط معاوية » مع الاتراك .

وفي الآستانة كان فيصل حاسماً في مطالبه . فقد افهم الحكومة هناك ان العرب لن يقاتلوا مكرَهين ، ومع وجود عدم الثقـة هذه ،، وفي ظروف ادارية فاسدة للغاية من الولاة الاتراك . وكان جواب الآستانة ان طمّن أنور باشا ، وزيرُ الحربية ، خاطره ، وأمر بعزل والي الحجاز ، وكذّب الوثائق من أساسها في الظاهر ، لكنه رفض شفاعته في المعتقلين العرب آنذاك . (وهم شهداء ٦ أيار (مايو) سنة ١٩١٦) .

وزيادة في الخداع ، أوعز أنور باشا الى جمال باشا ، قائد الجيش الرابع في ولاية سوريا ، ان يستقبل فيصل بحفـاوة عند مرور الأخير بدمشق في طريقه الى مكة .

وهذا ما تم فعلاً حين وصل فيصل الى دمشق في أيلول (سبتمبر) من ذلك العام : غير ان الظروف كانت قد تغيرت آنذاك . فالحملة على قناة السويس قد فشلت ، وأمرُ الخليفة العثماني باعلان الجهاد لم يؤت النتائج المرجوّة في شبه جزيرة العرب ، وجمال باشا موقن ان الشريف حسين يراوغ في ارسال متطوعين للالتحاق بالقوات التركية في فلسطين .

كل هذه العوامل جعلت جمال باشا لا يطمئن الى فيصل وان كان هو الآخر ينوي مراوغته قبل التخلص منه .

وفي دمشق اتصل جماعة الأحرار العرب في منزل آل البكري . وعن

طريق الدكتور عبد الرحمن شهبندر بفيصل ، وكشفوا * له انهم يعملون لثورة تطرد الطغيان التركي من البلاد العربية ، لكنهم الآن في الحرب ، سيناصرون الاتراك ضد الحلفاء . اما اذا انهزم الاتراك ، وهـذا شبه مؤكد ، فإنهم سيؤلفون قوة عسكرية على شكل عصابات تمنع الاحتلال الأجنبي ، وتبقي حرية العرب للعرب .

ووافق فيصل على ذلك ، واستفسر عن امكانياتهم ، فكانت الاجابة



الأمير فيصل اتصل بـ « العربية الفتاة »
وأعلن مع « علي » الثورة في المدينة المنورة

« انها حسنة ، ونحن في غير حاجة الى ايما شيء من الحجاز ، وانما ننتظر انتظام التوقيت للشروع في العمل . »

بعد هذا ، انتهز فيصل فرصة غياب جمال باشا في بيروت — وكان

* وهكذا كانت الخطة مرسومة قبل الاتصال بشريف مكة، فمنظمو الخطة من الضباط السوريين هم اصحاب الفضل في الثورة .

قد وعده بأن يعود الى دمشق ومعه ١٥٠٠ جندي من الاعراب حين يتم تدريبهم وتجهيزهم – وسافر الى الحجاز . وهناك تداول الأمر مع والده وشقيقه عبد الله في الطائف ، واستقر الرأي على ضرورة «انضمام» الشريف حسين الى الثوار العرب في سوريا .

وفي كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٦ عاد فيصل الى دمشق زيادة في الايهام لجمال باشا ، وبغية التفاهم على الاستعدادات الأخيرة للثورة مع رجالات العرب في دمشق . ولم يمضِ الا شهر واحد حتى قدم انور باشا بنفسه الى دمشق ، وطلب من شريف مكة الشخوص اليه لمقابلته فيها . لكن هذا اكتفى بالاعتذار * وبهدية مناسبة ، كما بعث له شروطاً يطلب التعهد بها لقاء المؤازرة له في الحرب . وأهم هذه الشروط :

١ – العفو العام عن شهداء ٦ ايار (مايو) سنة ١٩١٦ ، الذين كانوا قيد الاعتقال والمحاكمة بعد .

٢ – جعل سوريا ولاية تابعة لنظام اللامركزية .

٣ – الاعتراف بالشريف حسين اميراً على الحجاز يتوارث ابناؤه إمارته .

وبلّغت الشروط الى انور ، فاستشاط غضباً على « تابع » يتجرأ ان يفرض على «الدولة العليّة» شروطاً .. وفي أحرج الظروف ، ومع ثارة الشكوك في التهديد بالانتفاض منحازاً الى جانب العدو .

لهذا رفض انور وساطة الشريف في قضية المعتقلين ، واعتبر «لامركزية اسوريا» تجاوزاً من الشريف لحدوده ، وشدد الطلب في ضرورة ارسال المتطوعين العرب .

---

* اعتذر بالمرض وكبر السن .

واذا كان هذا قد ارضى أنور ، فإنه والحال هذه ، لم يرضِ جمال باشا .. انه الآن شدد في مراقبة فيصل في دمشق ، بل احتجزه في ضيافة إجبارية . ورسم خطةً يبعث بها جيوشاً تركية الى الحجاز بحجة امداد القوات المحاربة في اليمن . وجعل ينشر الشائعات عن ان متطوعي العرب قادمون في الطريق ، من باب التضليل .

والآن صار موقف الشريف (صار ملكاً في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٦) حرجاً للغاية . فابنه فيصل رهينة في دمشق ، والوالي التركي الجديد يتقدم الى الحجاز برفقة قوة عسكرية ضخمة ، والانكليز لا يزالون يراوغون في التعهد بالمساعدة والاعتراف بالحدود التي يعرضها عليهم ، فماذا يفعل ؟

لقد سيّر ولده علياً الى المدينة مع بعض المتطوعين العرب ، ذراً للرماد في العيون . ومن هناك طلب الى رؤساء الجند ان يبرقوا الى جمال باشا راجين إرسال فيصل من دمشق ليتولى قيادتهم . كما بعث هو الى جمال وانور بضرورة عودة فيصل ايضاً .

وانطلت الحيلة ، وعاد فيصل الى الحجاز بإذن جمال . وكان ذلك بعد اعدام مَن جاء للتوسط بشأنهم في عاليه (شهداء ٦ ايار (مايو) سنة ١٩١٦) ، وعلى نية العودة على رأس « المجاهدين » المتمركزين في المدينة المنورة .

وفي ١٥ جزيران (يونيه) ليلاً سنة ١٩١٦ ، اعلن الشريف حسين الثورة العربية على الاتراك ، والى جانب بريطانيا وحلفائها .

هل بدأت الثورة !

ها هي القوة التركية بقيادة « خيري بك » تصل المدينة المنورة ، وها هو الامير علي يتلقى من والده أمراً بضرورة منع تقدمها الى مكة

مهما كانت النتيجة . وها هو فيصل قد عاد من دمشق .. اذن ، لماذا تؤجّل الثورة ؟

على هذا الاساس تشاور فيصل وعليّ وابلغا والدهما ان يكرر طلبه بقيام قوات الحلفاء بمظاهرة حربية على الساحل السوري .

ولنقتبس وصف الحادث من جورج انطونيوس ، نقلاً عن جريدة حجازية :

(وعند شروق الشمس في اليوم الخامس من حزيران (يونيو) ركب الأخوان الى قبر حمزة * حيث احتشد ١٥٠٠ جندي في معسكرهم وهم الذين جنّدهم الشريف ، وأعلنا ، باسم الشريف حسين امير مكة ، استقلال العرب عن الحكم التركي . ثم انطلقا يعدو بهما فرساهما ومن خلفهما اولئك المجندون وانضموا الى رجال البدو في المكان المتفق عليه الى الجنوب الشرقي من المدينة .

لقد بدأت الثورة العربية .

اما في مكة فقد حُدد يوم السبت التالي العاشر من حزيران (يونيو) موعداً للثورة . ولم يكن يحتل البلد حينئذ سوى جزء من حاميتها العادية يبلغ نحواً من ١,٤٠٠ جندي ، اذ ان الوالي ومعظم الجنود كانوا قد انتقلوا ، في بداية فصل الحر الى الطائف مصيف الحجاز . واطلق الشريف اشارة الهجوم في الفجر ، فتعرضت الثكنات ومراكز الحامية التركية في وقت واحد للهجوم باطلاق نيران البنادق ، اذ لم يكن لدى القوات العربية أية مدفعية .

واحتدم القتال العنيف ثلاثة ايام الى ان استسلمت المواقع التركية الصغيرة ، اما الثكنات الرئيسية وقلعة « جياد » فقد استمرت مقاومتها ثلاثة اسابيع اخرى لأنها كانت مجهزة بمدفعية ثقيلة . وفي تلك الاثناء

---

* عم الرسول وشهيد أُحد .

ارسل السير ريجنالد ونجت سريتي مدفعية من سرايا الجيش المصري في السودان ، فأخذ منها مدفعان الى مكة وكان لها الأثر الحاسم في اضطرار باقي القوات التركية الى التسليم .

وأوفى وصف لسقوط مكة استطعت العثور عليه هو الوصف المنشور في جريدة « القبلة » * التي ظهرت في مكة بعد ذلك بقليل ، في اعدادها الصادرة من ١٥ الى ١٨ شوال سنة ١٣٣٤ هـ (من ١٥ الى ١٧ آب – اغسطس – ١٩١٦) .

« في الساعة التاسعة والدقيقة ١٢ قبيل الصبح من ليلة السبت الموافق ٩ شعبان ابتدأ اطلاق النار بشدة على الثكنات العسكرية في مكة المكرمة ** (والحميدية) دار الحكومة . وحوصرت الجنود التركية في حصونها وشرعت قلعة (جياد) المرتفعة فوق جبل منيع هنالك مشرف على كافة احياء مكة ومنازلها تطلق القنابل المتوالية على مكامن العربان ومتاريسهم ، وعامة المنازل ، خصوصاً دار الامارة الجليلة التي اتخذوها هدفاً لأكثر مقذوفاتهم . وهكذا بقي الفريقان يتبادلان الرصاص والقلعة تقذف بالقنابل حتى الساعة الثالثة صباحاً ، فخابر رؤساء الجند « بثكنة جرول » دار الامارة الجليلة « تلفونياً » يطلبون توقيف القتال وارسال سيادة القائمقام للمفاهمة عن اسباب الحادثة والمذاكرة في حسمها لصيانة الأرواح والدماء فأجيب طلبهم وأُرسل القائمقام اليهم ، فصرح لهم بأن البلاد قد جاهرت بطلب استقلالها وان المشكلة لا تنحسم الا بخروجهم من الثكنات وتسليمهم كافة الاسلحة لقائد العربان ، فلم يذعنوا لقوله واصروا على المقاومة والدفاع بكل ما في المستطاع . وامروا قائد القلعة بتشديد قذف القنابل على الأمة . فخرج سيادته وبلّغ جلالة الشريف جوابهم فأمر بإعادة القتال فكان اشد هولاً مما كان قبل المفاوضة، واستمر الى ان دخل الليل

---

* كانت الجريدة خاضعة للشريف .. فهي تعبر عن وجهة النظر الرسمية .

** وهكذا قام القتال في المدينة المقدسة .. بأمر الشريف حسين !

فخفّت وطئته . وبلغ ما اطلق من القنابل في ذلك اليوم مائتين وثلاثين قنبلة وما اطلق في كل ايام مدافعتها ما يربو على ألفي قنبلة ولكنها بحمد الله تعالى لم تهدم بيتاً واحداً . وقدّرت خسارة الترك في هذه الواقعة بمائة وخمسين بين قتيل وجريح ، ولم يخسر العربان فيها سوى ثمانية بين قتيل وجريح .

وفي صبح يوم الأحد بعد طلوع الفجر استؤنف القتال وعاد اطلاق النار حول كافة مراكز الجند بالرصاص والقنابل . وفي الساعة الخامسة قبل الظهر من ذلك اليوم هاجمت جيوش الشريف مركز « باش قرقول» الكائن حول «الصفا» واستولوا عليه قسراً واسروا حاميته .

اصبح القتال في يوم الاثنين كما كان في اليومين الماضيين الا انه اشتد وعظم امره حول « الحميدية » دار الحكومة التي كان وكيل الوالي (وهو ضابط عسكري) متحصناً بها ، لان حاميتها كانت تواصل اطلاق الرصاص بشدة من غير تعقل ولا تدبر على كل من يظهر لعينها من ابرياء المارة ، حتى الضعفاء والعجزة والنساء والاطفال والمصلين بالمسجد الحرام . فحملت فصيلة من جنود الشريف عليها حملة شعواء حتى اسقطتها قهراً ، وأرغمت حاميتها على التسليم . ثم سيقت مع وكيل الوالي ومن كان في معيته من الضباط بغاية الاعزاز والاحترام الى دار الامارة ، وانزلوا في غرفة الاسرى التي رأوا فيها من طيب المجاملة وحسن المعاملة واكرام المثوى أحسن ما يراه اسرى الحرب في البلاد المتمدنة ، بالرغم مما ارتكبوه من الفظائع المخجلة اثناء قيامهم بالمدافعة ، كقتل الابرياء وازهاق نفوس الاطفال والنساء . ولما وصل وكيل الوالي الى دار الامارة مع الاسرى وفهم حقيقة النهضة واسبابها ومقاصدها كتب بخطه كتابين : احدهما الى الثكنة الكبرى والآخر الى القلعة ، يخبرهما بما كان من مصيره ومصير حاميته وينصح بالتسليم ، فلم تجد كتابته هذه نفعاً ، لأن الثكنة جنحت الى التسويف والمماطلة . والقلعة

علقت مصير امرها على مصير الثكنة وطفقت تشدد اطلاق الرصاص والقنابل على الاحياء والمنازل والمسجد الحرام حتى تعطلت العبادة فيه تماماً ، وتعذر على الطائفين والعاكفين والمصلين دخول المسجد والقرب من البيت العتيق ، لانها كانت تتصيدهم فيه عمداً . ولم تقف جرأة حاميتها عند هذا الحد حتى تجرأت على رمي الكعبة المشرفة « زادها الله اجلالاً ومهابة » بقنبلتين . وعززوهما بثالثة في مقام الخليل ابراهيم ، فهرع الالوف من المسلمين تحت وابل الرصاص وشظايا القنابل المتفجرة لاطفاء النار التي اضطرمت بأستار الكعبة المشرفة معرضين بأرواحهم العزيزة لمخاطر الموت الذي كان ماثلاً امامهم . وهكذا بقيت الحال على هذا المنوال في الثكنة والقلعة اياماً عديدة لان العربان لم يستطيعوا مهاجمة جنود الاتراك وهم في منعة حصونهم – لعدم وجود السبيل اليهم – وجنود الاتراك لا يجرأون على الخروج عن حصونهم بقدر شبر واحد . حتى وصلت المدافع الوطنية * برجالها من جدة وأخذت تقذف بالقنابل على القلعة فحطمت جانباً منها اتخذه جنود الشريف سبيلاً اليها فهاجموها بحماسة شديدة بين طلقات الرصاص . وفتحت مقذوفات القنابل واستولوا عليها قهراً بعد قتل ضابطين وجندي من الاتراك . ولم يصب احد من المهاجمين بأذى في هذه الواقعة المهمة ، ما عدا واحداً منهم جرح في فخذه جرحاً خفيفاً .

سقطت (قلعة جياد) في ضحوة يوم الثلاثاء الموافق ٤ رمضان على الكيفية التي سبق توضيحها ، واستولى جنود الشريف على مدفعين كبيرين وثلاثة مدافع صغار ونحو ثمانية آلاف بندقية مختلفة الانواع من الطراز القديم والحديث ، وعلى كمية وافرة جداً من البارود والرصاص وقنابل المدافع .. وذلك بعد ثباتها في المدافعة خمسة وعشرين يوماً ارتكبت حاميتها في خلالها من فظائع قتل الابرياء ومحاربة المسجد الحرام ومطاردة اهله عنه ، ورمي البيت العتيق بمقذوفات النار واحراق المنازل بالقنابل

* يقصد المدافع الانكليزية .

المتفجرة ، وتصيد الناس في الشوارع وحول الكعبة بالرصاص ، ما تسودّ به وجوههم في الغد يوم يحاسبون عليه . فعم لسقوطها البشر والفرح بين عموم الناس وتلألأت وجوههم سروراً لسلامتهم من شرورها ونجاتهم من اخطارها ، لانها كانت هي العلة الوحيدة في وقوف حركة بعض ارباب الاشغال وذوي المصالح العامة المرتزقة وسلب راحة السكان التي حولها والحوانيت التي في حيها . اما دولاب الحركة العمومية في البلاد فما زال ولله الحمد بعد وقوع الحادثة على ما كان عليه قبلها ، إذ لا فوضوية تقطع الناس عن اعمالهم ، ولا اضطراب يُكره القوم على مزايلة اشغالهم وترك اسباب معايشهم من ابتداء الحادثة في مكة المكرمة الى انتهائها . »

« وبعد فراغ رجال المدفعية من مهمة اسقاط القلعة واسكات مدافعها توجهوا الى (ثكنة جرول) وانضموا الى الجيوش المحاصِرة هناك واحاطوا بها من كل جهاتها وطفقوا يطلقون قنابل التحطيم لفتح طرق المهاجَمة . وكانت الحامية التركية فيها تخادع جنود الشريف برفع العلم الأبيض وطلب مفاوضة القائد كلما حمي عليهم الوطيس واشتدت بهم وطئة النار الحامية لتتمكن من الاستراحة في خلالها . ولتحتاط في تلك البرهة بما تراه ضرورياً لثباتها في داخل الثكنة المنيعة ، حتى اذا تم لهم ما يريدون بدأوا باطلاق النار واستأنفوا القتال . وهكذا ظلوا يماطلون ويخادعون (وما يخدعون الا انفسهم وما يشعرون) وقواد العرب يحاربونهم ولا يعبأون بهم ولا يكترثون بخداعهم . كان جلالة الشريف يوصي جيوشه جماعات وفرادى بعدم التسرع في امورهم وخصوصاً في شأن الهجوم الذي يعرضون به ارواحهم للتلف غير مضطرين اليه ، لأن من اهم مبادئه الحرص الشديد على الأرواح والدماء ، مع العناية بمن يقع في ايديهم من الاسرى وملاطفتهم ومجاراة الضباط الطائشين قدر المستطاع . وعلى هذا المنوال بقي العرب يحتملون اذى تسويفهم ومماطلتهم وتلاعبهم حتى تحطمت النوافذ وتفتحت السبل ولم يجدوا لهم مناصاً من مهاجمتهم

بالسلاح الأبيض الفتاك . وهموا بهم لولا لطف الله بهم فرجعوا في تلك الساعة الرهيبة الى رشدهم وآبوا الى صوابهم ورضخوا الى التسليم من غير قيد ولا شرط . ونادوا بذلك ورفعوا علم السلام فأجيبوا الى ذلك وما كنا نظن ان في الامكان اجابتهم الى طلبهم حينئذ ، وقد فات الوقت، واشتد حنق القبائل وأخذوا يمزجون بعضهم في بعض تحفزاً للهجوم . ولكن سرعة وصول الأمر الى القبائل بالسكون ، وتذكّرهم لما كان يوصيهم به جلالة الشريف لمثل هذه المواقف هو الذي اخمد ثائرتهم وخفف من غلوائهم في ذلك المأزق الحرج . فتوقف القتال تماماً وخرج فريق من الضباط وهم يحملون علماً أبيض الى وسط المعسكر العربي لمقابلة القائد ومفاوضته في شأن التسليم وكيفيته . فقابلهم بما يليق بهم واكرم مثواهم بما جعلهم يعجبون بآداب العرب ومكارم اخلاقهم . ثم رجعوا الى الثكنة ومعهم عدد من عظماء الاشراف وشرعوا يسلمون اليهم الأسلحة والذخائر والمهمات وما كان بالثكنة عدا ما هو خاص بأشخاص الضباط والجنود من النقود والأمتعة (حتى خيولهم الخاصة) كما صدر بذلك الامر . وعلى هذه الكيفية جرى تسليم الثكنة لجيوش الشريف في مساء الأحد الموافق ٩ رمضان بعد دخول الليل . وقدر ما خسره الاتراك في مدة محاصرتهم بالثكنة وراء متاريسهم فيها — من رصاص العرب الذين أثبتوا تفوقهم العظيم في اتقان فن الرماية — بواحد وعشرين قتيلاً وستة وسبعين جريحاً ، غير خسارتهم الاولى في بداية الحادثة . ثم سيق الباقون منهم الى الاماكن المعدة لهم بـ « الشهداء » وفي بعض المنازل بداخل البلدة وعددهم ثلاثون ضابطاً والف ومائة وعشرون جندياً . اما الغنائم من انواع الاسلحة والادوات اللازمة للجيش فكثيرة . وبسقوط الثكنة قضي على الجيش التركي في مكة واستولت جنود الشريف على كافة مراكز الجند والمخافر ودار الحكومة وكل ما لها من المباني والمؤسسات فيها » .

وهوجمت جدة في اليوم الذي نشبت فيه الثورة في مكة ، ولكن الهجوم عليها كان من الخارج . فقد حاولت جماعة مؤلفة من ٣,٥٠٠ بدوي ينتمون الى قبائل بني حرب الكبيرة بقيـــادة الشريف محسن ان يقتحموا البلدة عنوة . ولم تكن لديهم مدفعية كذلك ، فكان موقفهم غير متكافىء مع موقف الحامية التركية المؤلفة من ١,٥٠٠ من المحاربين الاشداء المتفوقين عليهم في الاسلحة ، فكان لا سبيل امامهم الا ان يقنعوا بفرض الحصار . واشترك في هذا الحصار الفاروقي وكان قد اوفد من القاهرة . وقصفت السفن الحربية البريطانية بقذائفها مواقع الاتراك الخارجية وألقت الطائرات البحرية قنابلها خارج اسوار البلدة . وبعد ذلك ببضعة ايام جاءت انباء من القائد التركي في مكة انه لن يستطيع ارسال امدادات الى الحامية ، فاستسلمت يوم ١٦ حزيران (يونيو) ١٩١٦ .

وفي تلك الاثناء توجهت قوة الامير عبد الله الى الطائف وحاصرتها، واتجهت قوة اخرى شمالاً واستطاعت ان تستولي على رابغ ، وينبع . وتم الاستيلاء على « قنفدة » بمساعدة الاسطول البريطاني . واستغرق حصار الطائف وقتاً طويلاً . اذ ان عبد الله — بالرغم من وجود المدفعيـــة المصرية معه — لم يكن يريد ان يهاجم تلك المدينة ليستولي عليها عنوة، فقد كان واثقاً من ان النتيجة ليست موضع شك ، فرأى ان يتريث — وكان في ذلك حكيماً — ورفض جميع ما عرضه الاتراك لعقد هدنة ، حتى استسلمت الحامية تسليماً غير مشروط في اليوم الحادي والغشرين من شهر ايلول (سبتمبر) ، وكانت الجائزة الكبرى لهذا النصر استسلام والي الحجاز غالب باشا مع رجال الحامية .

وبذلك وطدت الثورة نفسها ، ووقع في حوزتها ستة آلاف اسير ، وغنمت كثيراً من المواد الحربية ، واصبحت المدن الرئيسية في الحجاز في يد الشريف ما عدا المدينة المنورة) .

الثورة والمشاعر في اوروبا المتحاربة :

كان الانكليز على اتصـــال وثيق بالشريف حسين ، فهم على علم بالثورة منذ خطواتهـــا الاولى . وطبيعي انهم رحبوا بذلك لاغراضهم الخاصة . فهم اولاً : أبقوا قضية التعهد باستقلال الولايات العربية تحت زعامة الشريف حسين امرا غامضاً يستطيعون تفسيره كيفما شاؤوا . وهم ثانياً ، حطّوا من هيبة الخلافة الاسلامية في نظر العرب والهنود . وبذلك ظنوا انهم سيحصلون على حجة منطقية للهنود المسلمين الذين يحاربون خليفة الاسلام (مع ان الهنود سخطوا على الشريف حسين انه تجرأ على الخلافة الاسلامية فعقرها) .

وهم . ثالثاً ، استطاعوا بـ (٢,٤٧٥٠٠٠) جنيه ذهباً يدفعونهـا كإعانة للشريف حسين ، ان يطمئنوا الى اشغـال الاتراك عن احتمال اعادة الكرة على قناة السويس ، او خلق « كوت العمارة » ثانية في العراق . كما ضمنوا قطع الاتصال بين القوات التركية في شمال الحجاز وسوريا وفلسطين وبين القوات التركية الاخرى في عسير واليمن .

لقد نظروا من وجهة اقتصادية وعسكرية معاً ، فالإعانة التي يمنحونها الى متزعّم الثورة وجنوده لهي أقل بكثير من نفقات الحملات التي تغدوضرورية فيما لو لم تقم تلك الثورة . اما كل تعهداتهم ونواياهم تجـــاه حليفهم العربي الاخير ، فقد كانوا يعرفون مقدماً انها اتفاقيات بين قوي منتصر وضعيف شارك جزئياً في الانتصـار . وهذا ما تم بالفعل بعد نهـــاية الحرب .

وما نقوله عن الانكليز ينطبق بطبيعة الحال على الفرنسيين ، وان كان في مدى أضيق نسبياً ، وبدون مشاركة فعلية من طرفهم .

الثورة والمشاعر في الآستانة

وكان وقع الثوره على جمال باشا والآستانة مفزعاً.لقد اخفت الصحافة الخبر

اول الامر ، ثمّ أُوعز الى الحقيقة بعد شهرين . ولكن ، بصورة تستثير الاستخفاف والقرف . فقد قيل : « ان عاصياً دنيئاً تمرد على الدولة في الحجاز ، فتولى القائد العسكري امر تأديبه . وها هو ولده علي ، يهرب من جدة ويلتجىء الى باخرة انكليزية في البحر الاحمر . وهذا جزاء حليف الكفّار ضد سدّة خليفة الأمة الاسلامية » .

لكن الحقائق لا تلبث ان تتكشّف . فسقوط مكة في يد الثائرين ما لبث ان صار واقعاً راهناً لدى القادة الاتراك . ولهذا اشير الى الحادث من جديد ، ولكن بلهجة التهديد والوعيد هذه المرة .

اما جمال باشا ، القائد التركي القريب من المنطقة . فقد سلك سبيل البطش تجاه المتنفّذين العرب . لقد اخذ يعتقل ويحاكم ويعذّب بصورة وحشية أين منها اجراءات محاكم التفتيش عند الكاثوليك في اسبانيا . وقد صادر المؤن في البلاد ونشر الجوع . حتّى غدت البلاد على وشك ان يفنى سكانها جوعاً .

وزاد الطينَ بلّة ان العام السابق كان ماحلاً لندرة سقوط الأمطار وزحف ارهاط الجراد القادمة من الصحراء على زروع سوريا وفلسطين. فتضافر كل ذلك على رسم صورة « سفر برلك » في اذهان الناس عن تلك الايام ، وجعل تلك الصورة وخطوطها المآسي والنكبات . وأكل لحوم الحمير بله الكلاب ، ان لم نقُل . جثث بعض الموتى من البشر، كما حدث في «جونية» من لبنان .

الثورة والمشاعر في برلين

اما وقع النبأ عند الالمان ، فقد كان مذهلاً حقاً . كان هؤلاء بعد صمودهم المنتصر في الجبهات الغربية ، يودون مساعدة حليفتهم تركيا أملاً في قصم ظهر التجارة والامدادات البريطانية القادمة من الهند ، وفي



الجوع .. والموت
شبح مرعب ينشر رداءه في ربوع الولايات العربية

اثارة شرق افريقيا ، والهند (اذا قدروا) على سلطنات الاستعمار البريطاني .

غير انهم الآن ، غدوا هم الخاسرين . فالبعثة الالمانية التي كان مقرراً ان تنشىء محطة لاسلكية في الحجاز للاتصال بأعوان الالمان في مستعمراتهم بشرق افريقيا ، قد اضطرت الى الرجوع . هذا كما ان جبهة جديدة (هي جبهة الثورة) قد فُتحت الآن على حليفتهم وحرمت قوات تلك الحليفة من مزية التركيز .. اذ انها غدت مضطرة الى التشتت وانقطاع الاتصال .

الثورة والمشاعر عند العرب

١ - سوريا وفسطين

ويبقي ان ندرس استجابة العرب انفسهم للثورة .

في ولاية سوريا ، كانت العواطف ملتهبة ضد الاتراك ومساوئهم ، ولكن الحكم التعسفي الرهيب الذي نشره جمال باشا جعل ذلك التجاوب يكاد يضمحل أثره . نعم ، كان المثقفون * يودون لو استطاعوا دفع جماهير الشعب لمساندة تلك الثورة ، ولكن الشعب بكامله كان منشغلاً بالتفتيش عن لقمة العيش ، والنجاة من زنزانات جمال .

هذا الى ان طول حكم العثمانيين لهذه المنطقة ، ومقدار الجهل المخيم على اهلها ، وانعزال الحجاز الطبيعي عن اهلها (بحكم تغاير البيئة) — كل ذلك جعل الشاميين ينظرون الى القائمين بالثورة نظرة لا مبالاة اول الأمر .. كانوا لا يصدقون ان الثورة قد تنتصر .

---

* هؤلاء هم زعماء الثورة الحقيقيون .

ب – مصر

اما في مصر ، فقد غلبت العاطفة الدينية على الشعب فيها . نعم ، لقد قام فيها من بارك الثورة وأيّدهـا في الصحف ، وبتشجيع من الانكليز ، لكن الناس العاديين ظلوا ينظرون الى الثورة في وجه «خليفة المسلمين » كمروق من حظيرة الدين ، وتفضيل للحليف غير المسلم على الحاكم المسلم، لقد اعتبروا الثورة نوعاً من الصفقة التي جرى تسديد ثمنها بالبنادق والجنيهات والوعود بعرش متوارَث وصديق للانكليز .

لكن للمصريين آنذاك بعض العذر في هذه النظرة المشوّهـة . فقد ظلّت تركيا اولاً ، ثم اسرة محمد علي ، ثم الانكليز يعملون جهدهم على إبعاد اي فكرة تسمح بنشر تعاطف المصريين مع اخوانهم في ديار الشام وشبه الجزيرة العربية . اضف الى ذلك ، النفورّ الذي ولّدتـه حملات محمد علي ضد الوهابيين ، عند المصريين وعرب الجزيرة على السواء .

حـ – العراق

اما في العراق،فقد كان مركز الاتراك اقوى من ان يسمح بتجاوب المناطق الخاضعة لهم مع الثورة . كما ان حكومة الهند ، التي كانت تعدّ مشاريع استعمارية للعراق بشكل خاص ، لم تودّ ان يستشعر العرب في منطقة نفوذها المحتمَلة اي نزعة لوحدة العرب . وكانت تعلم ان تأييد العرب للثورة ، حيثما تم ، معناه نوع من التجمع العربي تحت زعامة موحدة ، ولهدف واحد هو الاستقلال . كما كانت ترى انه . اذا كان من الممكن ازاحة تلك الزعامة الواحدة من الطريق . بطرد الشريف حسين او الايعاز الى لندن بقطع الاعانة الممنوحة له فيُفلِس . فإنه يستحيل ازاحة الهدف الواحد من اذهان العرب فيما لو تم تعيين ذلك الهدف .

لهذا نجدها لا تشجّع على استقبال الثورة بروح الاستبشار والمساندة .

د ـ الجزيرة العربية

ويبقى معنا داخلُ الجزيرة . اما ابن سعود فقد أيّد الثورة ، بحكم صداقته لحكومة الهند ومرتّبه منها على صورة إعانة ، وبحكم كرهه لحليف تركيا عدوه ابن رشيد ، ودفعاً لاصطدامٍ كان يقدّر انه سيقع بينه وبين شريف مكة . وكان هذا الأخير لا يخفي طموحه في لقب « ملك العرب. » ، بينا يخشى ابن سعود هذه الدعوى .

واما الادريسي ، فقد اصبح مغلوباً على امره ، فآثر السير مع الشريف حسين في ثورته .

واما الامام يحي ، فكان همه ان يُبعد الآخرين عن بلده . لذلك نجده أيّد الثورة لأنها تمنع الاتراك من ارسال امدادات الى جيوشهم في اليمن .

* * *

ولنعد الآن الى مجرى الثورة .

بعد سقوط مكة ثم جدة ، حاول الاتراك تعزيز قوتهم الكبيرة نسبياً في « المدينة » ، وكانت هذه القوة حسنة التسليح ، ومعظم رجالها من المغاربة الذين اشتهروا بالبسالة في الحرب . فهاجمها فيصل وعلي وعبدالله ابناء الملك حسين .. لكن القوة التركية صدّتهم وصمدت فيها . وهنا برز دور الامير عبدالله ، فقد هاجم اطراف « المدينة » بجرأة اذهلت القيادة التركية . كما ان الامير فيصل وجّه قواته الى ميناء « الوجه » على البحر الاحمر ليمنع اتصال القوات التركية هناك ، وعددها (١٠٠٠) رجل ، بقوات المدينة . وقد ساعد الانكليزُ في هذا الهجوم ، واحتل العرب بمساعدة « لورنس » تلك المدينة وأسروا ثلثي حاميتها .

بهذا تأمّن الملك حسين ضد اي هجوم يقوم به الاتراك على مكة .

كان هذا في اواخر سنة ١٩١٦ . وقد ظل الموقف اقرب الى عدم الحسم طوال سنة ١٩١٧ ، اذ كان الامير فيصل منشغلاً بجمع كلمة القبائل العربية ، وفضّ منازعاتهم ، واستلال الاحقاد القبلية السابقة من نفوسهم .

والحق ان فيصل كان مثالاً في الاخلاص لخدمة الامة العربية بعمله هذا ، اذ قام بهذا العمل الجليل دون مطمع شخصي او مداهنة مبطّنة يرمي من ورائها الى الزعامة .. لقد كان نبيلاً .

العقبة

ولسنا هنا نود أن نُغفل ذكر رجل بدوي لا يقلّ فضله على الثورة



لورانس — الكولونيل الذي فعل « حبه للاستطلاع » الاعاجيب

العربية عن فضل فيصل . انه شيخ الحويطات ، عوده ابو تايه . ذلك ان « عوده » — كان رجلاً من بسطاء الناس لا مطمع له في جاه او في منصب ، وانما هو يخدم امته لمجرد انه فرد من تلك الأمة ، فهو يقوم بواجبه !

لقد اجتمع الشيخ عوده الى الامير فيصل في «الوجه» وهناك عرض عليه ان يقوم برجال قبيلته المسلحين بمهاجمة العقبة واحتلالها . وبعد موافقة فيصل ، جمع عوده ٥٠٠ من قبيلته في « باير » حيث لحق به الشريف ناصر ولورنس ؛ وفي ٣٠ حزيران (يونيو) اتجهت هذه القوة نحو الجنوب مارة بـ « الجفر » ، ثم توجهت نحو الغرب فاجتازت سكة حديد الحجاز ، وتوقفت مدة تكفي لنسف بضعة جسور ، وتخريب كيلومتر واحد من الخط . وفي الثاني من تموز (يوليو) هاجمت القوة التركية التي تحمي مركز « ابو الأثل » على الطريق الممتد بين معان والعقبة . فهزمت الاورطة ، وعددها ٦٠٠ تركي ، وقتلت منهم ٣٠٠ ، بينما خسر عوده رجلين لا غير .

وعندئذ بقي ٤ مراكز تركية حتى العقبة ، فاحتلها عوده في ٤ ايام، حتى غدا مجموع اسراه ٧٠٠ رجل وعدد الاتراك الذين قُتلوا ٦٠٠ رجل . ومن ثم تقدم عوده بعربانه فاحتل العقبة . وبهذا انتقل ميدان الحرب من الحجاز الى فلسطين وسوريا .

العقبة والمانيا

كانت القيادة الالمانية قد ارسلت فولكنهاين ، القائد العام السابق المعروف ، على رأس بعثة عسكرية رفيعة الرتب الى الآستانة ، لتتولى قيادة العمليات الحربية في الولايات العثمانية العربية . وكان فولكنهاين هو الذي عمل على قهر الانكليز في الهجومين اللذين شنّوهما على غزة . لكن

سقوط العقبة المفاجيء أقامه وأقعده . لقد غدا يود إحباط التحالف الانكليزي الحجازي بكل ما أوتي من قوة . وتطلّع الى سياسة جمال باشا في منطقته ، فوجدها خاطئة . لذلك ضغط على الآستانة ان تُصدر عفواً غير مشروط عن جميع العرب الذين حملوا السلاح ضد الدولة العثمانية ، على شرط ان يكفّوا عن نشاطهم المعـادي . كما جعل الطائرات الالمانية تُسقط المناشير بذلك الاعلان في جميع المناطق العربية . وكان يأمل من ذلك ان يجرد الحلفاءَ (الانكليز) من حليف جديد . لكن كُره العرب للأتراك ، وحكمة فيصل ، والدهاء الانكليزي عملت على خيبـة هذا القائد . لقد كثر الآن فرار العرب من الجيش التركي ، وصار البدو ينقلبون على الأتراك اثناء المعركة . هكذا حدث في بئر السبع من فلسطين مثلاً .

الانكليز والعقبة

في حزيران سنة ١٩١٧ تسلّم اللنبي قيادة حملة فلسطين ، فقرر ان يستفيد من سقوط العقبة . وبعد ان درس خطة محكمة للهجوم على خط « غزة – بئر السبع » التركي ، طلب امدادات كبيرة من حكومته . فلبّته القيادة على الفور . وفي ٢٧ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٧ بدأ هجوم الانكليز على غزة بقصف مركز من المدفعية البحرية . ثم تقدم الجيش البري ، وكان عدده (١٠) آلاف يقاومهم (٨) آلاف من الأتراك المنهـكين . وعند ذاك رأى القائد الألماني « فون كرس » ضرورة الانسحاب ، مقرراً انه من الحكمة ان ينقل خط الدفاع الى «يافا–القدس» . وهكذا سقطت غزة . لكن الانكليز حين دخلوها وجدوا المدينة مقفرة من الناس ، وليس فيها أي شيء يمكنهم ان يستفيدوا منه . وكان هذا العمل انجازاً عبقرياً يندر الحصول عليه في التاريخ العسكري . لقد كان انسحاب القائد الألماني أعجوبة في التكتيك والاستراتيجية .

وعند ذاك طلب اللنبي ان يزوره الأمير فيصل ، ففعل ، وتم الاتفاق

بينهما على ضروره قيام القوات العربية بنشاطات في فلسطين وشرقي الأردن وسوريا على أن تطمئن الى مساعدة اللنبي لحركاتها .

أما هدف اللنبي من ذلك فهو تسهيل حملته على القدس . وأما خطة فيصل في العمل ، فهي تدمير خط الحجاز الحديدي لمنـــع الأتراك من تعزيز قوات المدينة أو التفكير في مهاجمة القوات العربية في المواقع الجديدة .

اللنبي والقدس

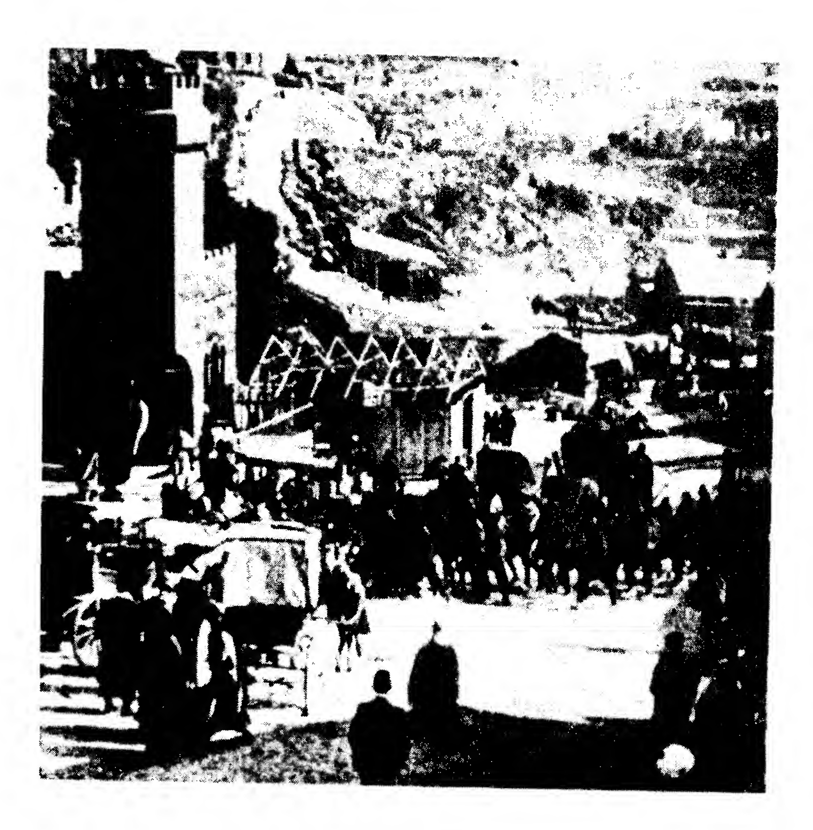
بعد سقوط غزة تقدم جيش اللنبي على الطريق الساحلي فاحتـــل يافا في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) دون مقاومة تذكر . وكان الأتراك قد اضطروا الى الانسحاب الى «نهر العوجا» في ميمنتهم والى المنطقة الجبلية المحيطة بالقدس للدفاع عنها ، من جهة اليسار .

واستمر تقدم الانكليز في الجناحين ، فنشبت معركة « النبي صموئيل » في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ، ثم ظل الانكليز يحتلون المعاقل الجبلية واحداً بعد الآخر ، حتى استطاعوا تطويق القوات التركية من ٣ جهات . وحينذاك أمر فولكنهاين بالانسحاب من المدينة ، فدخلها اللنبي في ١١ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧ ، وأعلن الأحكام العرفية ، وضمن سلامة الاماكن المقدّسة .

ومما تجدر الاشارة اليه آنذاك ان الحاج أمين الحسيني ، (مفتي فلسطين) كان يتعـــاون مع الانكليز ، ويدعو الفلسطينيين الى التطوع في جيشهم لمقاتلة الاتراك : حتى إن ٢٠٠٠ متطوع فعلوا ذلك ، وكان موقفه هذا منسجماً تمام الانسجام مع رغبات الامير فيصل .

هجوم معاكس

حاول الاتراك بعد سقوط القدس ان يقوموا بهجوم معاكس يستردون به المدينة . وكانت خطة فولكنهاين ان يكون الهجوم من ناحية العوجا ، وخط « يافا ــ القدس » ، إلا ان اللنبي فطن لذلك ، وكان قد ارسل



الاتراك ينسحبون من القدس بعد ان حكموها اربعة قرون
من ١٥١٧ – ١٩١٧

قوة من عنده تحت جنح الظلام الى منطقة العوجا ، فمنعت الاتراك من مساندة جناحهم الآخر ، كما ان الطائرات الانكليزية والقصف البحري من الساحل .. كل ذلك احبط هذا الهجوم ، فاضطر الاتراك الى التخلّي عن محاولتهم . ومع ان فولكنهاين لم ينهزم ، الا ان الانكليز لم يتخلوا ايضاً عن المواقع التي احتلوها .

خسائر حملة فلسطين

تختلف المصادر التركية والمؤرخ الانكليزي الرسمي في إحصاء هـــذه

الخسائر . وكل من المصدرين يميل الى المبالغة في خسائر خصمه . أما الأرقام المعترف بها بصورة دولية فهي كما يلي :

منذ أول هجوم قام به الانكليز على العريش حتى سقوط القدس في أيديهم ، تكبدوا (١٨) الف قتيل ، و٣٠٠٠ أسير تمكنوا من استعادة معظمهم . أما الأتراك فقد ارتفعت خسائرهم الى (٢٥) الف قتيل و (١٢) الف أسير . لكن معظم الأسرى كانوا من العرب الذين لم يقاتلوا ، بل استسلموا للجيش المهاجِم كُرهاً في الأتراك .

الانكليز في العراق

قلنا ان تاونسند اضطر الى الاستسلام بعد حصاره في كوت العمارة ، وقلنا ان هذه المذلّة أثارت سخطاً عميقاً في اوساط الشعب البريطاني على حكومته . وذكرنا ان لجاناً قد تشكلت لتحديد مسؤولية القصور .. وبعد أخذ وردّ طويلين بين كبرى تلك اللجان والقيادة البريطانية العامة ، تقرر استبدال قائد الجبهة في العراق ، وجعل ذلك الميدان تحت سلطة لندن مباشرة ، اي اقصاء نفوذ حكومة الهند منه .

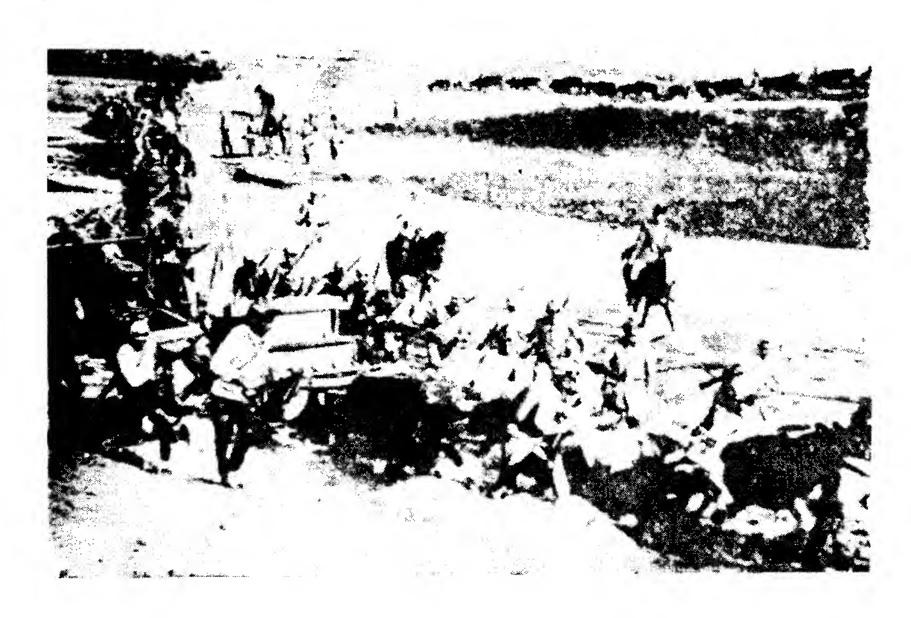
وقد عيّن الجنرال « ستانلي مود » قائداً عاماً مزوّداً بصلاحيات مطلقة من حيث التحركات العسكرية والاعتبارات السياسية . فقضى مود بقية عام ١٩١٦ يستعدّ لخوض معركة فاصلة مع الاتراك في العراق . لقد كدّس الذخائر التي كانت تنقلها سفن حكومة الهند عبر شط العرب ، كما استفاد فائدة كبيرة من موقع الكويت وسواحل الخليج الخاضعة لبريطانيا في خزن المؤن والمعدّات الحربية .

وبعد ان اتم رسم خطة كاملة لجبهته المقبلة ، ونال الموافقة عليها من لندن ، أصدر أوامره بالتقدم صعداً في دلتا النهرين . وقد بدأ ذلك في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٦ . فأخذت المعارك تنشب بين القوات التركية المدافعة على ضفتي دجلة وبين الجيش الانكليزي الذي تسنده

المدفعية من النهر . وكانت الحرب سجالاً .. يتقدم الانكليز اليوم ليرتدّوا من مواقعهم الجديدة غداً . ولكنهم ظلوا يكسبون ارضاً جديدة على كل حال . والحق ، ان الغرور الذي أصاب الأتراك نتيجة لانتصارهم السابق في كوت العمارة هو الذي أعماهم عن مطاردة عدوهم حينذاك . كما دفعهم الى الاستخفاف به هذه المرة .

اما العرب في المنطقة ، فقد كانوا غير ميّالين لمساعدة الأتراك ، متأثرين في ذلك بأخبار ثورة شريف مكة في الحجاز ، ومتجرّئين عليهم بعد سقوط مكة وجدة . هذا علاوة عن ان الذهب الانكليزي فعل ما كان يُنتظر منه بين البدو .

وقد ظل التناوب في التقدم والارتداد مستمراً طوال شهرين ، كان اثناءهما «مود» يعزز قواته ، وكان الاتراك يستنجدون بمفرزة مدفعية يشرف عليها ضباط من الألمان . لكن ، الواقع ان تسليح الجيشين كان غير



المدافع الالمانية تجرها الثيران في شمال العراق

متكافىء اطلاقاً .

وفي ١٧ شباط (فبراير) من عـــام ١٩١٧ هاجم الانكليز موقع « الصناعية » التركي . فقذف الاتراك بمعظم قواتهم للدفاع عنه . واذ ذاك استغلّ مود الفرصة فوجّه هجومه الرئيسي شطر موقع آخر .. لقد عبر نهر دجلة . لقد خدعهم . وحين حاول الاتراك التراجع وجدوا طريقهم مسدوداً ، فاضطروا الى الانسحاب اليائس الى طريق بغداد . ولاحقهم الانكليز وانتقض عليهم العرب ، فنهبوا مؤنهم ، وقتلوا من استطاعوا من جنودهم المتقهقرين .

بعد هذا اصبح صعود السفن الى الكوت اميناً ، فتقدمت هذه وأنزلت جنوداً استولوا على المدينة .. بينما تابع الجيش البري الآخر زحفه شمالاً على طريق بغداد . وقد أسر الانكليز (٤٠٠٠) تركي بين شمران والعزيزية في ٤ أيام ما بين ٢٣ ــ ٢٧ من الشهر نفسه . وبعــــد ٤ أيام اخرى وصل الانكليز الى منطقة نهر ديالي فكانوا على بضعة اميال من بغداد .

سقوط بغداد

لقد قدّر مود ان حالة الاتراك المعنوية وموقفهم العسكري آيل الى الهزيمة في جميع ممتلكاتهم في آسيا .. فهم قد خسروا في جنوب فلسطين ، وخسروا في الحجاز ، وها هي غارات لورنس وفيصل وعبـــد الله في سوريا وشمال الجزيرة العربية تقطع عليهم طريق البقاء في الولايات العربية .. فلماذا لا يسارع هو في تقليص النفوذ التركي في العراق ؟ ان عليه ان يمحق أعداءه .

وهكذا صار .

فقد تابع بسرعة عجيبة انزال ضرباته بالاتراك في جبهته . لقد بدأ هجومه في ١٧ شباط (فبراير) ، وها هو الآن في ٧ آذار (مارس) يعبر نهر ديالي.

وقد قاوم الاتراك ذلك العبور باستماتة ، وبخاصة ان الاوامر صدرت من الآستانة الى قيادتهم بالدفاع حتى الموت . لكنهم عجزوا عن الهجوم المركز بعد ان طوقهم الانكليز من شمال المدينة .. وفي ١٠ آذار (مارس) اضطر الأتراك الى إخلاء بغداد مهزومين . فدخلها مود في اليوم التالي .

ومن بعد ذلك تابع الانكليز زحفهم على شمال العراق ، وأخذت المدن والمواقع تسقط واحدة إثر اخرى حتى تم طرد الأتراك من كامل البلاد ، وبخاصة ان انتصارات اللنبي في فلسطين أقنعت حكومة الآستانة بعدم الجدوى من الدفاع عن الولايات العربية .

اللنبي يزحف شمالا

مع نهاية كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧ ، كانت القوات التركية قد طُردت من بغداد في العراق ، ومكة في الحجاز ، والقدس في فلسطين . كان مود يزحف شمالاً الى كركوك وخانقين ، واللنبي يُعد العُدّة ليزحف شمالاً الى نابلس وشرقاً الى عمان .. ثم شمالاً الى درعا ودمشق وبيروت وحلب ، وفيصل يرسل الغارات من مقرّه في العقبة لتخريب خط حديد الحجاز وشلّ حركة الاتراك في المدينة المنورة ، ومنع الامدادات من الوصول إليهم .. هذا هو الموقف في أول ١٩١٨ .

وفي كانون الثاني (يناير) التالي سنة ١٩١٨ توجه اللنبي الى شرق الاردن محاولاً ان يحتل قرية عمّان ، على ان تؤازره مفارز قبلية تعمل تحت أوامر فيصل ، غير انه فشل في ذلك وعادت الى الضفة الغربية من نهر الأردن . وحين أدرك فيصل ان الاتصال بحلفائه البريطانيين لم يكن بعد ممكناً ، قصر عملياته على منطقة معان وحاول ان يعزل تلك المدينة رجاء ان يحتلها في النهاية . وفي هذا الوقت قامت القيادة التركية ، باشارة من الألمان ، بعرض الصلح على فيصل . لكن هذه الخطوة السياسية فشلت بضغط من والده الملك حسين والانكليز .

اما من الناحية العسكرية فإن الاجراءات التي قام بها الأتراك زادت مقدار خسائرهم . فاندحرت عند سيل الحسا في ٢٦ كانون الثاني (يناير) قوة تركية مؤلفة من ٨٠٠ جندي ولم ينجُ منهم اكثر من خمسين ، وقتل ٥٠٠ ، وأسر نحو مائتين . وفي آذار (مارس) خرجت كتيبة قوية من عمان وطردت العرب من الطفيلة ، وكان الأمير زيد قد احتلهـــا قبل ذلك ، ثم عادت فخسرتها ثانية في اشتباك دام عدة أيام . وضيّق العرب الخنـــاق على حامية معان التركية ، وتعددت الهجمات على سكة حديد الحجاز حتى لم تعد القطارات تسير عليه الا مرة واحدة كل اسبوع ، وأصبحت السفرة من دمشق الى المدينة تستغرق خمسة أيام بعد ان كانت في الأحوال العـــادية تستغرق ثماني عشرة ساعة . ثم قرر الترك إخلاء المدينة المنوّرة (وكانت الحامية التركية فيها قد استطاعت هزم فيصل وعلي وعبد الله حين هاجموها بعد اعلان الثورة بقليل) وكانوا قد احتفظوا بها حتى ذلك الحين لأسباب سياسية لا عسكرية ، فقد فقدوا مكة والقدس — وهما مدينتان من بين ثلاث مدن مقدسة في الاسلام — وتشبثوا بالثالثة بدافع الحفاظ على الهيبة والكرامة . وذلك أمر كان يكلفهم غالياً .

خسائر

كبدت ثورة العرب الأتراكَ خسائر لا طاقة لهم بها ، فقد فقدوا بحسب التقديرات المعتدلة حتى نهاية آذار (مارس) سنة ١٩١٨ — ٤٨٠٠ قتيل و١٦٠٠ جريح و٨٠٠٠ أسير في المعارك التي دارت بينهم وبين العرب فحسب . وهذه الأرقام لا تشمل اعداد العرب الذين فروا من صفوف الأتراك . أضف الى ذلك حامية لهم في المدينـــة المنورة عددها ١٢٠٠٠ وأخرى في معان عددها ٧٠٠٠ ونحو ٣٠٠٠ في مراكز مختلفة على الخط الحجازي — كلها قد عطّلها العرب وشلّوا حركتها . اي ان عدد القتلى والأسرى والمعطلين من الأتراك يبلغ في مجموعه ٣٥٠٠٠ .

وكانت ربقة الضغط تضيق. كما ان مشكلة تموين الحاميات المحصورة وتزويدها بالمعدات كانت تتزايد صعوبة .

تخريب سكة الحديد

ووصل النبأ بعزم الاتراك على إخلاء المدينة الى فيصل حوالي منتصف آذار (مارس) سنة ١٩١٧ فحفزه لورنس الى العمل السريع ، واتضح له ان غاية الاتراك هي اولاً ضمان سلامة الانسحاب لحامية « المدينة » الرئيسية والحاميات الفرعية على السكة الحجازية واستقدامها الى معان . فاذا حققوا ذلك استغلوا تلك الحاميات في اغراض عدوانية مباشرة ضد قواته ، او اتخذوها مدداً للجيوش التي تسدّ الطريق الى دمشق امام اندفاع العرب والبريطانيين شمالاً . وبعد ان تشاور فيصل مع لورنس واستمد العون والتأييد من اللنبي رسم خطة لهجوم فوري غايته عزل معان وقطع المواصلات بينها وبين المدينة وإحباط خطة الأتراك .

* * *

تخريب الخط !

كانت خطة فيصل ان يقسم قواته الى ثلاث وحدات يهاجم بها السكة الحديدية في ثلاثة امكنة مختلفة . وقد استغل بحكمة العربات المصفحة ومفرزةً من فرقة الهجانة المصرية اعارتها له السلطاتُ الانكليزية في القاهرة ، فزوّد فصائل وحداته بالرجال اللازمين والعتاد الملائم لمهمتها. وبدأت الهجمات في الاسبوع الاول من نيسان (ابريل) فخرّبت الوحدة الشماليةُ الخطَّ الحديدي بين معان وعمان ، وعملت الوحدة الجنوبية من جنوب معان حتى المدوّرة وخربت الخط تخريباً يستحيل إصلاحه . اما وحدة القلب فانها احتلت خطوط الدفاع الخارجية عند معان وخربت الخط الذي يقع مباشرة الى جنوب معان وشمالها .

مطامع .. وخراب !!
بمشورة الانكليز

وفي العشرين من نيسان (ابريل) كانت معان قد عزلت ، اي ان الطوابير الثلاثة خرّبت في مدى عشرة ايام خمسين جسراً وقنطرة و ٣٠٠٠ مفصلة من الخط ، واسرت ٤٥٠ اسيراً وغنمت كميـات وفيرة من الذخيرة . وبهذا اصبحت خطة الاتراك بإخلاء المدينة امراً مستحيلاً .

وفي الجنوب كان الاميران علي وعبدالله يقومان بتخريبات واسعة في جبهة الاتراك في شهري ايار (مايو) وحزيران (يونيو) ، فقد هزم عبدالله ابنَ الرشيد قرب تيماء . ولما ارسل الاتراك في تموز (يوليو) مفرزة قوية من المشاة والخيـالة بطريق داخليـة من « المدينـة » مدداً لحليفهم ، انقض عليهم عبدالله ووقع كل رجل في تلك المفرزة قتيلاً او اسيراً .

مقارنة

وقد نكوّن فكرة عن مدى العمليات العربية في قطاع معان اذا نحن رسمنا مقارنة في الأعداد والمعدات : كانت للأتراك ثلاثة جيوش تقاوم البريطانيين والعرب على جانبي الاردن ، فضلاً عن الحاميات المتمركزة في معان وتعرف بالفيلق الثاني ، وكان البريطانيون الى الغرب من الاردن يقفون مواجهين لمجموعتين منفصلتين وهما الجيش السابع والثامن ، وقائد الاول مصطفى كمال باشا ، وقائد الثاني جواد باشا . اما في شرق النهر فكان العرب يواجهون الجيش الرابع ومقرّه عمان . ولدى الجيشين الأولين المواجهين للبريطانيين ١٧٠٠٠ بندقية ، اما الجيش المواجه للعرب — في المنطقة التي تقع الى الشرق من النهر — فيضم ١٤٠٠٠ جندي . وهذه الأرقام تشمل الفيلق التركي الثاني المتمركز في معان لكنهـا لا تشمل ١٢٠٠٠ جندي حصرهم العرب في المدينة وعلى السكة بينها وبين المدوّرة.

فيصل وحمايته ميمنة الانكليز

اذن فمن الهام ان نتذكر حين نريد ان نقدر القيمة العسكرية للحملة العربية ان فيصلاً حين احتل المنطقة الواقعة الى الشرق من معان كان يحمي ميمنة الجيش البريطاني بفلسطين . كما يحمي خطاً طويلاً من مواصلات ذلك الجيش ضد هجمات الاتراك في جوار الخليل وبئر السبع . وان علياً وعبدالله كانا يحصران ويعطلان قوة كبيرة للعدو ، كانت كما قال المؤرخ الرسمي الانكليزي : « ذات اهمية بالغة للقيادة التركية الالمانية في اللحظة التي وقع فيها اللنبي في حيرة وارتباك او عند الهجوم النهائي » . لقد كانت ثمة كتائب تركية تحارب العرب في منطقة عمان والحجاز اكثر من الكتائب التي كانت تقاوم الانكليز بفلسطين .

* * *

خطة اللنبي وقواته

وباقتراب الصيف كانت خطط اللنبي تتكامل من اجل القيام بهجوم نهائي .

كان هنالك – كما قدمنا – جيشان تركيان ، الثامن والسابع ، امام اللنبي وجيش ثالث هو الرابع في مواجهة العرب . ووراء هذه الجيوش الثلاثة جيش تركي رابع يسمى «الجيش الثاني» يحمي شمال سوريا بين حلب ودمشق . وكانت قوات اللنبي تتألف من ٨ فرق من المشاة و ٤ من الخيالة ، من بينها لواء فرنسي ومفرزة ايطالية صغيرة ، وقد رتبت في مجموعتين : الفيلق العشرين والفيلق الواحد والعشرين ، وفيلق من الخيالة. وهذا جعله يتفوق على اعدائه بنسبة ٢ : ١ – او اكثر – من حيث القوة المقاتلة .

وكان من خطة اللنبي ان يقطع مواصلات الاتراك بين دمشق والجنوب

قبل ان يشن هجومه ؛ ومن اجل تحقيق ذلك الهدف لجأ الى العرب ..

درعا

كانت درعا هي النقطة الحيوية في مواصلاتهم لأنها محطة على السكة الحجازية ، وعندها يتفرع من الخط الرئيسي خط فرعي يتجه الى حيفا. فإذا عُزلت درعا استحال على الاتراك ان يسرعوا بارسال الامدادات بالقطار الى فلسطين ، وأُقفلت دونهم اقصر الطرق للتراجع . وقد يكون تهديد الخط عند درعا سبباً يحمل القائد الألماني للجبهة على إرسال بعض احتياطيّه من منطقة الناصرة كي يحمي نقطة الاتصال « درعا » وبذلك تضعف المقاومة التي قد يقذف بها في وجه الجيش البريطاني .

التمهيد للحملة

لما أفضى اللنبي بسر الحطة الى حليفه فيصل استثار لديه حمية ونشاطاً. وكانت قواته عندئذ قد احرزت تحسناً ملموساً في التدريب والإعداد ، وقارب جيشه النظامي ٨٠٠٠ جندي . كذلك كان جيش فيصل قد زاد ايضاً بتلك الاعداد الضخمة التي قدمتها القبائل . فقد حشد نوري الشعلان، شيخ مشايخ « الرولى » ، اتباعه استعداداً للهجوم النهائي . وتعهد شيوخ حوران وجبل الدروز سراً بأن يثيروا فتنة في الارياف تتفق وزمانَ شن الهجوم . وكان نمو قوات فيصل مصحوباً بمظهر آخر مثله في الأهمية، وذلك هو التغيير في تكوين تلك القوات ، فقد حلت الآن من بـدو الحجاز ، واصبحت من سكان سوريا وفلسطين الذين سيحررون بيوتهم نفسها .

القاعدة .. أزرق

وفي اوائل ايلول (سبتمبر) نقل فيصل قاعدته الى « ازرق » ،

على خمسين ميلاً الى الشرق من عمان . وشن اول هجوم في ١٦ منه ، اي بعد ثلاثة ايام من بدء الهجوم البريطاني ، فقطع الخط بين درعا وعمان – طبقاً لخطة اللنبي . وفي ١٧ منه خرّبت جماعات اخرى من العرب ذلك الخط الحديدي في نقاط تقع الى الشمال والغرب من درعا ، وكانت على وشك ان تقتحم المدينة نفسها حين وصلت امدادات المانية قوية جعلت تلك الجماعة تتوقف . واستمر العرب في تظاهرهم بالتهديد رجاء ان يبعدوا عدداً آخر من الكتائب الألمانية من منطقة الناصرة .وفي ١٨ منه قاموا بتخريبات اخرى على الخط ، فعُزلت درعا في مساء ذلك اليوم ، من كل جانب ، عزلاً تاماً .

وفي وقت مبكر من اليوم التالي شن البريطانيون هجومهم على الجبهة الفلسطينية .

الخديعة

ابتدأ اللنبي اعماله الحربية بخدعة اراد بها ايهام الاتراك انه سيركّز هجومه على الجيش السابع المتمركز في نابلس ، وفي الجبهة الشرقية ضد جيشهم الرابع المستقر في عمان . لكن الهجوم الحقيقي كان ضد الجيش الثامن الذي يقف بين الساحل وقواعد تلال السامرة . وكان الهجوم صاعقاً، مما اضطر القائد التركي الى التراجع في حركة محورية مشوشة تاركاً وراءه السهل الساحلي مكشوفاً .. عندئذ قذف اللنبي بخيالته في تلك الثغرة التي فتحت . وفي أقل من اربع وعشرين ساعة كان لواء من الخيالة قد وصل ضواحي الناصرة . وبعد بضع ساعات احتل لواء آخر «العفولة» على خط حيفا – درعا – دمشق . وبعد ظهر ذلك اليوم نفسه اي ٢٠ من ايلول (سبتمبر) ، دخلت بيسان فرقة اخرى . وهكذا كانت قوات اللنبي عند غروب شمس اليوم التالي تسيطر على الجوانب الثلاثة من المستطيل الذي حُصر في داخله الجيشان التركيان الثامن والسابع جميعاً .

اما القوات العربية التي كانت في منطقة التلال وراء نهر الاردن فإنها بعد ان احاطت بدرعا اخذت تضيّق الخناق على حامية معان. وفي هذا الوقت ثارت القرى العربية بكاملها. وقد استطاعت بضعة طوابير مبعثرة من الجيش السابع ان تتراجع نحو درعا، ولم يبق الا الجيش الرابع في الاردن، والا الفيلق الثاني في معان والجيش الثاني في الشمال.. وكل هذه واجهت نفس المصير في الايام التالية.

الى دمشق!

وقصة الايام التالية هي قصة بقية الهزيمة التركية واحتلال دمشق ومن بعدها حلب.

اولاً: اخذت الكتائب في عمان ومعان تتراجع، وبدأ ذلك في الثاني والعشرين. وما كاد يبدأ حتى اجتاز لواء بريطاني من الخيالة نهر الاردن وتقدم الى عمان واحتلها في ٢٥ ايلول (سبتمبر). وكان على الجيش الرابع ان يتراجع مشياً على الاقدام لأن الخط الحديدي الواصل الى درعا قد ضُرب، فتركه القائد البريطاني يواجه مصيره المحتوم وبقي في عمان ليكفل تسليم الفيلق التركي الثاني المنسحب من معان، وكان العرب قد احتلوها قبل سقوط عمان بيومين. وفي الشمال كان العرب يُطبقون على درعا فاحتلوها في السابع والعشرين بينما قامت مفارز اخرى يقودها عودة ونوري الشعلان باحتلال اذرع وغزالة، فاخذت ٣٥٠٠ اسير في يومين.

وفي الوقت نفسه شقّت الخيالة البريطانية طريقها عبر الاردن الى جنوب بحيرة طبريا وشمالها، بينا حمى العرب النظاميون ميمنة اولئك الخيالة وهم يتتبعون أثر الجيش الرابع، كما قامت جماعات القبائل بهجوم شرس على الاتراك المنسحبين، وهي تعدو وتقاتل في تقدمها،

وتتسابق لبلوغ دمشق – هدف الثورة – تسابقاً جنونياً .

وكان اول الواصلين الشريف ناصر ونوري الشعلان على رأس قواتهما. لقد قطعا سبعين ميلاً في اربع وعشرين ساعة وقاتلا العدو في بعض تلك المسافة ، وبلغا ضواحي دمشق مساء ٣٠ ايلول (سبتمبر) ، ولكنهما لم يدخلاها .

وفي صباح اليوم التالي – اول تشرين الاول (اكتوبر) – دخلت المدينة مفرزة من الخيالة البريطانيين يتبعهم عن كثب الشريف ناصر ونوري الشعلان وحاشيتهما . وبعد يومين اتى اللنبي من القدس في سيارته بينما



اللنبي والكتائب البريطانية تدخل دمشق

كان فيصل و ١٢٠٠ من اتباعه على ظهور خيولهم العاريـات يدخلون المدينة التي كانت عاصمة الامبراطورية العربية فيما مضى من الايام .

احتلال بقية سوريا

تم احتلال سائر سورية قبل ان ينتهي تشرين الاول (اكتوبر) نتيجة . لحركتين حربيتين متميزتين ، سارت الحركة الاولى على طول الساحل



شرذمة بريطانية كانت اول من دخل دمشق
انها امام المدخل الشرقي لـ « تكية السلطان سليم » .

مارة بصور وصيدا الى بيروت وطرابلس ، وسلكت الثانيـة الطريق الداخلية من خلال حمص وحماة وحلب . ولم يقم العرب بـدور في الأولى وإنما كان لهم نصيب وافر في الثانية .

وبدأ التقدم الساحلي في اليوم الثالث من حيفا وعكا اللتين احتُلتا بعد



فيصل يلقى كل ترحيب في دخوله دمشق .
لكنه رضي ان يطرد منها !

ان تغلغل اللنبي في البلاد بقليل ، فسارت فرقة بريطانية على طول الطريق الساحلي واحتلت صور في اليوم الرابع ، وصيدا في السادس ، وبيروت في اليوم الثامن . واستمرت مفرزة تغذ السير زاحفة الى طرابلس واحتلتها بعد خمسة ايام .

حلب – ومصطفى كمال

وفي الوقت نفسه كان اللنبي قد اصدر اوامره بهجوم شمالي من دمشق الى حلب ، وكان هذا الهجوم يبدو اصعب من سابقه ، اذ كانت القوات البريطانية تعاني الشعور بإرهاق الحملة القاسية . زد الى هذا كله ان فئات تركية كانت متمركزة في نقاط مختلفة على طول الطريق . وكان المعتقد ان الاتراك قد جمعوا حشوداً قوية في الشمال لتدافع عن حلب ، إلا ان هذه العقبات جميعاً ذُللت . وها هنا ايضاً كان النجاح ثمرة للتعاون بين القوات البريطانية والعربية .



اللنبي في زيارة الى مستشفى الجامعة الامريكية ببيروت .

وفيما كانت فرقة بريطانية تتقدم على طول الطريق الرئيسي ، كان لواء من النظاميين العرب يحمي ميمنتها . كذلك قام الشريف ناصر على رأس قوة غير نظامية لمهاجمة حمص من الشرق ، فوصلها في الخامس عشر ، قبل وصول طلائع القوات البريطانية بيوم واحد ، ووجد الاتراك قد انسحبوا .. وبعد يومين احتل حماة دون مقاومة ايضاً . الا انه واجه مقاومة صلبة في ضواحي حلب ، حيث كان القائد مصطفى باشا كمال على رأس فيلق قوي جيد الاعدادات مؤلف من فرقتين . ورُسمت خطة هجوم مشترك تقوم به الخيالة البريطانية والنظاميون العرب في السادس والعشرين .. ولكن ، في عصر الخامس والعشرين تغلغلت القوات العربية

القبَلية في المدينة ، وامعنت في الحامية بعنف وشدة ، فاضطرت قائدها الى الانسحاب والى تنظيم تراجع الفرقتين اللتين تحميان حلب في الجنوب. وفي صباح السادس والعشرين سارت الخيالة البريطانية والنظاميون العرب ودخلوا المدينة بينما كان لواء من الخيالة الهندية يصد هجوماً مصمماً عنيداً يقوم به مصطفى باشا كمال على بضعة اميال الى الشمال من المدينة. وفي التاسع والعشرين احتلت مفرزة من قوات الشريف ناصر محطة السلمية ، ملتقى السكك الحديدية التي تتفرع الى القسطنطينية وسورية والعراق ، وكانت هي آخر مركز تحتله قوات الحلفاء شمالاً ، لأن تركية وقّعت في اليوم التالي هدنة مدروس (Mudros) .



لينين يخطب في الثورة موضحاً أسس سياسة حزبه

وهكذا طُرد الاستعمار التركي من الاراضي العربية بعد استعباد ٤٠٠ سنة . وكان من سوء الحظ انه قدّر للعرب ان يواجهوا استعماراً أشد شراسةً ، واكثر تكالباً .

الوثائق السرية

لقد ذكرنا اكثر من مرة ان البلاشفة الروس اذاعوا ما وجدوه في وزارة الخارجية لحكومتهم القيصرية سابقاً ، من وثائق تفضح النوايا الشريرة لبريطانيا وفرنسا .. وقلنا ان لينين كان صاحب هذا الرأي .. اما الشخص الذي قام بتنفيذه فهو تروتسكي .. فما هي هذه الوثائق ؟

اننا سنوردها كما أرّخ لها السفير البولوني السابق في مختلف عواصم الشرق الاوسط ، والذي سمح له عمله الدبلوماسي بضبطها ، كما اننا انتخبناه لنظرته المحايدة : انه جورج لنشوفسكي :

اتفاقيات التقسيم السرية

اتفاقية القسطنطينية :

عقدت في ١٨ آذار (مارس) سنة ١٩١٥ اتفاقية سرية بين روسيا من جهة وفرنسا وبريطانيا العظمى من جهة اخرى بتبادل المذكرات بين سان بطرسبرج وباريس ولندن . فجرى الاتفاق على ان تضم روسيا اليها « القسطنطينية ، وساحل البوسفور الغربي ، وبحر مرمرة ، ومضايق الدردنيل ، وتراقية الجنوبية الى خط اينوس — ميدية ، وساحل آسيا الصغرى بين البوسفور ونهر سقارية ونقطة تقع على خليج ازمير تعين فيما بعد ، ثم الجزر الكائنة في بحر مرمرة وجزيرتي امروز وتنيدوس » .

وفي مقابل ذلك اعترفت روسيا بعددٍ من المطاليب التي تقدمت بها بريطانيا وفرنسا :

١) ما يختص بتركيا :

ا — جعل القسطنطينية ميناءً حراً للحلفاء وضمان الملاحة التجارية في المضايق .

ب — موافقة روسيا على الاعتراف بحقوق بريطانيا وفرنسا الخاصة في « آسيا التركية » بعقد اتفاقية منفصلة .

ج — اقتطاع البلاد الاسلامية المقدسة من تركيا ووضعها ، بعد اضافة بلاد العرب اليها ، تحت حكم اسلامي مستقل .

٢) ما يختص بايران :

ا — وافقت روسيا على إدخال المنطقة المحايدة ، المنصوص عليها في اتفاقية سنة ١٩٠٧ الانكليزية الروسية ، في ضمن منطقة النفوذ البريطانية .

ب — على ان هذه الاتفاقية كانت فيها تحفظات ثلاثة : اولها ان المناطق المصاقبة لمدينتي اصفهان ويزد يجب ان تدخل ضمن منطقة النفوذ الروسية ، وثانيها ان جزءاً من الطرف الشرقي للمنطقة المحايدة ، الذي يجاور بلاد الأفغان ، يجب ان يدخل ضمن المنطقة الروسية، وثالثها ان تكون لروسيا الحرية التامة في العمل ضمن منطقة نفوذها هي نفسها . (وكان التحفظ الأخير هذا يعني من الناحية العملية إلحاق المنطقة المذكورة بها في المدى الطويل .)

وقد تعهدت روسيا ، علاوةً على الترتيبات الاقليمية هذه ، بمساعدة

الحلفاء في حالة مهاجمتهم الدردنيل . وحينما أعلنت ايطاليا الحرب أبدت بدورها موافقتها على هذه الاتفاقية الروسية الانكليزية الفرنسية .

معاهدة لندن :

وفي ٢٦ نيسان (ابريل) ١٩١٥ عقدت في لندن معاهدة سرية وقعت عليها بريطانيا وفرنسا وروسيا وايطاليا . وكانت هذه المعاهدة ثمناً دفعه الحلفاء لايطاليا لقاء انضمامها لمعسكر الحلفاء .

ومن بين الامتيازات الاقليمية التي وعد بها الايطاليون ، هي الامتيازات التالية في الشرق الأوسط :

١ — اعطيت ايطاليا سيادة تامة على جزر الدوديكانيز الستراتيجية الواقعة بالقرب من الساحل التركي ، والتي كانت تحتلها ايطاليا منذ ١٩١٢ (المادة ٨) .

٢ — نقلت الى ايطاليا جميع الحقوق والامتيازات العائدة للسلطان في ليبيا بمقتضى معاهدة لوزان ١٩١٢ (المادة ١٠) .

٣ — نصت المادة التاسعة ، وهي اهم مادة ، على ما يأتي :
تعترف فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا بأن ايطاليا لها مصالح في البحر الابيض المتوسط بوجه عام ، وفي حالة تقسيم القسم الآسيوي من تركيا جزئياً او كلياً لا بد ان تحصل — اي ايطاليا — على حصة عادلة من منطقة البحر الابيض المتوسط المتاخمة لولاية «أداليا» حيث كانت ايطاليا قد حصلت من قبل على حقوق ومصالح تكوّن عنها موضوع الميثاق الايطالي البريطاني. وينبغي ان تخطط المنطقة التي ستخصص لايطاليا نهائياً في الوقت المناسب على ان تؤخذ بنظر الاعتبار مصالح فرنسا وبريطانيا العظمى الموجودة حالياً .

كما يجب ان تؤخذ بنظر الاعتبار ايضاً مصالح ايطاليا في حالة الاحتفاظ بوحدة الامبراطورية التركية ، او عند اجراء تغييرات في مناطق نفوذ الدول .
واذا ما احتلت فرنسا وبريطانيا العظمى وروسيا أية أراضٍ في القسم الآسيوي من تركيا خلال الحرب ، فإن منطقة البحر الابيض المتوسط المتاخمة لولاية أداليا ضمن الحدود المشار اليها اعلاه يجب ان تحجز لايطاليا التي يجب ان يكون لها الحق في احتلالها .

وبعد ان تسلحت ايطاليا بهذه الضمانات اعلنت الحرب على تركيا يوم ٢٠ آب ١٩١٥ .

اتفاقية سايكس – بيكو :

عندما ضمنت الحكومتان البريطانية والفرنسية مطاليب روسيا وايطاليا الرئيسية اقدمتا في سنة ١٩١٥ على اتخاذ ما يلزم من التدابير لوضع مطاليبهما في الأقسام الآسيوية من الامبراطورية العثمانية على اسس متينة. فعُيّن السير مارك سايكس وجورج بيكو لاجراء المفاوضات . ولا بد من الاشارة هنا الى ان بريطانيا كانت في الوقت نفسه قد دخلت في مفاوضات مع الشريف حسين في الحجاز لتضمن مساعدته في الحرب ضد تركيا . وقد اشترط ان تكون هذه المساعدة متوقفة على اعتراف بريطانيا بأماني العرب القومية . واذ كانت الحكومة الفرنسية شاعرة باحتمال عقد صفقة عربية – بريطانية لا غير ، وتواقة الى الحصول على جزء من الامبراطورية العثمانية لنفسها ، ألحت على الاعتراف بمطاليبها . وكان مثل هذا التفاهم قد أشير الى إمكان حصوله في اتفاقية القسطنطينية . ولما أقدمت بريطانيا وفرنسا على تحديد حقوقهما على هذه الشاكلة رغبتا في استحصال مصادقة

روسيا عليها ، ومن اجل هذا ارسل سايكس وبيكو الى سان بطرسبرج في اوائل ربيع ١٩١٦ . وهناك عرضا لائحة اتفاقيتهما وحصــلا على مصادقة روسيا القيصرية عليها ، ولكن بعد ان كان الثمن ، الاعتراف بمطاليب روسيّة اخرى . وقد اتخذت هذه الصفقة فيا بعد شكلاً رسمياً في ٢٦ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٦ باسم « اتفاقيــة سازونوف — باليولوغ » . واصبحت بعد ذلك جزءاً لا يتجزأ من التسوية العامة التي تمت بين روسيا وفرنسا وبريطانيا ، والتي يشار اليها عادةً باسم «اتفاقية سايكس — بيكو » . وقد عقدت اتفاقية سايكس — بيكو رسميــاً في ١٦ ايار (مايو) ١٩١٦ ، فكانت تحتوي على الشروط الآتية :

١ — ان تحصل روسيا على ولايات ارضروم وطرابزون ووان وبتليس (المعروفة بأرمينيا التركية) ، وعلى منطقة تقع في القسم الشمالي من كردستان على الخط الممتد من موش وزعرت وجزيرة ابن عمر والعمادية الى الحدود الايرانية . وكانت هذه المنطقة تبلغ في مساحتها (٦٠,٠٠٠) ميل مربع ممتــدة بين البحر الأسود ومنطقة الموصل — اورمية ، وتحتوي على ثروات غنية بالنحاس والفضة والملح .

٢ — ان تحصل فرنسا على القطاع الساحلي المشتمــل على سوريا ، وولاية أطنة والمنطقة التي يحدها جنوباً الخط الممتد من عينتاب وماردين الى الحدود الروسية المقبلة ، وشمالاً الخط الممتد من ألاداغ والمارّ بقيسرية وآق داغ ويلدز داخ وزارة الى إجـين خربوط (وهي المنطقة المعروفة اعتيادياً باسم كيليكية) .

٣ — ان تحصل بريطانيــا على القسم الجنوبـي مـن بين النهرين مـع بغداد ، وعلى ميناءي حيفا وعكا في فلسطين .

٤ – ان يتألف من المنطقة الكائنة بين الممتلكات الفرنسية والبريطانية اتحاد لدول عربية صغيرة او دولة عربية واحدة . وان تقسم هذه المنطقة من جديد الى منطقة نفوذ فرنسية وبريطانيـــة . وتتألف المنطقة الفرنسية من داخلية سورية وولاية الموصل من بلاد ما بين النهرين ، أما المنطقة البريطانية فتمتد ما بين فلسطين والحدود الايرانية .

٥ – ان تعلن الاسكندرونه ميناءً حراً .

٦ – ان تدوّل فلسطين .

ولما كان الاتفاق قد تم بينهم على التمسك بسرية هذه الاتفاقية كجزء مهم منها ، فإن شروطها لم تبلّغ الى ايطاليا ولا الى الشريف حسين .

اتفاقية سان جان دي مورين St. Jean de Maurienne :

علمت الحكومة الايطالية بشروط اتفاقية سايكس – بيكو في اوائل سنة ١٩١٧ على الرغم من سرّيتها في الأصل . وعلى أثر ذلك ضغطت ايطاليـــا على الدول الثلاث الأخرى لتعيّن بالضبط المطاليب الايطالية في آسيا الصغرى التي أشير اليها اشارة مبهمة بكونها « المنطقة المتاخمة لولاية أداليا » في معاهدة لندن سنة ١٩١٥ . وفي ١٧ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٧ اجتمع رؤساء وزارات بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا في سان جان دي مورين ووضعوا هناك اتفاقية تخول ايطاليا الحق باقتطاع رقعة واسعة من البلاد التركية الأصلية الواقعة في الجنوب الغربي من الأنضول (مدينة أزمير وولايتها وسناجق منتشه وأدميا وإيجيلي ، والقسم الأعظم من ولاية قونية) . وحصلت ايطاليا بالاضافة الى ذلك على منطقة نفوذ في شمال أزمير .

وكانت اتفاقية سان جان دي مورين آخر وثيقة تم التفاهم بموجبها

بين الحلفاء على تقسيم البلاد العثمانية . وكان لا بد أن يؤيدهـــا الروس الذين لم يحضروا المؤتمر . ولكن لم يتم هذا التفاهم مطلقاً بسبب التبدل الثوري الذي طرأ على الحكومة في روسيا .

اتفاقية كليمنصو – لويد جورج :

احتل البريطانيـــون منطقة الموصل اثر الحملة الحربية التي شنوها على بلاد ما بين النهرين . ولما كان معظم القتال الذي حصل في الشرق الأوسط قد خاض غماره البريطانيون وحدهم . فقد كانوا يعتقدون بأن شيئاً من التعديل لا بد ان يُدخل على معاهدة سايكس – بيكو تعويضاً لما فعلوه . وفي اثناء زيارة كليمنصو للندن في كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨ ، توصل رئيس الوزارة الفرنسية ورئيس الوزارة البريطانية الى اتفاق وافقت فيه فرنسا على إدخـــال منطقة الموصل (الداخلة في المنطقة الفرنسية من قبل) في دائرة نفوذ بريطانيا . ووعدت فرنسا لقاء ذلك بحصة من ثروات النفط الموحودة في شمال ما بين النهرين .

وعد بلفور :

بعد قبول الوزارة البريطانية النقاط الرئيسية في المسودة التي قدمهـــا الصهاينة أرسل اللورد بلفور في ٢ تشرين الثـــاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ الكتاب التالي الى اللورد روتشيلد :

عزيزي اللورد روتشيلد :

يسرني جداً ان انقل لـكم بالنيابة عن حكومة صاحب الجلالة تصريح العطف الآتي على الأماني اليهودية الصهيونيـــة الذي عرض على الوزارة فأقرته .

ان حكومة جلالته تنظر بعين الارتياح الى انشاء وطن قومي في فلسطين للشعب اليهودي ، وستبـــذل احسن مساعيها لتسهيل بلوغ هذه الغاية .

وليكن معلوماً بجـــلاء انه لن يعمل شيء من شأنه ان يجحف الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية الموجودة في فلسطين ، او الحقوق التي يتمتع بها اليهود في اي بلد آخر والمركز السياسي الذي هم فيه .

وسأكون ممتناً اذا عرضتم هذا التصريح على الاتحاد الصهيوني ليطلع عليه .

المخلص : آرثر جيمس بلفور

اتفاقية فيصل – وايزمن *

المؤرخة في ٣ كانون الثاني – يناير – (؟) ١٩١٩

(ان المصدر الذي اعتمدت عليه هو صورة فوتوغرافيـــة للأصل لقد ظهرت بضع روايات للاتفاقية في الصحف ، الا ان أياً مما وقعتُ عليه منها لا يمكن وصفه بالشمول .

والنص الذي ظهر في مجموعة الوثائق التي نشرها (د. هـ. ميلر) D. H. Miller يطابق في مجموعه الأصل باستثناء خلوّه من التحفظ الذي سطره فيصل على الاتفاقية نفسها .

لقد كُتبت هذه الاتفاقية باللغة الانكليزية ، اما تحفظ فيصل فقـــد أدرج بالعربية في الفراغ الذي يلي المادة الأخيرة مبـــاشرة . وقد نالت الترجمة التقريبية التي قام بعملها ت. إ. لورنس في ذلك الحين رواجاً وبخاصة في صحيفة التايمز الصادرة في العاشر من حزيران (يونيو) سنة ١٩٣٦ ، وفي تقرير لجنة التحقيق الملكية لفلسطين – بوصفها ترجمة موثوقة للأصل ، ولكن الحقيقة ان « ترجمة » لورانس هذه ما هي الا شرح يفتقر الى الضبط ، وهو مضلِّل الى حد ما .

والتأريخ المدرج على الاتفاقية هو الثالث من كانون الثاني (يناير)

* نقلا عن « جورج انطونيوس » ص ٥٩٢ ط ١٩٦٢ – دار العلم للملايين .
وكان وايزمن يمثل الوكالة اليهودية او « اللجنة التنفيذية للصهيونية العالمية » .

سنة ١٩١٩ ، ولكني تشككت في التأريخ . اذ يبدو محتملاً من الشواهد التي تضمّنها تحفظ فيصل ان الاتفاقية قد وقعت في تاريخ لاحق ، لا يقع قبل ٤ كانون الثاني (يناير) على اي حال .

نص اتفاقية فيصل – وايزمن

ان صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم بالعمل نيابة عنها ، والدكتور حاييم وايزمن ممثل المنظمة الصهيونية والقائم بالعمل نيابة عنهـا ، يدركان القرابة الجنسية والصلات القديمة القائمة بين العرب والشعب اليهودي ، ويتحققان ان أضمن الوسائل لبلوغ غاية أهدافهما الوطنية هو في اتخاذ أقصى ما يمكن من التعاون في سبيل تقدم الدولة العربية وفلسطين ، ولكونهما يرغبان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي يقوم بينهما فقد اتفقا على المواد التالية :

١ – يجب ان يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين أقصى النوايا الحسنة والتفاهم المخلص ، وللوصول الى هذه الغاية تؤسس ويحتفَظ بوكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الأصول في بلد كل منهما.

٢ – تحدَّد بعد اتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة الحدودُ النهائية بين الدولة العربية وفلسطين على يد لجنة يُتفق على تعيينها من قِبل الطرفين المتعاقدين .

٣ – عند انشاء دستور ادارة فلسطين تتخذ جميع الاجراءات التي من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ في اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ .

٤ – يجب ان تتخذ جميع الاجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين على مدى واسع ، والحث عليهـا وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين في الأرض عن طريق الأسكان الواسع والزراعة الكثيفة .

ولدى اتخاذ مثل هذه الاجراءات يجب ان تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين المستأجرين العرب ، ويجب ان يساعدوا في سيرهم نحو التقدم الاقتصادي

٥ – يجب ان لا يسن نظام أو قانون يمنع أو يتدخل بأي طريقة في ممارسة الحرية الدينية ، ويجب أن يسمح على الدوام ايضاً بحرية ممارسة العقيدة الدينية والقيام بالعبادات دون تمييز أو تفضيل ، ويجب أن لا يطالب قط بشروط دينية لممارسة الحقوق المدنية أو السياسية .

٦ – ان الأماكن الاسلامية المقدسة يجب ان توضع تحت رقـابة المسلمين .

٧ – تقترح المنظمة الصهيونية أن ترسل الى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية في البلاد وان تقـدم تقريراً عن احسن الوسائل للنهوض بها ، وستضع المنظمة الصهيونية اللجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الامكانيات الاقتصادية في الدولة العربية وان تقدم تقريراً عن احسن الوسائل للنهوض بهـا ، وستستخدم المنظمة الصهيونية أقصى جهودها لمساعدة الدولة العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والامكانيات الاقتصادية في البلاد .

٨ – يوافق الفريقان المتعاقدان ان يعملا بالاتفاق والتفاهم التامين في جميع الامور التي شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح .

٩ – كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب ان يحال الى الحكومة البريطانية للتحكيم .

وقع في لندن ، انجلترا ، في اليوم الثـالث من شهر كانون الثاني يناير سنة ١٩١٩ .

(ترجمة تحفظات فيصل عن الانكليزية)

يجب ان أوافق على المواد المذكورة اعلاه :

بشرط ان يحصل العرب على استقلالهم كما طلبت بمذكرتي المؤرخة في الرابع من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٩ المرسلة الى وزارة خارجية بريطانيا العظمى . لكن إذا وقع اقل تعديل أو تحويل (يقصد بما يتعلق بالمطالب الواردة بالمذكرة) فيجب ان لا أكون عندها مقيداً بأي كلمة وردت في هذه الاتفاقية التي يجب اعتبارها ملغاة لا شأن ولا قيمة قانونية لها ويجب ان لا أكون مسؤولاً بأية طريقة مهما كانت .

فيصل بن حسين

حايم وايزمن

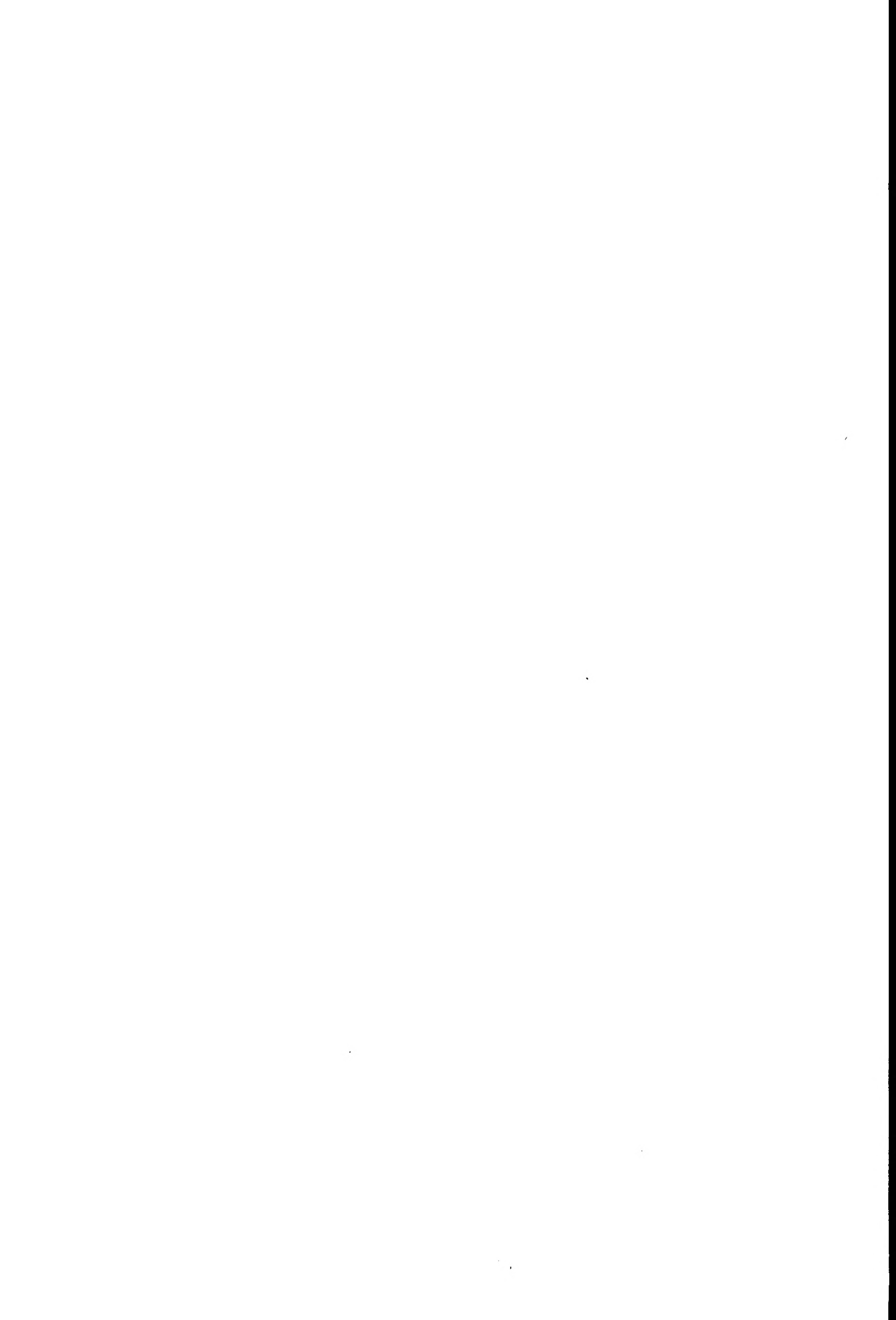
ملاحظة : أخفت الحكومة البريطانية مذكرة الأمير فيصل المشار اليها ..



العلم في خدمة « شر الحرب ».. « ضد الغازات في الميدان »

الفصل الخامس

١٩١٨



هرب الشرق من الشر
وانغمس الغرب فيه

مع بداية سنة ١٩١٨ لاح وكأن الحرب قد دارت على محورها ، فها هي روسيا في الشرق قد خرجت من الحلقة ، لكن ها هي الولايات المتحدة في الغرب قد دخلتها . ان مبادىء جديدة تكتسح العالم ، لقد هرب الشرق من الشر ، وانغمس الغرب فيه . لكن هذا لم يكن ملحوظاً لدى شعوب الدول المتحاربة . وحتى الجنود في خنادقهم لاحظوا منه قليلاً ، فالحياة في الجبهة ظلت رتيبة مملة فقدت عنصر الحركة منذ زمن طويل . والحياة في الأسواق ظلت خاضعة لنظام الحصص والتوزيع .

اما بريطانيا فكانت منهمكة في ارضاء عمال مصانع الذخيرة، وتطبيق نظام نوزيع اللحوم والأغذية المستوردة . واما فرنسا ، فلم تعان نقصاً في المواد الغذائية الأساسية وانما في البن ومثيلاته من الكماليات . واما المانيا والنمسا ، فقد كفاهما القمح الذي كانتا تحصلان عليه من روسيا كل ما احتاجتاه . بل إنهما الآن زادتا حصة الفرد من الخبز واللحم .
والغريب في الأمر مثلاً ، ان بريطانيا التي كانت تهددها حرب الغواصات الالمانية في ربيع سنة ١٩١٧ لم تفرض قيوداً على التموين

آنذاك ، لكنها في شباط (فبراير) سنة ١٩١٨ ، اي بعد زوال كامل الخطر ، شاء الموظفون البيرقراطيون فيها ان يكسبوا رواتبهم لقاء عملٍ ما ، ففرضوا نظام توزيع السكر واللحم والزبدة وغير ذلك .

ولربما كان ما دفعهم الى ذلك الخوفُ من استفحال السوق السوداء، وجشع التجار . ذلك ان التجار في كل مكان هم الذين يكسبون من الحرب . ان الجنود ، وهم من الفلاحين والعمال وأبناء أصحاب المهن الصغيرة، يواجهون غول الحرب . والرأسماليون يزيدون ثرواتهم . ويكون هؤلاء الرأسماليون ، إما اصحاب مصانع تستفيد من الحرب او اصحاب أموالٍ يسارعون الآن الى توظيفها في التجارة .

لن نعيش حتى نهاية الحرب

ومهما كان الحال ، فقد ظلت الحرب طوال سنة ١٩١٨ تبدو وكأنه لا نهاية لها .. انها امتداد طويل للسأم ، فإذا تحرك ذلك السأم في ميدانٍ ما ، فلفترة قصيرة ثم يعود الى الخمود .

وحتى في ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨ سئل اللورد نورثكليف ، صاحب مجموعة الصحف المعروف في بريطانيا ، عن المدى الذي يقدّره لاستمرار الحرب ، فقال : « لا اظن احداً منا سيعيش حتى نهاية هذه الحرب ! » . والمفروض طبعاً ، ان يكون الصحافي الكبير اوسع اطّلاعاً من غيره ، فكيف يقول الناس العاديون !

ويرى المؤرخون الرسميون للدول المتحاربة ان نصف الحرب قد تمّ الخلاص منه في آذار (مارس) سنة ١٩١٨ ، لكن على الورق على كل حال . فبعد توقيع الهدنة في الجبهة الشرقية ، انغمس الألمان والبلاشفة في مناورات سياسية طويلة قبل انفضاض مؤتمر الصلح بينهما .

ولا مانع من ايراد وجهة نظر الجانبين ؟

كان الوفد الروسي يضم بعض « المثقفين » كما سماهم البلاشفة ، وبعض الفلاّحين ، والجميع برئاسة رجـــل عسكري ، هو تروتسكي . وهو يهدف من المفاوضة الى اخراج الألمان من الأراضي الروسية اولاً . وتثبيت سيادة البلاشفة على « روسيا الأم » ثانياً . لذلك فهو يصر على « ان رأي الشعب هو الحكَم بيننا » ، ولكنه يوجّه الى الألمان سؤالَ « وكيف يمكن ان يقول الشعب رأيَه وأرضُه لا زالت تحتلها جيوشكم ! »

وكان الوفد الألماني برئاسة كولمان . لكنه واقع تحت تأثير هوفمان ، القائد العسكري في الجبهة الشرقية . وهو يريد ضمان عدم نقض البلاشفة للهدنة ثم الصلح ، وتوسّعَ المانيا الى الشرق على حساب بولندا . وضمانَ استمرار تدفق القمح الروسي الى النمسا والمانيا .

ولما كان من العسير التوفيق بين رغبات الجانبين ، فقد فشلت جلسات مؤتمر الصلح . وعند ذلك تغيّرت استراتيجية الجانبين :

أصبح تروتسكي يطمح الى قيام ثورات « الكادحين » كما سمّاهم ، في كل من النمسا والمانيا .

واصبح هوفمان يطمح الى امكانية انبعاث الرجعية القيصرية والاطاحة بنظام البلاشفة هؤلاء ..

لقد صوتوا بأقدامهم ! !

وحين عاد تروتسكي الى لينينغراد للتشاور مع « الرفاق » بصدد فشل المؤتمر ، وجد اغلبية اللجنة المركزية للحزب منساقةً مع تأييد استئناف الحرب . لكن لينين عارض في ذلك ، وأقنع « الرفاق » ان الجنود الروس لن يحاربوا . وقد سأله احدهم على أي اساس بنى هذا التقدير ، فكان جوابه واقعياً ومضحكاً معاً . لقد قال : « إنهـــم صوّتوا ضد

الحرب » وقال السائل : « لكنه لم يجرِ تصويت البتّة ! » ، فقـال لينين : « بلى ، لقد صوّتوا بأقدامهم » .

والحق ان هذا التصويت العجيب الشكل ، اي الفرار من الجيش ، هو الذي أجبر روسيا منذ اول الطريق ان تنسحب من الحرب. فالروس كانوا لا يودون الحرب .

المناورة :

حينذاك عاد تروتسكي الى برست ليتوفسك للتفاوض . لكنه هناك جاء بخدعة غريبة .. لقد رفض شروط الألمان للصلح ، كما انه لم يُبدِ اي استعداد لمعاودة القتال . بهذا كان موقفه « لا صلح — لا حرب» . وكان هذا ما أثار الجنرال هوفمان ، اذ كان هذا كرجل عسكري ، لا يفهم اي انهاء للحرب الا بمعاهدة صلح . لكن .. ها هو الآن ، لا هو في حرب ، ولا صلح . فماذا يفعل ؟ لقد اعلـن نقض الهدنة ، وساق جيوشه باتجاه لينغراد .

ولما لم تكن هنالك مقاومة ، فقد نقل البلاشفة عاصمتهم الى موسكو. ثم اتصل تروتسكي بالحلفاء مستفسراً عن مدى المساعـدة التي يمكنهم تقديمها لروسيا لو قرّرت القتال . وكان موقف الحلفاء هذه المرة مربكاً. إنهم لا شك يتمنون هزيمة المانيا بأي طريق ، لكنهم ايضاً حانقون على البلاشفة . وقلّب عسكريو الحلفاء وسيـاسيوهم الأمر على مختلف وجوهه . واخيراً قرروا :

موقف الحلفاء

« ان البلاشفة ، بمبدأهم الجديد الذي يعتمد على صراع الطبقات ، ويطلب تحرير المستعمرات في آسيا وافريقيا وغيرها ، لهو أشد خطراً على بريطانيا وفرنسا من روح العسكرية الألمانية . واذا كان بالوسع التساوم مع المانيا في وقت من الأوقات ، سواء ، إبّان الحرب او بعدها ، فإن

ذلك من العسير مع هؤلاء المناكيد . لكن .. لما كان مما ييسّر لنا الانتصار في الحرب ان نُرهق كلا العدوين ، فمن الواجب ان نغتنم هذه الفرصة فلا نسمح بالصلح بينهما . وانطلاقاً من هذا ، لن نعرض مساعدة فعّالة على موسكو ، لكننا سنشجعها على استئناف القتال . »

على اساس هذا التقرير ردّ الحلفاء على تروتسكي قائلين : « الآن تصرّفتم كما ينبغي ، وستساعدكم اليابان من الشرق اذا قبلتم » .

ضغط لينين

ادرك لينين ان بريطانيا وفرنسا تتخذان المساعدة الظاهرية سبيلاً لاضعاف نظامه الجديد ، تمهيداً لدفنه بعد نهاية الحرب . ولذلك رفض تلك المساعدة ، ودفع مفاوضيه الى برست ليتوفسك للمرة الأخيرة . وهناك أمرهم بتوقيع شروط الصلح في ٣ آذار (مارس) مهما كانت، ودون قراءتها . وقد قال بعد ذاك : « الآن انتهينا من حرب خارجية، لنلتفت الى حرب داخلية نعلنها على الحياة الطبقية واوضاع القرون الوسطى.. الآن يبدأ التصنيع » .

فما هي شروط الصلح ؟

طبيعي ان تكون مجحفة ، فقد سلخت عن روسيا جميع ما استحوذ عليه القياصرة من الأراضي غير الروسية ، مثل بولندا ، وجمهوريات البلطيق . وحتى اكرانيا ، وهي ارض روسية محضة ، غدت مستقلة اسمياً ، لكنها خاضعة للنفوذ الالماني بالفعل .

ثم عقب ذلك صلح الماني مع رومانيا لم يكن أقل اجحافاً .

الموقف في الغرب

حين نتساءل عن الموقف في الجبهة الغربية ، يتوجب علينا ان نستطلع رأي لدندورف عن ذلك . فما هو رأيه ؟

منذ ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ كان لدندورف قد قرر « ضرورة احراز نصر حاسم سريع ، في الغرب في السنة القادمة» . وقد انطلق في ذلك من تقديره ما يلي :

« ان الحصار الذي تفرضه بريطانيا على المانيا آخذ في الاشتداد . والجيش الفرنسي يقوم الآن باستعادة قواه ، ولربما توافر عدد القوات الامريكية التي ستعمل في فرنسا في السنة القادمه ، وهي قوات جديدة لم تشترك في الحرب بعدُ ، كما ان المجهود الحربي الامريكي سيسندها على كل حال .

وها هي حليفات المانيا تتفلت من قبضتها ، اما الساسة الألمان ومعظم الشعب ، فإنه يرضى بإنهاء الحرب عن طريق صلح غير حاسم . لهذا فان عام ١٩١٨ هو الفرصة الأخيرة لإقصاء فرنسا من الحرب بعد دحرها. فإذا تم ذلك ، أمكن التفاوض مع بريطانيا من موقف المنتصر ، او سحقها هي ايضاً إن ركبت رأسها . »

ما هي خطة لدندورف ؟

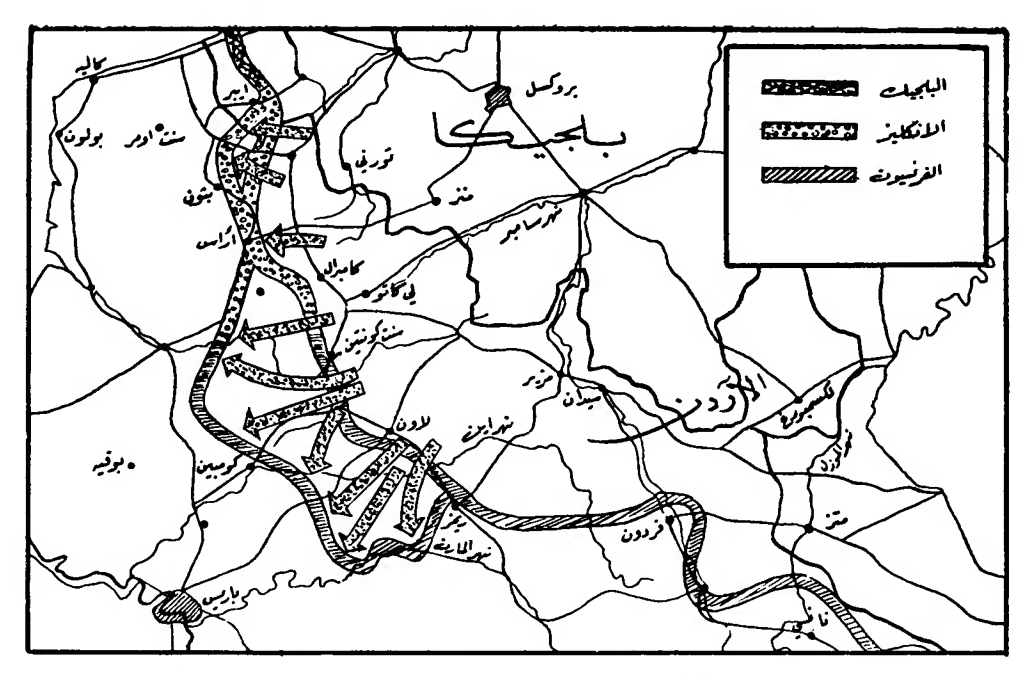
كانت قوات الالمان والحلفاء متعادلة تقريباً حتى بعد ان جلب الألمان ٥٢ فرقة سحبوها من جبهة روسيا . وكانت اسلحة الطرفين من طراز واحد تقريباً . اذن فعامل التكتيك هو الذي يمكن الاستفادة منه . وهو فعلاً ما استخدمه لدندورف . لقد اراد ان يعود بالحرب الى « حرب حركة » . ويتم له ذلك بالطريقة الآتية :

عليه ان يبقي خط الجبهة المخندِقة غير كثيف الرجال ، وان يجمّع غزارة قواته في نقطة الهجوم وحدها ، ثم يباغت ، دون تمهيد بالقصف المدفعي ، ويتحرك على شكل حركة التفاف . ان الكماشة السريعة وذات القوة الضاربة الصاعقة هي التكتيك الموفّق . وأين يتركّز الهجوم ؟

في ايبر . هذه نقطة تتصل فيها القوات البريطانية بحليفتها الفرنسية .



لدندورف يرى ضرورة القيام بضربة حاسمة في سنة ١٩١٨ ، ويرسم خطة لها



تنفيذ خطة لدندورف الهجومية سنة ١٩١٨

وبعد اكتساحها ، قدّر لدندورف أن تنشطر القوات الألمانية الى شطرين، واحد يتجه الى الشمال مستهدفاً موانىء بحر المانش والثاني يتوغل في قلب فرنسا نحو باريس .

ومن شأن الاستيلاء على موانىء المانش، ان:

١ ــ يقطع اتصال الجيوش الانكليزية بمصادر تموينها .

٢ ــ يطوّق جناحها الأيسر كاملاً من الشمال .

٣ ــ يضطرها الى عدم التعاون مع الجيوش الفرنسية في الوسط .

وكذلك من شأن التوغل صوب باريس ان يحطم معنوية الفرنسيين فتستسلم جيوشهم .

كان الجنرالات يقدّرون ان هجوماً ألمانياً سيتّم سنة ١٩١٨ ، وقد توصّلت استخباراتهم الى تحديد ميعاده تقريباً .

وكان هذا يقتضي تعاوناً أكيداً بين هايغ وبيتان . لكنه حين اقترح بيتان ضرورة قيام الانكليز بأخذ مسافة أطول من خط الجبهة ، عارض هايغ ذلك ، زاعماً انه في حاجة الى كل رجل من قواته . وعند ذاك دبّ الخلاف بين القيادتين فطُلب عقد جلسة لـ « مجلس الحرب الأعلى » ، الذي قرر ان يتولى الجنرال فوش تنسيق العمليات بين الجيشين ، كما جعل تحت تصرفه المطلق ٣٠ فرقة .

لكن هايغ استنكر القرار . وكذلك روبرتسون .. وحينذاك ساندهما الملك جورج ، غير ان لويد جورج هدّد الملك بتقديم استقالته ، فرضخ الملك وانسحب متخاذلاً عن تأييده للجنرالات . اما روبرتسون فقد ترك منصبه ، وأما هايغ فعاد الى فرنسا مغلوباً على أمره . وهكذا انتصر لويد جورج ووزارة حربه .

والحق ، ان بيتان الفرنسي ايضاً لم يستسغ وجود فوش كرئيس أعلى منه . ولذلك اتفق مع هايغ ان يتبادلا التعاون فيما بينهما دون حاجة الى اشراف فوش .

الهجوم

كان يوم ٢١ آذار (مارس) سنة ١٩١٨ الكثيف الضباب هو اليوم الذي قرر فيه لدندورف ان يبدأ الالمان هجومهم ، فاستفادت قواتهم الزاحفة من عامل الضباب كثيراً . إذ استطاع المشاة الألمان ان يتخطوا مواقع فصائل « الماشين – غن » البريطانية دون انتباه تلك الفصائل . حتّى اذا ما أعملوا فيها السلاح الأبيض من الخلف تزعزع الخط الانكليزي ، وولّى جنوده هاربين في غير نظام . لقد انتصر التقدّم الألماني .



من فصيلة ماشين غن ، جنود بريطانيون حملوا رفيقهم الجريح أولا ، لكنهم تركوه يموت ! حين دهمهم المشاة الألمان .

وحين تهاوى الخط الانكليزي ، بانت الهزيمة على وجه هايغ .. فصاح مستنجداً بزميله بيتان . فبعث اليه بيتان ١٣ فرقة ، لكن هذه أيضاً محقها الجيش الألماني . انهـا عجزت عن الصمود .. وهكذا اسقطت ايبر .

وفي ٢٦ آذار (مارس) عقـد « مجلس الحرب الأعلى » للحلفاء اجتماعاً ، وكان فيه بيتان وهايغ وكليمنصو ولويد جورج . ووقتذاك أشار بيتان الى هايغ وقال لـ كليمنصو : « ها هو جنرال سيستسلم في الميدان بعد قليل ، ثم أتبعه أنا » .

ومعنى ذلك انه ما بين ٢١ الى ٢٨ آذار (مارس) ، كانت كفة

الحرب بكاملها الى جانب الألمان . كانت بريطانيا توشك ان ينهدّ مجدها الى الأبد ، وتتحرر مستعمراتها . ومثلها كانت فرنسا ..

خطأ قد وقع ..

في ٢٨ آذار (مارس) سكر لدندورف بالنصر ، فعدل عن تبنّي تكتيك « حرب الحركة » ، ولهذا نجده يصدر أمره باحتلال آراس ، ثم أميين . وكانت حامية آراس بريطانية كثيفة القوة ، فصمدت وأعاقت تقدم المهاجمين . ثم جاءتها امدادات غزيرة من هايغ المتقهقر الى موانىء الشمال ، فتحقق الألمان من وفرة الامدادات ان البريطانيين لا يزالون قادرين على الاستمرار في الحرب .

وهكذا توقف الهجوم في ٥ نيسان (أبريل) . لكن إعادة كرّة الألمان كانت محتملة الوقوع . غير ان الألمان غيّروا وجههم الآن . ففي ٩ نيسان (أبريل) هاجموا هيزبروك Hazebrouck في الفلاندرز . وبدلاً من قذف ٣٥ فرقة الى الجبهة قذفوا ٩ فرق فقط .

ومن سوء حظ الحلفاء ان فرقة برتغالية واحدة كانت في ذلك الموقع . فحطمها الألمان ، واستطاعوا فتح ثغرة عرضها ٣٠ ميلاً وعمقها ٥ أميال في تلك الجبهة .

وقد قذف لدندورف معظم احتياطيّه في هذه الجبهة ، فغدا موقف هايغ خطيراً . لهذا نراه مرغماً الآن حين أخلى « باشنديلي » اي موقع « معركة الوحل » التي كلفته غالياً في عام ١٩١٧ . انه يخشى التطويق ، ولذلك يسارع لحماية موانىء الشمال . وفي ١٢ نيسان (ابريل) أصدر أمره المشهور :

« بظهورنا الى الحائط ، وإيماناً منا بعدالة قضيتنا سنقاتل حتى النهاية » . وكان لهذا الأمر وقع مذهل في بريطانيا . ان معناه ان الجزيرة البريطانية

سريعاً ما تغدو في دوامة الخطر !!

حركات دراماتيكية

الآن كان على لويد جورج أن يتحرك .. وفي عنفٍ دراماتيكي اندفع الى القيادة العامة فأصدر أمره : « يُنقل كل رجل عسكري في بريطانيا الى الجبهة » ، ثم هرع الى وزارة الخارجية ، ومنها اتصل بالرئيس ويلسن مستنجداً ، راجياً ان تكون القوات الأمريكية خاضعة لقيادة فوش . وكان الجنرال بيرشنغ ، قائد تلك القوات يصرّ على ابقائها مستقلّة في العمليات الحربية ، من قبل ، فجاءه أمر الرئيس ويلسن بأن يكون احتياطياً للبريطانيين والفرنسيين عند الحاجة.



الجنرال بيرشنغ
«التسليم بدون شرط » هذا مذهبه

ولم يكتف لويد جورج بذلك ، بل انطلق الى مبنى الادميرالية فأصدر أمره هناك أيضاً : «تزداد النقليات عبر قنال المانش إلى ٣ أضعافها» .

وحقّ ما قاله بعض النقاد الفرنسيين « لقد وصلت السكين الألمانية إلى عنق البريطانيين ، وها هو رئيس وزرائهم يعتريه الجنون .. ليتها

تقطعها » .

وفي ٢٩ نيسان (أبريل) توقف الهجوم الألماني ، لا بفضل صمود البريطانيين ، وانما لأن لدندورف قـرر أن يجرب تطبيق خطته ضد الفرنسيين .

التحضير ضد الفرنسيين

اثناء ما كان هايغ وجنوده يصلّون جحيم النار الألمانية طوال شهر كامل ، ظل فوش يقول : « هذه عملية فرعية ، أما الحملة الكبرى ، فلم يكشف عنها النقاب بعدُ » . وبعد شهر تقريباً من الاستعدادات المركّزة قام الألمان بهجومهم .. كانت القوات المتقدمة قد بدأت حملتها الأولى بروح عالية ، اما بعد اصطدامها بالانكليز ، وإصابتها بخسائر كبيرة — وان كانت قد ألحقت بعدوها خسائر اكبر بكثير — فقد غدت منهوكةً تفضل الراحة قليلاً . لكن لدندورف عنيد مصرّ على اكتساح الفرنسيين .

وهنا يجدر بنا ان نرجع الى الوراء قليلاً ، فنقول :

لقد خسر جوفر الحرب لأنه كان يؤمن بالهجوم ، حتى رغم الفشل . وهكذا فعل هايغ . وكسب فولكنهاين حربه لأنه كان يهاجم ويدافع . والآن جاء دور لدندورف . انه يهاجم ، لكنه يربح . غير ان هذا الربح الموقت لن ينفعه . لقد افلست نظرية الهجوم .. وهي هي التي ستحطم لدندورف الآن .

حرب الدعاية

في هذه الأثناء استعرت حرب الدعاية على أشدّها وانصبّت منشورات التحريض مغريةً الجنود الألمان بالفرار ، مصوّرةً لهم لذة الحياة في غير الخنادق . لكن هذا لم يُجدِ فتيلاً . وحينذاك وجدت دعاية الحلفاء من الافضل لها ان تجعل امبراطورية النمسا هي الهدف

فالقوميات المتنافرة هناك اقرب الى احتمال القيام بالثورة من فرار الجنود الألمان .

وهنا قدم التشيك الطُعم . فقد طلب هؤلاء من الحلفاء ان يعترفوا بهم كدولة مستقلة وشريكة في الحرب الى جانب الحلفاء . وكان الكثير من هؤلاء ممن سبق ان سقطوا اسرى في ايدي الجيوش الروسية ، قد تم جمعُهم كي يصار الى بعثهم الى بلادهم ، بواسطة سكة حديد سيبريا ، الى فلادفستك ، من حيث يُشحنون الى امريكا ، ليعودوا بعد ذلك الى النمسا . وكان المنغاريون الأسرى رفاقاً لهم في هذه العملية .

اما البلاشفة ، فقد اعتبروا الأسرى التشكيين عملاء مخربين لصالح الحلفاء وضد روسيا . ولذلك أمروهم بأن ينحلّوا .

وفي ١٤ أيار (مايو) اختصم التشيكيون والهنغاريون الأسرى ، وجميعهم في محطات سكة الحديد . واستطاع التشيكيون ان يتغلبوا على خصومهم ، بل انهم سيطروا على الخط الحديدي نفسه من «سماره» الى



بريد الحمام الزاجل في الحرب وقد استعمله التشيكيون

«ايركوتسك» . وكان هذا مما يهدد البلاشفة الروس ، كما انه لصالح الحلفاء في إثارة « حرب تدخل » ضد البلاشفة . لهذا نجد بريطانيا وفرنسا تقنعان الولايات المتحدة بأن حرب التدخل ضد روسيا ليست حرباً صليبية ضد المبادىء الاشتراكية ، وانما هي لانقاذ « الأبطال التشيكيين » .

اذن ، لقد باشر الحلفاء حرباً ثانية قبل ان يفرغوا من حربهم الأولى .

حال الامبراطورية

وفي أحداث التشيكيين هؤلاء كانت علامة نهاية امبراطورية آل هابسبورغ في النمسا . فقد اعترف الحلفاء باستقلال « تشيكوسلوفاكيا » ، وعجز الامبراطور شارلز عن تحديهم في ذلك .

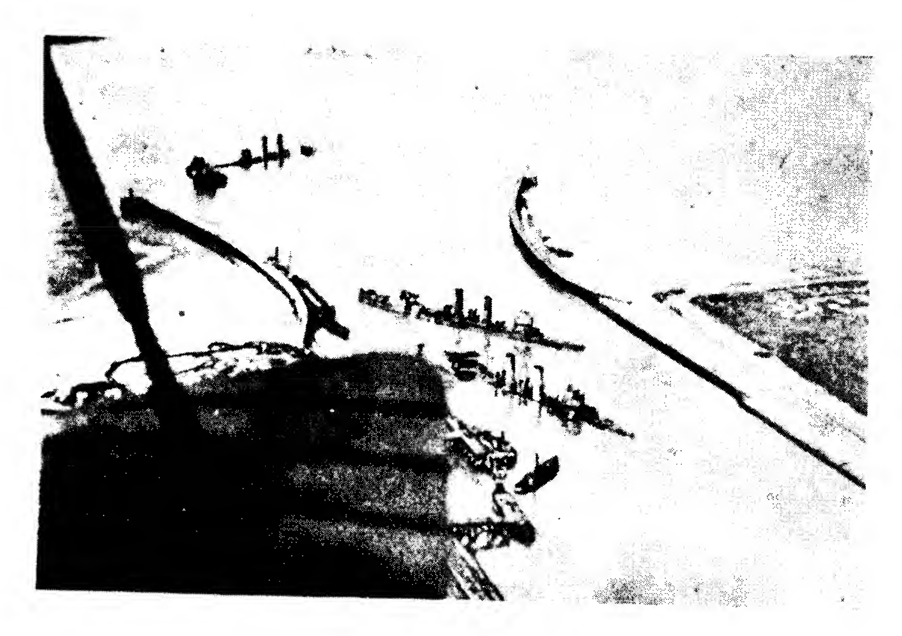
وكانت الامبراطورية الآن غارقة في لجة من الفوضى . فالجنود العائدون من الأسر في روسيا يجوبون البلاد ويقومون بمختلف الفظائع ولا يجدون من يوقفهم عند حدهم . وكانت القطارات تُنهب وتُشعل فيها النار احياناً ، والمحاكم المدنية لا تنفذ احكامها . وحتى الجيش كان لا يطيع ضباطه وقادته حين يطلبون اليه ان يرفع معنويته في الحرب .

ونحن نذكر ان الامبراطور شارلز قد حاول الاتصال بالحلفاء لعقد صلح منفرد معهم ، ولكن المساعي فشلت في حينها .. وهو الآن ينتظر نصراً تحرزه المانيا فينقذ هو امبراطوريته من الدمار .

إذن فهو يريد نصراً ألمانياً ليتسلح به امام الحلفاء ، بغدر حليفته المنتصرة !!

ضرب زيبروج

اثناء ما كانت خطة لدندورف في ضرب البريطانيين والتحضير لضرب الفرنسيين يجري تطبيقها على قدم وساق ، واملاً في تخفيف الضغط على الجيش البريطاني الذي «يقاتل وظهره الى الحائط» — اصدرت الادميرالية



الحصار البريطاني الذي فشل في سد منافذ مرفأ زيبروج .

البريطانية أمرها الى الادميرال كيز Keyes بالقيام بعملية بحريـــة كانت أجرأ ما تم في الحرب العـــالمية الأولى . لقد طلبت اليه مهاجمة زيبروج وأوستند . وكان هذان الميناءان ملجأ قد تستعمله الغواصات الألمانية ، فتضرب السفن المعادية لها في القنال . لكن هذا التقدير كان خاطئاً تماماً. اذ لم يسبق للغواصات الألمانية ان استعملت أياً من المرفأين .

وعلى شكل قافلة ، تقدم كيز بسفنه ، وحاصر زيبروج فأغرق فيه ٣ سفن . إلا ان ذلك لم يمنع من استعمال المرفأ استعمالاً عادياً للسفن فيما بعد . وبهذا فشل هدف البحرية البريطانية ، كما عرّضت سفنها لخطر ماحق من قبل الغواصات الألمانية لو كانت الأخيرة فعلاً هناك .

وكان أهم من هذه العملية ، ولو أنه اقل دراماتيكيةً ، ذلك السدّ من الألغام الذي نثره الأسطول البريطاني في مضيق دوفر ، وتلك السلسلة

من الألغام ايضاً التي وضعها الامريكيون من بحر الشمال حتى سواحل النرويج . وان كانت حلقات هذه السلسلة لم تتصل الواحدة منها بالأخرى أبداً .

نعم ، كانت هنالك سفن المانية تُغرق ، ولكنها ظلت على الدوام، أقل مما تبنيه احواض المانيا عوضاً عنها .

قوة الطيران الآن

قلنا في السابق ان سلاح الطيران لم يكن فعّالاً في الحرب العالمية الأولى ، وان الطائرات كانت سلاحاً استكشافياً مساعداً للمشاة . ومع هذا فإن غارات جوية كثيرة كانت تقوم بها « الزبلينات » ثم المناطيد واخيراً الطائرات الألمانية ، على بريطانيا . ولم يتوقف هذا النشاط إلا في شهر ايار (مايو) سنة ١٩١٨ . وكانت قبل ذلك قد أثارت الفزع والرعب في قلوب افراد الشعب البريطاني ، حتى ان نائباً في مجلس العموم



باريس تحت نار القصف الألماني
مدفع بيرتا النمساوي يقصف المدينة

قدم اقتراحاً يطلب فيه « اعدام جميع الملاحين الجويين الذين يُلقى عليهم القبض على الأراضي البريطانية بعد تحطّم مركباتهم الجوية » .
ولما خُذل الاقتراح زعم صاحبه ان لدى الألمـان لوائح تفصيلية تورد حججاً دامغة ، وتضم اسماء (٤٧٠٠٠) شخصية انكليزية — يتعاطون اللواط .

قصف باريس

واذا كانت فرنسا قد ظلت بعيدة عن القصف الجوي ، فقد جاء دورها الآن لتواجه قصفاً من نوع آخر . انه قصف مدافع بيرتا الضخمة. ففي يوم « الجمعة الحزينة » تهاوت شظايا القنابل على باريس . وكان القصف يتم من مسافة ٧١ ميلاً . وبعد هذا التاريخ ظلت باريس معرضة للقصف ، وان كانت آثاره لم تكن مدمّرة الى حـد بعيد . اما من حيث خسائر الأرواح فقد كانت بالغة . وأهم من هذا ، ان الحربَ الآن قد دخلها رأي جديد . فقد غدا بعض القادة الألمان يفكرون ان مدينةً ما قد تسقط بعد تخريبها .

لدندورف وفرنسا

كل ما سبق كان تمويهاً لخطة لدندورف الكبرى ، ألا وهي جعل فرنسا « تجثو على الركَب » ، كما قال بيتان . ولهـذا نجد الجيوش الألمانية تتسلل صوب الجنوب في سرية تامة،وبعد تضليل دوائر استخبارات الحلفاء ، بنجاح . كان لدندورف الآن يود ان يضرب ضربته ، فأين يفعل ذلك ؟ في « أين Aisne » ، النقطة التي فشل فيها هجوم نيفيل سنة ١٩١٢ .

وهنا ايضاً سار الحظ في ركابه . لم يكن الحلفاء يقدّرون ان عدوهم سيضرب هنا . ولهذا فقد تركوا جبهتهم في ذلك الموقع رقيقة لا تستطيع

الصمود . كان هنالك ٥ فرق انكليزية مضناة ، قد انهكها هجوم الألمان في فلاندرز ، فأبعدها هايغ الى «أين» للراحة والاستجمام . وزاد الطين بلة ، ان الجنرال الفرنسي الذي يمارس القيادة العامة في الموقع كان محدود الخبرة العسكرية بنظرية الحرب ، الجديدة . ولهذا نراه يُبقي معظم قواته في مقدمة الجبهة .

على هذه الحال ، جاء الألمان يهاجمون . وفي ٢٧ أيار (مايو) تقدمت ١٤ فرقة المانية شديدة فسحقت كل مقاومة ، وفتحت ثغرة في الخط ، ثم توغلت قُدماً مسافة ١٠ أميال في يوم واحد .. وكان هذا أبعد غور تحرك فيه الألمان منذ اكتساحاتهم للعدو في سنة ١٩١٤ .

وجُنّ الجنرالات الحلفاء .. وأكلت ارض الميدان الوفاً من ابناء بريطانيا وفرنسا ، وعمّ الرعبُ شعبي البلدين . ان الغول يتقدم ! ها هو فولكنهاين الساحق يبرز من جديد ، لكنه في معطف لدندورف.



هذه الجثث حجزت التقدم الألماني عن طريق باريس

وفي ٣ حزيران (يونيو) كان الألمان قد غدوا على ٥٦ ميلاً من باريس .

والآن .. لعب الغرور برأس لدندورف . ألا يرى قواته الظافرة تسحق كل مقاومة ! ألا يود اختصار الوقت للاطاحة بفرنسا ! اذن ، إن عليه ان يقذف المزيد من قواته في الجبهة .. وهذا ما كان ينتظره فوش .

فوش

كان فوش هو القائد الوحيد الذي أحسن تقدير الموقف . انه لم ينتحب خائراً مثل هايغ ، ولم يكن احمق أهوج مثل نيفيل .. وهذا ما تم عنه الخطة التي غامر بوجوده كاملاً في سبيل تنفيذها . لقد رفض مساعدة الجيش الفرنسي المهزوم بينما كان ذلك الجيش يتلقى الضربات الموجعات .. واصطبر . ومع توغل الألمان في الثغرة التي فتحوها ، كان فوش يركز قواته على جانبي خط تقدمهم .

في الصحف ظهرت مانشيتات « اننا على ابواب (مارن) جديدة» ، وفي لندن قرأ الناس : «تذكروا السير جون فرنش» . وحتى في مجلس الأمة الفرنسي استولى على الممثلين الذعر .. اما فوش فقد ظل ثابتاً .

ها هو كليمنصو يدافع عنه بكل ما اوتي من قوة ، على الرغم من علمه ان منصب رئاسة الوزراء سيطير من تحته ، اذا فشل فوش .

وكان مما زاد في سوء الحال ، ان انتشر بين جيوش الحلفاء وباء « الانفلونزا الاسبانية » ، فقضى ذلك على عدد لا بأس به من الشعب والجيش على السواء . وقد فسر بعضهم ذلك بأنه لعنة تصبها السماء على الحلفاء . واشار بعض رجال الدين ان الرب قد سلّط « أتيلا » من جديد . وقالوا : « لقد طغى الناس ، وخالفوا وصايا الرب ، فحق عليهم العذاب » .

ومجمل القول : كانت فرنسا آنذاك كفتاة قاصرة ، تحط قدمها على

عتبة الحياة الواقعية ، فهي قليلة الخبرة والدراية ، اولاً ، ومعدومة النصير ، غير الطامع فيها ثانياً . ومع هذا ، فقد اوقف فوش الزحف الألماني .

* * *

في هذه اللحظة يمكن القول : « لقد بلغت الحرب ذروتها » ، فالموت بوباء الانفلونزا وبالحراب يضحك ساخراً من تفاهة البشر . والخوف من الموت ، وهو أشد إيلاماً من الموت ، يعلّق سيفه فوق كل رأس .

وفي تلك الأيام تذكّر عسكريو الألمان والحلفاء لينين، وأدركوا كيف انقذ بلاده من الجحيم .

وكانت هذه الذكرى اشد ما تكون بروزاً في نفس لدندورف شخصياً.



اللاجئون الفرنسيون من فظاعة الحرب

لقد قرر ان يجعل الحرب شبه مناورات سياسية ويود ان يعرض شروطاً للمفاوضة ، فالصلح .. انه منتصر الآن وفي مُكنة الفزع المسيطر على الحلفاء ، ان يقنع ساستَهم بالرضوخ جزئياً لمطالب المانيا .

بهذا التفكير تحرك كولمان،وزير الخارجية الألماني . وفي ٢٤ حزيران (يونيو) أعلنه . لكن لدندورف ، عاودته طبيعة الذئب من جديد ..

لهذا نجده يتحرك .. فسرعان ما أقصي كولمان من منصبه . وهكذا ضاعت آخر فرصة لامكانية انهاء الحرب عن طريق المفاوضة .

هنا يمكن القـــول : « ان غزو بلجيكا في مطلع الحرب ، كان السرابَ الذي لاح وكأنه النصر لألمانيا ، ثم ما لبث ان ضيّعهـــا في صحراء الهزيمة » .

* * *



وزارة الحرب الامبراطورية في بريطانيا وقد بدا الى جانب لويد جورج كلبه .

في هذا الموقف صار من خطة لدندورف ان :

١ – يكسب نصراً حاسماً في فلاندرز .

٢ – يضطر الحلفاءُ الى سحب جيوشهم نحو الجنوب للدفاع عن باريس .

٣ – يسارع الى انهاء الحرب ، لأن حد اصطبار الشعب الألماني بلغ درجة التهديد بالانفجار . فما هو ردّ الحلفاء ؟

كان فوش قد قوّى جناحيـــه في الجنوب ، بأن سحب بعض احتياطيّه من الشمال . وكان هايغ قد استعاد انفاسه بعد خذلانه السابق ، وركّز قواته في الشمال قبالة فلاندرز . اذن ، لم يكن الحلفاء ليؤخذوا على غرّة فيما لو هاجمهم الألمان في فلاندرز . فهم يمتلكون عدداً وافراً من الدبابات ، وأرضُ فلاندرز صالحة لاستخدام هذا السلاح .

وكان دور وزارة الحرب الامبراطورية في بريطانيا ان تقلق الآن . لقد حرضوا هايغ ان يتجاوز أوامر فوش ، وأن يدافع ، مع انهم هم الذين فرضوا فوش ، على هايـــغ . لكنه الآن رفض . لقد استنكر « عدم الانضباط » على الرغم من انه كان لا يثق في حكمة فوش الا بمقدار ثقته في سداد رأي الساسة المدنيين !

وحلّ موعد الهجوم الألماني في ١٥ تموز (يوليو) من ذلك العام . وكان هو الحملة الكبرى الأخيرة .

الهجوم الأخير

في ريمز Rheims كان الهجوم الأخير . وفيه أبدى الفرنسيون بعض الحنكة فقد سمحوا للمهاجِمين الألمان ان يتقدموا ، حتى إذا اصبحوا بين نيران « المــاشين – غن » الفرنسية من على الجانبين ، انصبّت نيرانها الفتاكة على المشاة . وعند ذاك عجز الألمان عن التقدم وغدوا محصورين بين فكّي كماشة ، أخذت تضيق عليهم تدريجياً .

كان الجيش الفرنسي قسمين ، واحداً الى الشرق من ريمز ، والآخر غربها . وكان الجناح الشرقي ضعيفاً ، فانسحب واتخذ مركزه مع الجناح الغربي . وفي نفس الوقت جلب فوش قسماً من احتياطيّه وقذفه في مواقع الجناح الشرقي المنسحب . وتوغل الألمان ، فتم حصرُهم .

وفي المواقع الراهنة كان الألمان في اقرب نقطة على باريس ، وكان كليمنصو يقول : « الآن ، والآن فقط ، أسمعُ لهاث فوش . اننا على وشك مواجهة كارثة » . فحتى صاحب « انني سأحارب » فقد ثقته الآن بقائده ، وجيوشه . أما فوش ، فكان يقول : « الآن بدأت حربي » . والواقع فعلاً ، ان « حربه » قد بدأت في تلك الأثناء . فها هي خطته يطبّقها الألمان أنفسهم ، ولصالحه ، وفي الوقت الذي حدده .

المجوم المعاكس

في ١٨ تموز (يوليو) ١٩١٨ أصدر فوش أمره بالهجوم على الجناح المكشوف للجيش الألماني المتقدم . وتحرّك الفرنسيون بحذرٍ وحيطة اول



الجنود الفرنسيون يتحركون بحذر وحيطة في هجومهم العام سنة ١٩١٨

الأمر ، ثم ما لبثوا ان تبنّوا خطة « الهجوم الكثيف والضربة الصاعقة » ، فتقدمت أرتال كثيرة من الدبابات بنفس الكيفية التي تمت في موقعة كمبري . ولم يصمد الخط الألماني ، لقد انهار وانفتحت فيه ثغرة .

وهنا برزت نقيصة الهجوم بالدبابات ، اذ ان المشاة لم يسيروا الا ٤ أميال ثم واجهوا دفاعاً جديداً من المشاة الألمان . ذلك ان الخط الألماني كان قد اعاد تشكيله .

ومهما كان الحال ، فبفضل هـذا الحدث تعلّم الفرنسيون كيف يفتحون لهم منفذاً في خط العدو ، وسرعان ما تعلّم منهم الانكليز ذلك .

* * *

والآن ، كان الجناح الألماني في ريمز يتقهقر ، في نفس الحين الذي كانت فيه فرقهم لا تزال تتقدم نحو باريس . وكان لدندورف ، ثقة منه في النصر ، قد حرّك قواته الى متز في الشمال ، وهو ينتظر اصدار اوامره بتطبيق خطة « هاجن » في ٢٠ تموز (يوليو) . لكنه بلغتْه نكبة جناحه على المارن ، فأصدر أمراً بالتقهقر هناك ، ونجا الالمان من فخ فوش .

لقد أُلغيت خطة « هاجن » ، واستعيض عنها بخطة جديدة مفادها ما يلي :

« يظل الألمان يتقهقرون ، مع حماية انسحابهم ، الى ان يتمّ انهاك قوات الحلفـاء المتقدّمة . وحينذاك يصمُد الألمان ، ثم يفاجئون العدو بهجوم معاكس ، مركّز وخاطف . بهذا يغدو بوسع الألمان ان يستعيدوا المناطق التي انسحبوا منها ، ومن بعد ذلك يستمرون قدُماً في هجومهم » .

هذه هي الخطة التي قدّرها لدندورف . لكن .. هل تنجح !

هجوم الحلفاء الموحد

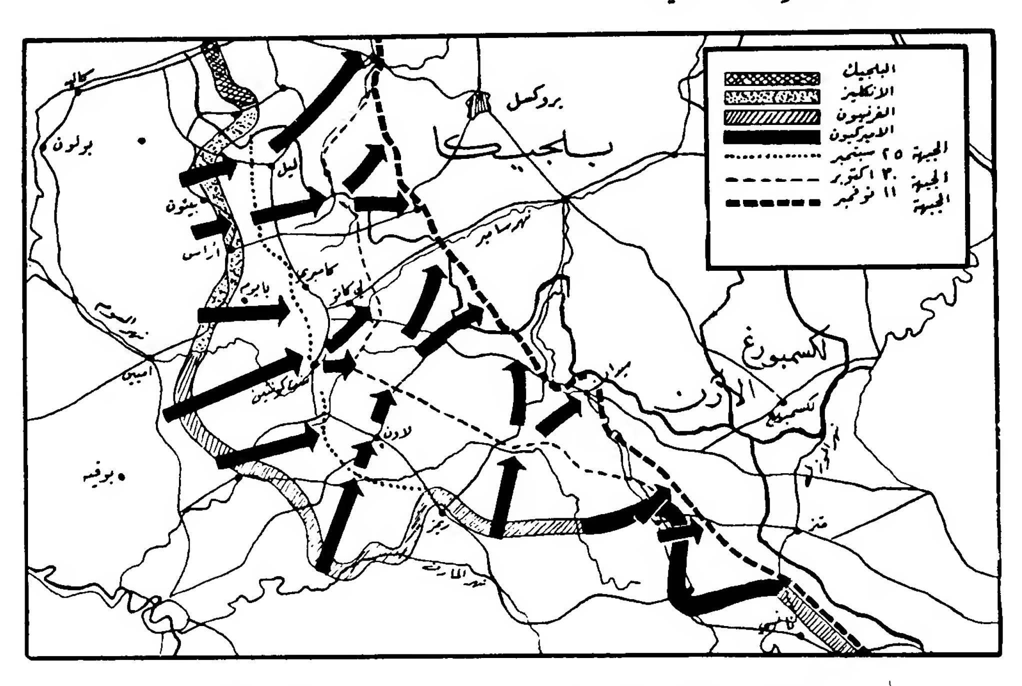
في ٢٤ تموز (يوليو) تقاطر الى مقر رئاسة فوش ، كلٌّ من

هايغ ، وبيتــان ، وبيرشنغ . وفي الاجتماع سيطرت شخصية كبيرهم فوش . وكان رأيه الآن مغايراً لما عهدوه فيه . لقد ابلغهم خطته في عبارة واحدة ، اذ قال : « دقّت ساعة الهجوم العام » ثم شرح لهم خطته في ذلك :

١ — على البريطانيين ان يقوموا بهجوم مركز في اقصى شمال الجبهة بادئين من ايبر .

٢ — وعلى الامريكيين ان يقوموا بهجـــوم مركز في أقصى جنوب الجبهة ، اي قريباً من فردون .

٣ — ويقوم الفرنسيون بجميع جيوشهم بهجوم شامل في الوسط ، اي قبالة الثِقل الألماني .

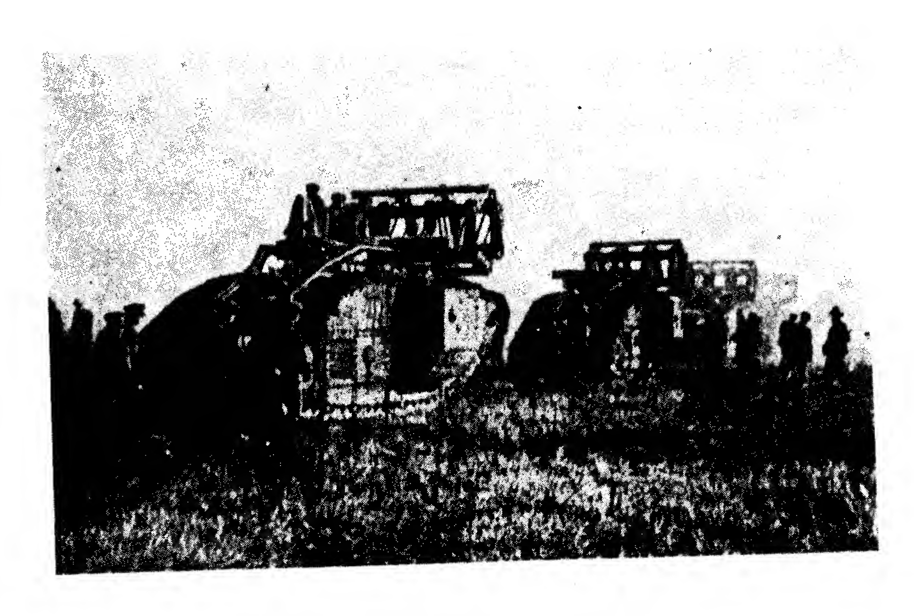


الجبهة ايام هجوم الحلفاء الموحد سنة ١٩١٨ وحتّى اعلان وقف القتال

وكان محدّداً لخطة فوش ان توضع موضع التنفيذ في منتصف شهر أيلول (سبتمبر) . غير ان هايغ وجيوشه لم تكن،أيامَ الاجتماع المذكور ، في وضع يسمح لها بمباشرة الهجوم العام حين يأزف موعده . لهذا نجد هايغ يقوم ببعض العمليات الحربية الثانوية محاولاً تحسين موقفه موقتاً . وأهم عامل في ذلك التحسين ، هو تحرير خطوط السكك الحديدية ألى الشرق من أمين Amiens .

لهذا الغرض جرى نقل القوات الكندية بسرّية تامة ، اي بنفس الأسلوب الذي يستعمله الألمان في مثل هذه الحال . وكان الاستراليون يساعدون هذه القوات ، وتحت إمرة الجنرال السير جون موناش ، الذي يمكن القول ، انه الجنرال الوحيد ذو العقلية العسكرية الحقة في جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى .

وفي ٨ آب (اغسطس) هاجمت القواتُ البريطانية . وكانت قد



الدبابات البريطانية تستعد لاجتياز خط هندنبرغ

استفادت كثيراً من درس موقعة كمبري : فاستعملت ٤٥٦ دبابة الآن.

وكان من حسن الحظ ان واتت طبيعة صباح ذلك اليوم ، فقد ظهر ضباب كثيف . وتمّ النفوذ .. لكن المقاومة اشتدت بعد ذلك . وقد استطاع الانكليز ان يتقدموا ٦ اميال .. لكن الألمان اوقفوهم عند ذاك .

كانت الدبابات قد نفذت الى اكثر من ذلك . إذ سبقت فرقَ الخيّالة ، اما فرق المشاة ، فكانت تعرج متأخرة كثيراً الى الوراء . وكان فوش يود الاستمرار في الهجوم ، دون النظر الى المقاومة ، وعلى هذا الرأي وافق هايغ أول الأمر ، الا انه سرعان ما خضع لضغط ضباطه الأدنى رتبة ، اذ اقنعه هؤلاء بضرورة توقّف هجومهم حين يُبدي الالمان مقاومة عنيدة .

واتبع هايغ هذا الأسلوب .. واتبعه قائده الأعلى فوش ، ضرورة . لقد غدوا الآن يسيران وفاقاً لمبدأ : « هاجمْ في مراكز الضعف ، ودافع فقط حين يغدو دفاع العدو ضارياً » .

وطوال الأسابيع الأربعة التي تلت ، كانت هناك هجومات متعاقبة وقصيرة ، من جانب الحلفاء . فقد هاجم الجيش الفرنسي الثالث في ١٠ آب (اغسطس) ، والجيش العاشر في ١٧ منه ، ثم الجيش الانكليزي الثالث في ٢١ ايضاً ، والجيش الأول في ٢٦ من نفس الشهر كذلك .

وفي آخر هذه السلسلة من الهجومات ، شارك الأمريكيون يوم ١٢ أيلول (سبتمبر) . وقد تحركوا مستقلين ، واستطاعوا اكتساح هضبة سنت ميبل St Mihiel ، الواقعة الى الجنوب من فردون ، في ٢٤ ساعة فقط .

تقييم يوم ٨ آب .

كان لدندورف محقاً حين سئل عن يوم ٨ آب (يوم الهجوم الأول) فقال مقطّباً جبينه حنقاً : «إنه اليوم الأسود في تاريخ الجيش الألماني» . وهو لم يُصدر هذا الحكم ، على اساس ان الجيش الألماني فقد في

ذلك اليوم ، منطقةً استراتيجية ، او لحقت به خسائر جسيمة ، فالواقع ان شيئاً من ذلك لم يحدث ، وانما على اساس ان الحلفاء قد اهتدوا الى اسلوب يكشف نقط الضعف في عمليات الألمان .

اما من حيث فقدان المنطقة او اندحار الألمان ، فالواقع ان جميع تلك الهجومات لم تعُد على الحلفاء إلا باسترداد بعض المواقع التي كانوا



الالمان يتراجعون عبر « الشيمن دي ريمز » ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨

قد خسروها من قبل . كما ان الألمان انسحبوا الآن الى مواقـــع اكثر مناعة وأشد تحصيناً .

واما من حيث الخسائر في الأرواح ، فقد كانت خسائر المهاجمين اكبر من خسائر المدافعين الألمان . حيث كان المدافعون يتقنون حركات الدفاع ، بنفس المستوى الذي يتقنون به حركات الهجوم . اما الحلفاء فكانوا مهاجمين اكثر منهم مدافعين .

اذن ما الذي جعل لدندورف يمنح (٨ آب) ، كل تلك الأهمية ؟

لم يكن ذلك الأسلوبَ الجديدَ وحده . وانما هو ، كما سماه المؤرخ الرسمي الألماني ، « الأثر النفسي » ، الذي خلقه ذلك اليوم . فقد كان الألمان يرفعون راية النصر على الـــدوام .. لكنهم الآن يُضطرون الى التراجع امام القوة القاهرة .

الأثر النفسي :

ان هذا « الأثر » هو الذي « بخّر » إمكـــانية النصر من رأس لدندورف وكبار ضباطه . لقد تحققوا الآن ان الحرب حسمت نفسَها ..



الامريكيون يأخذون قطاعاً لهم في آرغون
ويشاركون في الهجوم الرئيسي

ولم يعودوا ينشُدون النصر وانما اصبحوا يطلبون «مجرد إنهاء الحرب» ، وعن طريق « المفاوضات لا الاستمرار في التحارب » . وهذا ما صرح

به للدندورف في ١٥ آب (اغسطس) .

لكن توقيت البدء في تلك المفاوضات هو الذي سيّر عجلة الحرب بعد الآن . فقد كان للدندورف يرى ان بمقدور المانيا الانتظار حتّى عام ١٩١٩ . بينما كان فوش في الجانب الآخر يرى ان الشروع في الهجوم الكبير سيكون متأخراً جداً ، اذا قيم به في اواسط ايلول (سبتمبر) . ولهذا ، فمن الخير ألا يتم .. لكن الأحداث ثارت غير آبهة بالقائدين . فقد بدأ الهجوم ، على كل حال ، في ٢٦ ايلول (سبتمبر) ، وإن لم يعطِ النتيجة المتوخاة منه .

الأمريكيون يقاتلون :

كان من خطة فوش ان يقوم الأمريكيون بالضربة الحاسمة في موقع آرغون Argonne . وكان من المأمول ان يشلّ تقدمهم خطوطَ المواصلات الألمانية . لكن الأمريكيين كانوا حديثي عهد بدموية المحارب الألماني ، وتعوزهم الخبرةُ في هذا الباب . ولما كان لكل خبرةٍ ثمن ، فقد جاء دور الأمريكيين كي يدفعوا ذلك الثمن .

ها هو الجنرال بيرشنغ يهاجم مراكز الدفاع الألمانية في أقوى نقاطها ، وها هي المراكز تثبت له ان « الأمريكيين ليسوا محاربين » كما قال قائد الموقع الألماني .

كان الأمريكيون ينتظرون ايام الضباب حتّى تنقضي وتنكشف السماء ، بدلاً من الاستفادة من الضباب كعاملِ تمويه ، ثم يهاجمون . وظلوا في هجوم شامل طوال سبعة ايام ، فماذا كانت النتيجة ؟

إن « ١٠٠ ألف » إصابة ، معظمها قتلى ، هي التي تمخّض عنها جنون بيرشنغ . اما جائزته لقاء ذلك فلم تتعدّ ٨ أميال ، كان الألمان مستعدين لإخلائها بطبيعتهم . وقد عمّت الفوضى وانعدم الانضباط العسكري اكثر من مرة في صفوف الأمريكيين ، اثناء هجوماتهم .. وبذلك صدق رأي القائد الألماني في مهاجميه .

والى الشمال من منطقة هجوم الأمريكيين ، كـان مخططاً ان يقوم الانكليز بحملتهم . وكان حظ هؤلاء اوفر من زملائهم السابقين . لقد تمكنوا من اجتياز « خط هندنبرغ » . وهنا في فلاندرز ، برزت عقبة الوحل الكثيف مرة ثانية . وكانت الآن ايضاً تعمل لصالح الألمان ، اذ انها جعلت من المتعذر على اعدائهم ان يكشفوا الجناح الألماني .

وبهذا يمكن القول : ان الألمان لم ينكسروا امام الحملة الحليفة الموحدة، وانما قصّروا خطوط جبهتهم ، وظل جناحا جيوشهم صامدين كل الصمود. اما « قلبُ » تلك الجيوش فقد دحره الفرنسيون فعلاً ، غير ان اندحاره كان ابعد ما يكون عن الهزيمة الحاسمة .

* * *

هكذا كان جميع قادة الحلفاء منهمكين في عملياتهم الحربية .. وكانت اللحظة غير المتوقعة تقترب . ففي ٢٩ ايلول (سبتمبر) أصر لدندورف على وجوب اعلان هدنة على الفور . اما السبب الذي يمكن تعليل ذلك به ، فهو ، ما قدّره لدندورف ، خطأً منه ، في امكانية استطاعة الحلفاء ان يفتحوا ثغرة واسعة في جبهته . هذا سبب جزئي . وهنـاك مثيل آخر له ، وهو ان أنباءً قد وصلته من ميدان قصيٍ هو سلانيك . لقد تحركت جبهة اليونان الآن .

تطور جديد في سلانيك

في أواخر سنة ١٩١٧ استدعى كليمنصو الجنرالَ ساريل ، ذا النزعة الجمهورية ، من مركز قيادته في سلانيك ، وبعث مكانه الجنرال جيلومات Guilaumat . إلا ان هذا الأخير كان محظوراً عليه ان يتحرك بقواته الى الشمال آنذاك . اما في أيار (مايو) سنة ١٩١٨ ، وحين كان الألمان يتقدمون صوب باريس مهدّدين بإسقاطها ، فقد صدرت الأوامـــر الى



المارشال فرانشت دي سبري .. اخيراً تقدم من سلانيك

جيلومات ان يحضر الى باريس ، ليتولى منصب بيتان اذا دعت الحاجة ، لكن زحف الألمان على باريس كان قد توقف حين وصلها جيلومات ، فوجد الأخير نفسة دون عمل ما . غير انه تمكن من اقناع كليمنصو ثم لويد جورج بخطته : « علينا ان نحرّك جبهة سلانيك » .

وهكذا ، صدرت الأوامر الى المارشال فرانشيت دي إسبري ، — الذي احتل مركز جيلومات في غيابه — بأن يهاجم . فهاجم في ١٥ ايلول.

بلغاريا تنسحب من الحرب :

كان الجيش البلغاري هو الذي تلقى ضربة دي — إسبري . ولما كان فقيراً من حيث اسلحته وتجهيزاته وتدريبه ، فقد عجز عن تحمل قوة اندفاع عدوّه . وما هي الا بضعة ايام من هجوم شامـل ، كانت

مقاومته ضعيفة جداً ، حتى استسلم الجيش البلغاري ، وعند ذاك طلبت حكومته إعلان الهدنة ، ثم اعقبته بإعلان الانسحاب من الحرب في ٢٩ ايلول (سبتمبر) . بهذا غدا جنوب اوروبا بكامله منطقةً مفتوحة امام دي - اسبري . ان بوسعه الآن ان يزحف حتى نهر الدانوب . وبالفعل لقد وصل دي - اسبري الدانوبَ ، وتخطاه شمالاً في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) .

هذه هي الأخبار التي بلغت لدندورف في ٢٩ ايلول (سبتمبر) ، فجعلته يقرر ضرورة وقف الحرب .

ويقول المعلقون العسكريون على خطط الحرب العالمية الأولى ما يلي :

« عجزت الجبهة الموحدة للحلفاء في الغرب عن إجبار لدندورف على الركوع لأنها كانت ناشطة وحدها . وكانت الجبهة في الشرق ستكون عاجزة ايضاً ، لو نشطت وحدها . اما وقد نشطت الجبهتان معاً في



البلغار يستسلمون للفرنسيين
الجنديان المستسلمان في الوسط

نفس الوقت ، فإن توحيد العمل في الشرق وفي الغرب هو الذي حسم الحرب ، لا قوة الحلفاء » .

لدندورف والهدنة

حين قرر لدندورف ضرورة الهدنة في ٢٩ أيلول (سبتمبر) لم يكن يتصورها « استسلاماً غير مشروط » على الاطلاق ، وانما كان يفهمها على النحو التالي :



كان أولها ثورة مقلوبة ، لكنها غدت ثورة حقيقية يوم استولى « الديمقراطيون الاشتراكيون » على الحكم في تشرين الثاني(نوفمبر) سنة ١٩١٨

« تُعلَن الهدنة ، وتتمّ المفاوضة ، فيتنازل المفاوضون الألمان عن جميع الأراضي التي احتلتها جيوشهم خارج حدود المانيا . ومن ثم يتم انسحاب الجيوش الالمانية الى حدودها الدولية . وبهذا تكون المانيا لم تفقد من شرفها او ارضها شيئاً . واذا كانت القوة العسكرية قد فشلت هذه المرة في فرض توسّع المانيا فقد يكون من حظ الدبلوماسية ، فيما بعد ، ألا تفشل . »

هذا ملخص ما عرضه لدندورف على ساسة بلاده المدنيين . لكن هؤلاء نبّهوا الى ان الحلفاء سيفرضون شروطاً قاسية في الصلح ، وعند ذاك كان جواب لدندورف : « ان لهذا حلاً .. علينا ان نصنع الثورة ، وتكون هذه الثورة من الأعلى . »

الثورة المقلوبة

كان من المضحك فعلاً — وهذه عقلية العسكريين حين يعالجون القضايا المدنية — ان يفيق الشعب الالماني ذات يوم فيعلم ان ثورة قد حدثت في بلاده ، دون ان يشترك فيها اكثر من « قلم رصاص » . ذلك ان الثورة العجيبة كانت مجرد امر اصدرته القيادة العامة . فقد شاءت هذه القيادة بإيحاءٍ ورسمٍ من لدندورف ان « تُفبرك الديمقراطية في المانيا » . اما صنف البضاعة الجديدة من الديمقراطية فهي : تعيين البرنس ماكس ، وهو من « بادن » ، مستشاراً لألمانيا . وكان هذا الأمير معروفاً بميوله الليبرالية !

اما هدف الثورة ، فكان مجرد التمويه على الحلفاء ، والقول : ان المانيا غدت دولة ديمقراطية ، فيمكنكم التفاوض مع رئيس حكومتها . لكن من هو الضحية ؟ انه غليوم ، ذلك القيصر الذي زعم المصفقون لمجده ، ان نبوغ المانيا العسكري والاداري ، قد تجسّدا في شخصه !

ولنقرأ ما نشرته جريدة المانية عن ذلك بعد حدوثه بقليل :

« لقد رأت القيادة العامة ان المانيا الأم في خطر ، وانه ينبغي الإقدام على اية خطوة قد تدرأ ذلك الخطر . ولما كان الحلفاء قد يقنعون بتبديل نظام الحكم في البلاد ، فقد غدا ذلك امراً مرغوباً فيه . وقارنت القيادة بين القيصر وبين المانيا : وبالطبع رجحت كفة الوطن . اذن ، فإلى الجحيم بويلهلم . انه ليس اول ملك مخلوع ولن يكون آخرهم .. ففي الشرق قطيع من الملوك . »

وانتهت الثورة المقلوبة بطرد غليوم يوم ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) .

٤ تشرين الأول (اكتوبر)

كان من رأي لدندورف ان تعلَن الهدنة في الحال ، لكن المستشار الجديد خشيَ قساوة شروط الحلفاء ، كما قدّر ان الالمان سيعتبرون انهم قد انهزموا في الميدان ، ان هو فعل . وكنتيجة للتناقض بين الرأيين ، ظهر « مَن السيّد ؟ » . فقـد اصدر لدندورف امره الى



ويلسن (في اقصى اليسار) ووزارته تحلم في حكم العالم بالنقاط الـ « ١٤ » المثالية ! !

المستشار بطلب اعلان وقف الحرب ، رسمياً في ٤ تشرين الاول (اكتوبر) . وانصياع « ماكس » للأمر .

وكانت هذه آخر مرة يخضع فيها للضغط .

لم يتصل ماكس بالقائد العام لجيوش الحلفاء : الجنرال فوش ، وانما اتصل مباشرة بالرئيس ويلسن . وكانت هذه ضربة بارعة . فالرئيس ويلسن لم يكن يطمع اصلاً في « انتصار حاسم غير مشروط » ، ومن شأن مبادئه المثالية ان تجعله « عوناً » لالمانيا ضد « شطط الحلفاء » .

وفي ٨ تشرين الاول (اكتوبر) اجاب الرئيس ويلسن على رسالة ماكس ، مستفسراً عما اذا كانت حكومة المستشار تقبل الاعتراف بـ « النقاط الأربع عشرة » ، وبسحب جيوشها من اراضي الغير ، وتتعهد باتباع نظام ديمقراطي في الحكم .

وقد اجاب ماكس مؤيداً كل ذلك ، في ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) ، لكنه غمز من الانكليز والفرنسيين حين قال : « غير انه ينبغي التأكد مما اذا كان حلفاء امريكا يقبلون بدورهم الاعتراف بالنقاط الـ ١٤ » .

غواصة متمردة

كانت خطة ماكس سائرة الى النجاح فيما يبدو . فقد استطاع ان يشق صفّ الحلفاء ، فيجعل امريكا تقف الى جانبه أكثر من وقوفها مع بريطانيا وفرنسا . لكن حدثاً معيناً في نفس اليوم الذي أجاب فيه على استفسارات ويلسن ، عكّر صفاء الصورة ، اذ اغرقت غواصة المانية سفينةّ كان فيها ٤٥٠ راكباً ، بعضهم من الامريكيين .

وضخّم الانكليز والفرنسيون الجريمة ، وضربوا للامريكيين على وتر : « هذه هي البربرية التي اضطرتكم الى الدخول في الحرب » . وعند ذاك اجاب ويلسن على رسالة ماكس الأخيرة ، فكان فاتراً ومتشككاً معاً . لقد ردّ : « يجب ايقاف نشاط الغواصات في الحال . اما الهدنة ،

وهي متميزة عن مفاوضات الصلح ، فانه ينبغي ان يتمّ تقريرها على يدي القادة العسكريين . كما يلزم المانيا ان تجلو موقفها بوضوح اكثر ، فيما يتعلق بالديمقراطية فيها . »

لدندورف ثانية

احتدم النقاش بين رجال الجناح العسكري والجناح المدني في حكومة المانيا الجديدة . فكان لدندورف والقيادة العامة الآن يرون غير « ايقاف الحرب » حلاً للمشكلة .

كان هجوم الحلفاء المركز في الجبهة الفرنسية قد خفّت حدّته .. لقد صمد الألمان . وكان الجيش الألماني لم يطوّق ولم تُفتح في خطوطه الثغرة التي خشي منها لدندورف . وكان ويلسن قد ترك « للقادة العسكريين ان « يُملوا » شروط « الهدنة » .

اذن ، لماذا لا يسحب لدندورف يده من مشروع الهدنة بكاملها ؟ هذا ما عرضته القيادة العامة على ماكس وافهمته :

« بكل يسرٍ يمكن الجيوش الالمانية ان تستمر في القتال .. وفي سنة ١٩١٩ قد يحدث احد امرين : انهيار فرنسا ، او نشوب خلاف بين بريطانيا وأمريكا . وفي كلتا الحالتين تكون المانيا هي الكاسبة » . لكن ماكس رفض هذه الأفكار . وفي ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) أبلغ ويلسن ان المانيا تقبل بشروطه للاتفاق على « هدنة حربية » . وكان نشاط الغواصات قد أوقف قبل ذلك . وفي ٢٣ منه اعلن ويلسن انه غدا مقتنعاً بالجواب الالماني . وهو الآن يطلب الى القادة العسكريين ان يرسموا مخطط الهدنة ، كما يطلب الى حكومتي بريطانيا وفرنسا القبول بنقاطه الـ ١٤ .

وهنا ظهر وقوع الحكومتين في ورطة .

كانت فرنسا تخفي مطامعهـا في منطقة اللورين . وكانت بريطانيا



ويلسن ، وكليمنصو ، ولويد جورج ، واورلاندو
في ابتسامتهم يحاولون خداع بعضهم بعضاً ! !

بدورها تخفي مطامعها في الاستيلاء على المستعمرات الالمانية .. فهل تنجح امريكا في ابقاء هذه المطامع مجرد نوايا مضمرة ! ؟

حين أحيل امر الهدنة وشروطها الى القادة العسكريين ، استطاع فوش ان يهرّب مسألة احتلال فرنسا لمنطقــة اللورين من الجدل . كما ألحّ الأدميرالات البريطانيون على تسلّم الاسطول الالماني او تدميره .

اما الزعماء السياسيون فقد تشاحنوا ايضاً . كان كليمنصو ولويد جورج يريان ان على المانيا دفع تعويضات كاملة عن الاضرار التي لحقت بممتلكات المدنيين في الأراضي التي احتلتها جيوشها . وكان ويلسن لا يعبأ بذلك ، بل يود الفراغ من الحرب وآثارها . وكان لويد جورج يرفض استمرار

مبدأ حرية البحار ، بينما يحمي ويلسن ذلك المبدأ ويدافع عنه . وحتى اورلاندو ، رئيس وزراء ايطاليا اخذ يطالب بضم اراضٍ من ممتلكات النمسا . وعنـــد ذاك أُفهم ان الهدنة تتعلق بألمانيا وحدها ، فأطبق فمه بغير احترام .

الهدنة والجيش الالماني

لا العسكريون الانكليز ولا الفرنسيون كانوا يطمحون الى املاء شرطٍ بحلّ الجيش الألماني ، ضمن شروط وقف النار . فلماذا ؟ كان كليمنصو ولويد جورج ، كما أسلفنا في فصل سابق ، يخشون لينين وبلاشفته اكثر من خشيتهم الروح العسكرية الألمانية . ومن سياستهم الآن ، استخدام هذه الروح ضد روسيا . ولهذا كان ما طالب به جنرالات الحلفاء من الألمان ان يتخلوا عن قـــدر كبير من اعتدتهم العسكرية . اما تسريح الجيش ، فكانوا يخبئونه لهدف آخر .

حلفاء المانيا

كانت الدولة العثمانية قد اعلنت استسلامها ووقعت وثيقة بذلك مع ادميرال بريطاني في ٣٠ تشرين الأول (اكتـــوبر) فاستاء من ذلك كليمنصو ، الذي ودّ لو ان جنرالاً فرنسياً شارك في حضور التوقيع . ومن بعد ذلك مخر الاسطول البريطاني في الدردنيل حتى القسطنطينية . وتمّ وضع المدينة تحت ادارة الحلفاء . وبهذا غدا يمكن للحلفاء ان يسيروا في نهر الدانوب فيتقدموا الى جنوب المانيا . كما غدا في مقدورهم ان يباشروا حرب التدخّل ضد البلاشفة ونظامهم في روسيا .

وفي نفس الوقت تقريبـــاً انهار آل هابسبورغ من فينا ، وفي ظروف خاصة لا بأس من ايرادهـــا . ففي اوائل سنة ١٩١٨ ، انتصر الجيش النمساوي الخائر القُوى على جيش ايطالي كان اكثر منه خوراً . ثم انحلّت معنوية الجيشين . وبقيت الامبراطورية لمجرد ان احداً لم يحاول اسقاطها . وفي هذه الأثناء اتصلت لجنة امبراطورية بالرئيس ويلسن عارضة



انتصار الهزيمة .. سنة ١٩١٨
مازاريك يعود الى براغ رئيساً لجمهورية تشيكوسلوفاكيا

عقد الهدنة ، الا ان جواب هذا كان : « ان الشعوب الخاضعة للامبراطورية هي صاحبة الحق في المفاوضة بشأن شروط الصلح ». وكان هذا دفعاً للقوميات الداخلة في الامبراطورية ان تثور . وكان اولها بولندا وتشيكوسلوفاكيا . والواقع ان ثورات هذه الشعوب كانت سلمية . ففي براغ ، عاصمة تشيكوسلوفاكيا اليوم ، مثلاً لم يحتج قلب نظام الحكم الا الى ١٠ دقائق من الحديث . لقد اتصل حاكم المدينة تليفونياً بـ «لجنة تشيكوسلوفاكيا الحرة » وطلب الى من كلّمه الحضور لتسلّم السلطة .

وهذا ما تم فعلاً . ولم يطل الوقت بعد ذلك حتى كان مازاريك يسير في شوارع براغ مستعرضاً جنود « جمهورية تشيكوسلوفاكيا » .

ومثل هذا حصل في « زغرب » اذ اعلن الكرواتيون استقلالهم بين عشية وضحاها . ومن هذا القبيل ان أفاق الصرب من نومهم ليجدوا ان لهم مملكة منفصلة عن آل هابسبورغ ، وعلى رأسها الملك بطرس .

وهذا ما جرى في هنغاريا ، اذ اعلنت نفسها جمهورية منفصلة عن الامبراطورية في ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) ، وطردت ملكها السابق .

وحتى في فيينا نفسها ، اعلن النمساويون خلع الامبراطور شارل يوم ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ، وانضموا الى جمهورية المانيا التي غدت قبل ذلك خاضعة لحكم « الديمقراطيين الاشتراكيين » .

واكثر من هذا ان اكثر هذه الدويلات الجديدة ، اعلنت جميعها الحرب على المانيا قبل نهاية الحرب بيوم واحد،او بضعة ايام، فاعتبرت من جملة الدول المتحالفة ، وشاركت في مؤتمرات ما بعد الحرب . وقد شذ عن ذلك هنغاريا والنمسا نفسها .

نهاية الحرب مع النمسا :

في ٢٣ تشرين الأول (اكتوبر) استجمع الايطاليون حماستهم ولملموها، ثم هاجموا جيش آل هابسبورغ الواهي . وبعد ذلك بـ ٤ ايام استدعت الجمهورية الهنغارية الجديدة جميع الأفراد العاملين في جيش النمسا من مواطنيها ، فولى هؤلاء نحو وطنهم الجديد . لقد انهارت الامبراطورية فهل يبقى جيش لامبراطورية منهارة !!

وفي ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) وقعت القيادة العامة النمساوية الهنغارية شروط وقف القتال . وكان مفعول الاتفاقية يغدو نافذاً بعد ٢٤ ساعة من توقيعها . وخلال هذه الـ ٢٤ ساعة لم يعد هنالك شيء اسمه جيش الامبراطورية .. لقد تبخر .

وعند ذاك تقدم الايطاليون بشجاعة ، واسروا (٣٠٠,٠٠٠) رجل أعزل من السلاح ، ويرفض ان يقاوم . وهذا هو المجد الظـافر الذي يعقد الجنرالات الايطاليون اكليله فوق رؤوسهم حين يذكرون في كتبهم الحربية اسم موقعة « فتوريو فنيتو » !!

اما الاسطول النمساوي ، وكان في قاعدته « بـولا » فقد احتقر الايطاليين . ولهذا سلّم الأدمـيرالات قطعهم الى « مجلس اليوغسلاف الوطني » ، مدفوعين بوطنيتهم ، وخشية ان « يدنّسه الايطاليون » ، كما قال قائد الغواصات في ذلك الأسطول .

نهاية الحرب :

قلنا ان لدندورف كان قد اضمر انقاذ وجه القيادة العامة بأن يضحي بغليوم . لكن غليوم كان اسبق الى العمل . ففي ٢٦ تشريـن الأول (اكتوبر) تناسى القيصر انه غدا الآن ملكاً دستورياً لا يحق له التصرف، وتولى القيادة.وعلى مسؤوليته الخاصة اصدر امراً بإقالة لدندورف من منصبه، كما اوعز بضرورة الاستعداد لمتابعة الحرب . لكن الأمر كان قد تغير الآن . فالحلفاء مستعدون للزحف على المانيا نفسها من الشرق والجنوب والغرب .

ولربمـا ان ادميرالات الأسطول الألماني الذين ساءهم وقفُ نشاط غواصاتهم ، هم الذين حرّضوا القيصر ، لكن هؤلاء كانوا مخدوعين عن حقيقة الموقف . فحين اصدروا اوامرهم الى البحارة ، الذين ظلوا على غير اتصال بالبحر طوال العامين الأخيرين ، ثار هؤلاء البحارة ، ورفضوا الانصياع . بل انهم احتلوا مدينة كييل في شمال المانيا يوم ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) : وهددوا بالزحف الى المدن الأخرى .

والثورة كالنار ، فسرعان ما اندلعت في مختلف ارجاء المانيا . فلما رأى ذلك المستشار ماكس ، آثر انقاذ المانيا من الثورة ، مهما كـان



ضحايا الحرب
اطفال المان جائعون

الثمن ، حتى ولو كان القبول بأية شروط يفرضها الحلفاء لانهاء الحرب وقد عارض القيصر في ذلك ، فأفهمته القيادة العامة ان الجنود الألمان مستعدون للقتال في سبيل المانيا ، لا في سبيل « شخص القيصر » .

ثم اختار ماكس شخصية بارزة تمثل « الوسط » في الأحزاب الألمانية ، وهو (ارزبرجر) وطلب اليه الشخوص الى مقر قيادة فوش ، وطلب الهدنة رسمياً من الحلفاء . فتم ذلك في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) حيث واجه المفاوضون الالمان ، وكلهم من المدنيين – بغية ابعاد المسؤولية عن القيادة العامة ، وخوفاً من بروز عقبات كثيرة اذا ما اشترك العسكريون – واجهوا فوش في عربة سكة حديد في غابة (كومبين) . وهناك قرأ عليهم

الشروط التي اتفق عليها ساسة الحلفاء .

وبعد ذلك بيومين ، اي في ٩ منه ، اعلنت الجمهورية في المانيا وطرد القيصر .

وكانت الجمهورية الجديدة الآن منشغلة في تخفيف حدة الثورة ، فأبرقت الى ارزبرجر بالتوقيع على الشروط دون مناقشة . ومع هذا ، فقد فاوض ارزبرجر ، حتى كسب من فوش حق ابقاء اسلحة « الماشين — غن» الالمانية مع اصحابها ، « لمقاومة العدو الداخلي — البلشفية » ، كما قال .



المارشال فوش
انه يوقع وثيقة الهدنة بجانب النافذة



يوم نهاية الحرب في باريس

وفي الخامسة صباحاً من يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٨ أُعلن انتهاء الحرب العالمية الاولى رسمياً بعد توقيع استسلام المانيا. وكانت آخر كلمة قالها ارزبرجر للجنرال فوش : « ان امة تعدادها ٧٠ مليوناً قد تعاني الالم ، لكنها لا تموت » . وعلى هذا التحدي اجاب فوش . Trés Bien

وكان يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) هو يوم الفرحة العظمى في لندن وباريس ، ولكنه يوم شعور الجيش الالماني بأنه لم ينهزم وانما طُعِنَ في ظهره ، في برلين .

بعض شروط الهدنة :

في يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) ، كان الجيش الألماني بكامله



نهاية الحرب – العلم البريطاني يلف الغانية
لا جندي فيّ بعد .. فيّ ان اتمتع



الجيش الألماني عائداً الى برلين
انه لم ينهزم .. ولكنه طعن من الخلف

لا يزال يحتل أراضي اجنبية . ففي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) نفسه تمكن الكنديون من دخول منز ، وقبل ان تكون الهدنة نافذة المفعول بساعة واحدة . ومع هذا فقد تضمنت وثيقة الهدنة شرطاً يقضي بتسليم جميع معدات الجيش الألماني وتجهيزاته الى الحلفاء . وان يحتل الحلفاء ضفة نهر الرين وينفذوا الى ٥٠ ميلا داخل الأرض الالمانية نفسها .وان تُلغى اتفاقية برست ليتوفسك مع روسيا . وكان هذا الشرط الاخير اكثر ما يطمح اليه الحلفاء .



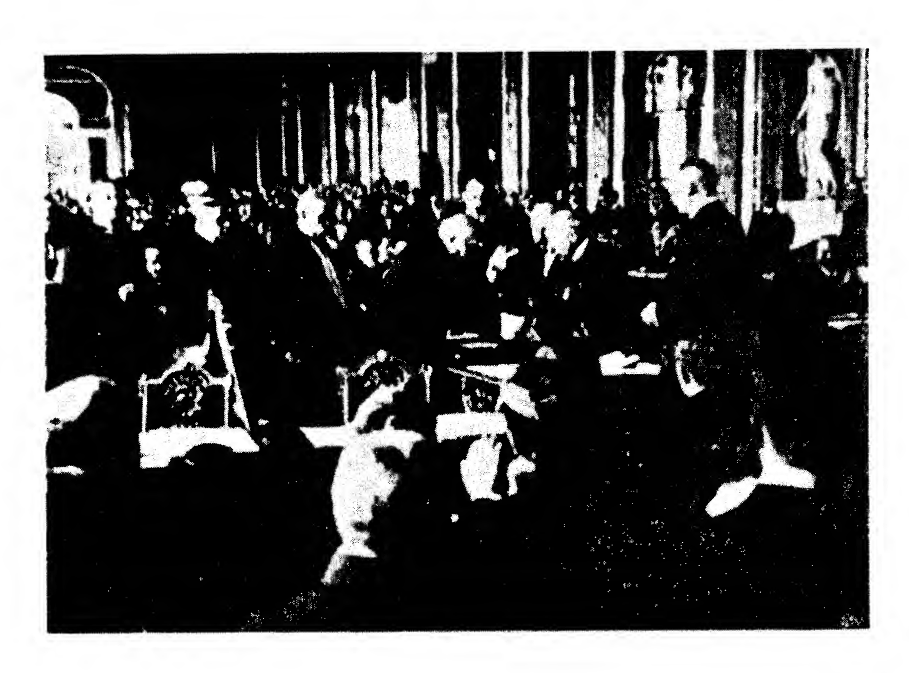


الاومباشي هتلر (اقصى اليسار)
ثم هتلر الزعيم السياسي الى يسار هندنبرغ

غبريللي دي انونزيو .. لقد قلده موسوليني فيما بعد

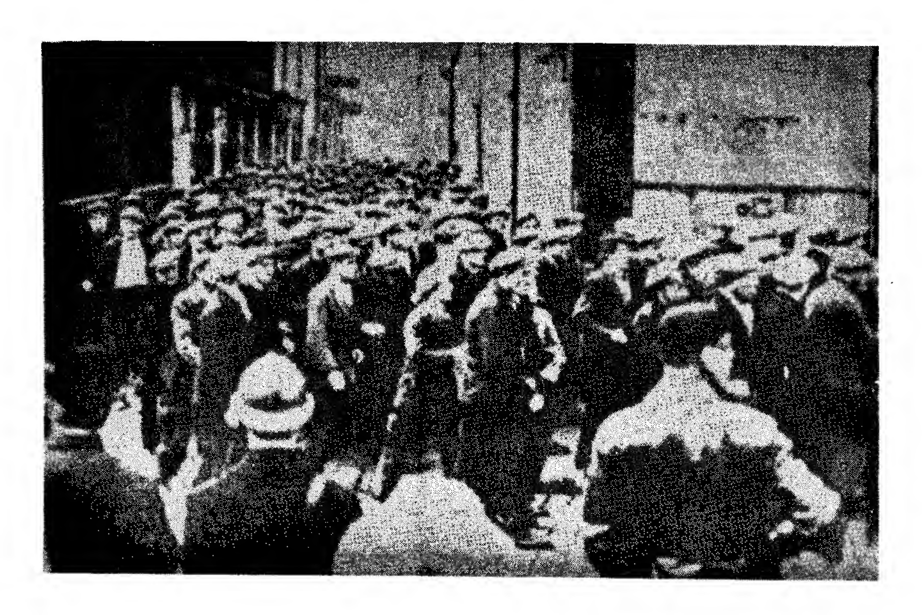


كمال اتاتورك .. يستعرض « ابناءه »
انه يصعد سلم المجد لينقذ بلاده



الالمان يوقعون معاهدة فرساي

خراب



التململ الاجتماعي طلباً للاشتراكية في باريس . ثم الاضرابات العامة ١٩٢١ – ١٩٢٦



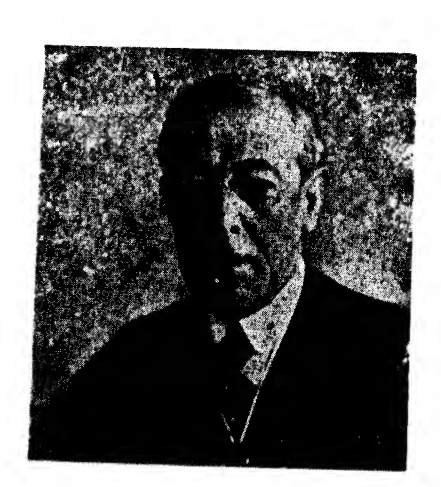
مخلفات اضراب في لندن سنة ١٩٢٦



الرئيس ويلسن . كان مثالياً لا يعرف ساسة اوروبا
له ١٤ نقطة ، ويبدو أنه يفكر في النقطة الخامسة عشرة ! !



قرف الرئيس ويلسن
« لن ازور « ريمز » مرة ثانية »



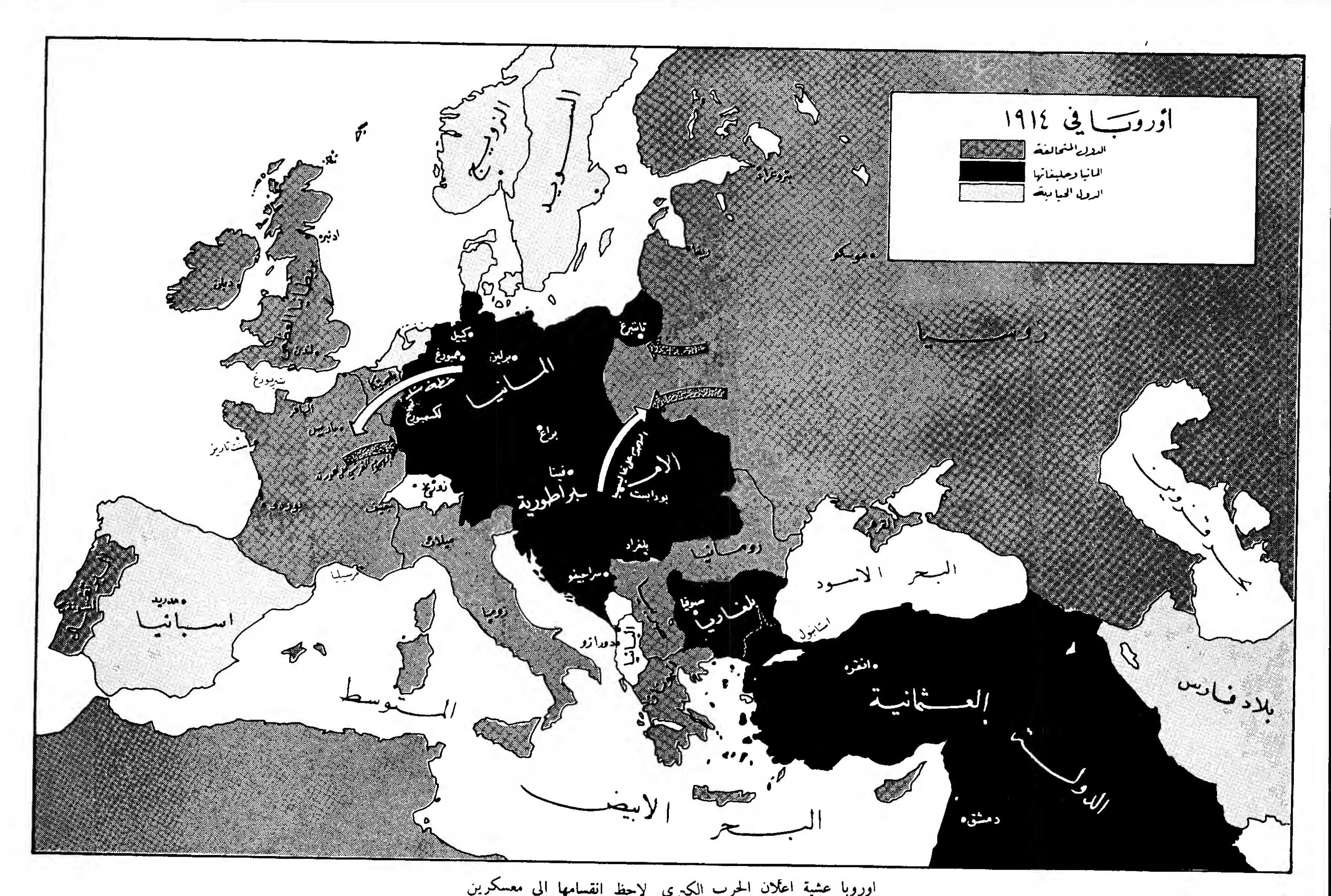
ويلسن – عالج « السياسة »
بنظرة طوباوية ، ففشل .

شكر وعرفان

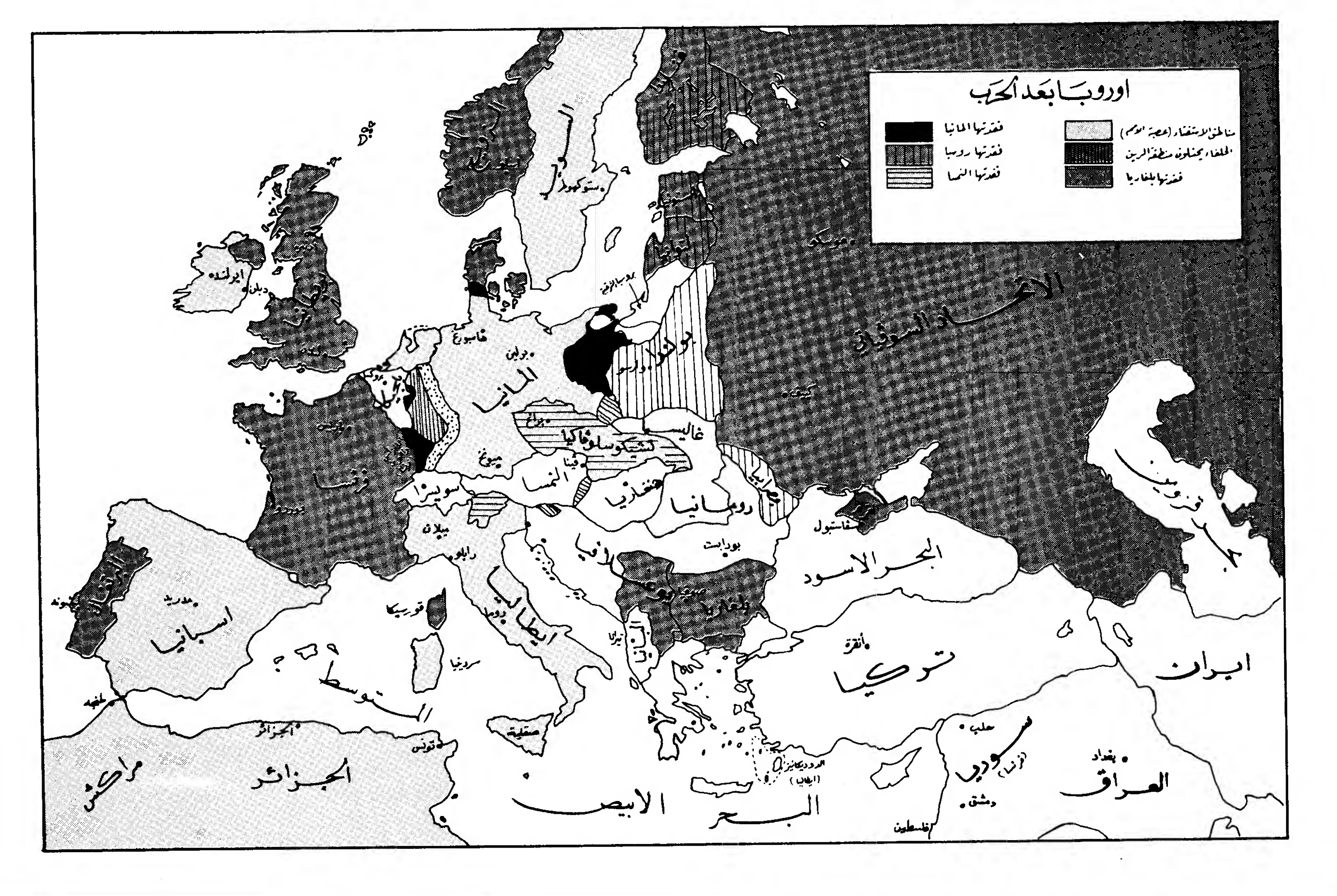
ايماناً بأن الثقافة الانسانية نهر يسيل رقراقاً بعد ان تتجمع روافده من الشعاب والمسايل العديدة المتنوعة ، أراني قد أصيب حين أقول : ان مساهمتي في إعداد هذا التحقيق ليست تفضُل أياً من مساهمات الكثيرين الذين أرّخوا للفترة الحرجة ذاتها من قبلُ . ذلك ان فضلهم عليّ عظيم، اعجز عن تقديره ، فكيف لي ان اشكره . فبالاضافة الى اسماء المصادر التي استقيت منها ما أشرتُ اليه في حينه ، بين دفّتي الكتاب ، والى السادة اصحابها المحترمين — عمدت الى الأخذ عن مجموعات متنوعة من كتب التاريخ، والتعليق عليها ، والمجلات العربية والانكليزية التي أصدرت مجموعات خاصة بالحرب العالمية ، سواء كانت تلك المجموعات مصوّرة او غير مصوّرة . ولما كانت هذه كثيرة جداً ، ولما كانت قد قدّمت لي عدداً ضخماً من الصور ، انتقيت من كل منها القليل ، فإني اودّ ان اشملها جميعاً ، ومحرريها ، ومصدريها بالشكر والعرفان .. ولهـذا ألخص الأمر فأقول :

«انني مدين لكل من كتب عن الحرب
العالمية الأولى بالعربية او الانكليزية .. »
راجياً ان يتقبـل جميع هؤلاء السادة
امتناني لهم واعترافي بفضلهم ..

عمر الديراوي
(أبو حجلة)



اوروبا عشية اعلان الحرب الكبرى لاحظ انقسامها الى معسكرين



اوروبا بعد الحرب
فقدتها المانيا
فقدتها روسيا
فقدتها النمسا
مناطق الاستفتاء (عصبة الامم)
الحلفاء يحتلون منطقة الرين
فقدتها بلغاريا
الاتحاد السوفياتي
بولونيا
وارسو
المانيا
برلين
هامبورغ
ميونخ
تشيكوسلوفاكيا
براغ
فينا
النمسا
هنغاريا
رومانيا
غاليسيا
بودابست
فرنسا
سويزرا
ميلان
ايطاليا
روما
قورسيكا
سردينيا
صقلية
اسبانيا
مدريد
البرتغال
لشبونة
ايرلنده
دبلن
ستوكهولم
موسكو
كييف
سفاستبول
البحر الاسود
بلغاريا
البانيا
تيرانا
تركيا
أنقرة
ايران
العراق
بغداد
سوريا
(فرنسا)
حلب
دمشق
فلسطين
الدوديكانيز
(ايطاليا)
البحر الابيض
المتوسط
الجزائر
تونس
مراكش
طنجه

الفهرست

السلام – القوميات – الارض – كليمنصو – الجبهة في البلاد العربية – مشاعر العرب – العراق – تقدم الاتراك من سوريا – استسلام الانكليز في الكوت – القناة – تقدم الاتراك ثم وقوفهم – فون كرس – الانكليز يحتلون العريش ثم غزة – التمهيد للثورة العربية – الحجاز – الثورة في مراحلها وعملياتها – سقوط مكة، الطائف – العقبة – المدينة – زحف اللنبي – سقوط القدس – نابلس – دمشق – بيروت – طرابلس – حلب – استسلام تركيا .

الوثائق السرية التي نشرها البلاشفة – سايكس بيكو .